

أصدر أمير دولة الكويت
مجلس الوزراء الموقر للثقافة والفنون والآداب

عالم الفكر

العدد 1 العدد 50 يوليو - يناير 2001

رئيس التحرير

د. محمد الرميحي
www.khaleejnews.net

مستشار التحرير

د. عبد الله التميمي

هيئة التحرير

د. جاسم النقيب
د. رشيد حمود الصباح
د. مصطفى سمرة
د. جبر مكي الله
د. محمد الفيلي

مديرة التحرير

شوال الشـركـوك

سكرتير التحرير

عبد العزيز سعود الزروق

تم التخطيط والإخراج والتصميم

بوحدة الإنتاج في المجلس الوطني

للثقافة والفنون والآداب

الكويت



مجلة ثقافية علمية، تهتم
بمجال الصحافة والفنون
والثقافة والفنون والآداب
والأدب والفنون والآداب
والأدب والفنون والآداب

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج 1000
الدول العربية 1500
خارج الوطن العربي 2000

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد 1000
للمؤسسات 1500
للأفراد 1000
للمؤسسات 1500

الدول العربية

للأفراد 1500
للمؤسسات 2000
للأفراد 1500
للمؤسسات 2000

خارج الوطن العربي

للأفراد 2000
للمؤسسات 2500
للأفراد 2000
للمؤسسات 2500

تستند الاشتراكات على أساس سعر النسخة المطبوعة بالعملة المحلية
الوطنية للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سعر صرف العملة
المستعمل عليه البيع في الكويت يتحول على التحويل الفوري

السيد الأمين العام

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب. 98613 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

ISSN 09906-0-033-3

شارك في هذا العدد

- د. يحيى عزيق - العراق
- د. محمد مشبال
- أ. حبيب العرب
- أ. محمد عبد الكريم الجراح
- أ. قلبي طالب الجراح
- أ. سمير صالح
- أ. سمير الزين
- د. جاسم الحسن
- د. لورين اليوت

قواعد النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الكتاب للتخصصين وتقبل للنشر الدراسات والبحوث المتميزة وفقاً للقواعد التالية:

- 1 - أن يكون البحث مبتكراً أصلاً ولم يسبق نشره.
- 2 - أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارفاً عليها وينبغي فيها إتقان بالتوثيق والمصادر مع إلحاق كشف المراجع والمراجع في نهاية البحث وتزويد بالصور والخرائط والرسوم اللازمة.
- 3 - يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين 12 ألف كلمة و16 ألف كلمة.
- 4 - تقليل المواد المقدمة للنشر من مستطين على الألة الطباعة ولا ترد الأصول إلى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر.
- 5 - تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمي على نحو سري.
- 6 - البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات أو إضافات إليها تعد إلى أصحابها لإجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها.
- 7 - تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التي تقبل للنشر، وذلك وفقاً لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة.

■ المواد المتوفرة في هذه المجلة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

■ ترسل البحوث والدراسات باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

م. ب: 99913 - الصفاة - الرمز البريدي 13147 دولة الكويت

البريد الإلكتروني: worldofthought.org.kw

أفلاق معرفية

- 7 جدل المثالية والواقعية في التصور
الأنطولوجي للعالم عند برتراند رسل
د. يحيى طروف الخولي
- 81 البلاغة وعقولة الجرس الأبرشي
د. محمد عثمان
- 97 الحجاج والاستدلال الحجاجي
«تأخر استلزام نظري»
أ. حبيب العرب
- 119 مسرحية أرويس ملكة وأرويس في كوكب
بين الأسطورة العرفية والتمثيل الأدبي
أ. فتيحي طالب الجراح
- 171 سبينة المشتل
<http://ArchiveBeta.Bakhril.com>
أ. سمير صالح
- 225 الشرق أوسطية ومستقبل
المنطقة العربية
أ. سمير الزين
- 277 الديانة العالمية لليونة
عروض وتحليل د. جاسم الحسن
د. نورين الجود

تقديم

مقدمة

هذا الوقت من كل عام تطالع مجلة عالم الفكر قراءها بمجموعة دراسات متنوعة تشكل في مجملها وجبة فكرية سميكة، حيث تجول بين الفلسفة والأدب والسياسة، ونعرج على البهجة ومشكلاتها، وهو دأب مجلة عالم الفكر التي تسعى للحفاظ على المستوى الفكري والفني الذي وصلت إليه، والذي يمثل دافعا يتحو بها إلى الاستمرار في التطور شيئا فمضمونا، لذا تحرص المجلة على أن تختار بعناية ماونها لكل عدد، كما تحرص على الحفاظ على نهجها الذي دأبت عليه في المحاور التي تلتقيها، فالتقارن يتناول الجديد والجديد، وما نحن نقدم هذه الدراسات المتنوعة في هذا العدد، حيث تبدأ بموضوع فلسفي حول جدل المثالية والواقعية عند برتراند رسل، وهو من أهم فلاسفة القرن العشرين في المنطق الرياضي، كما يعد امتدادا للفيلسوف أرسطو. ويعتبر الشك المنهجي أساس فلسفة برتراند رسل، وذلك النزعة تبحث عن اليقين. وقد لعب هذا الفيلسوف دورا فعّالا في إعادة إقناع النظريات الفلسفية بنشاط، وعقل متوقد. ثم نعرج في الدراسة الثانية إلى معالجة البلاغة ومقولة الجنس الأدبي، حيث يتطرق الباحث من مقولة: إن اللغة لا تستمد جمالياتها من تكوينها الذاتي فقط، بل أيضا من علاقتها بالجنس الأدبي، فتصبح اللغة في أفق جديد، تتحدد من خلاله جمالياتها وأسلوبيتها، مما يظهر الفروق القروية بين الأجناس الأدبية المختلفة.

وتتعلق الدراسة الثالثة بمسألة لغوية، وهي التوقف على معنى مصطلح (الجناس)، وتعدد وتوزع الاستعمالات وإيهاين المرجعيات، وهو موضوع تخصصي دقيق.

بعد ذلك نجد دراسة حول تجارب مسرحية - المهم فيها المقارنة - تتناول الأسطورة اليونانية، والقصص الدينية التوراتي.

والدراسة الخامسة تتناول سينما المعتقل، وهي دراسة نقدية للسينما السياسية، تتعامل بداية مع المصطلح ودلالاته، كما تعالج تجربة سينمائية مهمة على مدى تاريخ السينما المصرية، لم تكن بعيدة عن التأثير بالواقع، ويركز الباحث على الاعتقال التعسفي وطريقة التعبير عنه سينمائيا، وذلك ليس بهدف التعرف إلى الدلالات السياسية بقدر ما تهدف المتابعة إلى المساهمة في بناء مجتمع سياسي يفلت من الاعتقال، ويحس على التفاعل والتألف الفكري والسياسي، كما تتضمن الدراسة دعوة إلى تجديد اللغة السينمائية وتطويرها.

وفي منحي آخر، تطرح الدراسة السادسة مسألة الشرق أوسطية، مصطلحا ومفهوما وممارسا، ضمن المفاهيم التي يشهدها العالم، ومنطقة الشرق الأوسط، على وجه الخصوص، والتي تشكل تحديات سياسية واقتصادية، تواجه العالم العربي في تاريخنا المعاصر.

وأخيرا، لدينا دراسة تتناول عرضا ومناقشة لكتاب مهم يمازج السياسة العالمية للبيئة، ويتعمق الموضوع حول كيفية إنقاذ البشرية من الأخطار الميمنة، إنها جولة في معارف متعددة وأفاق فكرية لهم التخصص والثقف والإنسان عامة، حاول الباحثون المشاركون في هذا العدد، من خلالها، أن يقدموا لنا إسهاماتهم التي نرجو أن ترفى إلى المستوى الذي ينتظره قارئ مجلة عالم الفكر.

رفيع التحوير

mrnsalhi@keno.net

بدل المثالية والواقعية

في تطور الأطوار في العالم منذ برتراند رسل

د. يعنى طريف الخولي*

أولاً : مفتاح للشخصية

شكيلة شخصية :

يعتد الفيلسوف الانجليزي وصاحب الرياضيات البارز برتراند رسل Bertrand Russell (1872 مايو - 1970 أكتوبر) من أهم فلاسفة القرن العشرين (١).

ويمكن اعتباره من أهم فلاسفة الألفية الثانية على إطلاقها، وهذا بالنظر إلى الدور الكبير الذي لعبه في ميدان المنطق الرياضي وأصول الرياضيات، حتى أنه بعد الإنجاز الرائد للمعلم الأول أرسطو كان أعظم وأهم تطوير للمنطق هو هذا الذي أنجزه برتراند رسل، والخطوة الانطلاقية الكبرى التي أنجزها عالم الرياضيات الفذ جورج بول G.Boole (1815 - 1864) لم تفتح أكامها ولدت كلها إلا بعد إنجازات رسل العظيم، الذي أجاد استقطاب جهود رواد المنطق الرياضي السابقين عليه والمعاصرين له واستيعابها وتجاوزها دافعاً المنطق إلى الأمام، ليس مجرد خطوة، بل مرحلة جديدة.

وقبل أن يقادر رسل الثلاثينيات من عمره، وبالتحديد عام 1910، وهو عام بدء صدور «برتكيبها ما ليماليكا» كان رسل قد أحل مكانه وتربع في عالم المنطق الرياضي على عرشه المكين، فيما يعنى واحدة من أقصى درجات إثبات الذات.

* كلية الآداب - جامعة القاهرة.

** هذا رأي كثير من الفلاسفة وقد تكبر الإجابة.

Ralph Schoenman, Bertrand Russell Philosopher of The Century, George Allen & Unwin LTD, London, 1987.

لذلك، فإننا نلجأ من المنطق إلى الفلسفة، وجددنا رسل في حل عما يقتل كراهل الفلاسفة بغية إثبات الذات الفلسفية من إتقان البقية الباقية من الجهد والعمر في دفاع مستتب عن الفكرة التي طرحوها أو البناء الذي شهدوه. إن ذات رسل المثلة إلى أقصى الحدود جعلته بالقدم الراسع لا يتصرف البنية من تعديل وتطويع آرائه، والانتقال على ما أتى به ونسب ما أنقل الجهد في محاولة إثباته معترفًا بتصوراته ومنوها إلى ما أخطئ في إنجاز. ولعله يحتل مكانه في مصاف أعظم الفلاسفة طرا لأنه كان صريحا في الاعتراف بما عني به من فشل⁽¹⁾ فقال عنه ألفرد أير إنّه ليس أعظم فلاسفة القرن العشرين قط، بل هو أيضا أعظم من مارسوا النقد الذاتي، وعلى مستوى كل العصور.

وهو في هذا مدفوع برغبة متأججة في الوصول إلى اليقين القاطع، دفعته إلى الشك المستقيم في كل صغيرة وكبيرة، شك ديكارتي منهجي يملك ليطمح ويهدم لينشئ من أجل الهدف الذي تعقبه رسل طوال حياته وهو تحرر الحقيقة أكثر وأكثر، مؤكداً أن هذا التهج الذي ابتدعه ديكارت يظل من الممكن دائما استخدامه استخدما صريحا ومثمرا⁽²⁾. وإن لم يكن تنبيه بالأمر اليسير، فالتأنيب يكرهون النزعة الشككية أكثر مما يكرهون التحسين العاطفي للأداء المتفلسفة لأرائهم⁽³⁾ أو تزعم أن أسس ما استكنا واستراحوا إليه. يقول رسل هذا في مقال بعنوان «في قيمة النزعة الشككية» جعله تعهدا لكتابه «مفادات شككية» وأودعه بعضه في عنوان «الأحلام والوقائع»، يتناول النواحي اللاعقلانية للمعتقدات ويوضح إلى أي حد النزعة الشككية ضرورية حقا⁽⁴⁾. فلا غرو أن يرى الفلسفة ونظرية المعرفة يجب أن تتحدث عن أسس الشك المنهجي⁽⁵⁾ وكان تفكيره منذ البداية يسير على خطوط مماثلة جدا للخطوط الديكارتية⁽⁶⁾.

إن الشك المنهجي هو مفتاح شخصوية رسل الذي يلمس مغايرت فلسفته وتطوراتها ومعتقداتها العادة، ومنذ بدايات البدايات. فقد كان التشكيك في أصول الرياضيات... في التعليم بديهيات أفلاطون بلا بيئة ولا إثبات، والذي اعتلج في نفسه وهو طفل يرهل في مدارج العنبا ويتلقى دروسه في الحساب والهندسة من أخيه الأكبر، هذا الشك الذي الفجر في أعطاف الطفل برتي، هو الذي أدى به في النهاية إلى التخليص في أصول الرياضيات وتشديد إنجازاته الشهيرة في هذا الميدان وفي مجال المنطق الرياضي.

والرياضيات بدورها ومنذ البداية هي إطار فكره وحدود عقله العقلي، ولعل شغفه بها ينبع أساسا من تشوقه الذي يكاد يبلغ حد الصوفية للوصول إلى نوع من الحقيقة المطلقة البهيمية⁽⁷⁾، ويمتد رسل دائما بأنه إلى إلى الفلسفة عن طريق الرياضيات⁽⁸⁾. إنها الدافع العقلي الخالص أو الصوري.

أما عن الدافع الوجداني للفلسف، فقد كانت بشائره أيضا من النزعة الشككية، لا يمكن القول إن رسل تلمس طريقه إلى بدايات التفلسف بشكوكه الواقعية المعهودة في المعتقدات

بدل العائيلة والتواضعية

العينية، ولتحمل الذكريات التي دونها آنذاك، منذ الثالث من مايو عام ألف وستة مئة وستين وثمانين وهو في السادسة عشرة من عمره، رحلته القضية هي الشك التي أدت إلى رفض علوم الروح ثم رفض حرية الإرادة^(١). وفي أعقاب فترة وجيزة سلم فيها بوجود الله، انتهى به الأمر وهو في الثامنة عشرة من عمره إلى إنكار وجود الله أيضا. وكان هذا تحت تأثير قراءاته لجون ستيوارت مل J.S.Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٢) الذي مارست فلسفته تأثيرا على عقلية رسل، وقد كان رفيقا لوالديه، وأباه في العناد، ومع ملاحظة أن والد رسل نفسه ألف كتابا نشر بعد وفاته بعنوان تحليل العقيدة الدينية^(٢) يرمي إلى مثل هذه الغاية، فظل رسل حتى النهاية ملحدا بقطع وبضراوة. وإن كان يزعم في بعض الأحيان أنه لا أدري، لا ينكر وجود الله ولا يشك، بيد أن هذه الدلائلية لا تتسق مع منهجية الشك الباحث عن اليقين، لأسبغا في قضية لها من الخطورة الأنطولوجية ما لقضية وجود الله.

هكذا نطالعنا النزعة الشكية متجذرة منذ ما قبل البدايات، شكية منهجية باحثة عن اليقين. وكان برتراند رسل في مطالع حياته ومراحله الفلسفية الأولى يتحرق شوقا إلى اليقين. وفي مراحله التالية وسنيه المتأخرة أدرك تماما أن اليقين في المعرفة، وهي الطبيعة لا يسهل إحرازه بل ولا يمكن بلوغه، ويكتفينا الاقتراب منه فسر الإنسان. وفي هذا وذلك، في بلوغ اليقين أو الاقتراب منه كان سبيله هو التحول إلى شيء يبدو موضوع شك أو محال ليحمله إلى مكونات لا سبيل إلى الشك فيها^(٣) مبتدعا بهذا المنهج التفكير لم يعرفه الفلسفة قبل العام ١٩٠٠^(٤)، قيل عنه إنه ثورة قوضت العالم المألوف السائد للأفئدة الفلسفية الشككية، وكانت ثمرتها بعدا جديدا.

إذن لم يقتصر الأمر على أن تآدت شكوك الطفل في مذهبيات أفلاطون إلى برنكها ما لهماثيكا، وإثبات الذات في عالم الرياضيات ومنطقها، ولا على أن شكوك المراهق والشاب قد تآدت إلى إنجازات رسل المثالية في الفلسفة، بل إن النزعة الشكية والنهائج الشكي هو لا سواء الذي نادى برسل إلى اجتازاه الأعظم الذي دخل به عالم الفلسفة من أوسع أبوابه، وترجع على واحد من أعلى عروش، أي المنهج التحليلي النافذ بأدواته المكنية وتطبيقاته المعقدة، سوف يعنيّا من أسره تطبيقه على تصور العالم.

هكذا انطلق رسل بذات مثبته تماما، لا تتخرج من التصديق والتطوير والإلقاء والانتقال المستمر على الذات، من أجل الوصول إلى ما هو أفضل وأصوب وأقرب إلى اليقين، مدفوعة بنزعة شكية متجذرة، فكان رسل دائما وحتى آخر لحظة في حياته البديدة فضلا نشيطا فعلا ينتج ويعد إنتاج النظريات والتصورات الفلسفية بعدة وجدة لا يحصى وهجها أبدا، حتى قال تشارلي دنبر برود C.D.Broad (١٨٨٧ - ١٩٦١) قوله الشهيرة، من عادة السيد رسل أن يخرج علينا كل بضعة سنوات بذهب فلسفي جديد^(٥). وكما أشار فيلسوف تحليل اللغة الجارية ألفارز جيلبرت راي G.Ryle (١٩٠٠ - ١٩٧٦)، فإن رسل لم يؤسس مدرسة فلسفية معينة ولم يقتصر أمر سق فلسفي محدد بل

فقط ابتدع منهاجاً للتفكير لم تعرفه الفلسفة قبل عام 1900 - كما نذكرنا - ودأب على تطبيقه وتطوير النتائج وتطبيقها ومراجعتها، وهذا راجع إلى طبيعة المسائل التي انشغل بها وأسلوبه في تناولها، وهذا في الوقت نفسه أحد الملامح الأساسية في فكر رسل والجدير حقاً بالإعجاب⁽¹¹⁾. ومحسنة كل هذا أن سررت فلسفة رسل بمنطقيات جذرية ومنهنيات وتطورات ومراحل متعاقبة، تجعل قول رسل في أية قضية دون ربطه بالرحلة المعينة من تطوره الفكري يكاد يخلو من المعنى بل العزى.

ثانياً: أهمية «تصور العالم» التقولوجيا منطلق

وإذا وجب على الباحثين في هذه الزاوية أو تلك من زوايا فلسفة رسل أن يتتبعوا مساره عبر مراحل فكر رسل وتطوراته، فإن هذا التوجوب يفرض أكثر إلزاماً في قضية تصور العالم، لأنها بؤرة محورية في فلسفة برتراند رسل. ويطل «تصور العالم» وتطبيقه وتعديله وفقاً لملازمة الرسل في كل المراحل التعاقبية التي مر بها تفكيره، ربما لأنه يرى في تصور العالم منطلقاً أساسياً لفعل التفلسف، إذ يقول رسل: «تختلف الدوافع التي دفعت الناس إلى التفكير الفلسفي في نوعها، ولكن أجدها بالاحترام هو الرغبة في فهم العالم التي كانت الدافع الأول في تطوع الفكر. فحينما كانت الفلسفة والعلم لا يتميزان عن بعضهما»⁽¹²⁾.

<http://ArchiveBeta.Bakhril.com>

أجل يشيع أن الإنستيمولوجيا هي منطلق رسل الأساسي والذي ظل دائماً شغله الشاغل. ورسل نفسه يؤكد أنه على طول المدى منذ البدايات وحتى النهايات، كان مهموماً على الدوام بالسؤال المعرهي: إلى أي حد يمكننا الزعم بأننا «نعرف» وبأية درجة من اليقين أو الشك؟⁽¹³⁾ ولكننا سنرى أن الثابت الأساسي في كل المتغيرات التي ألمت بفلسفة رسل هو دعواه الجمعية - قولاً وفعلاً، منهاجاً وتطبيقاً - لأن تفرد الفلسفة العلمية، تنصت باهتمام لشهادات العلم عن الواقع والوقائع، وتستفيد من مناهجه وتتعلى بطياته.

وهذا النزوع العلمي للتوسّع في أصالاب عقلية رسل وفلسفته على السواء يجعل «تصور العالم» هو الإطار الضام للأشكالية المعرّية⁽¹⁴⁾ والمعرفة بدورها هي المجال المتوسط بيننا وبين العالم، قلن ننصّره وإن ندري عنه شيئاً إلا من خلائها، وسوف نحاول فيما بعد استخلاص دلالات هذا التداخل بين الإنستيمولوجيا والأنتولوجيا الرسمية. وبهذه الآن كيف تتضح معه محورية تصور العالم، وأنه ركن من أركان فلسفة رسل. وفضلاً عن هذا يرى رسل أن الفلسفة تتميز عن سواها من فروعها العلوم، في أن القضية الفلسفية عامة، لا تتعلق إطلاقاً بأي شيء معين في إطار زمني ومكاني محدد، في الأرض أو في السماء. هذه العمومية تعني أن

دور التحليل والتأويل

الفلسفة تتحدث عن العالم ككل، أو أن تصور العالم إطاراً لها، وكانت الفلسفة دائماً «في جانبها النظري» تعين على فهم العالم ككل ما أمكنها هذا^(١٠)، أما هي جانبها الوجوداني فتضع فيها «غايات للحياة، ومهام الفلسفة» فيما يرى رسل - لا تختلف باختلاف المصور.

معنى هذا أن فهم العالم ككل أو التصور العام له مهمة أساسية للفلسفة من حيث هي الفلسفة، والروح الفلسفية تطالب بالاهتمام بالعالم فطش لأنه العالم^(١١) for its own sake، والفلسفة حين تطلق بنا إلى تصور عام للعالم إنما تصل إلى أقصى نقطة ممكنة في الابتعاد عن الموقف الإنساني المحدود المتعين في هنا والآن، في المكان المحدود بالزمان للعين، كل الأنشطة المعرفية وعلى رأسها العلم تواقع بالإنسان من فوقته الزمانية المكثية وتجعل حياته أرحب وأوسع بأن يتراعى تفكيره إلى سعة الأفق الوجودي فيدرك الحدودية الشديدة للموقف الإنساني المتعين، فلا ينحصر في موطئ قدميه، التاريخ والجيولوجيا مثلاً يبعدان بالإنسان عن الآن، الجغرافيا والفلك يبتعدان عن هنا^(١٢)، أما الفلسفة هي نظريتها الأنطولوجية العامة فينبغي أن تستوعب كل هذا وتتجاوز، حين تقامر بوضع تصور عام للعالم أو لتكون، لذلك هو «البحث الشامل الذي تتميز به الفلسفة»^(١٣) دائماً ولا يستطيعه سواها.

لأن لا مجازفة في القول إن تصور العالم الهدف الفلسفي الاستراتيجي لرسل، مدركين تماماً أن «التحليل» هو الاستدلال وتل العظمى والتجاوز المطلق، إنه هو التحليل الشرعي ورب من أربابه، ومن أقدر من استطراد إيجابياته وإمكانياته، وكان دائماً الاستعداد للدفاع المستميت عنه، ويسهب في تبين أن رفض الفلسفة التحليلية هو «رفض للتقدم العلمي»^(١٤)، وكان رسل يجهز التحليلي للهدف برسمي الأصول الكلية لفلسفة التحليل اللغوي.

ومع كل هذا يؤكد أن التحليل اللغوي وسيلة مفيدة جداً وليست غاية، ولا ينبغي أن يلبي عن إنجاز الأهداف الفلسفية الكبرى، لذا يشير الفرد أير إلى أن نقطة الاشتراك الحاسمة بين رسل والتحليل العظمين الرهيبين والمصدقين برتراند رسل وجورج إدوار مور (G.E. Moore ١٨٧٣ - ١٩٥٨) تكمن في أن مور أراد أن يقصر الفلسفة على التحليل، بينما رفض رسل هذا^(١٥)، لقد جاهر رسل بأن الفلسفة اللغوية الخالصة لا تكفي البتة لحل المشكلة الأنطولوجية والمشكلة الأستيمولوجية اللتين رأيناهما عند رسل متجاذبتين مما تعثلا الهدف الفلسفي الأقصى.

لذلك قلن كان رسل قد خلق التحليل ومارسه ودافع عنه بحماس متقد، فإنه بحماس أيضاً، يهاجم الاتجاهات التحليلية التالية التي تطرقت في التحليل تطرفاً مضجراً وأرادت قصر الفلسفة على ممارسات تقنية له في مجالات معينة، وأنكرت حقيقة المشكلة الأنطولوجية ووجدوى البحث في «تصور العالم» من أمثال الوضعية المنطقية التي قصرت الفلسفة على تحليل العبارات العظيمة، أو فلاسفة الكسفور الذين صرفوا النظر عن العلم وقصروا الفلسفة على تحليل اللغة الجارية.

يرفض رسل هذه الاتجاهات التحليلية المتطرفة، فمثلاً إن التحليل إذا تحول إلى أسلوب فهي يصبح هو كل الفلسفة، فإنها لا تستحق إضاعة الوقت، أما إذا كان الهدف من التحليل هو فصل الفلسفة عن العلم الطبيعي فإن هذا الفصل لا يفيد البتة في شيء، وقد عني رسل بقصد الوضعية المنطقية - التي اعتبرته رائدا لها - وأوضح رفضه لاستعمالاتهم لنظريته في الأنماط المنطقية والتخلو من العنى، ونقد بالتفصيل نظرياتهم في ربط العنى بالقابلية للتحقق، وأوضح النتائج المدمرة التي تلزم عنها⁽¹³⁾، أما عن فلاسفة اللغة الجارية، فإن رسل يقول عنهم في أكثر من موضع إنهم قوم يتشغلون بالأشياء الثقافية التي يقولها البلهاء، وهذا أمر قد يكون مصلها لكنه ليس مهماً، وينتهي رسل إلى أن يأخذ الوحيد الذي يؤخذ على الفلسفة التحليلية هو أنها تأدت إلى أمثال هذه الاتجاهات اللغوية المتطرفة حيث أصبحت الفلسفة معنية أكثر بضم نفسها، وتكررت المهمة التي اضطلعت بها الفلسفة منذ طاليس وطوال عهودها، وهي مهمة فهم هذا العالم⁽¹⁴⁾.

وعلى هذا يمكن أن نفهم جيداً كيف أن - التحليل اللغوي عند رسل لم يكن سوى وسيلة لفهم العالم، لذلك العمل التحليل عند بالشكليات الفلسفية يشبه بشكل صريح ومشروع⁽¹⁵⁾ وعلى رأسها مشكلة تصور العالم.

تلك هي المشكلة التي كان الفلاسفة العظيم على مدار تاريخ الفلسفة معنيين بها، والعالم الأساسية لتاريخ النظرية الأنطولوجية، كما أوضح رسل وكما هو معروف تتراوح بين الواقعية المثالية التي ترى التكون كدء عقل ولا شيء سوى العقل، وكل ما بعد العقل مظاهر جزئية خداعة لا معنى ولا قيمة لها، وبين الواقعية المادية التي ترى التكون كدء مادة ولا شيء سوى المادة وكل ما يبدو من ظواهر عقلية مجرد وظلال للمادة أو نواتج خيالية لها، هذا فضلاً عن الثنائية التي اكتسبت هيبلاً وهيلماناً في الفلسفة منذ أن أرساها ديكارت وهو يرسي دعائم الفلسفة الحديثة، وهي ترى أن العقل والمادة كليهما حقيقة كائنة، كليهما جوهر قائم بذاته، والمشكلة هي كيف يعملان معاً، وكيف ننكر التأثير العلى لأحدهما على الآخر⁽¹⁶⁾.

ورسل ليس معنياً بمسألة أي منها، فكما سنرى، سوف يتجاوزها معاً، أنها بما هو مختلف عنها جميعاً بالقدر نفسه.

وأهم ما في الأمر أنه متميز عنها جميعاً في أنه فلسفة علمية أو فلسفة للعلم، على أساس ما اتفقنا عليه من ضرورة أن تكون الفلسفة علمية، وأنها إن تعود مجدبة إطلاقاً إذا اقتضت من العلم التجريبي، ولم تنصت لشهادته الطويلة بشأن العالم ولابد أن نعتمد رؤيته للعالم كأساس أنطولوجي لها. إن العلم في القرن العشرين طرح أمامنا عالماً جديداً تماماً ومفاهيم ومناهج لم نعرفها الأربعة الأسبق، وتعهد بسبل أكثر خصوبة وثراء من كل ما أتبع للأفهمين⁽¹⁷⁾.

بين العالمية والمحلية

ولا يعني هذا أن محاولات الأقدمين وراء بلا قديمة، بل يؤكد رسل - الذي كان شديد الحرص على عرضها ومناقشتها - « أن الرآن على فهم هذه الصور المختلفة للعالم يوسع العقل ويهيئ لقبول فروض جديدة ربما كانت مثمرة. »⁽¹⁷⁾

فهو كان الفرض الجديد الذي وصل إليه برتراند رسل في تصوره للعالم كجماع ذري التعددية من أحداث واحدة معتمدة نظمها تسلسلات القوانين العلوية والعلاقات الخارجية... هو فرض مثمرة وكيف وصل إليه؟

بل كيف سبقتنا نحن إليه في خضم التغيرات العاصفة التي هي مناخ عالم برتراند رسل؟

ثالثاً : إظهار منهجي البحث

مراحل جدلية

قد يبدو أن التابع لفلسفة رسل على مدار عمره المديد سوف نرى هذه الكثرة في رؤاه لموضوع معين، وتعدد مداخلاته

ومقارباته إياه. ولكن على الرغم من الخلاف الجذلي في مراحل فلسفة رسل وكثرة التفاصيل الظاهرة وأن بعضها قد يتنقض بعضها... فإنها تشتمل جميعاً متعلقات واحدة وأهداف معينة ومناهج محددة ترشد الباحث لعل أولاهها وعلى رأسها جميعاً أن الفلسفة ينبغي أن تكون علمية، لا سيما إذا أخذت في الاعتبار الغرض المقصود في هذا المنهج التجريبي فقط. بل لعل الأثرى منافع العلوم المنهجية المنطق والرياضيات - التي أنجز رسل فيها الكثير. »⁽¹⁸⁾

كما أن رسل أسدى صتيها لجمهور الباحثين في فلسفته إذ كان حريصاً على تنظيم المراحل التي مرّت بها فلسفته، والتغيرات والتحولات التي ألمت بها، وما الذي جاءه من كل مرحلة أقبل عليها، وما الذي استبقاه من كل مرحلة غادرها، وقد كرس رسل أعمالاً لهذا⁽¹⁹⁾، فضلاً عن تثار الإشارات الدالة في مواطن عديدة متفرقة، وما يسميهم في بضاح الطريق أكثر أن خلق برتراند رسل الأرستقراطي الرفيع يجعله دائم الاعتراف بل والإشادة بفضل الذين أخذ عنهم واستلهم منهم وتأثر بهم.

وفضلاً عن هذا وذلك طفرت المكتبة العربية بالدراسة الثمينة التي أخرجها الدكتور محمد مهران بعنوان « فلسفة برتراند رسل »⁽²⁰⁾

ولا نستطيع بهذه الكواشف ونظم الطريق في خضم نموص رسل، نستطيع أن نحاول تحديد المراحل التي مر بها تصوره للعالم، لتجدها ثلاثاً، على النحو التالي:

- المرحلة الأولى « مثالية » تماماً، حيث خضع تصور رسل للعالم كلية للمثالية الألمانية بمبادئها كانت، وهيجل.

المرحلة الثانية انتقالية إلى التقيض تماماً، حيث أصبح تصور رسل للعالم سائرا في إطار ما يمكن أن نسميه الواقعية ساذجة، وواقعية إلى أقصى الحدود.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة والحاسمة حقا والتي هي الهدف المروم، فتكاد تكون مركبا جدليا يجمع خبر ما هي التقيضين ويتجاوزهما إلى تصور للعالم هو استجابة أمينة للتطورات العلم في مطالع القرن العشرين، ويبدو قلدا على حل لمشكلة الأنطولوجية الملحة، مشكلة العقل والمادة. وهذا التركب الجدلي يعطينا التفسير السليم لوقف برتراند رسل الفلسفي.

هكذا سوف يتقدم هذا البحث بطرح تصور رسل للعالم في تطوره عبر مراحل ثلاث يفلح في تفسير ضرورتها المنهج الجدلي (الديالكتيكي) الهيكلية. إنه مناهج يعرف العقل بحركة الفكر التي تتعدى ضروب الإثبات الجزئية والمحتويات المحدودة وتزاعزعا وتنبهها. وتلك الحركة تنتقل من حد إلى حد آخر وتتجه نحو استيعابهما معا، وهكذا لا يعود الجدلي وهو العلاقة المباشرة بين الفكر ومحتواه المتروح للتغير، فانما طارح المنطق بل يتكامل معه، وهو يحول المنطق بواسطة تحويله نفسه، ويصبح بذلك حياة الفكر وحركته الداخلية، الصورة والمحتوى معا¹⁷، كل ذلك كان المنهج الجدلي (الديالكتيكي) مشهودة في تفسير التغيرات الواسعة في عالم الإنسان وخطى التقدم المتسوددة فلا تغيير إلا برفض الأطروحة، ورفض ما هو قائم، ولما كان الرفض التامليا يتروح طارح، ليس أنها ديالكتيكية سيكون من لتعلق أن ينفسي إلى مركب جدلي يجمع خبر ما هي القضية وتقيضها ليتجاوزهما إلى الأكل والأشمل والأكفا.

وسوف نتبع الآن تصور العالم عند رسل عبر هذه المراحل الجدلية الثلاث، محاولين إضاح العوامل التي دفعت به إلى الدخول في كل مرحلة منها وما الذي أنجزه فيها، وكيف ولماذا خرج من إطارها، وما الذي استشفاه منها في مقابل ما نبذه بالكلية، حتى نصل إلى التصور الأخير والعالم للعالم الذي يقرن باسم برتراند رسل المجيد في تاريخ الفلسفة العربي.

ثانيا: ١- الأطروحة

تصور رسل للعالم

درج الباحثون في فلسفة رسل على إهمال المرحلة الأولى للمثالية من فلسفته، كثفاء بالإشارة إليها، وهذا على أساس أنها انتهت تماماً.

بيد أن الطرح الديالكتيكي المتفعل عليه ينقض هذا، ويلزمنا بالتوقف عند هذه المرحلة، فهي الأطروحة التي سوف تنفض لتصل إلى مركبها الجدلي.

ومهما يكن الأمر، فإن رسل قد استهل علاقته النظامية الرسمية بعالم الفلاسفة بالاطلاقة أقبل عليها بمجاميع نفسه إلى زحاح الفلسفة المثالية الألمانية على وجه التعديد. وقد دفعته إلى هذه الانطلاقة عوامل خارجية متعلقة باجواء الفلسفة الإنجليزية في الهزيع الأخير من

بناء العقلانية والعاطفية

القرن التاسع عشر، وعوامل داخلية متعلقة بشخص وظروف هورنولد رسل، يجعل بنا الإشارة لتكليهما.

أما العوامل الخارجية، فهي الغزوة للثالثية الألمانية التي اجتاحت إنجلترا ذات التقليد التجريبي العريق. مرتين إبان القرن التاسع عشر، والتي تميز القول إن النهضة الفلسفية في إنجلترا كانت صدمة متأخرة للمثالية الألمانية وأنها تقذت من مصادر ألمانية.^(٢١)

ففي بدايات القرن التاسع عشر انضم الشعراء والكتاب الرومانسيون في إنجلترا إلى زملائهم في القارة واستمتعوا بملفوظا مثالية فرارا من عقلانية التنوير المفرطة. وبمعلق العلم الحتمي الميكانيكي. وظهرت للثالثية الألمانية في أشعار شيلي ووردزورث وكتابات توماس كارليل.

واكتسبت تقلا مع كولريدج S.T. Coleridge (١٧٧٢ - ١٨٣٤) الذي درس مذهب كانط بالتفصيل.^(٢٢) ومع هذا كانت لغزوة ضعيفة، إذ تمت على أيدي هؤلاء الرومانسيين مع الشعراء والكتاب، وجميعهم غير متخصصين في الفكر الفلسفي ولا محترفين إياه، لذا سهل اندحارها التام على يد جون ستيوارت مل عملاق التجربة المتطرفة والذي استطاع أن يكون بمثابة فيلسوف إنجلترا الرسمي في زمانه.

وعلى الرغم من اندحارها التام بتولي رجل إله، خصوصاً في بنائهما - بفعل بوجد عميل مع دفاع ووردزورث العاطفي من الدين - على الرغم من رفضه العقلي إياه وأنه كان يشعر بنجاته عميل مع شيلي في فضائه وهي تقاليد على السواء، إلى في الشققة الذاتية وهي الإلهاد^(٢٣) أي أن هذه الغزوة الثالثة الضعيفة تركت خلالها في أصناف رسل، فعما بالننا بالغزوة الثالثة الكهنة.

هبت الغزوة الثالثة الثالثة في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وإن كان يمكن اعتبار كتاب ج. هـ. ستيرنج J.H. Stirling سر هيجل، ١٨٦٥ هو فاتحة هذه الموجة. ففيه أوضح ستيرنج أن هدف هيجل أو سره هو إعادة الإيمان بالله وخلق الروح وحرية الإرادة. ومن هنا ناصرت الفلسفة الإنجليزية هذه الثالثة في محاولة لإحياء القيم التي هدمها التقدم العلمي. وشهد ذلك بوضوح في كتابات فريدمان برادلي F.H. Bradley (١٨٦٦ - ١٩٢٤) وجون ماكناجارات J.E. McTaggart (١٨٦٦ - ١٩٢٥)^(٢٤) وأما لهما من فلاسفة كمبريدج العظيم ذوي القدم الراسخ والثقل الفلسفي الكبير.

وهذا يعني أن الثالثة الألمانية عرفت حقا كيف تقلعهم المعامل الإنجليزية للكينة للفلسفة التجريبية العريقة بأصول تمتد حتى فريدمان يكون في القرن السادس عشر وجون لوك في القرن التاسع عشر وديفيد هيوم في القرن الثامن عشر، وصولاً إلى جون ستيوارت مل في القرن التاسع عشر. فضلاً عن أنها معززة بكتاب هيجل العظيم الذي لا يقلت من قهضته القوية - إما سلباً أو إيجاباً - أي من الفلاسفة المعاصرين.

وقد نال رسل بدوره تسمية وإفرا من الأثر الهيجلي في هذه المرحلة المبكرة من حياته التي حصلت تصوره المثالي للعالم. ضاعفت من سطوة هيجل عوامل عديدة أحاطت برسل آنذاك. ولكنه - كما سنرى - كان دائما وفي كل حال لا يتراجع قيد أنملة عن وعده الصادق بأن تكون الفلسفة علمية، ويكون تصورها للعالم بالعلم ومن أجل العلم.

فقد التحق رسل بجامعة كمبردج في أكتوبر عام 1890، واختار دراسة الرياضيات وحصل على إجازته فيها بعد ثلاث سنوات. ولكن أسلوب كمبردج في التدريس كان - في رأي رسل - عقيبا غاية في السوء، ومجرد حشد لأذهان الطلبة بحيل بارعة والأعجب تعمل إعانة الذكاء الطالب. حتى بدت الرياضيات بأسرها مذبذبة للعقلان والقرف *disorganizing* يقول رسل، «لما انتهيت من آخر امتحاناتي في الرياضيات عند نهاية سنتي الثالثة في كمبردج، أقسمت ألا أنظر بعدها إلى الرياضيات ويعد كل كتيبي الرياضية، وفي هذه الحالة النفسية والعقلية واجهتني الفلسفة بكل البهجة التي ينتهج بها الهارب من تلق إلى واد مزدحم ضيق»⁽¹²⁾.

هكذا أقبل رسل بمجاميع عقلية المتلافة ذات القدرات الجبارة على عالم الفلسفة وبدأت علاقته النظامية بها في العام نفسه - 1892 - الذي أصدر فيه كتاب برادلي «المظهر والحقيقة Appearance and Reality» الذي يعد قطعة من قطع المثالية الإنجليزية وأقوى ثغراتها، وكان أول ما وقع في يد رسل. حقق رسل إلى هارولد براونيه حياته «لما بقوا في الفلسفة فكان من الطبيعي أن يعطيه «المظهر والحقيقة» المسطر طول لذة» أي براونيه - أخرج فيها بعد كتابا يؤكد فيه مثالية برادلي الواحدة وينبذها في العلاقات الداخلية⁽¹³⁾.

وكما يؤكد رسل، كان برادلي في طبيعة الفلاسفة الذين ناضلوا من أجل الفلسفة الألمانية وقبولها في الأمة الإنجليزية، ويعترف رسل بأن كتابي برادلي «المظهر والحقيقة» و «أصول المنطق» الصادر قبله بعشر سنوات، كانا شعبيدي الجاذبية لرسل ومعاصريه، وأنه على الرغم من الانتماء للحاد عن دواورهما فيما بعد، ظل دائما ينظر إليهما بعين الاحترام⁽¹⁴⁾.

طبعي إذن أن يقع رسل آنذاك في إصار المثالية، ويدرس الفلسفة في سنته الرابعة بهذه الروح. وكان أستاذاه في كمبردج ماكنتاجارت وسنوت *Snow* - ساهما في أن يفرق حتى ألتيه في المثالية الألمانية⁽¹⁵⁾. لقد تمت صداقة بينه وبين الهيجلي المخلص الذي يكره يست سنوات، أي ماكنتاجارت الذي جعل رسل يرتاح معه لرؤية هيجل للعالم ككل واحد ومتماثل ينكر حقيقة الجزء أو المادة أو الزمان أو المكان، والحق الوحيد هو المطلق... إنه هيجل. وسوف تكون هذه نواة لتصور العالم، يحاول رسل صياغتها في فوالب علمية خالصة، بعد أن التكاملي الهيجلية بسابقتها الكانتية، تمثيلا للمثالية الألمانية المتينة بمعلقها الأعظمين.

لقد تجلت المثالية الألمانية وتأثيرها الكاسح في أول أعمال رسل، أي «أعمال في أسس الهندسة» وهو بحث تشغل فيه، فيما بين عامي 1891 و 1896، ثم نشر عام 1897⁽¹⁶⁾ وقد نال

بدء المثالية والواقعية

عنه شهادة الزمالة من كامبريدج. بعد أن ناقشه فيه جيمس وارن والفردي نورث هولبريد A.N. Whitehead (١٨٦١ - ١٩٤٧) وأثريا عليه.

وفيه يطرح رسل السؤال الكانطلي الشهير: كيف كان علم الهندسة ممكناً وصحيحاً أن رسل في مراحلها المتقدمة أقره أن الإجابة عن هذا السؤال لا تكون إلا على أساس من اكتشاف القرن التاسع عشر العظيم ألا وهو الرياضة البهتة في مقابل الرياضة التطبيقية، إلا أنه آنذاك كان أسيراً للطريق الهيجلي والمثالية الألمانية. فلم يلتفت إلى هذا، وانتهى إلى أن علم الهندسة لا يكون ممكناً إلا إذا كان المكان واحداً فقط من التصورات الثلاثة المطروحة: مكان أفقيديس المستوي أو مكان لوباتشيفسكي المقعر أو مكان ريمان المحدب.

ولأن هندسة ريمان ولوباتشيفسكي لا تستندان البتة عن مقاييس ثابتة للأبعاد، فقد بدت الإقيدية هي الهندسة الوحيدة الممكنة، وما كانت المثالية الكانطية تسمح بغير هذا. ولم تكن النظرية النسبية لأينشتاين - التي جعلت من هندسة السطح المحدب لريمان هندسة تطبيقية - قد ظهرت بعد الطبع بكل هذا، فلمسور رسل في حينه - أنه حل كل المشاكل الفلسفية المتعلقة بأسس الهندسة^(١٢).

لقد أرسى أسس التصور الهندسي العام للعالم على أساس الإقيدية، وشيخاً لموال المثالية الألمانية. كان من الطبيعي أن ينتقل في الخطوة التالية من هذا الأساس الكانطلي إلى التفسير الهيجلي. فزاح إيمان العاصمين (١٨٨٦ - ١٨٩٨) في الشغل عميق بتفسير هيجلي أي ديالككتيكي لأسس العلوم الرياضية والفيزيائية على السؤال: ليخرج بتصور للعالم تطبيقاً للقانون الهيجلي كل معقول واقعي وكل واقعي معقول. والعلم هو المعقولة، ذلك ثابت بنوي في فلسفة رسل من ألفها إلى يائها، أما كانت للرحلة التي نمر بها.

وعلى هذا الأساس جاء مقال رسل آنذاك «في العلاقات بين العدد والكمية». ليخرج إلى أنها علاقة انتلايات جدلية، وشرح في معالجة معقدة لأسس الفيزياء، فاشغل بالقابلة بين الحركة المطلقة والحركة النسبية، وكان المادة في حقيقتها تجريده غير واقعي. وليس ثمة علم بالمادة - كالفيزياء - يمكن أن يمتوحي الشروط المنطقية.

وإذا تذكرنا ترسب كتاب برادلي «الظهور والحقيقة» في وهي رسل، وجدناه يخلص في النهاية إلى تفسير جدلي أو منطقي ديالككتيكي لأسس الفيزياء، ينتقل بين الطرفين التناقضيين المقولات والإحساسات، ويكون في النهاية مرتبطاً بالظهور البادي أكثر من ارتباطه بالمطلق الصوري. ليكون منهجاً لتحويل الظهور إلى حقيقة، بدلاً من أن يبنى الحقيقة أو الواقع Reality أولاً، ثم نواجهها بعد ذلك شائبة لا مخرج منها^(١٣).

أما عن تعريف المادة فهي في الديناميكا أشياء بينها علاقات والعلاقات إما مكانية وإما عليّة. وثا كانت العلاقات العليّة هي قوى تسبب حركة فإنها إذن تؤدي إلى تغيير في

العلاقات الكائنية. ونلاحظ أن رسل هذا يعمل بالمفهوم الكلاسيكي للمادة كـ *things*. وللعلة كقوة Force مؤثرة. وهذا ما سوف يتقضيه تماماً فيما بعد ويستل أي تصور للقوة في العلوية وسيكون لهذا التره الكبير في تصور العالم. المهم الآن أن الحركة بدورها لا يمكن تحديدها إلا في علاقتها بالمادة. على ألا تكون هذه المادة ذات علاقة علوية. أي ديناميكية. بالمادة التي تبعثها أو بأية مادة على الإطلاق. وإلا كانت المعادلات تغير صادقة. بيد أن عمومية قوانين الجاذبية تعني أنه ليست هناك أي مادة يظهر علاقة علوية - ديناميكية حركية - بمادة أخرى.

فكيف يمكن حل هذه القضية؟⁽¹⁴⁾ *How Solve This Antinomy?* وإثنا لتقيضة أساسية وجوهية لدرجة تجعل قيام علم الديناميكا مستحيلًا قبلًا له أن المكان والقوة مفاهيم نسبية ولا بد أن تبحث عن صفات أخرى غيرها لتصف بها الأشياء الواقعية. وانتهى تحليل رسل إلى أن هذه التقيضة آتية من فرضية المكان المطلق التي تجعل الفيزياء الكلاسيكية في الميكانيكا تتصور المادة والحركة في ثنائية هي ذاتها ثنائية الجبره والعرض. واقتراض المكان المطلق هذا يستلزم:

(١) الاعتماد الخاصة ملازمة لكل عناصر المادة.

(٢) الاتصال المباشر شرط ضروري لانفصال الحركة من جسيم إلى آخر. فمن دون الاتصال المباشر للأجسام سوف تتصور أن الجسيم أو الشيء خارج تأثيره في موضع هو غير كائن فيه.

<http://Archivebeta.Bakhrft.com>

وهذا هو ما يؤدي إلى التقيضة المذكورة التي يمكن تفصيل ما تتضمنه من تناقضات على النحو التالي:

(١) المادة تحرك مادة أخرى وتحرك بها.

(٢) حركة المادة هي تغير علاقاتها الكائنية بمادة أخرى.

(٣) تغير العلاقة الكائنية بين أشكال المادة لا يمكن قياسه إلا بعلاقة مكانية غير قابلة للتغير.

(٤) يستحيل أن نعرف شكلين للمادة بينهما علاقة مكانية لا تتغير. إلا إذا كانا غير

خاصين للعلاقات الديناميكية التي تربطهما معاً. وتربطهما بأشكال المادة الأخرى.

وكما أشار رسل آنفاً، عمومية قانون الجاذبية تعني أن هذين الشكلين للمادة يستحيل أن

يوجد معاً. معاً يعني أن العلاقات المذكورة في (٤) يستحيل أن توجد.

(٥) لكن تعريف المادة المذكور في (١) يقوم على مثل هذه العلاقات.

ويترتب على ذلك أنه لا يمكن قياس أي تغير في العلاقات الكائنية بين المادة. أي

لا يمكن قياس الحركة ولا المادة ولا القوة. أي أن تلك التقيضة تعني أن علم

الديناميكا مستحيل.⁽¹⁵⁾

بداهة المثالية والواقعية

وإذا تذكرنا أن نيوتن نفسه قد أحس بالصعوبات الحقيقة بمفهوم «المطلق» في الزمان والمكان والحركة، وأنه ليس واقعيا. ولكن لم يكن أمامه مناس من الأخذ به، فلا غرو إذن أن انتهى رسل إلى أن هذا التناقض أت من مطلقة الحركة، وأن الحل في ديالكتيك الصلب، أي في الانتقال الجدلي إلى التقيض، النسبية. واعتقد رسل أن «نسبية الكتلة» تعفينا من مطلقة الحركة فتخرج من هذا التناقض، ويستطيع تصور العالم بوصفه مادة مكونة من نقاط في المكان عبر انات الزمان.

ولإنشاء مزيد من الضوء يفحص رسل الفرض التناقض، أي المادة المكونة من ملاء متصل Plenum، ولادة بهذا التصور قائمة بذاتها، المكان والزمان مجرد صفات لها، إذن فهي موجودة في كل حين، ومتصلة بالضرورة بكل الجزئيات الأخرى. هكذا نلاحظ في جميع رسل انتقال ديالكتيكي من المكان إلى المادة، ومن التفصيل إلى المتصل. بيد أنه يخلص إلى أن النظرية الفجة عن الملاء، المتصل بلا أي انقسام في أجزاء المادة لم يعد من الممكن قبولها وإن تجدي فتبلا، والأدنى إلى الصواب أن المادة كل واحد One Whole حاضر في كل نقطة من نشاط المكان، والواحدة تعني الاتصال، والمادة ليست معدلة بل هي الحاوية لكل أشكال... وعلى هذا نجد مبادئ الحركة في دوام الكل Permanence of the Whole، وليس في صفات الأجزاء المتفصلة تعاملا كمكونات لينتقل مما يجعل من الممكن استكشاف هذا «الكل» عن طريق علم الديناميكا، أما عن كيفية امتتاف هذا المسار خارج نطاق علم الديناميكا، فإن رسل يقر بأنه لا يجري (14).

هكذا نجد رسل يسير مع المثالية إلى آخر القرن، حتى يقل في تصوره للعالم إلى نظرية واحدة، متفعما بالإيمان في إمكانية أن يبرهن بالكماتيزيقا على أشياء شتى بشأن العالم،⁽¹⁵⁾ بغير حاجة البتة إلى معطيات الحواس، إلى العناصر التجريبية.

وقد ليدور هذه رؤية قاصرة على الديناميكا، فهي مبسورة ولا يمكن أن نخرج منها بتصوير للعالم، بيد أن رسل يردف هذا بعنوان ختامي فريمي «حاشية في منطق العلوم» حيث يوضح أن هناك طائفة من الأفكار المبدئية الأساسية، وأن كل علم من العلوم يعمل في إطار فئة فرعية من هذه الطائفة، عبارة عن عدد محدود جدا من الأفكار المبدئية الأساسية ويمكن اعتبار كل علم محاولة لبناء الكون أو تصور العالم بواسطة الأفكار المبدئية الأساسية الخاصة به. شريطة ألا تحثوى هذه الأفكار على أي تناقض⁽¹⁶⁾ من هنا كانت جهود رسل المذكورة لإزالة ما بدا له من تناقضات في الديناميكا.

وكان رسل يأمل في كتابة سلسلة كتب في فلسفة العلم تتجه تدريجيا نحو ما هو أكثر عينية، تنتقل من الرياضيات إلى البيولوجي، وتوازيها سلسلة أخرى من الكتب بشأن المسائل الاجتماعية والسياسية. تتجه تدريجيا نحو ما هو أكثر تجريدا، عساه أن يحرز في النهاية - بعملية تركيب فيجالية - ملاما موسموها يغطي النظرية والتطبيق على المسواء⁽¹⁷⁾... لولا أن كانت

انقلاباته الجذلية على هذه المثالية وصفايته هائلها. وهما بعد ذكر أن كل ما قاله فيها - وخصوصا بشأن أسس الهندسة - بعد الغوا.

وقبل أن نغادرها معه نطّلع إلى أن هذه المرحلة المثالية من فلسفة رسل والتي استمرت فيما بين عامي ١٨٩٢ و ١٨٩٨، كان تصوره للعالم فيها بدور مثاليًا ومثاليًا واحدًا، فقد رأينا يبحث عن واحدة شاملة، يتلوه من أجلها حتى ثنائية الجوهر والعرض. ولكنه كان أميناً لثورات العلم الكلاسيكي في القرن التاسع عشر، أو على الأقل منسجماً معه ومع هيكلته التمييزية، فهو يعالج المادة ككثرة.. ككشاهد والعلة قوة مؤثر والمكان عامل منفصل عن الزمان.. إلى آخر ما رأيناه.

على أن المنصر الثلاث والحاسم حقاً في هذا هو مناهجه الذي يطور مدى امتثاله للمثالية الأصلية. فقد كانت محاولة من رسل لإقامة تصور للعالم عن طريق طرح إجابات هيكلية على الأسئلة الكانطية، أو عن طريق تركيب جدلي بين المفولات والحدوس.

وكما هو معروف سوف يرفض رسل هذا، أو بالتعبير الجدلي سوف يلقضه ويقلب عليه، فيرفض تماماً أمثال هذه التسامح الثنائية الميتافيزيقية المستتية عن معطيات الحواس وعن الأسس التمييزية، ويرفض الواحدة رفضاً قاطعاً ويرفض المادة كاشياء ويرفض العلة كقوة مؤثرة... إلخ. والسؤال الآن، ما الذي استبداه رسل من هذه المرحلة المثالية ولم يقلب عليه حتى مثل ثابته بنهويًا يصون كيان فلسفة رسل في تطورها التي نزهته الحادية، ووصولاً للمركب الشامل في تصوره للعالم، فيالطبع لا نقصد إلا ما استبداه من عناصر التسامح في تشكيل تصوره للعالم.^(١)

في الإجابة عن هذا السؤال يمكن أن نطّلع إلى العناصر الأتية:

١ - الفلسفة العلمية، وفلسفة العلوم هي النوط بها تصورنا للعالم.

٢ - ومن ثم فإن فحص وضع المادة في ضوء القوانين العلمية المطروحة نعد عاملاً جوهرياً ومقوماً أساسياً، إن لم يكن هو صلب الموضوع في تصورنا للعالم.

٣ - تصور العالم يتأثر عن طريق صياغة المحصلات العلمية بواسطة مناهج فلسفية.

والحق أن التغيرات الحادة في مناهج رسل الفلسفية فيما بعد، كانت مواكبة لتغيرات أكثر حدة في محصلات العلوم، وعلى وجه الخصوص العلوم الفيزيائية التي كان رسل دائماً يعتبرها في منزلة عليا وهائلة الأهمية.

على أن التغيير الحاد الذي يفرض نفسه الآن هو خروج رسل من هذه المرحلة المثالية واتقلابه الجذلية عليها.

١ - سوف نضطر إلى إغفال العناصر التي استبداهها من المثالية وليس لها علاقة مباشرة بتصوره للعالم، من قبيل هذا الذي أشار إليه جيلبرت رابل فلاك: «التكاثف التي سيطرت على رسل في شيله لم يغادرها تماماً، فقد رفض «الما راى جون سواتر» من هيرو حقائق الرياضيات، والنتيجة هي التمييزية الاستثنائية».

G. Blyth, Bertrand Russell, P. 18.

خلاصة: ٢ - نقد الأطروحة

تصور واقعي للعالم

في ردهات جامعة كامبريدج المرققة، العاصرة دوماً بأساطين الفلسفة وأساطين الرياضيات على السواء، تجمعت عدة عوامل دفعت

ببرسل إلى الفرار من هذا الأسار الألماني وتقويض التصور المثالي للعالم، أو كما اتقنا الانشائية الجدلية عليه، إلى التقويض تماماً، إلى عالم واقعي يسلم بالوجود كما هو، فالعالم موجود والفكر موجود وموضوعه موجود وكل شيء موجود، تماماً كما يدركه الحس المشترك، من دون أي تساؤلات^(١٢) بل وأكثر من هذا، عالم يتسع لأنماط عديدة من الكيانات ... كل شيء، فيه موجود وجود واقعي حقيقي: الأشياء الفيزيائية، والجزيئات والكيانات والأعداد ... وهو وجود مستقل عن أي ذات عارفة.

إنها ثورة شاملة تعني تصوراً للعالم واقعي ليس مثالياً، وليس واحداً بل بالغ التعددية، تحكمه علاقات خارجية وليست علاقات داخلية، انطلقت من كامبريدج تحت لواء رسل ورفيقته مور G.E. Moore (١٨٧٢ - ١٩٥٨)، رسل يتكفل بذلك معاقبل الواحدة، ومور يتكفل بذلك معاقبل المثالية.

وقد بدأت رحلة الخروج من المثالية المثالية فكانت في الحقيقة على السواء عام ١٨٩٨ بفعل عدة عوامل تجمعت معاً، منها أن رسل قوا كتاب «المنطق الأكبر» لبرجل، فخرج باعتقاد ظل يحتفظ به دائماً وهو أن كل ما قاله هيجل عن الرياضيات لغو ناتج عن رأس مشبوبة (أو موحدة) [modelle]^(١٣). والواقعة العارضة لكن شديدة الأهمية لتصل في أن ماكتاجارت سافر فجأة إلى أهله في نيونبتده، فعهدت جامعة كامبريدج إلى رسل بتدريس ليهنتز، G.F. Leibniz (١٦٤٦ - ١٧١٦)، هكذا وجد رسل نفسه منكبا على دراسة أعمال ليهنتز، ليكتشف أن أساس الميتافيزيقا المثالية الواحدة هو المنطق الأرسطي الحملي، منطق الجوهر وأعراضه، الذي ينبغي الإطاحة به لأنه يعجز تماماً عن التعبير عن العلاقات.

هكذا اتكب رسل في تلك السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر على دراسة المتاطقة والرياضيين الألمان، فتبلورت أمامه أهمية العلاقات في الرياضيات وفي تصور العالم، وبدأ له أن يجعل العلاقات أدى إلى نتائج وبيلة في الرياضيات وفي الفلسفة على السواء. وقد ظل رسل دائماً على اعتقاده بأن العلاقات من أهم موضوعات الفلسفة طراً، وأن معظم الموضوعات الأخرى يمكن أن ترد إليها، ومنطق العلاقات بدوره أوضح لرسل أن العلاقات ينبغي أن تكون خارجية.

وكان ليهنتز قد انتهى إلى تصور للعالم ينكر واقعية المادة ويستبدل بها - بتعبير رسل - أسرة لا متناهية من النفوس هي الموائد Monads أو الجواهر الفردة، كل منها ذرة روحية لا نواخذ

لها ولا تتصل بذرة أخرى أو بعون آخر، وبالتالي للعلاقات علية بين جوهرين حريين⁽⁴⁴⁾. هكذا انتهى رسل إلى خطوة واحدة المثالية من حيث إنها تنكر المادة وتنكر العلاقات الخارجية. فبدأ عمله المنهجي على هذا في سلسلة المحاضرات التي ألقاها في فلسفة لينتز آنذاك، وحملها كتابه الشهير «عرض نقدي لفلسفة لينتز» A Critical Exposition of the philosophy of Leibnitz حيث يؤكد على أهمية القضايا العقلية مقابل قضايا الموضوع والحصول. وهذا يعني ضرورة أن نبتدل العالم المتعدد بالعالم الواحد.

وفي كتابه «أصول الرياضيات» أوضح رسل أن النظرة المونادية والنظرة الواحدة كليهما على السواء ترد العلاقات إلى أشكال من القضايا الحملية. العلاقة بين طرفين خصائص داخلية كليهما، تدخل في صميم تعريف الحد أو الحدين اللذين تربطهما العلاقة، وهما في التعليل النهائي خاصية للكل الذي يضم الطرفين وتحاول الواحدة تفسير كثرة البداية في العالم بعيداً «الهوية في الاختلاف» الذي تقدمه رسل بقوة في كتابه النقدي المذكور عن لينتز.

ودخل الواحدة في ذات الهوية مع المثالية مسألة استقطبها برادلي من فلسفة هيجل، فهي الواحدة ليس هناك إلا الكل وصفاته.. الجوهر وأعراضه.. الموضوع ومحمولاته. أية علاقة لا بد أن ترد إلى قضية حملية **تصل في النهاية** إلى قضية حملية كبرى موضوعها هو الحقيقة الواحدة، الكل الأنطولوجي.. فذلك هو تصورهم للعالم.

الكل يكشف عن العلاقات بين أجزائه والعلاقات بين الأجزاء، تنكشف في طبيعة الكل، فلا يمكن في هذه الحال النظر إلى الشيء إلا في إطار علاقته بالكل. هكذا تبين رسل الشك الذي وقع فيه بسبب براعة برادلي ودخل حجيجه الفلسفية، أي شوك العلاقات الداخلية للكل الواحد التي يعبر عنها المنطق الحملي.. وقد حمل كتاب برادلي «المظهر والحقيقة» أطوى عرض لمنطق العلاقات الداخلية، حيث زعم أن التعددية موقوف لتناقض نفسها لأنها من خلال العلاقات تأتي بالكل الذي تأتي الاعتراف به قبلاً، وينتهي برادلي إلى أنه ليس هناك أشياء متعددة ولا علاقات بينها. بل فقط الكل الواحد، والعلاقات خصائص داخلية.

وفي النهاية يرد كل شيء إلى أن المنطق الواحد منطلق حملي يرد العلاقات إلى الكيفيات، وكل علاقة تتحول إلى محمول يعمل على موضوع. فتغدو كيفية مباينة له مباينة.. من هنا كانت العلاقات داخلية. وعين تصور أن أية قضية تعود إلى قضية حملية، أي إلى موضوع ومحمول، فإن هذه النظرة إلى القضايا هي التي قادت جميع الفلاسفة المثاليين إلى القول بوحدة العالم وإلى إنكار التعدد.

هكذا تبين لرسل أن الإطاحة بالمنطق الأرسطي وإحلال منطق العلاقات محله.. وهذا ما لا بد أن يحدث.. يطيح تماماً بكل هذه المثاليات الواحدة وعلاقاتها الداخلية.

رؤية العالم والوجودية

لقد تقوضت الواقعية واكتشف رسل العالم الخارجي المتعدد هجاء. وتحرر من إطار المثالية التي ترى العالم الخارجي مجرد تصور لذات. لقد اعتبر الهيكليون أن كل كيانات العالم المادي أو الفيزيقي وكل كيانات الرياضيات والفيزياء كيانات غير واقعية متناقضة مع ذاتها، فلا واقعي عندهم إلا المطلق. وكانت حججهم في إنكار واقعية تلك الكيانات هي العلاقات الداخلية^(١٢). لذلك فحين رفضها رسل وأخذ بمنطق العلاقات الخارجية أحس أنه اكتشف العالم الخارجي الزاخر الرائع الذي كان محروما منه بسبب إطار المثالية. وقمرته معادة ضاعية، جمته مستقبل القرن العشرين وهو مغمم بأثرى أشكال الواقعية وأكثرها تطرفا، وبهجة فلسفية طافية.

وبهذه الروح حضر رسل - برفقة وايتهد - المؤتمر الدولي للفلسفة بباريس في يوليو ١٩٠٠، وألقى بحثا يؤكد فيه هذا التصور الجديد للعالم الواقعي التجريبي التعددي ذي العلاقات الخارجية. إنه عالم مكون من جماع هائل من الجزئيات والنقاط والتعقيدات في الزمان والمكان... كل منها وجميعها حقيقي بدلا من حقيقي المطلق الهيكل.

* * *

وكان هذا المؤتمر نقطة تحول فارقة في حياة رسل الفلسفية. كما يؤكد^(١٣). لقد قابل فيه بيانو PIANO لأول مرة، وأدرك قوة وجسامة تأثيره وخطورة أعماله وتصوراته التي لم يكن رسل يهتم بها من قبل الاهتمام اللائق. وأثناء المؤتمر طلب منه رسل مجموعة أعماله، ودرسها جميعا، ووجد في منطقته الرياضيات أداة للتفكير كان قد طاق بحثه عليها، وحين أتى سينتبر من العام نفسه كمرسة رسل لتطبيق هذه الأداة التي استقضاها من بيانو على منطق العلاقات، وخصص أبحاثه سينتبر الدافعة المناقشة هذه الفكرة مع وايتهد، لذلك يقول رسل: «سينتبر ١٩٠٠ كان أعلى قمة بلغتها في حياتي»^(١٤). فمن هذه الأبحاث أثبت فكرة «برتكيا ماتيماتيكا» إلى الوجود، وما فتئ رسل يؤكد حتى آخر لحظة في حياته على أن تركيز الاهتمام على منطق العلاقات أخطر الدلالات الفلسفية لهذا العمل الجبار.

بيد أن رسل كان قد شكك منذ أكتوبر ١٩٠٠ على عمله الأسبق «أصول الرياضيات» الذي انتهى منه في مايو ١٩٠٢، وهو يعمل عديدا من المحاولات لرد الرياضيات إلى المطلق. وكانت محاولات هبة ومليئة بالمسورات تجاوزها، برفقة وايتهد، في «برتكيا ماتيماتيكا». بيد أنه يعمل أقوى تجسيدا لهذه المرحلة الواقعية من فلسفة رسل.

ويحمل «أصول الرياضيات» أيضا علامة فارقة تامة وتماثلت فيها بعد، إن نقول في فلسفة رسل بل في فلسفة القرن العشرين عامة ألا وهي تآزر المنطق والفلسفة معا. قبل هذا للمؤتمر كان المنطق والفلسفة يسيران متوازيين، ويفضل تأثير بيانو وأيتهد فيه. تلاعب المنطق والفلسفة، ومنذ «أصول الرياضيات» فصاعدا، سوف تقدم حجاج تصور برتراند رسل

للعالم مجبجا منطقية قائمة على أسس المنطق الرياضي، لأن رسل ذاته سوف يحمل تلك البطاقة النادرة «المنطقي» - الفيلسوف الذي يعطى الطمينة»⁽¹²⁾.

لقد انطوى «أصول الرياضيات» على قوة تدميرية هائلة لأسس التصور الثنائي الواحدي ذي العلاقات الداخلية للعالم، وذلك عن طريق إثبات عجز المنطق الحسابي في التعبير عن العلاقات، أو رده إياها إلى كيفيات، إن رسل يوضح أسس معالجته للعلاقات عن طريق هجمة مضادة على وجهة نظر لينتزل التي عدّها لوطرّه ويمسحها النظرية المونادية Monadistic ⁽¹³⁾ و على النظرية الواحدة Monistic التي ينسبها رسل إلى برانزي وسيفورزا، وعلى رسل رعاية خاصة بتقنيّه آراء برانزي⁽¹⁴⁾ فكما أوضحنا، رسل منذ البداية يصادر على أننا إذا استطعنا الإطاحة بالمنطق الحسابي وأحللنا منطق العلاقات محله فقد انهار التصور الثنائي الواحدي للعالم من أساسه.

ويستند رسل في هذا بشكل خاص إلى العلاقة اللاتماثلية Asymmetry نظرية العلاقات الداخلية قد تصدق في بعض العلاقات كعلاقة الحب والكراهية فهي خاصة ذاتية للحد أو الطرف، ولكن العلاقات الداخلية - كما يبرهن في «أصول الرياضيات» لاتصلح إطلاقا في التعبير عن العلاقات التي ترسم بنية العالم - خصوصا علاقة التماثل - كما أشرنا فحين تكون العلاقة بين (أ) و (ب) هي علاقة قبل أو بعد أول (أ) أسبق من (ب) أو (أ) أكبر من (ب) - فهذه العلاقة لا يمكن أن تكون خاصة - (أ) لأنها لا تتحدد إلا من الخارج - وعلى ضوء العلاقة بطرف آخر مثل (ب) - ... هذه العلاقات لا يمكن أن تكون كيفيات محلية أو خصائص ذاتية، ولا يمكن أن تكون إلا وقائع علفية وعلاقات خارجية.

هكذا يثبت رسل العلاقات الخارجية وبالذات العالم التعددي الشامل في تعددته الذي هو تجريبي واقعي، ولا يفوت رسل في مقدمة هذا الكتاب «أصول الرياضيات» الإشارة إلى معالوته السابقة التي عرضناها لإقامة تصور مثالي للعالم وبالطبع يثيرها محاولة فاشلة، فيقول: منذ ست سنوات مضت بدأت بحثا عن فلسفة ديناميكا ثنائيتي صعوبات ... ملها الصعوبة الخاصة بالحركة المطلقة التي لا تقبل الحل على أساس نظرية للكان العالمية، وانتهى بي الأمر إلى إعادة فحص ميادين الهندسة، ثم إلى فلسفة الاتصال واللاتهية ثم إلى المنطق الرمزي.....⁽¹⁵⁾

وكان المنطق هو الذي قام بدوره ليترسم أمام ناظري رسل تصور لعالم تعددي واقعي مستقل عن أية ذات عارضة، فيما يعرف بالواقعية الساذجة Naïve Realism. النجوم موجودة لأنها موجودة والبشر هنالك لأنهم هنالك والتجبل الأخضر لأنه أخضر، فاللادة حقيقة وعلاقاتها خارجية. هذه الاتقالية الجديدة المواجهة على مثالية هيجل وكانط، وعالم الواحدة الثنائي حيث اللادة وهم أو مجرد تصور للذات، وعلاقاتها داخلية، جعلت رسل يندفع بتطرف إلى هذا التصور المضاد للعالم ويجعله ذا واقعية تسع لكل ما يخطر على البال، حتى الواقعية أفلاطونية

بداية العقيدة الرياضية

وصوفيته المستخدمة من فيثاغورث. فسلم رسل آنذاك بالوجود الواقعي للكليات والوجود الواقعي للأعداد. وعبر رسل عن هذا في قصة طريقة عن حلم تراهي لعالم الرياضيات، لم تكن الأرقام فيه مجموعات جامدة كما كان يعتقد من قبل بل كانت تتنفس بالحياة، الأعداد الفردية مذكورة والأعداد الزوجية مؤنثة. تتراقص وتتشد: نحن الأعداد المتناهية ... تشكل مادة هذا الكون ... وتحيل الأرض بسيطة ... وتبجل أستاذنا فيثاغورث ... ونعمننا بتكريم أفلاطون الخالد ... لا ونسهر أحداث القصة بحيث يندفع في النهاية جيش الأعداد العرمرم صوب أستاذ الرياضة في ثورة عارمة، ويستبد به الرعب هنيئة ما ليت بعدها أن تعاكس نفسه وصاح بصوت جهوري: ابتعدوا عني فما أنتم سوى وسائل رمزية ملائمة ثم استيقظ من نومه⁽¹⁾ في إشارة من رسل إلى انشلائته بعد ذلك على الواقعية. بيد أن تصور رسل للعالم آنذاك اتسع تماما للواقعية الأفلاطونية. وشارك طريقة الاعتقاد في الحقيقة الأفلاطونية للأعداد فتصورها في خياله تسكن الوجود بعد أن أصبح مفرط الواقعية متأثرا في ذلك بواقعية Meinong الذي ملق حجاج المذهب الواقعي على العبارات الوصفية، واعتقد رسل أن كل حد يرد في قضية صادقة أو كاذبة له كيان، أي أنه "يكون" بمعنى ما ... وبهذا المعنى "يكون" أو "يوجد" رجل ونسطة وعدد وقتة وعلاقة وغول ...⁽²⁾

وقل رسل يلعب بهذا النسخ الواقعي الذي لا يخر لهم، حتى قال له وإلهذ ذات مرة، إنك ترى العالم كما يترأى في طبيعة يوم مشرق يشرق أمامنا في أركنا يبدو في بكرة الصباح ساعة يصبحو المراهق من نوم عميق⁽³⁾ وأراح يوضح أنه كقصة يستغل النطق الرياضي في عمله العامضي كصباح لندن ذي الضباب الكثيف، بغيرداته من نقاط والحطات وجسيمات، فلا تعود هي خامسة العالم. الخامسة هي الأحداث، وهذا ما سوف يطرره رسل. فكما أيقظت كانط من سباته الموجدماطقي تساؤلات هيوم عن الطيف، أيقظت تساؤلات وإلهذ عن الجسيمات والنقاط والحطات. رسل⁽⁴⁾ من سبله على صدر الواقعية التوثير، أوجد وإلهذ يعلم منهاجا منطقيا لإناء النقاط والحطات والجسيمات بوصفها مجموعات من الأحداث كل منها ذات امتداد متناه، مما يعني إمكانية استخدام نصل أوكام بشأن نقاط والحطات العالم الفيزيقي كما استخدم في عالم الحساب. لكي نوفق بين الفيزياء الحديثة التي ابتعدت تماما عن عالم الحسن المسترند وبين الإدراك الحسي في كل منسجم.

لقد تبين رسل - بهذا الفضل من وإلهذ - أن سلسلة تصورات ومفاهيم الفيزياء التطورية راجعة إلى براعة الرياضيين وليس إلى طبيعة العالم الفيزيقي، واكتشفت الأبعاد العميقة في تصور العالم التي يبلغها المنطق الرياضي. سعد سعادة بالغة وهو يستكشف القوى الجبارة لهذه الأداة البالغة المخطورة، أي المنطق، وإن الأمر لا يقتصر على منطق الملاحظات، فثمة ما هو أغنى وأكثر حسما، وعلى وجه التبيين نصل أوكام التجاد والشهير.

ونسل أوكام Occam's Razor في أصله قاعدة منطقية منهجية للتخيل من الفروض التي لا تدعو الحاجة إليها، أو ما يعرف باسم مبدأ الاقتصاد في التفكير، فإن لم يكن قاعدة أنطولوجية تطبق على كيانات العالم، فإنه قاعدة منطقية تطبق على المبادئ التي نفسر بها الكائنات⁽¹⁴⁾، لذلك يقول رسل: «إن قطاعا كبيرا من الدور الذي يلعبه المنطق الرياضي في الأنطولوجيا يكمن في تقليص عدد الأشياء Objects المطلوبة لكي نخرج بمعنى ما من العبارات التي نشعر بأنها معقولة»⁽¹⁵⁾، وسوف يصبح هذا النصل القاعدة العليا في الفلسف العلمي، لأنه القادر على أن يجعل عالم رسل أسفى وأبقى .. وإلى غير حدود .

لقد أورد هيجل سهلا من البراهين التي تقى وجود كيانات عديدة، وفي بداية الثورة على هيجل، تصور رسل أنه إذا أثبت أن برهان هيجل غير صحيح فالحق، إن موجود . وكان هذا بوابة لتلك الواقعية الزاخرة في تصور العالم.

ثم جاء نسل أوكام ليوضح لرسل أن الحكم بالوجود أصعب كثيرا . صحيح أن الكيانات التي يراها النصل غير ضرورية لا يثبت أنها غير موجودة، فالتصل لا يستطيع إثبات أن الأعداد الصحيحة أو الكهة الأولب غير موجودة .. هذا صحيح، ولكن نسل أوكام ينقض البراهين التي ثبتت وجودها، فلا تعود يملك برهانا على هذا الوجود .. فكيف نستقيها؟

وبمرور الأيام، وبفحص نسل أوكام، يلفت تصور رسل لتعالم تدريجيا ذلك الثراء والزخم التواقي، وشيئا فشيئا، حتى لا يعود هنالك إلا أحداث متجادة تمد بمثابة الإقلاخ النهائي عن الواقعية وتصورها للعالم، وهذا في الوقت نفسه تطبيق مستمر وحتى آخر مدى .. أو هو أقصى لتطبيق لنصل أوكام الذي حذف كل مكونات العالم، فلم يبق إلا أحداث.

وأخيرا، يفرض منهاجنا الجدلي سؤاله: ما الذي استبقاه رسل من الواقعية بعد أن غادرها، وطبعاً فيما يتعلق بتصور العالم؟

أول ما يفرض نفسه في صدر الإجابة: المنطق وهو الأداة الفعالة، لاسيما إذا أصبح التحليل منهاجاً شاملاً. وقد ظل رسل دائماً مخلصاً وفيها لعهد العلم. ولكن في هذه المرحلة التي شغلت العامين الأخيرين في القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين كان رسل مثكرباً للعلوم الصورية، للمنطق والرياضيات، حتى أنجز إنجازاً الأعظم فيها ورد الثانية للأول، فلم تعد الرياضيات حقائقاً لا إنسانية مطلقة، بل هي محض تحصيلات حاصل ثانوية، وغادرت هي الأخرى ذلك العالم الذي كان واقعياً ومن يعود .

استبقى رسل أيضاً العلاقات الخارجية، وبالتالي التعددية الشاملة. وتماذى رسل في التعددية حتى أصبحت ذرية منطقية، وكانت الذرية للمنطقية أهم بنائه إلى قلبه، فيقول: «لم اصنع لنفسي بطاقة فلسفية ولم أرتبط إلا بلافتة واحدة، التي ذري منطقي»⁽¹⁶⁾

دور الحقيقة والواقعية

فكانت لغة رسل وقتجنتشتون الذرية المنطقية هي لغة التعبير عن مثل هذا العالم البالغ التعددية، ليكون كل ما نقوله في حدود جمل ذرية ودوال الصدق اقترافاً منها، وثمن كان رسل يؤكد أن المنطق هو جوهر الفلسفة، فهذه الذرية المنطقية هي منطق الفلسفة الأنطولوجية التعددية أو جوهرها.

وحاول رسل أيضاً أن يستبقي شيئاً من تجريبيته الواقعية، وذلك في أن كل قضية ليست تحصيل حاصل أي إخبارية لا تصدق ولا تكذب إلا بفضل علاقتها بالخبرة التجريبية. على أن الخبرة بدورها لا تمثل إلا قطاعاً بالغ الضآلة، إذ نظرتنا إلى قصة العالم بأسرها، على مدار بلايين السنوات.

هكذا استبقى رسل من مرحلته الواقعية عوامل، ربما كانت أكثر كماً وأهم كيفاً من تلك التي استبقاها من مرحلته المثالية، ولكننا - على أية حال - في سبيلنا الآن إلى مركبهما الجدلي، فيما يمكن اعتباره بمثابة بيت القصيد، إنه التصور العام للعالم الذي يفتنر باسم رسل، عالم من أحداث واحدة متعاقبة لا هي مثالية ولا هي تجريبية تماماً، لا هي عقلية ولا هي مادية. فماذا عساه أن تكون؟ وما الذي دفع رسل إليها؟ وكيف بلغها؟

علاهما : ٣ - المركب الجدلي

تصور العالم هو جدلي

كما رأينا انتقل رسل من التصور المثالي للعالم إلى التصور الواقعي فجاء، وعلى الرغم من إزدحام ذلك العالم الواقعي فقد تشكل هكذا

مرة واحدة بنقلة من الواحدة إلى التعددية ... أو بمصطلحات هذا البحث بالتفلاية جدلية. أما عالم الأحداث المركب شديد التعقيد فقد تشكل على مراحل وشهد تغييرات وتعديلات وخطوات، صلبها حراف مستمر بمارسة نصل أوكام.

بداية الثورة على الواقعية الساذجة أو إعلان الرحيل عن عالمها يمكن أن نجده في كتاب رسل البالغ الخطورة «مشاكل الفلسفة» ١٩١٢ ومنه فصاعداً بدأ تصور رسل للعالم يتشكل تدريجياً ليتخذ الصور التي اقتصرت باسم رسل.

يستهل رسل هذا الكتاب بالتساؤل عن معرفة يقينية غير قابلة للشك، وهذا «يتطوي على شك فيما كان يسلم به بلا مناقشة في أصول الرياضيات»^(١) وراح يشك في وجود المادة حتى سحب الوجود من الموضوعات الفيزيائية مثل النجوم والأقواب والمناخ، لأنها لا تعرف بوجود متضمنة إلا عن طريق عملية استدلال طويل غير مباشرة يستحيل أن تكون يقينية، فلا يمكن الجزم إن بوجود تلك المتضمنة.

عبر رسل عن هذا في الفصل الأول من الكتاب، يحمل هذا الفصل نفس عنوان كتاب برادلي «المظهر والحقيقة Appearance And Reality»، مما يذكرنا بفرضييم بيكون F. Bacon

(١٩٦١ - ١٩٦٦) حين وضع المنهج التحليلي في كتاب يحمل نفس عنوان الكتاب للتطبيقية لأرسطو. أي «الأورجانون» أو «الأداة» في إشارة واضحة إلى أن أورجانون أرسطو قد أصبح أداة بانية عنا عليها الفكر، وأن التشريب هو «الأورجانون الجديد» العصر الحديث.

وبالمثل فعل رسل، وكأنه يريد أن يؤمن هو الآخر إلى أن معالجة برادلي قد عفا عليها الممر. وما هي ذي المعالجة الجديدة للمظهر والحقيقة، إن المفارقة بينهما مصدر مشاكل ومصائب فلسفية كثيرة، الرسام يريد المظهر. يريد الأشياء على ما تبدو عليه. أما الفيلسوف فيريد الحقيقة. يريد الأشياء على ما هي عليه.^(٢١)

وهي بحث الحقيقة، في بحث الأشياء على ما هي، سوف تواجهنا مثالية لن يتخطى عنها رسل بعد ذلك أبداً وهي أسبقية المعرفة على الوجود وظهور الانطولوجيا من الأبيستمولوجيا، والارتكاز الموجودات بعملية الأثر-ك. فلا مبالاة إذن لو قلنا إن تصور رسل للعالم من الآن فصاعداً هو تصور مثالي بهذا المعنى.

يبدأ رسل هذا الطريق بتقدير أن ما نعرفه معرفة مباشرة هو فقط المعطيات الحسية Sense - data هذه القيمة الحسية وتلك القيمة الصوتية وهذا التمس الخشن... إنها نقطة الارتكاز التي تدع عن أي شك فتمثل الكوجيتو الديكارتي. ونظراً لاختلاف التطور والواقع ومسقط الضوء فلا أحد يرى ما وراء الآخر بالضبط. لا أحد يتقن صورة مطابقة من تلك المعطيات الحسية التي هي البتة الوحيدة لأنها معرفة مباشرة. أما سائر الموضوعات الفيزيقية كالكرسي الذي اجلس عليه أو النجم الذي أراه في السماء، فلن نعرفها عن طريق الاستدلال عليها من هذه المعطيات الحسية. وخيرة الوحي القوي بهذه المعطيات هي إحساس Sensation. إذن هناك طريق بين المعطى الحسي وبين الإحساس. أي أن رسل سلم بثباتية الموضوع الحسي والفعل الذهني^(٢٢) وهذا ما أكده الدكتور محمد مهران في دراسته الجادة للشار إليها، وأن رسل في هذه المرحلة الثاني، ولم يعمل بعد إلى التوحيد التي سوف تصبح العلم المميز للتصور للعالم.

اللون في حد ذاته معطى حسي وليس إحساساً، لكنه ليس شيئاً محايثاً أو محايداً في التضاد. لأنه يتوقف على الضوء، وعلى سلامة أعصاب البصر وعلى أن الراي لا يرتدي مثلاً نظارة زرقاء وليس مصاباً بالهرقان أو بعض الألوان، ويعتمد لون المتضد على كل هذه العناصر. والمثل يقال عن التمس، قد تبدو المتضد للعين المجردة ناعمة لمساء، ولكن إذا نظرنا إليها عبر مجهر يبدو سطحها بالغ الخشونة ذات منحنيات ومتحدرات، فأي الظهورين هو حقيقة التضاد؟^(٢٣)

المعطيات الحسية ليست هي ذاتها التضاد. التضاد شيء فيزيقي ومجموع الأشياء الفيزيقية هو المادة، وكل ما تدركه محض مظاهر لها. لكننا نعتقد أنها علامة على واقع ورأسها.

بدء العالوية والعالوية

فهل هناك منطقتان؟ وأي نوع من الأشياء تكونتا؟ وهل توجد المادة؟ وإذا وجدت ما هي طبيعتها؟

يقول لينتز إنها جميع الأرواح، ويقول باركلي إنها فكرة في عقل الله، ويأتي العلم الحديث بوقاره ورسائله ليخبرنا أنها مجموعة هائلة من الشحنات الكهربائية في حركة متقدة ... أما فيلسوفنا برتراند رسل فيقول إننا قد لا نملك دليلاً على وجود التضادة ووجود الأشياء الفيزيقية، ولكن مهما تشككنا فيها، إن نشك أبداً في وجود المعطيات الحسية التي تجعلنا نعتقد أن هناك ملصداً، ونحن نعمل ميلاً فريزيا إلى الاستدلال من هذه المعطيات على وجود الأشياء الفيزيقية. كل موضوعات العالم الفيزيقي لا نعرفها معرفة مباشرة، بل فقط نستدل عليها من المعطيات الحسية، ويبدو عقلانياً تماماً أن نتخذ هذه المعطيات علامة على وجود شيء ما مستقل عنا ولا يفتني حين تتوقف عملية الإحساس أو الإدراك الحسي للمعطيات تصادرة عنه.^(٣٣)

هكذا تحولت الأشياء الفيزيقية إلى كيانات مستدل عليها، والمعطيات الحسية الشيء الوحيد الموضوعي الذي قطع بوجوده، فلا غرو أن يعلنها المكونات القصوى للعالم الفيزيقي بوصفها فيزيقية خالصة.^(٣٤)

ثم أضاف رسل إلى المعطيات الحسية والمعطيات الحسية الممكنة Sensibilia وهي لها نفس المنزلة الفيزيقية والبيدافيزيقية للمعطيات الحسية، بيد أنها لم تعد بعد لعقل ما، أو بمعطيات أرسطو هي معطيات عقلية بالقوة، تتوقف لتصبح معطيات حسية بالفعل حين تقع في خبرة عقل ما، تماماً كما أن الرجل يصبح بعلاً حين يتزوج، لذلك يقول رسل إن العلاقة بين المعطيات الحسية والمعطيات الحسية الممكنة تعادل العلاقة بين الرجل والبعلة، يصبح الرجل بعلاً حين يدخل في علاقة زواج، وتصبح المعطيات الحسية الممكنة معطيات حسية حين تدخل في علاقة معرفة بالاكتمساب^(٣٥)، فقد فرق رسل بين المعرفة بالاكتمساب المباشر وهي إدراك المعطيات الحسية والوعي بها، وبين المعرفة بالوصف وهي معرفة تلك الكيانات الفيزيقية التي نستدل عليها من المعطيات الحسية.^(٣٦)

إن المعطيات الحسية الممكنة - وليس المعطيات الحسية فقط - هي المكونات القصوى للعالم الفيزيقي. وهذا التمييز بين الاثنين من ناحية، والتمييز بين المعطى الحسي والإحساس من الناحية الأخرى، يؤكد أن المعطيات الحسية ليست ذهنية خالصة مرتبطة فقط بالذات العارفة، بل هي متعلقة للعالم الفيزيقي.^(٣٧) فتصلح تماماً لتصور موضوعي للعالم والتفسير، وتجد تمام تبرير أدائها لهذه المهمة في مبدأ الاتصال أو الاستمرار Continuity، أي اتصال المعطيات الحسية عن الموضوع الفيزيقي نفسه، إن رسل يستعمل الاتصال - طبعاً - بالمعنى الرياضي الذي يعني أن التصل ليس شيئاً سوى مجموعة من العناصر مرتبة ترتيباً معيناً.^(٣٨)

وفيما بعد، هي مرحلة التالية سوف يهتم رسل اهتماماً شديداً بعيداً الاتصال بخصوصها إذا تلاحم مع العلية. وبعد أن انطأ به هذا الدور في تصور العالم، سوف يعتبره أيضاً مساندة من مساندرات البحث العلمي، ويبنى بتفصيلها. وهذا معناه أن الاتصال يقوم بدور جوهري في الفلولوجيا رسل وفي الاستمولوجيته على السواء. والواقع أن الفصل بين الانطولوجيا والاستمولوجيا في فلسفة رسل سوف يندو لعمقها إلى حد ما. وهذا هو محور حكمنا بمثلثيته. على أية حال، فإن رسل يحدد مساندة الاتصال، وهو بالطبع اتصال زمني - مكاني، بأنه إذا كان هناك ارتباط علي بين حادثتين غير متجاورتين، فلا بد من روابط في التسلسل العلي لتتوسط بينهما تجعلهما متصلتين أو تجعل العملية متصلة بذلك المفهوم الرياضي للاتصال. فإذا كان هناك عدد من السمتعين تحدثت، فمن الواضح أيضاً أن هناك ارتباطاً علياً بين ما يسميه هؤلاء السمتعون المختلفون، ومن الواضح أيضاً أنه لابد وأن توجد روابط في السلسلة العلية - من قبيل الموجات الصوتية - في الذي للتوسط بينهم، ما داموا متفرقين في امكانه شتى. وبسبب مساندة الاتصال لا نشك في استمرارية وجود شطعن ما خلال الأزمنة التي لا نراه فيها.⁽³⁴⁾

وتلعب العلية دورها الكبير في عالم رسل، طلباً لم تعد قوة مؤثرة ولو عن بعد أو قوة إيجابار Compulsion كما كانت في الفيزياء الكلاسيكية، بل مجرد قوانين للتعاقب.⁽³⁵⁾ لتبقى دائماً معاملاً تنظيم العالم وتنظيم عملية إدراكه. العلية خطوطاً نظرية مؤقتة، وغير شاملة لكنها قادرة على هذا، فاعلية بتقريبها الواقع تضم كل القوانين التي تربط الأحداث في مختلف الاتصالات الزمانية المكانيّة.⁽³⁶⁾ ويشير رسل إلى اعتقاداته الراسخ بأن كل ما نعرفه عن العالم الفيزيقي يعتمد على افتراضنا بأن هناك قوانين عليّة.⁽³⁷⁾

صحيح أن رسل يبنى بتفصيل الاتصال والعية وما إليها في مرحلة لاحقة، لكنهما قاما بدورهما لكي ينتظم تصور رسل للعالم آنذاك بوصفه مكوناً من معطيات حسية ممكنة، ومعطيات حسية تستدل منها على الموضوعات الفيزيقية، هذا بمعنى خبرات ذهنية خالصة، فرسل مازال محتفظاً بثباتية سيكوفيزيقية - كما أشرنا - حين فصل بين الإحساس الذي هو فعل ذهني أو حادثة ذهنية، وبين موضوع الإحساس - أو معطياته - الذي هو حادثة مادية، فبدت المعرفة وكأنها علاقة بين ذات وموضوع، خصوصاً حين كان رسل يبحث المعرفة المباشرة أو المعرفة بالاكتمساب والمعرفة بالوصف. وعلى هذا، فلن رفض رسل العقل بوصفه كياناً متميزاً وأحل محله المعرفة المباشرة بوصفها المكونات القصوى للعقل «إلا أنه قل ثباتها حتى عام 1919 أو 1920».⁽³⁸⁾

وكانت الخطوة التالية في تصوره للعالم، لتقتضي تماماً على تلك الثباتية حين تقدم مفهوم «البناء المنطقي، Logical Construction».

بناء العالم والمعادن

ومنهج البناء المنطقي، الذي يعد من أهم أدوات التحليل عند رسل⁽⁴⁷⁾ هو تطبيق حوفي للمادة تصل أركانها الذي يلزمنا بحدوث كل ما يمكن حذفه من كيانات مستبدل عليها فتكون معرفتنا بها احتمالية وموضوع شك، وذلك لكي يحل محلها ما نحن على معرفة مباشرة وبديهية به. على هذا لا تعود الكيانات الفيزيائية مستبدلاً عليها من المعطيات الحسية، بل هي أبنية منطقية من هذه المعطيات أو بالأحرى من الأحداث.

إن منهج البناء المنطقي يمثل الانتماء للطفلة والفاطمة من الواقعية الساذجة أو الواقعية بشعبها ولحمها. وكان رسل قد استخدمه ليصل إلى أن العدد لا يشير إلى كيان واقعي، بل إلى فئة من الفئات، وقام بتطويره في «برنكيها ما تيمانيكا»، وبعد نجاح منهج البناء المنطقي في إيجاد حلول للمشاكل الرياضية والمنطقية، قام رسل - بدافع وشحن من وائتهد - بعد لطفه إلى مشكلات الفلسفة بعامة⁽⁴⁸⁾. وعلى رأسها المشكلة الأم هي فلسفة رسل، مشكلة المعرفة.

المعرفة الإنسانية تشمل على كيانات كثيرة لا نستطيع القطع بوجودها، والأفضل أن تتم صياغة المعرفة في حدود علاقات بين كيانات أبسط وأكثر مفرولية ولا نستطيع إنكار وجودها، وبهذا نحرز تقدماً فعلياً في الفلسفة، فنقد استبدالنا غير المشكل بالشكل، والواضح بالغامض، واليقيني بالاحتمال، ويغدو ناموسنا إزاء **موضوعات العالم** - حينما يمكن أن نستبدل البيانات المنطقية من الكيانات المعروفة بدلاً من تلك الاستدلالات على الكيانات غير المعروفة، وحتى كيان فيزيكي معتمد مثل المجال الكهرومغناطيسي يمكن أن يتحول إلى بناء منطقي⁽⁴⁹⁾ فالإلكترونيات والبروفونات ليست نتيج **العالم الفيزيائي**، بل هي أبنية منطقية منسجة ومطورة⁽⁵⁰⁾ ويمكن أن نواصل المسير إلى ما استجد بعد رحيل رسل ونقول إن الكواركات والجلونات بدورها أبنية منطقية.

وعندما حل البناء المنطقي محل الكيانات المستبدل عليها، انزعج الاستدلال من تصور العالم، وبالتالي سوف نراجع أية حوار بين الذات العارفة وموضوع المعرفة ونقبحر الثانية تماماً من تصور رسل للعالم، فالمحلل بناء منطقي من الوقائع الذهنية، والمادة بناء منطقي من المعطيات الحسية الممكنة⁽⁵¹⁾، فالتحجج الباب على مصراعيه أمام تصور معابد العالم مادته الخام هي الأحداث.

وكان وائتهد قد أوضح أن النقاط المكتوبة واللحظات الزمانية تتركب من فئات من الحوادث، كل حادثة لها امتداد مثله في المكان وديمومة مثله في الزمان. ولكن بعد نظرية النسبية لم تعد الفيزياء الرياضية تعمل بامتداد مكاني والتمثال زمني، والآن يمكن بناء الأحداث - الجسيمات - **events - particles** هي التصل الزماني - المكاني (أو الزمكاني) للنسبية بنفس طريقة بناء النقاط واللحظات. والبيانات هنا تختلف عن بيانات الرياضيات البحتة من حيث إنها من سلسلة حوادث وجودها مسألة تجريبية. إلا أن المنطق - كما يؤكد رسل - مستعد تماماً لمواجهة أي مطلب تجريبي تشترطه الفيزياء. فمثلاً كان ثمة خاصية للمادة مهمة تجريبياً وهي أنه لا يمكن أن توجد قطعة

مادة بعينها في مكانين في وقت واحد، أو في مكان واحد في زمانين مختلفين. وهذا ما يعرف بعدم قابلية المادة للاختراق *impenetrability*، وهي خاصية مطلوبة في الفيزياء الكلاسيكية والحديثة. فهل تكفي ملاحظة كريات البليارو لإثباتها الآن إذا أصبحت المادة بناءً منطقيًا من كل الأحداث في حيز معين من التصلب الزمني، غير متقاطعة وغير متخلطة فائدة غير قابلة للاختراق. هذا لأنه من الأسير أن نضع قوانين الفيزياء بطريقة تؤمن خاصية عدم قابلية المادة للاختراق. هذه الخاصية تلزم الآن بالضرورة المنطقية عن تعريف المادة كبناء منطقي. مع ملاحظة أن قطع المادة ليست هي القوالب التي يتم منها بناء العالم. القوالب هي الأحداث⁽¹⁴⁾ وقد تم حذف جزئيات المادة والنقاط واللحظات على السواء.

ومنهج البناء المنطقي من الأحداث بدلا من منهج الاستدلال في المرحلة السابقة من فلسفة رسل. يمكن تطبيقه بالأسلوب نفسه على الأحداث الذهنية. على الرغم من أن علم النفس ليس متقدما بنفس درجة الفيزياء. بيد أن السلوكية - فيما يؤكد رسل الذي يحل بذاتها وانطلاقا علم النفس العرقي - قد رسل هي ذاتها النظرة العلمية، فكل الأنشطة الإنسانية تولد معها إلى سلوكيات تدور من مناهج العلم التجريبي مستخدمة القالب تماما⁽¹⁵⁾. وقد كانت الذات من ناحية، وعلاقة العرفية بما هو معروف من ناحية أخرى، كلاهما تثير شكوكا جمعا، سوف تتداح إذا أنكرنا الطابع العلاقي للإحساس، ليست للأحاسيس خاصية علاقية مع الذات. وتبست الإحساسات في حد ذاتها معرفة. إنها مجرد أحداث. العقل بدوره بناء منطقي من أحداث. فلا تعود الحدودات occurrences العقلية معنوية اختلافا بطريها عن الحدودات المادية، وبالتالي يصبح من الممكن اعتبار العقل والمادة كلاهما بناء منطقيًا يشكل من الحامة نفسها وهي الأحداث. لكن بقوانين عليّة مختلفة.

وهكذا كما حذف منهج البناء المنطقي الجوهر تماما من عالم المادة حذف الذات تماما من عالم العقل. فنتخلص من الثابتة الديكارية التي قصمت ظهر الفلسفة الحديثة. كلاهما الآن أنبية منطقية من الأحداث. وبدا هذا أمام رسل حلا نهائيا لمشكلة العقل والمادة. وقد كان القضاء على خرافة ديكارت هدها للتفكير التحليلي بأسره⁽¹⁶⁾. وأحداث رسل المحايدة تبدو كأنها قد حلقت هذا الهدف. لأن بقية مدارس التفكير - بمنهجها الردي المذكور في التهامش - لم تخرج البتة عن الواحدية المادية المستهلكة طوال جهود الفلسفة، بمشاكلها ونقائصها المعروفة. وقد رفضها رسل ورفض منهجها الردي وراء لا يزيد شيئا عن موقف الواقعية المادية، تماما كما أن الثابتة لا تزيد شيئا عن موقف الحسن المشترك. وبدت الأحداث المحايدة طرعا مستجدا وغريبا والأهم أنه هو التوائم مع نظريات العلم، الفيزيائي أولا والنيكولوجي ثانيا.

أجل الأحداث المحايدة بوصفها خاصة العالم، أو العالم بوصفه نسخها من الأحداث المحايدة ليست البتة من إبداع رسل، مهما قل رسل فريدا في معالجته إياها. ونفضلا عن

بين العالمية والواقعية

جهود وايتهيد الذي كان رائدا هاديا أخذ بيد رسل وطام خطاه، كانت الفكرة أي الأحداث المحايدة متواترة ومطروحة بوضوح في خطوط من فلسفة القرن التاسع عشر ذات النزوع التجريبي والعلمي، وكانت شائعة بعضة خاصة بين فلاسفة الواقعية الجديدة في أمريكا، على رأسهم وليام جيمس (1827 - 1910) وأيضاً تشوونستي وايت (C. Wright (1830 - 1889) ووالف يارنون بيري (R.B. Perry (1857 - 1959) وإلى حد ما جون ديوي (J. Dewey (1859 - 1952)، فمثلاً عن قصر من فلاسفة القارة الأوروبية أهمهم أرنست ماخ (E. Mach (1838 - 1916).

فيهر أن برتراند رسل يخص بالذكر فقط وليام جيمس وأرنست ماخ وينسب الواحدية المحايدة إليهما، ويطلق عليهما مصطلح أو اسم «فرضية ماخ وجيمس»⁽³⁴⁾، حيث لا يعود العالم مكوناً من المادة ولا من العقل، بل من شيء مختلف عنهما وأبسط من أيهما وأكثر أساسية من كليهما، ومن هذا الشيء يتكون العقل والمادة.⁽³⁵⁾

إن مثل هذا ذهب التجريبي المتطرف، فيلسوف الأدائية الرائد أرنست ماخ في كتابه «تحليل الإحساس» الذي صدر عام 1883 وترجم بالإنجليزية عام 1909⁽³⁶⁾، حيث قام بتحليل الأشياء التجريبية إلى عناصر أصغرها «الإحساسات» لأنها نكتشفها من الخبرة الحسية، لكنها ليست ظاهرة أو غير ظاهرة بل هي تعاليف وتشكل النسيج الذي يتألف منه العالم.⁽³⁷⁾

وهذا الذي بلغه أرنست ماخ من خلال الفيزياء، بلغه وليام جيمس من خلال علم النفس، حين حاول بالاستناد إلى خلفيته الكنية من دراسة الطب وعلم وظائف الأعضاء أن يعلم علم النفس ويحيله علماً تجريبياً خالصاً مستقلاً تماماً عن الوعي وعن خرافة «الذات» حتى يقدو علم نفس من دون نفس⁽³⁸⁾، وكان سيول جيمس إلى هذا هو التجريبية الجذرية التي تصور العالم علماً من الخبرة الخالصة لا يسمح بدخول أي عنصر لا يقع في الخبرة، وبهذا تغدو الخبرة الخالصة هي الخامة الواحدة والتوحيدية التي يتركب منها كل شيء في العالم، عقلي أو مادي، وهي مختلفة عن كليهما.

إحساسات ماخ أو خبرات جيمس أو أحداث رسل، خامة واحدة لا هي عقل ولا هي مادة بل محايدة بينهما، فيتشكل كلاهما منها، فلا نزع أن العقل هو نفسه المادة أو أن المادة هي ذاتها العقل، هما بذاتهما متمايزان لكنهما يتشكلان من الخامة المحايدة نفسها، بقوانين أو تسلسلات أعلى مختلفة، وهذا تصور للعالم يختلف عن الواحدية المثالية بقدر ما يختلف عن الواحدية المادية التي تزعم أن العالم كله مادة خالصة والعقل ظاهرة فرعية أو وظيفة لها، بقدر ما يكون هو ذاته النظرة التعددية للعالم، تعددية تتولى تعددية ذاته.

34 - لاحظ أن رسل كان يجيد اللغات الأربعة والفرنسية والإيطالية بطلاقة ويقرأ بها جميعاً كما يقرأ بالانجليزية.

وبعد أن كان رسل ينتقد ولهم جميع ويرفض خبراته المحايدة، القلب فجأة في عام 1919 - 1920 تهمل بها، ومنذ ذلك التاريخ فصاعدا ما هتف رسل بشي على جميع الشاء الجميل ومحبته من أهم الأعلام الفسلفين الفلسفة القرن العشرين⁽¹⁹⁾

ومع هذا لا يمكن البتة الزعم بأن انقلابية رسل إلى حيادية الأحداث في هذا التاريخ 1919 - 1920 هو بآية حال استجابة لتأثير جميع أو ماخ أو سواهما، بل هو واحد رسل الصافي، إنه محض استجابة لتطورات العلم العظيم في الثلث الأول من القرن العشرين.

كانت تغيرات العلم آنذاك هاصفة، تحرك معها علم النفس السلوكي ليفتح أقرب إلى ما هو مادي متميز، وتحركات الفيزياء الذرية وفيزياء الكوانتم تشغد أقرب إلى ما هو عظمي مجرد، الحياة النفسية سلوكيات ملاحظة تجريبيها، ووقائع المادة شحنات كهربائية مستبطة عليها أو رياضيا، فبدت حيادية الأحداث وكأنها تفرض نفسها على عقل علمي بالدرجة الأولى كمعقل رسل، خصوصا إذا تربعت نسبة أينشتين على قمة هذه التغيرات العلمية.

والواقع أن النسبية هي العامل الجوهرية أو العلة المباشرة التي أدت برسل إلى هذا التصور للعالم من أحداث محايدة، وهذا ما نخرج به من تاريخ انقلابته الحاسمة 1919-1920 إلى مناصرة جميع وإلى الإقلاع التام من **النشائية** **السيكوفيزيائية**. صحيح أن نظرية النسبية الخاصة أعلنها أينشتين عام 1905 والعام 1919، إلا أن عام 1919 كان حاسما في تاريخ النسبية، إذا اجتازت فيه اختبار دقيق، فوجدت بعيدة بصرها إلى المجتمع العلمي بقوة وبخمس،

بعد أن كان الرأي العام العلمي لا يتقبلها تماما <http://archive.org/details/...>

فكما هو معروف، بعد محض فرض الأثير، أنكر أينشتين النظرية الموجبة هي لتفسير طبيعة الضوء، وأخذ بالنظرية الجسيمية، ولبعا لها يكون الضوء سيال من الجسيمات (الفوتونات) خاضعة لقوى الجاذبية التي تتناسب طرديا مع الكتلة وعكسيا مع مربع المسافة، فإذا كان الضوء جسيمات فلا بد وأن تجذبه الأجسام الثقيلة مثل الشمس، جذبا يعرّفه عن مساره الذي كان سيسير فيه ولو لم تكن هذه الشمس موجودة، ونتيجة لهذا يمكن أن نحسب أن الضوء المنبعث من نجم في وضع ظاهري قريب من الشمس، يصل إلى الأرض من الاتجاه الذي يجعل النجم يبدو كما لو كان مائلا قليلا عن الشمس، وبعبارة أخرى نقول إن النجوم القريبة من الشمس تبدو كما لو كانت قد تحركت قليلا بعيدا عن الشمس، وبعبدا عن بعضها البعض .. وهذا شيء لا يمكن ملاحظته في الأحوال الطبيعية، طالما أن النجوم غير مرئية في النهار بسبب اللمعان الشديد للشمس، ولكن يمكن تصويرها فوتوغرافيا إبان كسوف الشمس، ولو صورتها هذه المجموعة من النجوم أثناء الليل - أي أثناء غياب الشمس - يمكن قياس الانزياحات على الصورتين، وحساب الأثر المتوقع، فكانت بعثة آرثر إدنجتون إلى جنوب أفريقيا عام 1919 لتصوير النجوم أثناء كسوف الشمس، وذلك لمقارنتها بصور النجوم أثناء الليل، وثبتت الفارقة

رد على المقالة والواقعة

وحسابات الأثر المتوقع. وكانت تماماً كما تبدأ أينشتاين^(١٢) وجاء التحقيق التجريبي من النسبية. وكان هذا الحدث ليسبب وجدا عميقا في المجتمع العلمي.

يظهرنا الآن وود في كتابه المتع عن سيرة برتراند رسل، عن مدة شغف رسل بمتابعة تفاصيل بعثة آرثر إدينجتون، واضعالة العميق بنتائجها حتى مرت عليه لحظة تصور فيها أن أي شيء بخلاف النسبية لا يستحق اهتماما قذال: «لنقتي لم أنفق كل هذه الأعوام من عمري على قانون رشتد»^(١٣).

لذلك اندفع رسل بمجاميع نفسه نحو عالم من أحداث. لأن هذا هو تصور النسبية للعالم. ونحن نصبح هذه الأحداث محايدة فإنها قادرة على تأطير تصور العالم بأسره. وظهرت الاستجابة المباشرة لهذا بأن أخرج اثنين من أهم أعماله تواء، ألا وهما «تحليل العقل، عام ١٩٢١ إينلوي على قبول تام بل تسليم لا نقدي بالسلوكية وتنقيح وتطوير للأسس المشتركة بين علم النفس والفيزياء، فتجد نظرة لا عقلية للعقل، ثم أزدفه بكتاب «تحليل المادة، عام ١٩٢٧ حيث نجد نظرة لا مادية للمادة، فقد ارتد كلاهما إلى أحداث»^(١٤) وإن كانت النظرة التحصيلية الدقيقة تذهب إلى القول إن رسل «في تحليل العقل، يعني الواحدة المحايدة بصورة جزئية حاول أن يجعلها كاملة هي تحليل المادة»^(١٥). ويمكن اعتبار هذا تناسبا لتأثير

نصرة النظرية النسبية في بعثة آرثر إدينجتون. كان أطهر ما في النسبية أنها أعبرت الزمان بعد الأربع للمادة فأطاحت تماماً بالاتصال التقليدي بين مفهومي الزمان والمكان، واستبدلت بهما التمثل الزماني - المكاني، أو الزمكاني Spatio - temporal^(١٦)، وهو ليس كيانا واحدا يحل محل كيانين وليس شيئا وليس مسرعا جديدا للحدوثات بل هو نظام من العلاقات بين الأحداث يهدم تماماً التصورات التقليدية عن التتابع الزماني والتجاور المكاني، وللمادة بوصفها مكونة من جزئيات غير آتات الزمان في نقطة من المكان. وهذا هو الذي أدى إلى حيادية الأحداث، ولبيان أن الواحدة المادية والواحدة المثالية كليهما ذات فكرة مرتبطة عن المادة إلا عاشوا عبيدا لتصور الزمان والمكان كيانين منفصلين، فتمسروا المادة حدثا في المكان والعقل حدثا في الزمان^(١٧) وترجمنا النسبية على الإطاحة بكل هذا فلا يبقى إلا الأحداث، الحادثة لا تبقى ولا تتحرك كقطعة المادة، إنها توجد ثم تنتهي، فتتحلل قطعة المادة إلى سلسلة من الحوادث والجسم سلاسل من هذه الحوادث، الجسم هو تاريخه، وليس كيانا ميتافيزيقيا يحمل تلك الحوادث، تماما كما أن العقل هو تاريخ سلسلة أحداث وليس كيانا ميتافيزيقيا، هذا ما ترجمنا عليه النسبية^(١٨).

وترجمنا عليه أيضا نظرية الذرة والكوانتم، حيث ارتدت الذرة إلى إشعاعات، إلى سلسلة من الأحداث، ولا سكون البتة في قلب الذرة، لا وجود لكشيء أو للجوهر المادي. وبعد ما تبدي

١٢- النظر...، معنى طريق التطوير، الزمان في الفلسفة والعلم الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٢٢ وما بعدها.

لنا من حركة دائية في الإلكترونيات أدركنا أن القول: «هذا هو الكرسي الذي رأيت به بالأمس» قول مريب لكن غير دقيق بلغة لأن القطعة المتناهية الصغر من الكرسي تتبدل وتتغير فيما يقل عن جزء من مائة ألف جزء من الثانية، وذلك القول عن الكرسي يشبه القول إن الإنكليز الآن هم الأمة التي كانت على عهد الملكة إليزابيث منذ مئات السنين.^(١٠٧)

أما الخ فهو أبعد منا عن المادة لأننا أكثر جهلاء به، وخبرة رؤية الكرسي اتصال منبهي طويل من سلسلة أحداث تتخلل خلالها الموجات الضوئية وحزم الأشعة ومطروحات الضوء والمغصب البصري ثم الخ، ومع أي اعتراض لهذه المسلسلة من الأحداث، بإغلاق العينين أو حجب الضوء، أو هناك المغصب البصري سوف تعدم خبرة رؤية الكرسي، وكل ما يمرره عالم الفيزيولوجي عن الخ ما هو إلا نتاج سلاسل أحداث واتصالات عليّة أعقد وأطول.^(١٠٨)

قد تبدو الظواهر العقلية كالصرخ والحزن واللذة والألم والذكاء... مختلفة عن الظواهر المادية بيد أن كليهما سلاسل من أحداث تنظمها قوانين عليّة، مادتهما واحدة هي الأحداث المحايدة، والاختلاف بينهما في طبيعة القوانين العلية المنظمة، فهناك قوانين أو سياق عليّ ينظم الأحداث في هيئة صورة ذهنية (Images) فتكون ظواهر عقلية وموضوعاً لعلم النفس، وهناك قوانين عليّة تنظمها في هيئة إحساسات فتكون ظواهر مادية وموضوعات لعلم الفيزياء.^(١٠٩) وهذا يشبه الاختلاف بين تصنيفات الناس جغرافياً حسب مواقع سكنهم وتصنيفهم أبجدياً بوسائل أسمائهم حسب ترتيب حروف الأبجداء، مكتب البريد يعمل بكلا التصنيفين^(١١٠) والعالم يوزن الثمنوز يعمل أيضاً بكلا التصنيفين وتفاعلهما معاً، ولتقارن التصنيف الجغرافي بما هو مادي منتم لعلم الفيزياء والتصنيف الأبجدي بما هو عقلي منتم لعلم النفس، ويمكن لعلم الفيزيولوجي أن يفسر التفاعل معاً، حين تظهر مجموعة من الناس إلى شيء نفسه، فيرون منظورات مختلفة تتفق على موضوع معين، وعلم الفيزيولوجي يقودنا إلى التسلسل العلي للأحداث التي تبدأ من الموضوع وتصل إلى مراكز الإحساس، ويظل العجب ما في الأمر أن تكون الحلقة الأخيرة في هذه السلسلة العلية مطابقة للحلقة الأولى.^(١١١)

هكذا انتهى رسل إلى تصور عالم هو أبنية منطقية من أحداث محايدة، تنظمها قوانين أو سياقات عليّة، فتشكّلت الأحداث في خطوط عليّة Causal Line شبه مستقلة، والخط العلي هو سلسلة من الأحداث، نستطيع أن نستدل من أية حادثة في هذه السلسلة على شيء ما يتعلق بحادثة أخرى في السلسلة العلية، والإدراك الحسي بوصفه مصدراً للمعرفة المتعلقة بالموضوعات الفيزيائية مستحيل من دون سلاسل عليّة شبه مستقلة.^(١١٢)

إن الأحداث هي أساس تصوراتنا للعالم لأنه لا يوجد شيء البتة في العالم ليس قطاعاً من تلك المادة الميتافيزيقية الأولية الثابتة التعددية: الأحداث.^(١١٣)

بنية العالمة والواقع

لقد استقر رسل أخيراً على أن الأحداث هي المكونات القصوى أو النهائية للعالم، لأنها حتى ولو كانت ذات بنية، فهي ليست بنية زمكانية، بمعنى أنها ليست أجزاء تتصل ببعضها بعلاقات خارجية عبر الاتصال الزمكاني⁽¹⁾. بيد أن رسل لا يكف أبداً عن التطوير والتنقيح، لذلك حاول فيما بعد أن يقدم تحليلاً للعادة بوصفها مركبة معاً أسماء بالكيفيات المتصاحبة Compresent Qualities في الآن الزمكاني نفسه. والتصاحب ينطبق على الظواهر الفيزيقية والتنسجية، أو المادية والمثلية على السواء، فيغدو تعريف العادة أنها حزمة متكاملة من الكيفيات المتصاحبة⁽²⁾. فخرج كتاب رسل «بحث في المعنى والصدق، An Inquiry Into Meaning And Truth» عام 1940، حيث نجد العادة وكأنها بناء معقد يمكن تحليله، إلا أنه جاء في كتاب «المعرفة الإنسانية» عام 1948، ليؤكد أن هذه العالمة للأحداث ومحاولات تحليلها لا تتناقض البنية مع النظرة المطروحة في «تحليل المادة» التي تعتبر الأحداث هي المكونات القصوى أو النهائية للعالم. على الرغم من أنها لم تعد بسائط غير قابلة للتحليل، فهي ثقل دائماً ما يشغل أصغر قدر مثالي من الزمكان.

الكان بدور، أو الزمان وهذا الآن سيان - لا يلتقط بأحداث منفردة، بل بالأحداث كمجموعات كلية، والدور الذي قامت به المعطيات الحسية الممكنة Sensibilia حين كانت الموضوعات الفيزيقية كيانات مستقلة عليها، أي تحفظ كيان العالم فلا يختفي بتوقف عمليات الإدراك كعالم باركلي ولا يتحول إلى شيء. هذا الدور في عالم الأبنية المنطقية تقوم به الأحداث غير المتركة. فتصور العالم في النهاية كأبنية منطقية من الأحداث التي تقع في مبركاتي والأحداث التي تقع في مبركات الآخرين والأحداث غير المتركة، جميعها انتظمت في سلاسل كلية.

وفيما للتطرية الكلية للإدراك يتحدد نوع السلسلة. فلذا كانت إحساسات sensations أي مدركة عبر أعضاء الحس، فالعلة مادية فيزيقية تجعل سلسلة الأحداث منسجمة لعلم الفيزياء، وإذا كانت صوراً ذهنية images أي مدركة عبر كلية مركزية في المخ والذاكرة فالسلسلة عقلية سيكولوجية منسجمة لعلم النفس، كل الأحداث لتتظم في هذين الشكلين: إحساسات وصور ذهنية، والتمييز بينهما يتوقف على طريقة إدراكنا للشيء.

وكان رسل قد جعل الجهاز الإدراكي للإنسان هو التماسك بين نوعي الظواهر الأنطولوجية، فيؤكد جهارا نهاراً «أن التمييز بين ما هو ذهني وما هو فيزيقي يتوقف على طريقة إدراكنا للشيء». وأن هذا التمييز يستمولوجي وليس انطولوجيا، ينتمي لتطرية المعرفة وليس الميتافيزيقيا أو نظرية الوجود⁽³⁾. فيقول: «عقيدتي هي أن التمييز بين ما هو عقلي وما هو فيزيقي لا يكمن في خاصية كائنية في أي منهما، بل في الطريقة التي نكتسب بها المعرفة عن أيهما». فالعادة عقلية إذا استطاع الشخص أن يخبرها مباشرة، وهي فيزيقية إذا

لم يكن ممكناً إدراكها إلا عن طريق الاستدلال»⁽¹⁰⁰⁾

وأكثر من هذا، فليس التمييز بين الحوادث فقط هو الذي جعله رسل في مع الإنسان، بل الحوادث بأسرها أولاً كان العالم مجرد جماع من حوادث فهل يقابقتها أن رسل وضع العالم بأسره في مع الإنسان؟ لتكون واحدة من أعلى ذرى المثالية في تاريخ الفلسفة، تعيزت بأنها تصور للعالم، تكلفت - كما يؤكد رسل - أربعة علوم لتشبيده، وهي المنطق الرياضي والفيزياء النظرية وعلم النفس والفيزيولوجي أو علم وظائف الأعضاء⁽¹⁰¹⁾.

والشهر القدهشة حقاً هو تعاطف دور الفيزيولوجيا، مادام العالم بأسره قد حل في الخ الذي تدرسه. بيد أن الفيزيولوجيا ليست أقوى بأساً من الفيزياء بحال، فلن نستطيع أن نخفف قيد أنملة من غلواء المثالية. وعالم الفيزيولوجي حين يلاحظ مطاً فإن ما يراه في معه هو وليس في الخ الذي يلاحظه، إنه أثر بعيد لذلك الخ الفيزيقي التزوم وعلاقاته به يتم الحصول عليها استدلالاً، فيؤكد رسل أنه لا يوجد شيء اسمه عالم المادة متميز عن خبراتي⁽¹⁰²⁾ سواء كانت المادة قطعة معدن أو إلكترونات يدرسها عالم الفيزياء أو مع وخلافاً حية يدرسها عالم الفيزيولوجيا.

إن مجموعة أو سلاسل الأحداث تعتبرها الفيزياء حالة موقوفة لتطعة مادة بناء على ارتباط عليّ هو حلقة أو فكرة كانت في منطقة ما من الخ، وما دنا لا نعلم شيئاً عن الصفة الكيفية للأحداث الطبيعية إلا حين تكون إما أحداث عقلية تقع في خبرات مباشرة فلن نستطيع القول إن العالم المادي خارج رؤوسنا يختلف أو لا يختلف عن العالم العقلي، فلا اختلاف البتة لأنه لا عائلين أصلاً بل مجاميع أحداث ترتبط بترابط عقلية متطابقة. وقال ما في الأمر أن هناك مكانين، مكان الخبرة لا مهيما الخبرة البصرية التي تحكم بفيزيائية ما هو فيزيقي، ومكان علم الطبيعة الذي يتربط بواسطة القوانين العلية ولا نعرفه إلا استدلالاً من الخبرات الحسية خصوصاً الطبيعة البصرية، وهذه الخبرة - التي تحدد على أساسها وجود الموجودات - مكانها الخ. ويعقب رسل على هذا قائلاً: «لقد أقرعت الفلاسفة بقولي إن أفكارهم هي رؤوسهم، وراحوا يؤكدون لي في صوت واحد أن رؤوسهم ليس فيها أفكار قط، ولكن الأدب يعني من قبول هذه القضية»⁽¹⁰³⁾.

ملاحقا : حصاد الجدول

مثالية علمية

والأدب لا يمعنا البتة من بلورة هذه المثالية التي انتهى إليها رسل، وهو يرد العالم بأسره إلى المدرك بل ويجعله داخل الخ، مما دفعه إلى

أن يقول في خواتيم كتابه «تحليل المادة» - «أجل تحليل المادة وليس تحليل العقل» - يقول رسل: «عمل النظرة المطروحة في هذا الكتاب أقرب إلى المثالية منها إلى النادية»⁽¹⁰⁴⁾ وصريح أنه فيمر ثورته التحليلية الكبرى وكان هيجل أحد مراميتها، ولكن ليس من قلة الأدب في شيء هذا

بين التجارب والمعادن

الطرح الجدلي لصيرورة تصوره للعالم، وإن لم يكن من تمام الأدب وكماله، لأنه بدأ إطاراً ضاماً، ولا يبدل بكتفه.

أو لم نر رسل يبدأ تصوره للعالم باطروحة مثالية مفردة في مثاليته، ثم يتقلب إلى نقضها الواقعية مفردة في الواقعية. ويقتود بمعبة رهيقيه البارزين جورج مور وفيتجنشتاين ثورة عظمى تحت لواء التعددية الواقعية التجريبية العلمية، وانطلاق تصوره للعالم في طريق مدفوع بهذه الثورة المضادة - الثورة التحليلية وسلاحها الماضي، نصل أولكام، الذي راح يهذ ويشر - بتعبير الدكتور زكي نجيب محمود الشهير - حتى لم يبق في العالم إلا أحداث محايدة، كما رأينا.

ولكنه في كل هذا لم يهجر المثالية تماماً أو يرفضها رفضاً ميكانيكياً مباشراً، بل رفضاً جدلياً، إذ غادر بوابتها الكبرى، وهي الواحدية وعلاقاتها الداخلية، وعاد إليها من باب خلفي، فيستبقي مساحة من رحابها تتضمن إلى الیهو العظيم للقرن باسم رسل، بعد أن تفاعلت معها عناصر تجريبية وعلمية في مركب جدلي مستجد متكامل ومتناظر، وليس مجرد جمع بين الطرفين.

فهو بالتأكيد لم يعد إلى المثالية التي رفضها كما هي بقضها وقضيضتها، أي الواحدية التخالصة ومنطقها الجدلي، بل بلغ مثالية أعظم شأناً وأجل خطراً، إذ تروع على قعدة مركب جدلي موهب.

فكان الطرح الجدلي هو القاد على طرقة هذه المثالية الفريدة، التي سنرى أنها هي المولدة لروح العصر، وإنهت المثالية العلمية التي أضحى العلم بعد تطوراتها في القرن العشرين يرفضها -

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

بداية، انتهى إلى أن رسل ليس البتة تجريبياً خالصاً، يواصل مسيرة فريشمن سيكون وديفيد هيوم وجون ستوارت مل، كما يذهب نفر من مؤرخي الفلسفة الإنجليز، إن لم نقل غالبية مؤرخي الفلسفة الغربية، وكما ذهب أمثال الجيل الدكتور زكي نجيب محمود في دراسته الرائدة عن برتراند رسل⁽¹⁾. ربما ميزت عليه أوتة - في مراحله اللغوية - تعاطف فيها مع المثاليين وأحسن أن العالم يرجع كفتهم، أو يبدو وكأهم على صواب⁽²⁾. ونازعته فيها التجريبية الخالصة - لاسيما أيام واقعيته الساذجة - فاعتبر تمثيلها النهجي أي الاستقراء بيمدائي العلوية وإطاراً الطبيعي متقدمة أولية للبحث العلمي التجريبي لأبد من التسليم بها. وفيما بعد - سرعان ما فقد الاستقراء هذه المكانة وأصبح مجرد أداة مفيدة للبحث العلمي والمفكر في مقتضيات الحياة اليومية، لا شهر من استقدامها ما دامت مريحة، وإن كانت غير مبررة منطقياً⁽³⁾. وربما ظل رسل دائماً مستمداً لهجوم على المثالية، من حيث كان دائم التأكيد على التجريبية، على أن المثالية التي انطلق منها رسل فعلاً وحاربها دائماً هي مثالية برادلي التي تشكل في شهادة الحواس وترى العقل وحده معتمداً على منطق كفيلاً بإدراك العالم، ولا حاجة لمعطيات الحواس، بيد أن التجريبية في حد ذاتها ليست هي القابل للتطلي

للمثالية، ولا شك أن رسل يعرف أكثر منا كيف كان الأسقف باركلي تجريبياً منطرحاً ومثالياً منطرحاً في الوقت نفسه. ولا شك أيضاً «أن رسل تابع باركلي متابعاً ناعاً، حافظاً على أن الأسس التجريبية الوحيدة للوجود المادة لتسرعا الإزلاقات الحسية»^(١٢٠).

ولكن لحسم الأمر لابد من تحديد ما هي المثالية

أرى رسل في كتابه «مشاكل الفلسفة» (١٩١٢) الذي يعد من المعالم البارزة في طريقه الفلسفي ومن إنجازاته الباقية أبداً، فما زالت طبعاته تتوالى، ويعرف المثالية بأنها - أساساً - الاعتقاد بأن كل شيء في العالم ذو طبيعة عقلية^(١٢١) ومن ثم ينكر المثاليون أمثال هيلنر وباركلي وجود المادة كشيء مستقل بصميم ذاته عن العقل^(١٢٢)، ويصرف النظر عن أن رسل أنكر في النهاية ذلك التمايز، فإن هذا تعريف أنطولوجي خالص للمثالية. ورسل - كما رأينا - بات أول من ينكر إمكانية طرح السؤال الأنطولوجي طرحاً خالصاً مجرداً تماماً من أية إبعاد إبستمولوجية. لذلك أشرنا منذ البداية إلى النتائج الحاسمة لذلك التجادل بين الأيستمولوجية والأنطولوجية الرسمية، أو بالأحرى احتواء الأولى للثانية، ولأن تكلمي إلى أن تلك النتائج الحاسمة تعني مثالية صريحة.

ففي الطرح الأكثر حداثة والأكثر شجراً ومغنيوة، لا أحد من المثاليين، ولا من مناعضهم المثاليين الواقعيين ينكر تماماً وجود أي من الطرفين: العقل والمادة أو الواقع والشيء. والمسؤال المطروح: أيهما الأسبق؟ أيهما الأول؟ وإلهام القوة أيهما الذي يخلق من الأخر؟ إذا كانت الإجابة أن العقل هو الأسبق والمرحلة هي الأصل الذي ترتكز عليه، وكانت الأنطولوجية بدورها تالية للإيستمولوجية ومشتقة منها، فتلد حينئذٍ المثالية، أما إذا كانت الإجابة بالعكس، أي أن الأولوية والأسبقية للواقع المستقل والمادة الخالصة والوجود للمعين، والمعرفة أو الفكر مأخوذ ومشتق منها، فذلك هو الاتجاه الواقعي أو المادي أو التجريبي الخالص الذي يقابل المثالية أو يناقضها تماماً.

لذلك يعرف «المعجم الفلسفي» المثالية بأنها «اتجاه قوامه رد كل وجود إلى الفكر بأوسع معاني هذا اللفظ، فوجود الأشياء موهون بقوى الإدراك، وتقابل المذهب الواقعي»^(١٢٣)، والواقعية بدورها هي - بوجه عام - نزعة تقدم الأعيان الخارجية على للمركبات الذهنية^(١٢٤).

هل كان رسل واقعياً أم مثالياً؟

يمكن أن نناقش بالتفصيل المسبب أن رسل لم يعد واقعياً البتة^(١٢٥)، بيد أن الحال لا يتسع ولا يحتاج الأمر بعد أن رأينا كيف قال صراحة ويحسم ويقطع «لا وجود لمادة متميزة عن خبراتي»^(١٢٦).

لعمري ينكر بعد كل هذا أنه مثالي؟



وأخيراً، يبقى أجمل ما في الأمر أن نختتم هذا البحث بتبيان أن هذه المثالية الرسمية كانت فعلاً مركبة جدلياً مهيبة لتأتي أولاً وأخيراً تحقيقاً بلطفاً لوعده رسل الصافي بأن تكون الفلسفة علمية.

بناء العالم والمعرفة

فذلك الواقعية الساذجة والثابتة المثبتة والتجريبية الخاصة التي تنفي الذات وتتركز مركزية العقل الإنساني. فتهاضس للثابتية على خط مستقيم. كانت هي روح العلم الكلاسيكي الذي توطنه الفيزياء النيوتونية. وذلك العالم الذي هو كتل من المادة على سطح مستو وقدت على حد أية ميكانيكية ضخمة تسير وفقاً لقوانينها الذاتية وبفعل عطاها الداخلية في خط مستقيم من مطلق الماضي إلى مطلق الحاضر، بإزاء أي مراقب في أي وضع كان وبأية سرعة كانت. وكل ما عليه أن يلاحظه من وراء ستار وبعمم الملاحظات هي قانون استقرائي. ولم يتدخل العقل في ملهمة العلم إلا على استحياء ليخرج بتفسير لهذا التعميم. لذلك حذر بيكون من مغية القروض وأعطها جون ستوارت مل. وقال نيوتن قوله الشهيرة والغريبة: «أنا لا أفترض الفروض». فلم يكن العلم صنعة العقل الإنساني. هكذا تصوروا - بل محض استقراء للوقائع بموضوعية مطلقة وموهومة تنفي أي دور للذات المعرفة.

حتى انطلقت ثورة النسبية والتكوانم المعيدة لينقلب تصور العالم رأساً على عقب. فلابد من خلق أو على الأقل تحديد منظور وسرعة المراقبة. ولا تثنى الملاحظة أصلاً في عالم الذرة والتكوانم بغير فرض يفرضه العقل ويستشيط منه الوقائع للملاحظة. تبعاً للتفهم الفرضي الاستنباطي الذي حل محل الاستقراء في نظرية المنهج التجريبي.

هكذا أصبحت فصول السورجية العلمية تنهش من قلب العقل الإنساني والواقع الإنساني بحدوده المعرفية. وأصبح العلماء أجدوا قطعاً من اثنين أو ثلاثة من الوقائع العالم التجريبي. بل هم أيضاً المعلون والمخرجون والناقدون لسورجية العلم المثبتة والزائفة.

لكل ذلك حل قول جونزيف مارجوليس إن العلوم الفيزيائية مضامرة الإنسان الكبرى. إنها مشاريع إنسانية خالصة. فإذا كانت تقترض وجود عالم فيزيقي مستقل، فإنها أولاً وأخيراً تقع داخل تسلاطات باعثن من البشر مقلتين بحدودهم المعرفية. فإذا أمكن أن نتعامل من عالم مستقل فلم يعد ممكناً أن نقيم طبيعته بوصفه مستقلاً عن تسلاطاتنا⁽¹³⁾. وذلك ما أسرف توماس كوين T. Kuhn (١٩٢٢ - ١٩٩٦) في التطوير له وهو يرسم معالم بنية الثورات العلمية. أو إمري لا كاتوش Lakatos (١٩٢٢ - ١٩٧٤) وهو يحدد خطوط برامج الأبحاث العلمية. فنقدم العلم الذي اطرد بعنوائية حتمية بعد ثورة النسبية والتكوانم علم فلاسفة العلم اللاحقين أن التقدم العلمي متوال. بصميم طبيعته غير منته ولن يتوقف أبداً. أو ليست النظرية العلمية من حيث هي علمية قابلة للتكذيب. كما أثبت كارل بوبر K. Popper (١٩٠٢ - ١٩٩٤) أي قابلة لتعريف الخطأ وبالتالي التصويب والافتراء من الصدق... التقدم المستمر. فيقول هيرزبيرج: «إن بناء أو نظريات العلم في أي مرحلة ليست سوى حلقة من السلسلة اللامتناهية لحلقات الحوار بين الإنسان والطبيعة. ولم يعد من الممكن أن نتحدث ببساطة عن طبيعة بعد ذاتها. علوم الطبيعة إذن تقترض سلفاً وجود الإنسان»⁽¹⁴⁾.

هذه المثالية العلمية التي سادت لعاما في نهايات القرن العشرين، وترفض رفضا باتا سداجة الاستقراء المنطقي لوقائع العالم في تعميمات تعد كشفا لحقائقه، وتقرض الذات الإنسانية العارفة وحدودها وملكانها على أي تصور لعالم العلم، هي ما كان رسل يستنقها ويرسي الأصول الفلسفية العميقة لها بتلك المثالية التي رايهاها معه، وإن تطرف في مثاليته بعض الشيء، أو كثيرا من الشيء، فإنها ظلت في كل حال مثالية علمية.

بالطبع، لم تتطور المثالية العلمية إلا في العقود الأخيرة، وبقل العقل العلمي - بصفة عامة - حتى نهايات القرن التاسع عشر أصبحرا الواقعية المادية التجريبية الخالصة، أو الاستقرائية، ليندو الثلاث حقا، بل اليمهر أنه في السنوات الأخيرة من ذلك القرن ضر رسل من هذا إلى مثالية ما بالذة، مما يعني أنه بكل صرامته العلمية وجبروته المنطقي والرياضي مقطور على عنصر مثالي.

فلا نملك إلا أن نتفق مع جيلبرت رايل على أن رسل كان دائما ذلك المخلوق النادر، الفيلسوف الموزع بين التراسندنتالية المثالية والتزعة الطبيعية، القمم المثالية لأفلاطون ولينلز وفريجة تتنازع، تماما كما تتنازع ويدلن فيوم، رسل وجيمس، أو أنه موزع بينهما. ومنذ بداية السبنا تشكلت عقلته بأصابع جون ستيوارت مل من ناحية وبصمات الرياضه البعثة من ناحية أخرى، وفي سنوات إنتاجه المميز لم يكن مستكنا على قمم المثالية ولا كان هاجعا في ودلن التجريبية، وأيضا لم يكن مقارحعا كاليدلن بينهما. والتحق الصراخ أنه كان دائم البحث عن طريق آمن وممهدة بينهما، ربما كان أكثر ارباها للفسوخ، لكنه لم يهجر القمم المثالية أبدا.⁽¹⁴⁾

لكل ذلك هذا التركيب الجدلي تقسيرا محيطا لموقف رسل لا سيما وأنه يتفق تماما مع الحكم بأن رسل «كان يأمل في أن يجمع بين منهج مل ومنهج لينتز - أي التجريبية والعقلية - لكي يكتشف إطارا تتلام داخله مكتشفات العلم».⁽¹⁵⁾

- 1- **الآن روز، بورتلاند رسل: سيرة حياته ترجمة ومختصر مؤلف: المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998، ص 17.** - **والتي يجب أن تكون الأصلية لهذا الكتاب:**
Bertrand Russell the Passionate Skeptic: A Biography
- 2- **Bertrand Russell, The Existence of Matter, in his: The Problems of Philosophy (1912), Oxford University Press, 1973, PP7 - 12, P.7.**
- 3- **Bertrand Russell, Introduction: On the value of Skepticism, in his: Skeptical Essays, George Allen and Unwin, London, 1928, PP 11 - 25, P.13.**
- 4- **B. Russell, Philosophic Doubts, in his: Outline of Philosophy, 1927, George Allen & Unwin 1932 P.1 - 13.**
- 5- **وهذا هنا يبين رسل بالتعامل المطلق أن تصوراته للعالم وطروحاته استندت إلى أدلة منطقية وقصور مرضية البنية. إنها مدعمة لكثير المعلوم الذي سيخلص بنا - من طريق الفلسفة العلمية - إلى تصور رسل المثالي.**
- 6- **د. محمد مهران، الفلسفة بورتلاند رسل، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1987، ط 2، 1987، ص 787 - 788.**
- 7- **Bertrand Russell, My Philosophical Development, George Allen & Unwin, London, 1959, 3rd ed. 1969, P.34.**
- 8- **الآن روز، بورتلاند رسل: ترجمة ومختصر مؤلف: مش 27.**
- 9- **B. Russell, My Mental Development, in: P. A. Schilpp (ed.), The Philosophy of Bertrand Russell, in the Library of Living Philosophers, Vol. 7, Evanston, Illinois, 1944, 2nd ed. 1964, pp 1- 20, P.7.**
- 10- **B. Russell, Logic And Knowledge, George Allen & Unwin, London, 1956, P.123.**
- 11- **B. Russell, My Philosophical Development, PP 28-34.**
- 12- **Bertrand Russell, The Autobiography, Unwin Books, London, 1957, P.11.**
- 13- **William P. Alston, Bertrand Russell, Epistemology And Metaphysics, in Paul Edwards (ed. in Chief) The Ency Clpopedia of Philosophy, Macmillan Publishing New York, 1972, Vol. 7, PP 235- 238, P. 244.**
- 14- **Gilbert Ryle, Bertrand Russell (1872: 1970), in: George W. Proberts (ed.), Bertrand Russell Memorial Volume, George Allen & Unwin, London, 1979, PP 15 - 21, P. 15.**
- 15- **انظر مقال سي. دي. بروك العلب:**
C.D. Broad, Some Personal Impressions of Russell as a Philosopher, in: P. A. Schilpp (ed.), The Philosophy of Bertrand Russell, P.P. 100 - 108.
- 16- **وقد أطلقها دراسة بعنوان:**
Some Remarks on Sense Perceptions, PP. 108 - 121.
- 17- **G. Ryle, Bertrand Russell, p. 15.**
- 18- **بورتلاند رسل: العقل والثقة، ترجمة أحمد إبراهيم الشريف، مراجعة د. زكي نجيب محمود، مكتبة التفتة، القاهرة، 1994، ص 33.**
- 19- **وبورتلاند رسل: العقل والثقة، ترجمة أحمد إبراهيم الشريف، مراجعة د. زكي نجيب محمود، مكتبة التفتة، القاهرة، 1994، ص 33.**

- 16- B. Russell, My Philosophical Development, P.11.
- 17- لذلك يؤكد علماء الباحثين في فلسفة رسل أنشأ لشارلز هورنر ومحمد مهران أن واحدا من الخطوط وأهم أعمال رسل كتابه الصغير المعجم البالغ التطورا.
- 18- Bertrand Russell, Our Knowledge of External World, (1948), George Allen & Unwin, London, 2nd edition, 1926.
- 19- برتراند رسل، العقل والواقع، ترجمة أحمد إبراهيم الشريف، ص 227.
- 20- B. Russell, An Outline of Philosophy, P. 247.
- 21- برتراند رسل، العقل والواقع، ص 227.
- 22- المرجع نفسه.
- 23- B. Russell, Some Replies to Criticism, in his: My Philosophical Development, Pp. 215 - 230.
- 24- وهذا هنا كان رسل معنيا بالرد على نقد عريف الفلسفة التحليلية، حملة الكتاب الثاني.
- 25- J.O. Urmson, Philosophical Analysis: Its Development between the Two world wars, Clarendon Press, Oxford, 1956.
- 26- A.J. Ayer, The Central Question of Philosophy, Penguin Books, 1973 - reprinted 1983, P.35.
- 27- Bertrand Russell, Logical Positivism, in his: Logic And Knowledge (Essays 1900 - 1950), George Allen & Unwin LTD, London, 1956, PP 265 - 382.P. 375 -6.
- 28- B. Russell, My Philosophical Development, P. 230.
- 29- د. محمد مهران، مشكلة برتراند رسل، رسل، ص 17.
- 30- B. Russell, An Outline of Philosophy, P. 230.
- 31- B. Russell, My Philosophical Development, P. 254.
- 32- برتراند رسل، العقل والواقع، ترجمة أحمد إبراهيم الشريف، ص 227.
- 33- D.J. O'Connor, Russell's Theory of Perception, in: Bertrand Russell Memorial Volume, Pp. 304 - 320. P. 304 - 5.
- 34- نعل أهم أعمال رسل في هذا الصدد:
- 35- - التطوري الفلسفي، متكون في هاشم (1) My Mental Development.
- 36- إذ صدر كجزء أول في مجلد (فلسفة برتراند رسل) في إطار ملكية الفلاسفة الأحياء التي يندرجها بول أنرل شوليب.
- 37- - التطوري الفلسفي، راجع هاشم (2) My Philosophical Development.
- 38- وقد صدرت لهذا الكتاب ترجمة عربية لا بأس بها، بعنوان: فلسفي كيف تطورت، ترجمة عبد الوهيد الصديقي، مراجعة د. زكي نجيب محمود، ملكية الأنجلو المصرية القاهرة، 1960. وقد حذفت هذه الترجمة الجزء الأخير من الكتاب (وهو على الظاهر) مع أنه مهم.
- 39- - هذا بخلاف السيرة الذاتية الموسعة جدا التي كتبها برتراند رسل راجع هاشم (10) - Autobiography.
- 40- كتاب صادر عن دار المعارف في طبعته الأولى عام 1997 وطبعته الثالثة عام 1987. (مذكور في هاشم 5) وهو في الأصل مأخوذ من رسالة الدكتوراه كانت أوسع وأشمل من الكتاب المذكور. لكنها اعتمدت على هذا الأصل، وأخذنا كثيرا قديرا قول الكتابية. وهذه الدراسة بخلاف دراسات عربية عديدة الأولى رسل، قد جمعت لتأسيس

والعقاب الفلسفة التحليلية التي هي صلب إنجازها وأسسه. جمعت قواعده، وقدرت فطنت الباحثين، حين نجد هذه الترسية المبنية بالصبر الدؤوب، والجهود المبالغ والقدرة على الفهم العميق والعرض الواضح قد نصبت بشيكل دقيق يلمح إلى تطورات رسل في كل جزئية من جزئياته فلسفته، وسقالاته لمخصوصية التخصص ليرتد في كل موضوع ما إضافة رسل وما حذقه، مما جعل ليراسا قويا يستند على الباحثين في طريق رسل الطويل العريض المعين، كلير التعيينات والملاحظات.

33- هنري لوفيفر، النطق الجدلي، ترجمة إبراهيم طنجي، دار الفكر المعاصر، القاهرة، 1998، ص 91.

34- رولاند ميتش، الفلسفة الإنجليزية في حياته، عام، ترجمة د. هادي زكريا، مراجعة د. زكي نجيب محمود، الجزء الأول، دار النهضة العربية، القاهرة، 1997، ص 291.

35- المرجع نفسه.

36- B. Russell, My Philosophical Development, P. 35.

37- د. محمد جبران، فلسفة برتراند رسل، ص 19، ولقرن.

John Passmore, A Hundred Years of Philosophy, Penguin Books, London, 1996, P. 51- 52.

38- برتراند رسل، العقل والقادة ومفالاته الفكري، ترجمة أحمد إبراهيم الشريف، ص 29.

39- Russell, Bertrand, The Nature of Truth, Oxford, 1908.

وفي عام 1907 ألفت المصممة الأرسطية، حيث ناقش رسل هذا الكتاب، ولكن كان موقفه قد اختلف تماماً.

40- Bertrand Russell, Philosophy in Terms of Inquiry, Inquiry Seminal Essay, PP. 54 - 79, P. 56.

41- Russell, The Autobiography, P. 136.

ويمكن أن نخشع عوامل أخرى دفعت به أكثر إلى التسمية الإنسانية، منها مثلاً أن اعتناقه ووفيقه واجتهاد كان مياتاً لكاتبه، وأيضاً سفراته مع زوجته الأولى التي أُلهمت في طريقه 1918 الدراسة الاقتصادية والاشتراكية الديمقراطية.

The Autobiography, P. 128 - 129.

42- Ibid, P. 127 - 128.

43- Ibid, P. 128.

44- B. Russell, My Philosophical Development, P.44.

45- Ibid, P. 48.

46- Ibid, P. 48 - 50.

47- Ibid, P. 52.

48- B. Russell, My Mental Development, P.1.

49- B. Russell, My Philosophical Development, P. 52 - 53.

50- B. Russell, My Mental Development, P.11.

51- C.A. Fritz, Bertrand Russell's Construction of External World, Routledge & Kegan Paul, London, 1952, P.10.

52- B. Russell, My Mental Development, P.11.

53- برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة د. محمد طنجي الشليطي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1997، ص 141.

54- B. Russell, My Philosophical Development, P.62.

B. Russell, *The Autobiography*, P.147. -35

Ibid, P.148. -36

Gilbert Ryle, *Bertrand Russell*, p. 19-20. -37

برتراند رسل، أصول الرياضيات، الجزء الثالث، ترجمة د. محمد مرسى أحمد و د. أحمد طه الأنصاري، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط 2، د، من 27 - 30. -38

الترجمة السابق، من 30 - 32. -39

رسل، أصول الرياضيات، الجزء الأول، من 27. -40

برتراند رسل، أعمال الإعلام وقصص أخرى، ترجمة شاذي إبراهيم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1987. من 30 - 32. -41

د. محمد مهدي، فلسفة برتراند رسل، من 34 - 35. -42

برتراند رسل، العقل والشك، من 35. -43

B. Russell, *My Philosophical Development*, P. 102. -44

د. محمد مهدي، فلسفة برتراند رسل، من 36 - 37. -45

B. Russell, op. Cit., P.236-236. -46

برتراند رسل، العالم كما أراه، ترجمة د. نظمي لوفا، كتاب الهلال، القاهرة، 1977، من 36. -47

د. محمد مهدي، فلسفة برتراند رسل، من 36. -48

Bertrand Russell, *Appearance And Reality*, in *his Problems of Philosophy*, PP. 1-6, P.2. -49

د. محمد مهدي، فلسفة برتراند رسل، من 37. -50

B. Russell, *Problems of Philosophy*, p.3. -51

Ibid, P.13. -52

Bertrand Russell, *The Ultimate Constituents of Matter*, in *his Mysticism And Logic* (1918) -53

Penguin Books, London, 1953, PP.120-138, P. 123. -54

B. Russell, *The Relation of Sense - Data to Physics*, in *his: Mysticism And Logic*, PP. 139-170. -55

P.142. -56

B. Russell, *Knowledge by Acquaintance And Knowledge by Description*, in *his: Problems of* -57

Philosophy, PP. 25 - 32. -58

B. Russell, *The Relation of Sense - Data to Physics*, P.143. -59

د. صلاح محمود عثمان الاتصال والذات بين العلم والفلسفة، مجلة المعارف، الإسكندرية، 1988، من 1. -60

Bertrand Russell, *Human Knowledge: Its Scope and Limits*, George Allen & Unwin, London -61

1948, P. 500 -510. -62

Bertrand Russell, *An Outline of Philosophy*, P.250. -63

B. Russell, *The Analysis of Matter* (1927), George Allen & Unwin, London, 1954, P.314. -64

B. Russell, *Human Knowledge*, P.328. -65

William P. Alston, *Bertrand Russell*, P.241. -66

د. محمد مهدي، فلسفة برتراند رسل، من 371. -67

- 84- C.A. Field, Bertrand Russell's Construction of External world, P.9-10
وقد فضل رسل هذا في مثاله الدالغ الأعمية -النزيرة المطلقية-
- Bertrand Russell, Logical Atomism, in his: Logic And Knowledge, George Allen & Unwin, London, 196. PP: 321-343, P.326-327.
- 85- W.P. Alston, Bertrand Russell, P.343.
- 86- Bertrand Russell, The Analysis of Matter (1927), George Allen & Unwin, London, 1954, P.383.
- 87- د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 87.
- 88- B. Russell, Logic And Knowledge, P. 326 - 329.
- 89- B. Russell, Behaviorism and Values, in his: Sceptical Essays, PP: 89-98, P.89.
- 90- كان الوضعيون المتعلقين من أنصار انحصار الشعب الرئسي، أي رد نظم النفس إلى الفيزياء.. مما يعني رد الظواهر العقلية إلى الظواهر المادية. وهذه واحدة مادية صورية، حرص رسل دائما على رفضها ورفض الشعب الرئسي في النظم مؤكدا أن لغة ميولات هي علم النفس لا تدخل في إطار الفيزياء بعالم. إن صوريته شديدة، رائد الوضعية المتشاكبة هو واحد مادي. لكن الوضعي اللطفي هيربرت فريجل يقول أن ذلك أن واحدة شيك أقرب في جوهرها إلى رسل -عقل-
- Herbert Feigl, Russell And Schlick: A Remarkable Agreement on A Monistic Solution of the Mind - Body Problem, in Bertrand Russell Memorial Volume, PP. 321-338.
- 91- Bertrand Russell, Sceptical Essays, P.77.
- 92- Ibid, P. 68.
- 93- د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 64 <http://Archivebolsa.blogspot.com>
- 94- هيربرت شليكر، تاريخ الفلسفة الأمريكية، ترجمة د. محمد طه الطوطي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1971، ص 779.
- 95- Bertrand Russell, Philosophy of Twentieth Century, in his: Sceptical Essays, P. 59 of Seq.
- 96- Karl Popper, Conjectures And Refutations: The Growth of Scientific Knowledge, Routledge & Kegan Paul, London, 1976, P. 33-36
- ولذلك من التفاصيل، قلنا: يعني طريف الخواص، فلسفة كارل بوبر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1999، ص 377 وما بعدها.
- 97- آلان رود، حياة برتراند رسل، ص 195.
- 98- Lester E. Denman, From Introduction to the new edition of the Analysis of Matter.
- 99- د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 78.
- 100- B. Russell, the Analysis of Matter, P. 382, 383.
- 101- برتراند رسل، ألف باء التسمية، ترجمة فؤاد كامل، مراجعة د. محمد مرمي أحمد، مركز كات الشرق الأوسط، القاهرة، 1997، ص 177.
- 102- برتراند رسل، العقل والتكلم، ترجمة أحمد إبراهيم الشريف، ص 707.
- 103- المرجع نفسه، وأيضا
- Bertrand Russell, Analysis of Matter, P.383.

- 104- Bertrand Russell, *The Analysis of Matter*, George Allen & Unwin, London, 1927, P. 387.
والفصل الأخير من هذا السفر العظيم:
Characteristics of Mental Phenomena, P.P. 287-308.
نكسر للفصل هذا، وهو أشهر فصول الكتاب وأهمها،
105- برتراند رسل، العقل والمادة، ص 387.
106- المرجع السابق، ص 387.
107- B. Russell, *The Analysis of Matter*, P. 314.
108- ولترن، د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 122.
109- B. Russell, *The Analysis of Matter*, P. 30.
110- د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 75.
111- المرجع السابق، ص 111.
112- B. Russell, *My Philosophical Development*, P.234.
113- *Ibid*, P.36.
114- برتراند رسل، العقل والمادة، ص 387.
115- المرجع السابق، ص 387.
116- B. Russell, *The Analysis of Matter*, P.387.
117- د. زكي نجيب محمود، *أشهر أدبيات فلسفة العصر الحديث*، دار المعارف، القاهرة (د.ت) ص 23 وما بعدها.
118- Bertrand Russell, in *Primer of Modern W. Norton & Co., New York, 1935*, P.143.
وهذا صدرت هذه الكتاب ترجمة عربية بعنوان: *في مدخل العقل ومفاهيم أخرى*، ترجمة وميسر
عوض، للشرع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1998م.
119- د. محمد محمد طامي، برتراند رسل، الاستنوار ومساهماته في البحث العلمي، دار المعرفة الجامعية،
الأسكندرية، 1992، ص 118.
120- د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 88.
121- Bertrand Russell, *Meanism*, in his *Problems of Philosophy*, PP. 19-24.
122- *Ibid*, P-18.
123- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1979، ص 129.
124- المرجع السابق، ص 120.
125- د. محمد مهران، سلسلة معاصراته، النظرية العقلية، التي أقيمت على طلبه القسائس في العام الجامعي
1997، 1997.
126- Joseph Margolis, *Science Without Unity*, Basil Blackwell, Oxford, 1987, P. 17.
127- فريش هيرتز، الطبيعة في الفيزياء المعاصرة، ترجمة د. أنهم السمان، دار طلائع، دمشق، 1987، ص 71.
ولترن من التفاصيل، د. يعلى طريف الخولي، مشكلة العلوم الإنسانية، دار الثقافة، القاهرة، 1992،
ص 100 وما بعدها.
128- G. Ryle, *Bertrand Russell*, P. 17-18.
129- د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، ص 78.

- 1- Russell, Bertrand, *The Analysis of Matter*, (1927), George Allen & unwin, London, 1954.
- 2- *The Analysis of Mind*, (1921), George Allen & unwin, London, 1924.
- 3- *The Autobiography*, (1967/1969), unwin Books, london, 1973.
- 4- *Human Knowledge: Its Scope And Limits*, George Allen & unwin, London, 1948.
- 5- *Logic And Knowledge*, George Allen & unwin, London, 1950.
- 6- *In Praise of Idleness*, W. Norton & co New York, 1953.
- 7- *My Mental Development*, in: P.A. Schilpp (ed.), *The Philosophy of Bertrand Russell*, Vol. 1, of: *The Library of Living philosophers*, Evanston, Illinois, 1944, 2nd edition, 1946.
- 8- *My Philosophical Development*, (1958) George Allen & unwin, London, 1969.
- 9- *Mysticism And Logic* (1918), Pelicans Books, London, 1953.
- 10- *Our knowledge of External World*, (1914), George Allen & unwin, London, 2nd edition, 1926.
- 11- *problems of Philosophy*, (1912), Oxford: university Press, 1973.
- 12- *Sceptical Essays*, George Allen & unwin London 1928.
- 13- *An Outline of Philosophy*, (1927), George Allen & unwin, London, 1952.
- 14- *مؤلفات رسل: اصول الفيلسوفيات، ترجمة: محمد عيسى أحمد، د. أحمد فؤاد الأهواني، دار المعارف، القاهرة، 1974*.
- 15- *ألف باد المستوية، ترجمة فؤاد كمال، مراجعة: محمد عيسى أحمد، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، 1974*.
- 16- *تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، الفلسفة الحديثة، ترجمة: د. محمد قاضي الشبلي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1997*.
- 17- *العقل والحداد وحالات أخرى، ترجمة أحمد إبراهيم الشوب، مراجعة: د. زكي نجيب محمود، مكتبة التنبؤ، القاهرة، 1990*.
- 18- *المفاهيم كما أراء، ترجمة: د. عظمي بوقلا، كتاب الهلال، القاهرة، 1977*.
- 19- *أعلام الأعلام وفنفس أخرى، ترجمة شاهر إبراهيم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1997*.
- 20- Alston, William F., Bertrand Russell: Epistemology And Metaphysics, in: Paul Edwards (ed in chief), *The Encyclopedia of philosophy*, Macmillan Publishing, New York, 1972, Vol. 7, Pp.235-258.
- 21- Broad, C.D., Some Personal Impressions of Russell as a Philosopher, Pp. 106-108, & Some Remarks on Sense Perceptions, Pp. 108-121, in: P.A. Schilpp (ed.), *The Philosophy of Bertrand Russell*.
- 22- Fritz , C.A., *Bertrand Russell's Construction of External World*, Routledge & Kegan Paul, London, 1992.
- 23- Feigl, Herbert, Russell And Schlick: An remarkable Agreement on A Monistic Solution of The Mind Body problem, in: George W. Robert (ed.), *Bertrand Russell's Memorial Volume*, George Allen & unwin, London, 1979, Pp. 321-338.

البلاغة ومقولة الجنس الأدبي

د. محمد مشبال*

توطئة

تسعى هذه الدراسة إلى الاستدلال بطريقة
مفيدة وكاشفة على أن البلاغة العربية -
تحديداً- وإن لم تمتد مفهوماتها في إطار نظرية
الأجناس الأدبية، كما تفهمها في الثقافة
النقدية الحديثة، فإنها امتلكت في بناء جهازها
وتنظيم قواعدها وممارستها عملها الجنس الأدبي
نموذجاً متعال تمثل في الشعر الذي يلتقي في
تكوينه الأسلوب مع أجناس أدبية أخرى
كالخطابة والترويل اللذين شكلا إلى جانب
موضوع البلاغة، بينما ظلت الأجناس الأدبية
القاهرة لها استقيا على هامش الدرس البلاغي.

لعل النظر إلى البلاغة العربية من هذا الموقع، الذي يأخذ في الاعتبار جميع الأجناس
الأدبية التي أبدعها الإنسان العربي بما فيها الأجناس السردية من دون مفاضلة، أن يقدم
للباحث قسماً جديداً لخريطة البلاغة العربية ويفتح آفاقاً جديدة للبحث البلاغي المعاصر.

الجنس الأدبي وجماليات اللغة

لا تستمد اللغة جمالياتها من تكوينها الذاتي فقط، أي باعتبارها
أصواتاً وتراكيب ومجازات ذات طلاقة تأثيرية مباشرة، ولكن أيضاً من
علاقتها بالجنس الأدبي الذي تدعى له هي صوغ أبنيتها، إذ تصبح اللغة بموجب هذه العلاقة

في أقل جمالي جديد، حيث يعتمد الابداع إلى نسج خيوطها واختيار ألوانها وفق ما يقتضيه هذا الإطار من مكونات وثوابت. على هذا النحو لتحدد جمالية اللغة وأسلوبيتها بوظائفها التصويرية في سياق جنس أدبي محدد. وكان طاقاة اللغة في التأثير تكمن في الجنس الأدبي نفسه، باعتباره أداة فنية متميزة ينادي بها توصيل رسالة إنسانية.

إن للجنس الأدبي جمالية نابعة من تقاليد الخاصة في التعبير، وهذه التقاليد هي مكوناته الفنية الثابتة التي تفرض نفسها على أي مبدع مهما كانت أصالته في التلق الفني، كما أنها تفرض نفسها على القارئ في ممارسته النقدية والتأويلية، وبذلك يصبح الجنس الأدبي معياراً بوجه الإبداع والتقدم مما، ولأجل هذا فإن ما نسميه بجماليات اللغة يطوي على ضرب من الإطلاق يتسع به مدلول «الجمالية» ليشمل أي استخدام في لغة بصرف النظر عن طبيعة جنس الخطاب الذي ينتمي إليه، وفرضنا هنا إثبات أن ما ندعوه بجماليات اللغة، وإن كان يحمل قدرًا من السمات الفنية المطلقة غير القيدة بشروط الجنس الأدبي ومقتضياته، فإنه لا يمكنه أن يظل مفهوماً مطلقاً، إذ يؤكد واقع الإبداع اللغوي أن الممارسة الجمالية الفنية لا تفصل عن إطارها الفني الذي يرسم لها حدودها ويحدد لها سمتها.

إن الإبداع اللغوي وإن كان خاصية كاشفة في اللغة ذاتها، يوسفها طاقاة من الإمكانيات المحتملة التي يضطلع بها استيعاب الحياة، فإنه لم يكن يتحقق إلا عبر وسيط جمالي استقرت أعراقه وتقررت تقاليده، هذا الوسيط هو الجنس الأدبي الذي يقوم في الوعي النقدي باعتباره أداة فنية اجتماعية تدفع بها اللغة في تشكيلاتها ووظائفها الجمالية. وليس في هذا أي تنكر لدور الابداع في التشكيل اللغوي، وإن لم نؤكد سلطان التقاليد الجمالية الموروثة في توجيه المبدع وسياغة اللغة. وعلى هذا النحو ندبر اللغة في تكوين جمالياتها لبدء الجنس الأدبي، باعتباره سلطة ذات مكونات فنية تتحكم في بنى اللغة ووظيفتها.

وبناء على ما سبق ذكره يظهر أن لغة تجليات جمالية، وأن ما يصطلح عليه اليوم بـ «الأدبية» ينبغي ألا يطمس الفروق التعبيرية بين مختلف الأجناس الأدبية. فعلى الرغم من اشتراكها في صفات توجد بينها، فإن الاختلاف بينها يظل «جوهرية» من بوته تخلف تلك الأجناس في أداء رسالتها الإنسانية التي تشترك فيها جميعاً بتوافر الأداء اللغوي الخاصة بكل منها⁽¹⁾.

إن الإقرار باختلاف الأدوات التعبيرية بين الأجناس الأدبية هو اعتراف بأحقية كل واحد منها في الوجود والتعبير عن الإنسان بقسمة الفنية والتصوير حالاته المتباينة باعتباره كائناً تتوزع أوضاعه وشروط تجسده في هذا الاختلاف القائم بين وسائل التعبير في الأجناس الأدبية، ولأنه قد يحدث لأداة تعبيرية في جنس أدبي معين أن تتجاوز نطاق جنسها لتفسير وسيلة من وسائل التعبير في جنس أدبي آخر، غير أنه ينبغي لها أن تخضع في

البلاغة ومقولة الجنس القديم

الحصول النهائية لشروط بيئتها الجديدة، وهذا هو الذي يفسر لنا لماذا لا يفضلني تصالغ الأجناس الأدبية إلى نحو الحدود الفاصلة بينها نهائياً.

وعلى هذا النحو تصير موافقة الأسلوب لسياقه الجنسي معياراً جمالياً لتقوم به التشكيلات الفنية المختلفة لفنّه، فالصور الشعرية على سبيل المثال لا فية لها من حيث طاقنها الشعرية في جنس أدبي مثل المسرح. وإنما تتجلى قيمتها في مواضعها للمكونات المسرحية، أي حظها من الطاقة الدرامية¹⁷. كما أن أنواع المجاز البلاغي التي تضطلع بوظيفتها التأثيرية في الشعر لا تفقد كذلك في جنس الرواية (إذ اندمجت في البنية الكلية للعمل الروائي باعتباره سياقاً أدبياً ذا مكونات سردية أصلاً¹⁸).

إن مبدأ ارتباط اللغة بسياقها التعبيري فكرة لم يعمدها موروثا البلاغي والنقدي، غير أنه يصعب القول إنها من أصوله التي كان لها تأثير في طبيعة نظرتة لفنّه الأدبية، ذلك أن معظم الباحثين المعاصرين¹⁹ يؤكدون أن التصور العربي القديم للأدب لم ينبع على مقولة الأجناس، وإنما قام على تصنيف ثنائي تمثل في التمييز الكبيرين، الشعر والنثر. ولا نكاد نجد بعد ذلك أي حديث من علاقة الأسلوب بالأجناس الأدبية شعرية كانت أم نثرية، إلا ما اتفق لنا العثور عليه من ملاحظات يسيرة ومشرقة لا تشكل قاعدة من قواعد تفكيرهم النقدي أو الجمالي. ومع ذلك فهذا ينبغي ألا يحول دون النظر إلى التفكير البلاغي الموروث باعتباره حصيلة تأمل طويل ودقيق في الأساليب الشعرية، وبصرف النظر عن أوجهه وعن أنه لم يكن للنثر بأنواعه المختلفة التي عرفته في أدبنا القديم أمثال القامة والبطير والتأخرة والخرافة والرمالة وغيرها أي تأثير فيه، وهذا إن شاء غياب مقولة الأجناس عن تفكيرنا القديم، فإنه من جهة أخرى يلمد السلطة التي يتمتع بها جنس الشعر في هذا التفكير، الذي ظل منذ بداياته الأولى يتحرك في نطاق جمالياته الأسرية، دون أن يعني ذلك - بالطبع - أنه كان يستوعب أنواعه المختلفة كالخمريات والطرديات والموشحات وغيرها. فقد ظلت هذه الأنواع على هامش القصيدة التي كانت قد استبعدت بالنقد الأدبي، ووجهت طرفه وأسمت مفهوماته، ولأجل ذلك أمكننا القول إن التراث البلاغي والنقدي مدرين في صياغته لمصطلحه ومبادئه، لجنس أدبي عام هو الشعر، الذي كان يساوي عندهم القصيدة بأغراضها المعروفة التي لا نذكر أنها كانت تعمل بالنسبة إليهم أنواعاً داخل إطار القصيدة، وهو ما جعلهم في مناسبات كثيرة على إجراء روابط بينها وبين الأساليب التي يختارها الشاعر، وإن لم يفعلوا ذلك فيما يتعلق بالأنواع الشعرية التي انتشرت في شكلها عن بناء القصيدة، وهذا ما يؤكد سلطان الشعر بمفهومه العام على خطاها البلاغي والنقدي القديم.

ولكن ماذا نقصد بالشعر الذي نقدره سيطرته على الخطاب النقدي والبلاغي، هل هو النص المثالي الذي تشكل النصوص الحقيقية بالنسبة إليه مشتقات قد تتطابق معه كثيراً أو

فليلاً هل هو الجوهر الثنائي الجنسي والبنية الكلية، كما نذهب إلى ذلك النظريات الأنطولوجية التي تعتبر «الجنس» عنصراً خارجياً متعالياً مما يجعل منه مفهوماً تصنيفياً بالدرجة الأولى ليس همه قصي البعد الدينامي للمكون التجنيسي»¹³

يقترح شافير Schaeffer¹⁴ مفهوماً جديداً يحاول به الإجابة عن سؤال حول ما هو الجنس؟ الذي أثير في الدراسات الفلسفية، حيث أصبح إشكالا أنطولوجيا لا صلة له بنظرية الأدب، ومبادئ صيغ الأجوبة المقدمة في هذا الإطار غير مقنعة، فقد عمل «شافير» على اقتراح صيغته المستمدة من الأبحاث الإنشائية المرتبطة مباشرة بالحقق الأدبي. وهكذا قدم تعريفاً نصياً خالصاً معبراً التجنيس *générecité* لها مكوناً قائماً في النص يمكن التماز إليه. يقول في هذا الصدد: «يفترض في نظرية الأجناس، بكل بساطة، أن تعني مجموعة من التشابهات النصية والشكلية وخصوصاً الموضوعية، والحق أنه يمكن تفسير هذه التشابهات على نحو تام بتحديد التجنيس باعتباره مكوناً نصياً، أعني العلاقات ذات الخاصية التجنيسية، باعتبارها مجموعة من أشكال (عادة استثمار) (تكون تحويلية) لهذا المكون النصي نفسه. فكل من كان الأدب بعد تحديده مؤسسة، فإن التجنيس يمكن تفسيره تماماً كما لو أنه لعبة من التكرارات والمحاكاة والاقتباس... إلخ. إنه النص في ارتباطه بنص آخر أو بنصوص أخرى»¹⁵.

وبناء على هذا فإن جنس الشعر يفهم شبكة من التشابهات الوجودية بين مجموعة من النصوص الشعرية. وهذه التشابهات لا تعني أن النص الشعري تكرر للنموذج التجنيسي الذي تكونه طبقة من النصوص، التي يفترض أنها متماثلة في الوجود، بل إن هذا النموذج يصير مادة من المواد التي يستلخدمها النص. فالتجنيس مكون دينامي¹⁶ يقوم على نظامي التكرار والتحويل. وهذا ما يجعله ذا بعد زمني وتاريخي. ولعل هذا ما دفع «شافير» إلى استخدام مصطلح «التجنيس» بدل «الجنس» الذي اعتبره معيارياً وغير قادر على استيعاب المقومات التجنيسية الجديدة التي تتضاعف في النصوص الإبداعية العظيمة.

إن النظر إلى الشعر بوصفه جملة من الثوابت والتغيرات، أو المكونات والسمات النصية المنطقية، ينادي بمفهوم الجنس الأدبي عن مثاليته أو عن معياريته، ويجعله مكوناً نصياً دينامياً خاضعاً للتحويل المستمر. يقول غلوبينسكي Glawinski في هذا الصدد: «لا يوجد جنس أدبي يؤول إلى ما يمثل مجال عناصره الضرورية فقط، فهو لا يتحدد إذن بثوابته وحدها، إنه يمتلك حقلاً هائلاً من الإمكانيات المتنوعة والمتغيرة والمعارضة أحياناً»¹⁷.

ومع ذلك فالقول بمهاجية الشعر لا يتناقض مع التغيرات الهائلة التي طرأ عليها هذا الجنس من التعبير الأدبي. ذلك أن «الشعر» أعني ماهيته الثابتة، لا يعرف إلا من خلال تغيراته، كما أكد «كلود بوبر» «هائلانية بمعنى ما، هي أيضاً تفترض التغير، وبذلك تفترض التاريخ...، هائلانية يمكن تفسيرها بأنها مجموع أو مصدر الإمكانيات القائمة في الشعر، كما يمكن

البلاغة ومعناه النص الأدبي

لتفسير التغيرات (أو الحركات) بأنها تحقق الإمكانيات الكاملة في المعالجة أو خروج هذه الإمكانيات إلى الفعل⁽¹⁾.

على هذا النحو يمكننا القول إن للشعر طبيعة ثابتة، يتألف لنا تعريفها بواسطة تحققها الفعلي، فتراكم التصور الشعري المختلطة هو الذي يجعل الفيض على هذه المعالجة أمرا ممكنا. وهذا لا يعني أن الشعر مفهوما ثابتا لا يتغير عبر التاريخ. فالواقع يثبت أن هذا المفهوم غير مستقر مما يتعذر معه وضع تعريف يحدد وهو ما جعل جاكسون Jakobson على تعويض مفهوم الشعر بالوظيفة الشعرية باعتبارها مكونا نصيا قابلا للتعدد⁽²⁾.

ومن الواضح أن ما اصطاح عليه «جاكسون» بالشاعرية poétique أو الوظيفة الشعرية هو مكون ثابت أراد به تحديد لغة الشعر، أو بتعبير آخر، إنه معيار لتجنيس الشعر، وجعله القول، لا بعدم الباحث في التفكير الأدبي الإنساني حول الشعر، وجود مكونات ومعايير ثابتة تحدد طبيعته، وإذا كان هذا من النقط التي منطوق إليها بتفصيل، فنحننا الآن نؤكد أن المقصود بـ «جنس الشعر» الذي نصور أن البلاغة العربية تدلن له هي صياغة أصولها، جو جملة من الثوابت الأسلوبية والجمالية التي تجلت في تراكم تصور الشعر باختلاف انماطها وأشكالها، وسواء اصطاحنا عليها بالشاعرية أو «التجنيس الشعري» أو غيرهما، فإن الغاية واحدة وهي السعي إلى إثبات أن الشعر معية يمكن تعريفها أو امتلاكها منكم أن للأجناس الأدبية الأخرى هذه المعايير التي لا تتغير، كما اصطاحنا مع التحولات التي تخصها لها.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

١- الجنس الأدبي والاختيار الأسلوب

لاشك أن تحديد «الأسلوب» يعد من أبرز القضايا الأسلوبية المعاصرة⁽³⁾، حيث قدمت في هذا الشأن جملة من الصيغ النظرية الثابتة سعيا لضبط هذا المفهوم، الذي أصبح موضوع هذا العلم اليناف. الذي نشأ في حضن اللسانيات، وإن كانت جنوده في البلاغة القديمة. ولا يعدم الباحث في تراث البلاغي العربي أفكارا صالحة لأن تكون مبادئ أو أسما لتفكير أسلوبى عربي.

وإذا كانت مسألة تحديد الأسلوب لا نعلينا هنا بشكل مباشر، فلا شك أن في تأمل بعض الصيغ النظرية المقترحة لضبط هذا المفهوم ما قد يفتح لنا الطريق لتبين علاقة الجنس الأدبي بالأسلوب أو اللغة بشكل عام.

وربما كان تحديد الأسلوب باعتباره «اختيارا» من بين إمكانيات عدة أو بدائل كثيرة متاحة للمبدع، يمثل إحدى أبرز الخصائص لضبط معية الأسلوب الأدبي ضبطا يقوم على مراعاة المكون التجنيسي، ذلك أن مفهوم الاختيار الذي يفيد اتساع مجال الحرية أمام المبدع في إنشاء الكلام، يفيد من جهة أخرى مجال القيود المفروضة عليه، فالأسلوب هو حصيلة لتفاعل المبدع

مع مجالتي الحرية والتقييد، فبغض ما يكون حراً في الاختيار، تخضع هذه الحرية لجموعة من الأمواف والتقاليد الأدبية التي يقوم بها الجنس الذي اختار الكتابة في إطاره. وينبغي ألا يفيد هذا أن مفهوم «الجنس» قيد يشد إليه الإبداع ويمنعه من حرية الحركة، ولكن ما نتوخى إثباته هنا أن مفهوم «الاختيار» ليس مطلقاً. هالكاتب الذي اختار أن ينشئ أسلوباً ذا مواصفات معينة، هو خاضع بالضرورة لتوجيهات «الجنس الأدبي» الذي اختاره قبل ذلك. وهكذا يكون اختيار الأسلوب عملية تعقب اختيار جنس الكتابة. إذ تصبح خصائص هذا الأخير وسيطاً يعطي على المبدع اختياريه الأسلوبية. وذلك أن الجنس الأدبي بأعرافه وتقاليد يمتلك وجوداً سابقاً على المبدع والنص المبدع. ويدهي أن يكون له حضور بشكل من الأشكال في الإبداع الأدبي أو الاختيار الأسلوبية.

«إن مفهوم الأجناس حاضر في مختلف النصوص على صعيد الإبداع»⁽¹⁷⁾. أي إن الجنس الأدبي يشكل «مؤسسة»⁽¹⁸⁾ ذات قوانين وإمكان المرء أن يتوصل بها في التعبير عن نفسه، كما أن بإمكانه أيضاً الالتحاق بهذه المؤسسة ثم إعادة تشكيلها بعد ذلك. وهذا يعني أن الجنس الأدبي يساهم في تشكيل النص. ولا يفاج كاتب في الإقتالات من سلطته مهما بلغت درجة رغبته في التجديد؛ نوالحق أن الأجناس الأدبية لها طابع عام وأسمى فية بها يتوحد كل جنس أدبي في ذاته ويتميز عما سواه. وبعد، يقول كل جنس أدبي نفسه بهذه الخصائص على كل كاتب يدالج فيه موضوعه مهما كانت أصالته. ولا ينبغي أن الإحاطة بهذه الخصائص الفنية كاتب ولا ناقد من النقاد»⁽¹⁹⁾.

<http://Archivebeta.Bakhrift.com>

إن القول بحضور الجنس الأدبي في تشكيل النص لا يعني إلغاء فريدة هذا النص وتميزه أو زعم الإبداع بمواصفات مقررة وقواعد جاهزة، وإن كان شيء من هذا يسارع إليه القهم ويقع عليه الخطأمر لأول وهلة، بل إنه يعني أن الإبداع الأدبي لا يتم إلا بالامتثال لأصول الجنس الذي يبدع الكاتب في إطاره. وينبغي أن يكون هذا الامتثال جزئياً⁽²⁰⁾، حيث إن الكاتب الجيد يسمى دائماً إلى إثبات أصالته. فالنصوص العظيمة تعمل في الواقع على مضاعفة⁽²¹⁾ مكونات الجنس الأدبي الذي تتفاعل معه، وهو ما يبدو خروجاً أو انتهاكاً للمعايير التي يرضها الجنس، ولعل هذا ما حمل صاحبي «نظرية الأدب» على أن يقولوا إن «الكاتب العظيم - جملة وتفصيلاً - كلما يكون محدثي أنواع جديدة»⁽²²⁾. فهم يستوعبون بلاشك الصناعات الأسلوبية التي تمثل جوهر الجنس الأدبي، ويدركون طاقاته قبل إهدامهم على اقتراح مقومات أسلوبية جديدة يتطور بها الجنس الأدبي نفسه، وعلى هذا النحو يصبح مفهوم الجنس دينامياً ومكوناً نصياً، كما عبر عن ذلك «شافير».

وبعد القول بمعيار الجنس الأدبي في تشكيل اللغة إقراراً بتعدد الأساليب، إذ يصبح لكل جنس أدبي أسلوبه البنائي الخاص به. وقد عبر «أحمد الشايب» عن هذه الفكرة النقدية

البداية ومفهوم الجنس الأدبي

يقوله: «هالو موضوع هو السبب الأول الذي يقوم عليه الاختلاف الأسلوبي، ويراد بالموضوع الفن الذي يختاره الكاتب ليميز به عما هي نفسه، علما أو أدبا، نظما أو نثرا، مقالة أو قصة أو رسالة أو خطابة... فكل فن منها أسلوبه الخاص الذي يلائم طبيعته»⁽¹⁾.

والحق أن الربط بين الأسلوب والجنس الأدبي يمثل مجالا من مجالات الفرس الأسلوبية المعاصرة، حيث تتجاوز الأسلوبية الأدبية دراسة كاتب أو عمل مفرد أو الخصائص المميزة لجموعة من الكتاب والحقية معينة، إلى دراسة أسلوب جنس ما، أي ما اصطلاح عليه ستيفن أولمان Stephen Ullmann بـ «أسلوبية الجنس». ذلك أنه في دراسته للأسلوب في الرواية الفنية الحديثة، سعی لتوجيه العناية إلى ما أسماه بثوابت اللغة الروائية، أي تلك الشكليات الأسلوبية والطاقت المحتملة الكامنة في الجنس نفسه⁽²⁾.

وتعل فكرة «أسلوبية الجنس» أن تقول في الأصل إلى ميخائيل باختين Michail Bakhtine الذي عمل في كتاباته على ربط الدراسة الأسلوبية بمعيار الجنس الأدبي، حيث استطاع أن يخلص مفهوم الأسلوب من بعده الجمالي المطلق، وأن يجذبه خارج الحقل الشعري الذي سيطر على اهتمامات الأسلوبيين. وبذلك قدم مفهومًا جديدًا للأسلوب نابعًا من تعميم دقيق ومعالجة كاشفة لجنس الرواية. إنه يؤكد «أسلوبية الجنس الأدبي» ويرى أن «فضل الأسلوب واللغة من الجنس الأدبي لا يرد إلى حد كبير إلى مجموع الدراسة على الفروق الأسلوبية وحدها في المقام الأول، سواء ما اتصل منها بالقرارات الشكلية أو باتجاهات معينة، بينما تم تجاهل الطابع الأساسي الاجتماعي للأسلوب»؛ فمعبثت الفنان الصغيرة للتغيرات الأسلوبية المتصلة بفنانين معينين باتجاهات معينة، المسائر التاريخية الكبرى للكلمة الفنية المتصلة بمعاصر الجنس الأدبي⁽³⁾.

إن ربط الأسلوب بمقولة «الأجناس» على نحو ما أسفر عنه تحليل «باختين» للرواية، ساهم في تقديم مفهوم جديد للأسلوب تجاوز به الأبعاد الجمالية المطلقة التي اكتسبها في إطار الأسلوبية التقليدية المرتبطة أساسا بالشعر. وواضح أن المقصود هنا بالأسلوبية التقليدية تلك التي أرست قواعدا على لتطور اللساني الوثائق الصلة بدراسة الجملة، وهو ما رشحا لتكون علما خاصا بالشعر دون غيره من الأجناس الأدبية، وهذا لا يعني بالطبع أن الأسلوبيات اللسانية تمثل نمطا من التفكير النابع من صميم الجنس الشعري، ولكن ما أقصده هو أن طبيعة الشعر النوعية شكلت حقلًا ملائما لنمو هذا العلم، الذي بدأ مترابطا بتخصص الخصائص الأسلوبية للغة الطبيعية⁽⁴⁾. بينما كانت الأجناس الأدبية التي تختلف أسلوبيا عن الشعر مجالا بعيدا عن النظر الأسلوبية بمفهومه الدقيق، فإذا شئنا أن نقنعس مكانا ما للأجناس النثرية في خريطة الدراسات الأدبية المعاصرة، فمن المؤكد أن الأسلوبيات اللسانية ليست المكان المبتغى.

ولعل شيئاً شبيهاً بهذا قد حصل للتفكير البلاغي العربي القديم، الذي بدأ مرتبطاً بجماليات اللغة العربية، كاشفاً عن خصائصها التعبيرية والفنية، فهذه اللغة، التي قال عنها ابن جني إنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»³³، تتجاوز وظائفها التواصلية التسمية إلى وظائف جمالية، وقف التفكير البلاغي الموروث يتأملها بشغف كبير، لم يلبث أن تمخض عن «أبواب» أو مباحث مهمة تمثل حصيلة استقصاء دقيق لجماليات هذه اللغة التي وصفت بالحكمة والإتقان. والحق أن هذا التفكير البلاغي قد وجد في الشعر ضالته المنشودة، حيث اعتبر هذا الجنس من الكلام شاهداً على أصالته العرب، فهو النموذج الأمثل الذي يستمد منه العالم الحجة لإثبات خصائص العربية في التعبير الجمالي، وهكذا تحولت بلاغة الشعر إلى سند يتراوح إليه علماء اللغة والبلاغة للدفاع تارة عن حكمة العربية وتارة عن أصالة القرآن، فهل يصح أن نقول إن البلاغة العربية تدور في صياغة أصولها الجنس الشعري؟

إذا انطلقنا من أن الشعر ماهية ثابتة هي حقيقة وجوده بوصفه جنساً أدبياً متميزاً بأسلوبه عن الأجناس الأخرى، حيث يقوم بنقله على استثمار الإمكانيات الجمالية لمستويات اللغة الصوتية والنحوية والدلالية، فإننا سنعتبر الشعر الجنس الأدبي الذي صدرت عنه معظم أصول البلاغة وسماتها. وتجدر بنا الإشارة إلى أن الروابط التي يمكن إيجادها بين الشعر والبلاغة هي تراثية، لا تتجاوز منواله التفكير المنطقي المنظم في بلاغة الجنس الأدبي أو أسلوبيته، بل هي تلك الروابط التي يعمد القارئ المعاصر إلى إعادة صياغتها وفق ما تحوله له المادة البلاغية الموروثة من إمكانيات التشابه والتلاقي بينها وبين الأفكار الأسلوبية الراحنة.

إن وصفنا للشعر بأنه يشكل الجنس الأدبي الأكثر حضوراً في صياغة أصول البلاغة العربية ومفهوماتها، لا ينفي حضور أجناس الخطاب الأخرى، ولكنه حضور يتم بواسطة الأسلوب الشعري الذي امتد إلى الخطابة والرسالة والقصة وغيرها من الأجناس، ولم ينحصر في القصيدة فقط.

ولا شك أن هناك اختلافاً واضحاً بين قولنا إن البلاغة العربية مدونة هي أصولها للشعر وبين وصفنا لها بأنها بلاغة «الجنس الأدبي»، فإذا كان الرأي الأول صحيحاً، من وجهة نظر هذه الدراسة، فإن الرأي الثاني لا يمثل بالنسبة إلينا سوى «علم» نقدي يوجه هذه القراءة في تراثنا البلاغي، وإلا فمن يجرؤ على ادعاء أن موروثنا البلاغي الذي نشأ مرتبطاً بأصول النحو قد تجاوز حدود الجملة إلى التفكير في الأجناس الأدبية؟

ومع هذا فإن القارئ العربي لا يعدم في تراثه نظرات نقدية تشير إلى صلاقة الأسلوب بالأجناس فيما يشبه الفكرة النقدية المبنيّة بناءً محكمًا، وربما كان ابن خلدون أوضح من صاغ هذه الفكرة في تراثنا، فهو قد أنكر استعمال «أساليب الشعر» في «الخطابات السلطانية، مثل الإطناب في الأوصاف وضرب الأمثال وكثرة التشبيهات والاستعارات والالتزام التقفية وكثرة

البلاغة ومفهوم الجنس الأدبي

الإسجاع. ويقول: «واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أمته ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسب المختص بالشعر والحمد والثناء المختص بالخطبة»^(٢١). ويقول أيضاً: «إن لكل فن من الكلام أساليب تختص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فبزال الطول في الشعر يكون بطلاب الطول.. أو بالاستقصار عن الجواب لطايب غير معين.. وأمثال ذلك كثير من سائر فنون الكلام ومناهجها»^(٢٢). غير أن حديث ابن خلدون عن الأسلوب باعتباره صورة ذهنية للتركيب أو قالباً يبني فيه الأدب تراكيب اللغة ومتوالاً ينسجها عليه. يؤذن بتجهيز أساليب الأجناس بتحويلها إلى «أساليب ذهنية»^(٢٣) أو قوالب تستقر في أذهان الأدباء الذين يعتمدون إلى قلمها. وكان لا دور لتجربة اليدع الشخصية في صياغة الأسلوب.

وإذا ما تجاوزنا من المواق التي يمكن أن نتجم عن تصور ابن خلدون للأسلوب باعتباره قالباً كلياً مجرداً في ذهنه^(٢٤). وهو ما يطمس الدور الذي تضطلع به التراكيب اللغوية المتعلقة. فإن تقدير العلاقة بين الأسلوب والجنس الأدبي. يمثل خطوة مهمة نحو التفكير في أسلوبية الجنس الأدبي وبلاغته. ذلك أنه يشر حضور الجنس في توجيه الاختيار الأسلوبي للمبدع. وهو ما يتجلى في خضوع الشعراء للأساليب المقررة في الإطار الفني الذي يكتبون فيه. وإن كان ذلك لا يتحقق إلا من خلال الشاعر متأثرًا بالإبداع والخلق. والحق أنه كانت لفرعة ابن خلدون التعليمية أثر في هذا التصور الذي قلجته عن الأسلوب. وحسبنا هنا تلك التوضيحية التي ألق إليها بين الأساليب والأجناس <http://Archive.org/details/...>

وتتمثل خلاصة فكرة ابن خلدون عن صلة الأساليب بالأجناس في أن لكل جنس أدبي طريقاً وأشكالاً فنية ينفذ الوحي بها وتعلمها. غير أن هذه الطرق التي اعتبرت أساليب لا تشير إلى الصياغة اللغوية في حد ذاتها. أي باعتبارها جملة من التراكيب التي يبدعها الشاعر داخل الإطار الأسلوبي النومي الذي يتحرك فيه. من هنا كانت نظرية ابن خلدون تلجح الأولوية للطريقة المقررة على حساب السمات اللغوية التي يبدعها الشاعر. ولأجل ذلك انحصر حديثه عن الأسلوب في تلك الطرق التي يمكن تعلمها بكثرة الاقتران في الشعر. على الرغم من وعيه بأن الأسلوب يمثل مجموعة من القوالب المميزة لجنس أدبي معين. على نحو ما ظهر في نظريته بين أسلوب الشعر والرسالة.

والحق أنه على الرغم من اشتراك الأجناس الأدبية في الأداء المتمثلة في اللغة بعفوداتها وتركيبها ودلالاتها. إلا أنها تختلف في طبيعة تعاملها مع هذه الأداء. حيث تفرض هذه الأجناس بتكوينها المتميز تأثيرها في تشكيل اللغة بذهنيتها الصوتية والتحويلية والمجازية. وهكذا تستند طائفات اللغة إلى الطابع العام المميز للجنس الأدبي. فبالأجناس الأدبية من حيث مواضعها العامة أثر في العبارات والتراكيب حتى تتلائم وطبيعة الجنس الأدبي المصوغة

فيه»¹⁷⁹، كما قال «محمد فنيهي هلال» وهو الراي نفسه الذي عبر عنه صلاح فضل بقوله: «إن الخواص الجوهرية لطبيعية رؤية وأسلوب كل جنس من الأجناس الأدبية تنعكس على التسبح القوي له وعلى بنية الصورة فيه»¹⁸⁰.

ولم يكن تفكيرنا البلاغي والنقدي الموروث يسهل العلاقة القائمة بين الجنس الأدبي والأسلوب أو اللغة. ولكنه، لأسباب كثيرة مرتبطة بظروف حضارية، لم يعمد إلى طرحها، فقد اطمأن إلى ما حصله من مفهومات ومصطلحات كانت ناتجا لتفاعله القوي مع الشعر معشلا بـ «القصيدة» أصليا، ولم يلتفت إلى ما كانت تجنيه الثقافة العربية من أجناس أدبية أخرى لها أساليبها الخاصة بها. لقد كاد الشعر يكون «الجنس الأدبي» الوحيد الذي ساهم في بناء صرح البلاغة والنقد، دون أن يصبح إشكال «الأجناس الأدبية» موضوعا من موضوعاتهما.

٢- الجنس الأدبي معيارا للقياس

لقد أظهرت الفقرات السابقة أن اللغة تستمد جانبا من جمالياتها وطاقاتها في التعبير الفني من الجنس الذي تنتمي إليه-ذلك أن الإمكانيات التصويرية التي تزخر بها اللغة تقوّل إلى ما يضطلع به الجنس الأدبي من أدوار في إغنائها وتزويدها بما يمكنها من خلق أفق تعبيرية جديدة. وهكذا تتعدد طوائفها الفنية وتتنوع أساليبها الجمالية وفق تنوع الأجناس وتعددتها.

ولاشك أن هذا التعدد الذي تنظم به اللغة الأدبية، من شأنه إخراج صفات: «البلاغة» و«الجمالية» و«الأسلوبية» من نطاقها الواسع والمطلق إلى نطاق محدود يقوم على ضرورة الإقرار بوجود مستويات من «الجمالية» تتباين وفق تعدد أجناس الكلام. وهكذا يصير لكل جنس أدبي معاييره الأسلوبية التي ينبغي للكاتب والناقد معا التزمي بها، فالكاتب لا ينبغي أن يتسرع في التصوص خارج الأعراف المعروفة في عصره، فهو يلجأ عادة إلى اختيار الكتابة في جنس أدبي معين. وهذا الاختيار بشكل جزئا من مقاصده التي ينبغي للناقد الأدبي التصديق عليها في وصفه لعمله أو تقويمه.

إن محاسن «نظرية الأجناس» تتمثل، كما يقول «فراهام هور»¹⁸¹، في المبدأ الصحيح والضروري القائل: إن كل نوع أدبي يقدم درجة إشباعه الخاصة به، ويعمل حسب مستويات الخاص به، كما أن له إجراءات المناسبة له»¹⁸²، أي: إن معيار الجنس الأدبي يسمح للناقد بقراءة النص قراءة صحيحة، فليس له أن يطالبه بما ليس من خصائصه المكونة لماهيته. فكل نص ينتج أمام قارئه أفقا جماليا يصح معيارا موجهها للقراءة. إن الناقد «مطالب بأن يجعل مفهوم الجنس حاضرا في ذهنه، عاملا في نتائج بحثه ومكيفا للأساليب المعروفة ومعددا لوظائفها ومكيفا بها»¹⁸³.

الطاقة ومفهوم الجنس الأدبي

ويبقى ألا يفهم من ذلك أن مفهوم الجنس الأدبي باعتباره معياراً لقراءة النص، يمثل قواعد تقليد حرية البديع وترسم له الحدود، بل هو عبارة عن إطار منهجي يستعصمه الناقد في أثناء الوصف، حيث تصبح القراءة اكتشافاً لحدود الجنس الأدبي على نحو ما تجلّى في التصوص القديمة، وبذلك تصبح وظيفته استكشافية، فهو يصف النص ويميز هويته الأدبية مما «يُنتج بدوره تطور أساس ضابط لعملية التقويم التي تليه»^{٣١١}، ومعنى هذا كله أن «فكرة الجنس الأدبي فكرة تنظيم منهجي لا يمكن أن تفصل عن النقد»^{٣١٢}.

إن الجنس عندما يصبح مفروفاً من لدن «القارئ» فإنه يصبح عاملاً في قراءته. وكما يقول «غلوبسكي»: «إن القراءة لنفسها تتعدد بالجنس، ذلك أن المثقفي بكيف جهازه المعرفي لمقتضيات الجنس الذي يمثل نص معين، وهو يسعى طوال قراءته إلى تبني موقف مطابق لما يقترحه النص أو يفرضه. وبهذا المظهر يفرض الجنس ضابطاً للقراءة، يوجه مجراها أو يحدد هذا الجرى إلى حد ما. ولم يكن ليضطلع بهذه الوظيفة لولا التزامه إلى تقليد أدبي مكثوف لدى القارئ.. ومع ذلك، فهذا لا يعني إطلاقاً بأن الجنس كيان ذو طبيعة محافظة.. فالجنس يصل النص القارئ بتقليد معين دون أن يخطمه له كلية»^{٣١٣}.

إن الجنس الأدبي بهذا المعنى حاضر في النقد والقراءة، فهو عامل في التواصل الأدبي يرسم «أفق النظارة» للقارئ باعتباره مجموعة من الخصائص البنيوية المكونة للجنس أو عرفاً مستقراً وتقليداً شائعاً، ولا شك أن هذا الأفق «الذي لا يتغير» يقل ما يطرح على الجنس من تغييرات تند مع كل زمن جديد، وهذا الأفق قد يتسع أو يضيق، يكون عاماً أو محدداً بشكل دقيق. ففي حالة الشعر مثلاً يكون هذا الأفق مرسوماً بصورة عامة، بينما يعمل في حالة شعر الخمريات، إلى التحدد، حيث يستوعب جملة من السمات المرتبطة بهذا الجنس الفرعي.

إن اعتبار الجنس عاملاً في التواصل الأدبي يعني أنه يمثل ما يضطلع عليه «غلوبسكي» بـ «الوعي الأجناسي»، ودون أن نخوض في التفاصيل الدقيقة التي يثيرها موضوع الأجناس، لاشك أنه، بعد أن قدمنا مجموعة من الأفكار حول الدور الذي يضطلع به الجنس الأدبي في توجيه صيغ القراءة واستدعاء كفاية المثقفي، يمكننا افتراض أن البلاغة العربية القديمة، باعتبارها لونا من المعرفة المرتبطة باللغة، كانت تقوم على نوع من الكفاية الشعرية بالفهم العام لجنس الشعر، أي باعتباره مجموعة من الأساليب التي استقرت في الأذهان وصارت تقاليد وأعرافاً جمالية مكونة الذوق الأدبي المهيمن الذي لم يفلح في زحزحته عن مكانه ما استحدثت من أجناس أدبية في الثقافة العربية، ولعل هذا الافتراض، الذي تسعى هذه الدراسة إلى بلورته بالوقوف على تفكير تراثنا البلاغي والأسلوبي، يحتاج إلى فضل يملأ لتكمل بمنافسته الصفحات القادمة.

الشعر شعباً للبلاغة

- الشعر / النثر

لا شك أنه من الشعر انطلقت معظم الأفكار البلاغية والنقدية في التراث، ونحن نعرض على هذا مستوى القول إن طبيعة هذه الأفكار لم

لكن تخلص التعبير الشعري، كما نفهمه اليوم، حيث ذهب بعضهم، في تفسير ذلك، إلى ما شهدته الخطابة من التماش والزهوار في المصور الإسلامية الأولى مما كان له تأثير قوي في صياغة التفكير البلاغي الذي يعد الجاحظ أحد ممثليه الأوائل^(٣١). وقد يرجع ذلك إلى السمة الخطابية في الشعر العربي، الذي لم يكن ممكناً فصله عن الوظيفة الإشاعية التي ارتبطت به بحكم الكتابة السامية التي احتلها في سلم القيم الاجتماعية. وحتى عندما تدهورت مكانته في المجتمع العربي، ظل يمارس الإقناع، ولكن هذه المرة بطريقة أخرى. لم يتفصل الشعر العربي عن الحكمة والنيل الساطر مثلاً لم يتفصل عن ممارسة التأثير في نفوس المدحجين واستجداتهم للعطاء.

لما كان الشعر موضع نظر التفكير البلاغي والنقدي، فقد انبثقت منه معظم الأفكار والأصول الجمالية الموروثة، حيث نكاد لا نجد أي أثر للأجناس النثرية في مسار هذا التفكير الذي ظلت مفاهيمه ومصطلحاته تدور في فلك الشعر. وهذا لا يعني أن قارئ التراث لا يجد فيه أدنى اهتمام بأجناس النثر، فلو أن هناك نقاداً أولوا غاية واهضة للنثر، نذكر من بينهم: ابن وهب الكاتب وأبى هلال العسكري وابن عبد القفور الكلاعي وابن الأثير، غير أن هذه العناية لا تتجاوز تصنيف أجناسه وتحديد خصائصها الأسلوبية الشكلية التي تميز كل جنس نثري عن الآخر، وتغيز النثر عن الشعر، كما أن هذا الاهتمام بالنثر لم يتجاوز جنس الخطابة والتمرسل إلى الأجناس النثرية السردية^(٣٢).

يقول ابن عبد القفور الكلاعي، وهو من نقاد القرن السادس، «وجعلت أبحاث عن ضرور الكلام فوجدتها على فصول وأقسام منها: الترسل، ومنها التوقيف، ومنها الحكم المترجلة والأمثال للرسالة، ومنها النثرى والقصص، ومنها المقامات والحكايات، ومنها التوثيق، ومنها التاكيف».

وتأملت أيضاً... الأسجاع فوجدتها على ضرور وأنواع. فمنها ما يجب أن يسمى للنقاد ومنها ما يجب أن يسمى للضارح ومنها ما يجب أن يسمى للمشكك^(٣٣). ثم افرد لكل جنس من أجناس النثر والسجع حديثاً خاصاً، وقد اعتمد في تمييزه بين أجناس النثر معيار المقومات البديعية، فجاء تمييزه شكلياً خالصاً. أما فيما يخص النثر السردى، فقد اكتفى بذكر بعض الأعمال المينة بقوله: «ومن الحكايات المختلفة والأخبار الموزنة الممتعة، كتاب (كيلة ودمنة)

٣١: محفوظ على عبارة «ولم تزل القار» في مقالة سابقة من الكتاب.

أدبنا ومفهوم النص الأدبي

وكتاب (الضائف) لأبي العلاء المعري، وقد تكلموا فيه على السمة الحيوان، وغير الحيوان^(١٢٨)، وما عدا تضمينه لكتاب (الضائف) على (كافية ودمنة) فإن موقفه من النشر القصصي والسري يبدو عليه مسحة الارتباب. وهذا الموقف ليس فريدا في خطابنا النقدي الموروث، كما تؤكد ذلك «أقمت كمال الروبي، التي أظهرت أن لغادنا» لم يعرضوا لفهم واضح ومتكامل للنص بوصفه جنسا أدبيا له وجوده المستقل بين الأجناس الشعرية الأخرى، فلم يدرجوا القصص ضمن تصنيفاتهم لأشكال النثر المختلفة^(١٢٩). وقد يرجع السبب في هذا الموقف النقدي من النص إلى افتقاده للوظائف النفسية المباشرة التي كانت للخطابة والكتابة الديوانية، كما أن أصحابه لم يحطوا بالمكانة التي أسندت للخطباء والكتاب، وما يؤلفونه موجه للعوام والجهال^(١٣٠).

نعم، قد يكون هذا سببا مقبلا لتفسير غياب الاهتمام النقدي بحصر أشكال النثر القصصي، ولكن ذلك لم يمنع الشعر، الذي لم يكن أسعد حالا من النثر القصصي في العصور المتأخرة، من أن يفرض سلطته الجمالية على الكتابة الشعرية والنقدية معا، أي على الرغم من المكانة المتدهورة التي آل إليها الشعر في العصور المتأخرة فإن ذلك لم يكن كافيا للحد من سلطته القديمة التي مازالت تحدث أثرها، إن على مستوى الإبداع أو على مستوى النظر، تجلى ذلك في اعتداء كتاب النثر على الشعر، في أماليهم وأغراضهم إلى درجة كانت تتواري فيها الحدود بين لغة الشعر ولغة النثر^(١٣١)، كما أن كتب النقدية والبلاغية حول الشعر كانت لاتزال في ظهور متزايد بل إن ما ألفه من قبل النثر من خطاب أو ترسل، كان واقعا تحت تأثير الشعر. فعلى الرغم من العناية النقدية التي حظي بها هذان الجنس، فحين تكاد نجهل عن طبيعتهما الشيء الكثير عدا بعض الخصائص الأسلوبية الشكلية التي تثبت أن النظر النقدي والبلاغي كان يرى فيهما اعتداءا للأسلوب الشعري. يقول الكلاعي: «وتأملت... النثر فوجدت فيه من أنواع البديع ما في النظم، فأخطت ذكرها في هذا الكتاب لأن كثيرا من العلماء قد علوا بهذا الباب»^(١٣٢). ونذهب ابن أبي الأصميصي المصري إلى أن أكثر أبواب البديع نعم الشعر والنثر معا، وقيل منها يخص الشعر^(١٣٣).

لم يقلع النظر النقدي والبلاغي في اعتبار هذين الجنس شيئا آخر مختلفا عن الشعر، ولأجل ذلك لم تختلف معالجه لهما عن معالجه للشعر إلا إذا استثنينا بعض الأمور الضرورية التي تميزانه عنه، فقد خصص كل من أبي هلال العسكري وابن الأثير فصلين في كتابيهما للحدث عن أركان الكتابة أو ما يحتاج إليه الكاتب في مكاتباته^(١٣٤)، وهي شرائط، إذا تأملتها وجدتها لا تختلف عن تلك التي وضعت للشعر، إلا ما اتصل منها ببعض المكونات البلاغية بعين الرسالة ولا يشترك معه فيها الشعر.

والحق أن النظر النقدي والبلاغي لم يميل على هذين الجنس إلا عندما أظهرهما اعتداءا لأسلوبها للشعر، لا يختلفان عنه اختلافا جوهريا، بينما أعمل - إعمالا يكاد يكون تاما -

الأجناس الشعرية ذات المكونات السودوية أو القصصية⁽¹⁴⁾. فقد عرفت الثقافة الأدبية العربية أجناساً شعرية كثيرة لم تظهر بلافتها هي الصياغة اللغوية بقدر ما ظهرت هي تعدد بنائها وتنوعها. من ذلك الأمثال والخرافات والمحاورات والتواذر والمقامات وغيرها مما «لم يسمح لها النقاد بدخول حلبة الأدب لأنها كانت متميزة تعزاً أصيلاً عن الشعر»⁽¹⁵⁾.

أقول، بعد هذا، إن الشعر هو النموذج اللغوي الرفيع الذي استأثر بالنقد والبلاغة وعند موقعهما من النثر، فاعتدا ببعض أجناسه وأهملا أجناساً أخرى كثيرة لقد كانت سلطة الشعر الجمالية تقيد إقصاء الاهتمام النقدي بالأجناس الشعرية، فما دام الشعر «عمدة الأدب»⁽¹⁶⁾ كما يقول الثعالبي، وفن القول الأسمر، فإن الحديث عن النثر سيأخذ منحى آخر، فهو في الغالب ما يأتي في سياق المناظرة بوجه وبين الشعر، أو باعتباره خليفة له، ولم يتم تقديره أدبياً وأسلوبياً. فالشعر هو قطب الامتداد والجناب، من هنا انتفى وجود النثر باعتباره جنساً أدبياً مخصوصاً ينطوي على أنواع لها إمكاناتها التعبيرية الفنية المتميزة.

وإذا رجعنا إلى المؤلفات النقدية الأولى، أي مؤلفات النقاد القرويين، فإننا نجد موقفهم من الشعر واضحاً، فهو مصدر اللغة الفصيحة ومجهر البلاغة والفن، ولا مكان عندهم للنثر⁽¹⁷⁾. ولكن هذا الموقف سيغير نسبياً عند نقاد الشعر الأدباء، فإن فتية لا يرى بأساً في أن يعرض فضايه النقدية بالإحالة إلى النثر من الرسائل والمقامات والحواريات⁽¹⁸⁾، كما أن ابن طاطايا لجأ إلى الرسالة في حديثه عن بناء القصيدة⁽¹⁹⁾. وهكذا ظل النثر عند نقاد الشعر أشبه ما يكون بخلفية لبناء مفهومهم عن الشعر، فقد نعتة قداسة بالذهب⁽²⁰⁾، والمقصود به طريقة التعبير التي يتميز عنها الشعر. إن النثر عندهم يشمل كل ما لم ينظم في أبيات ويقصد⁽²¹⁾ من خطاب وأمثال ورسائل ومقامات وأجوبة الفصحاء.

لقد كان الاهتمام النقدي بالزوج الشعر والنثر، يندرج في إطار تحديد ما يميز لغة الشعر عن الكلام العادي أو اللغة العلمية أو لغة الخطابة⁽²²⁾. ويمكننا القول إن تصور القداسي للغة الأدبية كان يعطيه اعتبارهم لغة الشعر النموذج الأعلى، فهي تجسد المثال الرفيع للفن اللغوي الذي قامت عليه البلاغة والنقد.

الشعر معيلاً للقراءة

أ- علاقة الشعر والمفاهيم

تمثل «المناظرة» بين الشعر والنثر إحدى صيغ التفريق بين هذين الجنسين، فقد وقع خطابنا النقدي والبلاغي على كثير من خصائصهما

في سياق ترجيح أحدهما على الآخر، غير أن معظم الخصائص التي أشار إليها النقاد والبلاغيون في تمييز حكمهم لصالح هذا الجنس أو ذاك لا صلة لها بأسلوبهما، وقليل منها يرتبط

البلاغة ومفهوم النثر الأدبي

بمعنوماتهما الداخلية. ومع أن معنوي للفاضلة التي ردها أكثر من نافذ، لا نهما في ذاتها، فإننا لا نكرما نتجه لنا من إمكانات الوقوف على نظرة القدماء لماهية الشعر والنثر. وإن كنا نلاحظ أن نصيب النثر يظل زهيدا بالنقاس إلى ما ضيقه هؤلاء من خصائص الشعر.

وعلى الرغم من ذلك فتحن لا نستطيع أن نخرج من أولهم في فضول أحد الجنسين إلى نتيجة عامة ترجح كفة أحدهما على الآخر، فالحجج القمية متكافئة، كما أن كثيرا منها يرجع إلى مكانتهما في المجتمع وموقعهما في الثقافة، وهو ما يدل على أن قضية الفاضلة لم تكن ذات جدوى لأنها، في النهاية، لا تخدم الأدب ولا تفسر عن طبيعته الذاتية. فالذين ناصروا الشعر وفضلوه لا تعوزهم الأدلة، فهو ديوان العرب، ومستودع حكمتهم وسجل مفاخرهم وأمجادهم. كما أن الذين رجحوا النثر كانوا ينظرون إلى ما بلغت الكتابة الديوانية من شأو بعيد، والدرجات التي حظي بها الكتاب في السلم الاجتماعي. في زمن تراجع فيه موقع الشاعر إلى الخلف، وحتى عندما كان هؤلاء، وأولئك يتحاشون بأدلة مستمدة من الطبيعة الخاصة لكل من الجنسين، فإن ذلك ينبغي ألا يسوغ للفاضلة التي تتمازج في جوهرها مع الاعتراف بضرورة اختلاف أدوات التعبير الأدبي، والعنصرية كل جنس في توصيل رسالته الإنسانية وهي أداء تأثيره الخاص به.

ولكن ما هو هذا النثر الذي دخل في النقاش مع الشعر الذي كان «علم قوم لم يكن لهم علم أصح ملة»، بالتاكيد لم يكن النثر الذي فضله على الشعر من قبيل النثر السردى، الذي جسده أجناس أدبية لم تحظ باعتراف النقد، ولم تفل المكانة التي كانت تستوجبها باعتبارها إبداعا أدبيا كبيرا من أنواع المبدعات المعروفة في تراثنا، وربما كانت أقرب إلى جوهر الأدب من بعضها. ولا شك أن هذا ينهض دليلا على أن فضيلتهم للنثر أملاء تقدير اجتماعي عام للتوصل، هـ «صناعة تبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لا توصل صاحبها إلى ذلك»⁽¹⁾، وما كانت صناعة القصص، من خرافات ومغامات ونواير، تنبئ صاحبها الكالة الشريفة التي يوصل إليها تماضي في الخطية والكتابة.

لقد دخل الخطيب أو الكاتب حلبة النقاش مع الشاعر، الذي سادت أحواله وقد كان في أعلى المراتب. وإذا كانت نتيجة الصراع قد تم حسمها اجتماعيا لصالح الأولين، فإن هذا لا يعني أن الكتابة استولت على الشعر وهزضت عليه أسلوبيا، بل إن العكس هو الذي حصل. فقد خضعت الكتابة لأساليب الشعر وأصبحت لفظة الترموز الذي ينبغي احتذائه بلوغ مرامي البلاغة. وقد عبر أبو هلال العسكري عن أن حاجة كل مشأب إلى الشعر ماسة «هاقته إلى روايته شديدة، فهو «ديوان العرب، وخزانة حكمتهم، ومستيقب آدابهم ومستودع علومهم»⁽²⁾، ومنه تنزع الشواهد وتؤخذ ألفاظ اللغة الموسومة بالجزالة والفصاحة والفحولة والغراة.

لم يكن للكاتب أو الخطيب بدٌّ من أن يبتكرا على الشعر إن أرادوا التأثير في النفوس. وليس المقصود بهذا ما يلجأان إليه من تضمين واقتباس للأشعار، بل أن يعتمدا في صياغة أسلوبهما على ثوابت الأسلوب الشعري التي كانت قد تمكنت من الذوق. وقد تهيأت جميع الشروط لاستبداد الأسلوب الشعري بالكتابة والخطابة، فتحل لا تلك إتكرا ما تشترك فيه هذه الأجناس من تصوير مواقف واحدة وتوحي غايات متشابهة، على الرغم من اختلافها الذي أشار إليه النقاد القدماء. والحق أن الأسلوب الشعري سيصبح النموذج الفني الأعلى الذي ينبغي اتباعه في كل كتابة أدبية تتوخى إحداث التأثير البلاغي الساحر الذي حازوه الشعر ودعا من الزمن.

وبعد، أي فضيلة يمكننا إسنادها إلى أجناس نظرية وقعت أسيرة سحر اللغة الشعرية، فأخذت في محاكاتها إلى درجة لم يعد هناك حد فاصل بين النثر والشعر، بل حتى الأجناس النثرية التي سمت بتمييزها الأصول عن الشعر لم تلج من أسلوبه ولم تتحلل عن طريقته في الصياغة اللغوية؟ أو ليست هذه الأفضلية للزعماء للنثر سوى رد فعل مجموعة من النقاد الذين برعوا في فن الكتابة واستمعين عليهم قول الشعراء؟ أو ليست سوى موقف اجتماعي من وضعية الشاعر القديمة؟ أو ليست موقفاً دينياً^(٢٧) - عند بعضهم - للإعلاء من قدر القرآن؟

لم يكن إقرار بعض النقاد بأفضلية النثر الخفيف المكافئة الخفيفة التي احتلها الشعر في النفوس، وجعلت حتى أولئك الذين عصبوا الإتيان إسقاطاً لبلاغة القرآن يدافعون عنه في صدور مؤلفاتهم، على نحو صليح عبد القاهر الجرجاني في «دلائل الإحسان»^(٢٨)، وغير خاف ما يسطوع به الشاهد الشعري في جميع حقول الثقافة العربية الإسلامية القديمة، «قال ابن تيمية: من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه، أعني أن العلماء والحكماء والفلاسفة والتعويين والتفويين يقولون: «قال الشاعر» وهذا كثير في الشعر». فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة، والشعر هو الحجة»^(٢٩)، بل هل يوجد جنس أدبي حقيقي مثله بأن صار «صناعة برأسها»^(٣٠) قامت عليها علوم (علم النظمية والعروض والشعر «أي النقد» وصدرت عنها معظم الأفكار التي تبلورت عند البلاغيين»^(٣١).

هل يعقل لنا بعد هذا القول بأفضلية النثر بالنظر إلى خطابنا النقدي والبلاغي الذي يشهد حاله أنه لم يتخلص من سحر الشعر ليفسح المجال لأنماط بلاغية أخرى كان لها صبرها الخاص؟

ب - بلاغة القرآن أم بلاغة الشعر؟

هناك رأي سائد قديماً وحديثاً يعتبر البلاغة علماً كلياً يشمل الشعر والنثر، ومن ثم فإن المبادئ المستخلصة والأصول المقررة لا تقتصر على أحدهما دون الآخر. غير أننا وإن جلعنا

البلاغة ومحولة النص الأدبي

إلى تأكيد هذا الرأي، فإننا نقر بإفعال البلاغيين لفروق بين الأجناس الخطابية، إذ تعتبر الشعر الجنس الأدبي الذي وجه البلاغة العربية وأعلى عليها مقولاتها ومصطلحاتها، ورسم لها الطريق الذي نهجته فيما بعد، على الرغم مما كانت تعوج به الثقافة العربية الإسلامية من أجناس الإبداع الأدبي المختلفة، التي لم يكن لها أي أثر حقيقي في هذه البلاغة، ولكن قد يعترض علينا من يرى في القرآن النص الذي قام حوله التفكير البلاغي، وكان سببا في ظهور العلوم الإسلامية.

ونحن لا ندفع أن يكون النص القرآني حافظا مبدئيا لظهور الدراسات البلاغية منذ القرن الثاني مع مفسرين لقويون، القراء (٢٠٧هـ) وأبو عبيدة (٢١٠هـ) والأخفش (٢١٥هـ) إلى أن تبلورت مع ظهور الكتابات الخاصة بالإعجاز، خلال القرنين الرابع والخامس، ولكن ما تنوحي إثباته هو أن هذه البلاغة التي نشأت حول النص القرآني تدل في أصولها لمعيار الأسلوب الشعري، الذي ترسخت بلاغته في ذهنية المتلقي وتجزأت قيمه الدوقية، مما جعل مفسرا مثل أبي عبيدة يتخذ حجة لإثبات أن القرآن نص عربي يجري على سنن كلام العرب وطوائفه^(١٧)، فله ما في الشعر من سمات المطلوب الذي يكون الأهل الجمالي لمعطني العربي، وعلى هذا النحو لم يكن كتاب أبي عبيدة «عجاز القرآن» بحثا في ما يعجز بلاغة القرآن عن بلاغة الشعر، بل كان في واقع الأمر لتأسيسا للتشابه بينهما، أو تعبير آخر، كان تعريضا لنموذجية البلاغة الشعرية.

وكما قال حقا أحد الباحثين عن قراءة أبي عبيدة بأنها «لم يكن ما جسها البحث عن التفكير النوعي وهو ما كان يجب أن يكون، وإنما انصرفت إلى إضرام الشواهد الأسلوبية في النص القرآني، بوصفها استمدادات طبيعية للمكونات الجوهرية الأولية لمطالب النص الغائب (أي النص الشعري)»^(١٨)، وعندها لا مجال للاعتراض على طرائق القول القرآني وعلى تركيبته اللسانية، وإذا شئنا قلنا إن ما قامت به قراءة أبي عبيدة هي استقراء نموذجي وخصائص وجهة للشواهد الأسلوبية في النص الغائب^(١٩).

يقول الباحث في دراسته عن أبي عبيدة في «عجاز القرآن» إن اعتماد النص الشعري الجمالي حجة لإثبات أن القرآن لا يختلف في صياغته التعبيرية عما عهد عند العرب، كان نهجا يرضي أهل النطق أكثر مما كان في واقع الأمر تقصيصا دقيقا لخصائص النص القرآني، بل إن الاحتكام إلى النص الشعري للدفاع عن أسلوب النص القرآني، إنما يؤكد سلطة النص الشعري، وتمكنه من ذهنية المتلقي، ويؤكد في الوقت نفسه أصلية هذا النص ومعياريته، وهكذا تتحول «القراءة بالمعائيل» كما اصططح عليها الباحث، إلى دعم للشواهد الأسلوبية التي رسمها الشعر، وليست كشفا نوعيا لأسلوب القرآن، باعتباره نصا جديدا يحمل بلاغة مميزة، إنها قراءة شابت الدفاع عن أسلوب القرآن فوفقت في تعجيد أسلوب

الشعر، لما يحوز من تأثير في نفوس المتلقين، وبذلك كانت إشباعها الذوق المتلقي واستجابة لمعايير الجمالية.

إن القراءة البلاغية التي تعتمد الشعر حجة لإثبات شرعية الأسلوب القرآني، فتقيس الشاهد على الغائب، متعلقة من جهة هذا الغائب وسلطانه على المتلقين، وإن كانت تتوخى الدفاع عن القرآن وإظهار خصائصه التعبيرية، فإن المنهج الدفاعي الإقناعي قائدها في حقيقة الأمر إلى مناصرة النص الحجة، أي الشعر باعتباره معياراً أسلوبياً ملقفاً عليه، ونتيجة لذلك فإنها لم تلح في ضبط الخصوصية الأسلوبية للقرآن، لأنها قيدت نفسها بالإجابة عن إشكال محدد يتمثل في أن أسلوب القرآن معال على أساليب العرب المتداولة في شعرها، ولم يخرج عنها. في ظل هذا الشرط، لم يكن ممكناً تقديم قراءة فاحصة لأسلوب القرآن وما يتميز به عن أسلوب الشعر، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل نجحت «القراءات» البلاغية الأخرى (وأعني بها دراسات الإعجاز) لأسلوب القرآن في ضبط خصوصيته، باعتباره إمكانية أسلوبية نوعية تتميز عن لغة الشعر؟

لقد صدرت «القراءات» البلاغية الإعجازية عن مبدأ تفوق أسلوب القرآن على بقية الأساليب البشرية، فراحت تتفحص مواطن الإعجاز والتفوق، وهي لطاق هذا المبدأ منحت بلاغة الإعجاز القرآني حصيها من أنواع التفوق والذوق، جعلها تتجاوز الإطار الوصفي الضيق الذي وضعت نفسها عليه عند مواجهة القرآن، غير أن هذه البلاغة، هي خضوعها لهذا المبدأ - مبدأ الأفضلية - لم تلح لنفسها الاقتراب الحقيقي من أسلوب القرآن والتكثف عن خصائصه المتميزة، إنها كانت معنية أساساً باستجلاء مواطن الإعجاز البلاغي والتفوق الأسلوبى، ولعل الرغبة في الإقناع التي حملت أيا عبيدة على الاستناد مباشرة إلى حجبة الشعر، شاعلاً بذلك عن أن أسلوب القرآن أصل بذاته، أن تكون قد صاحبت جميع البلاغيين المدافعين عن إعجاز القرآن، وفادتهم إلى أن يجعلوا أسلوبه امتداداً لأسلوب الشعر. أسنا بإزاء إمكانية أسلوبية نوعية واحدة؟

هذا ما يستشعره بالتحديد قارئ أهم مصنف بلاغي في هذا الباب، وهو كتاب «دلائل الإعجاز»، فيصرف النظر عما يؤمن به عبدالقاهر من تفوق بلاغة القرآن، فإن القارئ لا يشعر في كتابه على خصائص مميزة لأسلوب هذا النص الجديد، وكأن عبدالقاهر يستند إلى جمالية الأسلوب الشعري نفسها لإثبات تفوق الأسلوب القرآني، فالإقناع وطبيعة المتلقي وسلطة جمالية الشعر على البلاغي نفسه، كل ذلك يقتضي منه أو يدفعه - على الأصح - إلى البحث عن التفوق في الجهة نفسها التي كان الشعر متفوقاً فيها، على هذا النحو ظلت هذه البلاغة هي الأخرى أسيرة جماليات الشعر من حيث أرادت أن تثبت جمالية القرآن، ولم يكن ممكناً لهذه البلاغة أن تتطلع إلى جمالية نوعية أخرى لأسباب يرتبط بعضها بسباق المتلقي

البلاغة ومناهج البحث الأدبي

وشرائطه. ولأجل ذلك وجدنا البلاغياتي يشير تلك المقارنة بين القرآن وقصيدة من أجود⁽¹¹⁾ شعر امرئ القيس لإثبات تقوى البلاغة القرآنية، وهو في الحقيقة عجز عن ضبط أسلوبية القرآن، على الرغم من إقراره بأن نظم القرآن جنس متعيز وأسلوب متخصص⁽¹²⁾. وذلك لأن البعد الذي صدر عنه لم يكن البحث عن الخصائص الفارقة، بل البحث عن الأفضلية، ولن يتم الإقناع بأفضلية التعبير القرآني إلا إذا كان لهذا التعبير ما ينافيه في ذهن الناطقي. وهكذا كان النهج الإقناعي المتحكم في الدرس البلاغي الإصغاري طريقاً لإثبات التشابه، مرة أخرى، وليس التمايز الترمي.

إن مكانة الشعر في نفوس الناطقين وتجذر معايير الجمالية في ذهنيهم وتشبعهم بأساليبه وطرقه التعبيرية لم يجعل بعض البلاغيين يتخذونه معياراً للدهاق عن النص القرآني فقط، ولكنهم لم يسلموا من تأثر صيغه الجمالية حتى وهم يحاولون إثبات إصغاء النص القرآني وأفضلية أسلوبه على أسلوب الشعر. لم يستطعوا إذن التمييز ما للأسلوب القرآني من خصوصية نوعية، أي باعتباره جسماً غير شعري، وما استقر في كتاباتهم من أساليب التعبير القرآني لها ما ينافيها في أسلوب الشعر⁽¹³⁾. فلهي وإن كانت تكشف عن بلاغة القرآن المعجزة، فإنها، من وجه آخر، تظهر تولد صاغية الأسلوب الشعري في التفكير البلاغي، الذي لم يطلع في صياغة سمات أسلوبية ثابتة من مجموع النص القرآني، بما هو إمكانية أسلوبية نوعية مستحددة في الشعر وليس الشعر.

يرى سيد قطب⁽¹⁴⁾ أن البلاغة العربية لم تستطع أن تتجاوز في تفسيرها بلاغة القرآن «تساوق تراكيبه وألفاظه، أو استيفاء نظمه لشروط فصاحة والبلاغة المعروفة، مع ضرب من «الإدراك الجمال المتفرقة، وتعليل كل موضع منها تعليلاً متفرداً» إنها لم تستطع تجاوز العقلية الجزئية إلى «إدراك الخصائص العامة في العمل الفني كله». من هنا يرى أنه يلزم منهج جديد لدراسة النص القرآني من أجل الكشف عن خصائصه الفنية المتميزة التي ظلت مخفية خافية.

إن مثل هذا النهج لم يكن قائماً في البلاغة العربية القديمة، فالبلاغيون - كما سنرى هذه الدراسة - لم يتجاوزوا في تناولهم لأساليب القرآن ما استقر في حقل بلاغة الشعر من صور بلاغية جزئية، وهم بذلك يؤكدون ارتباط التفكير البلاغي الموروث بالشعر الذي قد يكون مسؤولاً عن هذه «العقلية الجزئية» المشار إليها، فهذا الجنس الأدبي ينفذ وأسلوبه، أو إن شئت قلت، بكوناته الجمالية الخاصة، كان تروية خصبة لتماء بلاغة لغت النص إلى مجموعة من السمات الأسلوبية التي لا تتجاوز في الغالب إطار الجملة أو البيت الشعري، إنها بلاغة «القطعة الثمينة» والنكتة النادرة والصورة البديعة، تلك التي تعرضت في حوض الأسلوب الشعري العتيق.

خصائص الشعر والبلاغة

١- الشعر واللغة

لقد أصبحت اللغة موضوعاً لتفاسمه معظم الاتجاهات النقدية والأسلوبية المعاصرة التي عثت بالشعر. وفيه عن البيان أن الاهتمام النقدي المتزايد بمشكلات لغة الشعر، إنما يرجع في الأصل إلى سيطرة النموذج اللساني على العلوم الإنسانية ومنها الدراسات الأدبية، ولكن هذا لا يعني أن إشكال اللغة صار حكراً على النقد ذي الوجهة الأسلوبية، فالدموية إلى ضرورة درس أداة الأدب قائمة حتى عند النقاد الاجتماعيين^(١٧). كما أن تراشاً النقدي العربي، كاد يفتل جهوده على قيمة وحيدة من المفاهيم التي يزخر بها الأدب والمفصلة في الأسلوب اللغوي.

ومع ذلك فإن النشاط النقدي حول مفهوم اللغة الأدبية يرجع أساساً إلى النظرية الأدبية المعاصرة، وإن كانت جنوده معتدة في التراث البلاغي. وإذا ما صرفنا النظر عن عددٍ من العوامل المباشرة التي أثرت في صياغة مفاهيمات النقد الأسلوبية المعاصر وبلورة مقولاته، وهي عوامل معروفة الآن، وسعينا لننظر إلى الموضوع من زاوية أخرى، فلنلتفت أننا منتهي إلى نتائج تعزّل تصورنا من الصلة الوثيقة بين البلاغة ونس الشعر.

يفسر بعض الباحثين تحول البلاغة العربية من كونها عملية فلسفية إلى معرفة أدبية بالسلطة التي فرضها الشعر عليها. هذا التحول يكشف السبورة التقييدية التي خضع لها هذا العلم العتيق. فقد كانت «عملية تحويل البلاغة إلى المجال الأدبي، التي شهدنا قصور ما بعد شيخون ثامة في العصر الوسيط، حيث أصبح ترادف هذا الفكر مع الأسلوبية في اصطلاح العصر يحظى بالإجماع، إن تاريخ هذا الفكر، الذي بدأ رحلته الطويلة بوصفه فكراً فلسفياً، هو في خطوته الكبرى تاريخ التحول نحو فكر أدبي»^(١٨).

لم تكن البلاغة في العصر القديم مرادفة لنظرية الأسلوب. فقد أشار بول ريكور Paul Ricœur إلى تعدد المجالات التي كانت تشملها بلاغة أرسطو، وهي نظرية للحجاج - التي تعمل المحور الأساس - ونظرية الأسلوب ونظرية تأليف الخطاب، وما تقدمه لنا الكتابات المتأخرة في البلاغة لا يبدو أن يكون مجرد بلاغة مطبقة... فقد أصبحت تقتصر على نظرية الأسلوب، لم يشكل اضيق على نظرية الحجاج^(١٩). فقد تقلصت البلاغة إلى أحد أجزاءها المتمثل في الأسلوب أو العبارة Elocutio، وبذلك، صارت مرادفة للأسلوبية، وبعد أن كان مفهوم البلاغة قائماً على الإقناع عند المفكرين الأوائل، أصبح فيما بعد ينفرد «من تجويد الكلام». البلاغة هي اختيار التعبير المخرطف الذي يمكنه خدمة الوظيفة الإقناعية التي تراجعت إلى موقع خلفي. وإذا أصبح المخرطف علامة أساس في مفهوم الفعل البلاغي، فقد حول النشرون في هذا العصر، البلاغة إلى إشكال أدبي خالص^(٢٠).

البلاغة ومعناها البحث الأدبي

وبهذا تبين أن الأساليب الداعية إلى أطول البلاغة بمعناها القديم، فلم ينتقل موضوعها من الخطابة إلى الشعر، أن يمثل عاملاً في تفسير تحولها من مذهب شامل إلى نظرية في الاستعارة والكتابة⁽¹⁾، لقد أدت سلطة الشعر على البلاغة إلى انحلال التوازن بين أجزائها لتحتل في الجزء الخاص بالأسلوب، وسيمتد تيار الاختزال الجارف إلى أن أصبحت البلاغة هي المحصلة النهائية لنظرية في الاستعارة فقط.

على هذا النحو، كان الشعر وراء هيمنة الاستعارة على الفكر البلاغي الحديث لتتم بذلك نهاية مرحلة أساس في تاريخ العلم، إن ما كان يسمى بلاغة أصبح مجرد نظرية حول الأسلوب الشعري. وفي سياق هذا الوضع، لم يكن جائزاً الحديث عن البلاغة بمعناها الكلاسيكي ولا بمعناها الشامل لجميع أجناس الخطاب، فبعد «شيشرون» و«ابن رشد» من «كثوليان» إلى «فولتاي»، أحكم الشعر سيطرته على مقولات البلاغة.

لقد شهدت المرحلة الثانية للبلاغة سيطرة المفهوم الرومانسي للشعر المتعارض مع البلاغة الإقناعية. وهكذا صارت البلاغة، التي نحط بالتقديرات، هي تلك التي تتغلب المحسنة أي بلاغة تجويد الكلام وخلل أنماط لغوية جميلة⁽²⁾، لم تعد البلاغة فناً يسيطر الوسائل اللغوية من أجل غاية خارجية، وهكذا انقضى الوضع الجديد للبلاغة بالأدب، ويتعبر أوضح، إن «الكلام غير المفيد وغير الفعّال» هو الذي سيخلق موضوع البلاغة التي أصبحت نظرية حول لغة تقليها في ذاتها ولأجل ذاتها⁽³⁾، إنها لغة الشعر كما امتنعت خصائصها في تصور الشكلايين والأسلوبيين، فقد أصبحت النموذج المفضل للبلاغة في مرحلتها الثانية، حيث لم يعد وصف الصور مصحوباً بوصف تأثيراتها، فموضوع البلاغة هو معرفة اللغة التي يتم تنويعها في ذاتها⁽⁴⁾.

لقد تولى تودوروف Todorov من قراءته لمرحلة تطور البلاغة تفسير امتداد جذور التصور الشكلايين البنيوي للغة الأدبية في تراث هذه البلاغة، وهو التصور الذي يرتكز على مفهومات البلاغة والتقدم الأسلوبيين اللذين أقاما نظريتهما للغة الأدبية في إطار اعتبار الشعر متبعاً للجمالية، أو كما قال «فاليري»، هو «الأدب» وقد انحدر إلى جوهر مبدئه الدينامي، ولا غرو أن يصبح بعد ذلك «النموذج المثل للأدب»⁽⁵⁾، وإن يعتبره أحمد شايب «أدخل في باب الفن وأشدّ تعظيلاً له»⁽⁶⁾.

والحق أن النظر الأسلوبية المعاصرة للغة الأدبية قام بصياغة مفاهيمه في ضوء اعتباره لغة الشعر النموذج الأعلى⁽⁷⁾، وأسلوبية الشعر المعيار الذي ينبغي أن تقاس عليه جمالية الأجناس الأدبية، وقد ترتب على ذلك ضرر يائن بالأشكال التعبيرية البشرية التي تقوم بخصائص أسلوبية متميزة، غير طامعة لمعايير بلاغة الشعر.

ويعد «الانزياح» من بين تلك المفاهيم التي صاغتها الأسلوبية المعاصرة لوصف لغة الشعر وتعدد خاصيتها الثابتة، فهو لا يعدو في حقيقته أن يكون أداة إجرائية لتحصر في نظرية الشعر ولا تمتلك نقدياً كفاية استيعاب الأجناس الأدبية الثرية. ويتركب على القول بالانزياح اعتبار لغة الشعر أرقى مستويات اللغة، ذلك أنه كلما تحقق أكبر قدر من الخرق للمعايير القنوية العادية، اقتربت اللغة من جوهر الشعرية. ومفردى هذا التصور الذي يبنى مفهومه لجمالية على أساس الانزياح هو نفي صفة الفن عن الأجناس الثرية المعروفة باقتراب لغتها من الشكل التواصل العادي واعتبارها أدنى منزلة من الشعر.

إن وصف أسلوبية الانزياح للغة الأدبية بأنها انتهاك لنظام اللغة العادية صوتياً وتركيبياً ودالاً، لا يترجم الخاصية الأدبية للأجناس الثرية، إنه وصف لطبيعة لغة الشعر، وفي هذه الحال لا ترقى هذه الأجناس في نظر أصحاب هذا المفهوم إلى تمثيل جوهر الأدب. ولعل هذه النظرة القائمة على أحقية الأسلوب الشعري أن تهدر ما تقوي عليه الأجناس الأخرى من خصوصية أسلوبية.

إن المفاضلة بين الأجناس الأدبية بغير مقبولة، فكل جنس أدبي جماليته الخاصة، غير أن مفهوم الانزياح الذي صاغ تصوره للأدبية على أساس الخرق اللغوي، يقضي إلى اعتبار جمالية الشعر معياراً نموذجياً، في حين تتواءم جمالية الأجناس الثرية إلى موقع أدنى، وهو ما يتناقض مع الرسالة الإنسانية للفن وظلته في تأويل الحضارة البشرية.

وليس الانزياح المفهوم الوحيد الذي يكشف لنا سلطة لغة الشعر في صياغة مفهومات الأسلوبية المعاصرة حول اللغة الأدبية، فهناك أيضاً مفهوم «الوظيفة الشعرية» الذي صاغه «ياكسون»، ولرود بعد ذلك بشكل لافت للنظر، وإن كان بعضهم قد اعترض على المصطلح مقترحاً «الوظيفة الأسلوبية»⁽¹³⁾ حتى لا يتوهم بأنه مقصور على الشعر. والحق أن هذا الاعتراض ليس جوهرياً، ذلك أنه من منظور هذه الدراسة، تعدو تسمية «ياكسون» أكثر وفاء لواقع ولا تعدو أن تكون التسمية التي اقترحها ريفاتير Riffaterre تعويها للمشاكل وتحليلها للحقيقة. إن «الوظيفة الأسلوبية» على نحو ما قدمها «ريفاتير» ليست إلا تنوعاً آخر على «الوظيفة الشعرية»، وكلاهما يمثل لغة الشعر ولا يحول إلى خصائص النثر الأسلوبية.

إن مفهوم الوظيفة الشعرية، على نحو ما تبلور في الدرس الأسلوب المعاصر، يقوم على جنس الشعر، فهو الخطاب الذي يستمد منه أصله الجمالي، على الرغم مما يوجد من سمات مشتركة بين أنماط الخطاب المتعددة. ويمثل المعيار اللساني، الذي تتحدد به الوظيفة الشعرية في عملية إسقاط، يقوم بها المتكلم لبدأ التكامل من محور الاستبدال على محور التركيب، بحيث يصبح مبدأ التكرار الصمة الأساسية في الخطاب الفني، طالعلامة

البلاغة ومفهوم الجنس الأدبي

اللغوية تكتف على ذاتها، ولا تحيل على السياق الخارجي إلا على نحو ثانوي. وبكيفية لذلك تتلاقى الوظيفة المرجعية إلى موقع خلفي غير لافت.

إن هذا النوع من الخطاب الذي يعتني بعلاماته الداخلية بواسطة خلق رسالة لغوية غير متعمدة، يختزل في حقيقته ماهية الشعر. والمقصود بالماهية هنا جنس الشعر في أصله الجمالي الذي رسمته الممارسة الشعرية في أراكم تصورها، وليس المذهب الجمالي الذي قد تلزع إليه تصور من هذا الجنس الأدبي في إحدى مراحل تطوره.

هكذا يختزل مفهوم الانزياح والوظيفة الشعرية في أصليهما الجمالي ماهية الأسلوب الشعري، على نحو ما تختزلها معظم المفاهيم الأسلوبية التي تبلورت حول اللغة الأدبية في إطار الأسلوبية المعاصرة. وقد اقتصرنا عليهما، دون غيرهما من المفاهيم، لاشتهارهما وبمعنيتهما في جل الأنظار الأسلوبية والبلاغية الحديثة.

إن مفهوم اللغة الأدبية، على نحو ما تم طرحه في نظرية الأدب الحديثة، لا يعدو أن يكون في الأساس بحثاً في خصائص لغة الشعر. وبذلك يتم اختزال الأدب في أحد أجناسه ويغفو الحديث عن طبيعة الأدب سروراً لتخصيص الأسلوب الشعري⁽¹³⁾. وقد حاول بعض الباحثين⁽¹⁴⁾ الأسلوبيين انتزاع هيمنة لغة الشعر على مفهوم اللغة الأدبية في أفق الاهتمام بلغة النشر، باعتبارها لغة هدية ينبغي تقدير خصائصها الأسلوبية. فحين أن هذه المحاولات ظلت سجيبة للعيار الشعري في تصورها عن الأسلوب والانتاج هي فكرة تصورها للغة النشر بمراعاة الأصول الجمالية للأجناس الشعرية، وبهكذا لم يتجاوز الاهتمام النقدي بلغة النشر، عند هؤلاء، أهل تطبيق مقولات بلاغة الشعر على جنس أدبي نثري ذي تكوين متميز.

ويمتدح «ميخائيل باختين» التناقد الأسلوبي الذي دعا بوضوح نظري إلى ربط دراسة اللغة الأدبية بأصول الجنس الأدبي ومكوناته. فقد لاحظ أنه، بعد الفترة التي تعامل فيها النقد مع لغة النشر، كانت لغة عملية تواصلية لا يصح اعتبارها فنا لغوياً، أعقبتها فترة أصبح فيها ممكناً طرح قضايا تحليل أسلوبية النثر الأدبي أو الرواية تحديداً، غير أن هذه التكلفة التي أخذت تعنلها لغة النثر الروائي هي الأسلوبية - كما يضيف باختين موضحاً - هي التي أظهرت عجز الأسلوبية التقليدية عن الإتيان بالخصائص الأسلوبية للغة الجنس الروائي⁽¹⁵⁾.

وبناء على ذلك دعا «باختين» إلى أن تحليل أسلوب الرواية ينبغي أن يقوم على مراعاة إمكانات هذا الجنس الأدبي بوصفه عالماً لغوياً متعدد، لا يقوم على لغة واحدة كما هي الحال في الشعر. فهناك كلام الكاتب وكلام الرواة والأجناس الدخيلة وكلام الشخصيات، هذا التعدد التقوي ينطوي على تعدد هي الأصوات الاجتماعية وهي الأساليب، وتظهر أصالة الجنس الروائي في أن هذه الوحدات الأسلوبية غير المتجانسة تلتف فيما بينها، حيث تدخل

الرواية هي نظام فني محكم، وتخضع لوحدة أسلوبية عليها هي وحدة الكل، وهذه الوحدة العليا لا يمكن مطابقتها مع أي من الوحدات التابعة لها أو معادلتها بها⁽³⁷⁾.

إن التحليل الأسلوبى للنثر الروائى ينبغى إذن أن يراعى سمته الأسلوبية الجوهرية المتمثلة فى اقتران لغات وأساليب متعددة فى وحدة تنظيمية عليها وحوار اجتماعي، ويذهب أن أسلوبية الشعر التي قامت على وحدة اللغة وهندسة الشاعر اللغوية والكلامية تعجز تماماً عن مقارنة الأسلوب الروائى الحوارى أساساً، وقصاراتها أن تعالج لغة الرواية أو أسلوبها وفق مقولاتها المعهودة، ولكن بالتأكيد أن يكون ذلك هو الأسلوب الروائى الحوارى في تنظيمه الكلى للعقد الذى يميزه عن أسلوب الشعر.

لقد انطلق «باختين» في بناء فكرته من ضرورة التفريق بين الأصول الجمالية والأيدولوجية المكونة لجنسي الشعر والنثر الروائى، هذه التفرقة لا مناص منها إذا شئنا صياغة أسلوبية شاملة لغة النثر الروائى المبينة في خصائصها لغة الشعر⁽³⁸⁾.

يظهر، مما سبق مناقشته، أن الأفكار والمبادئ التي تبلورت في نطاق الأسلوبية والبلاغة مدينة في أصولها لجنس الشعر، الذي اعتنوا بهما إلى درجة أن تناولهما للنثر لم يتجاوز التنبهات المسفرى التي ارتبطت بالأسلوب الشعري كمرافقة الاتزياحات وسير الثقافة التأثيرية للصورة العنصرية من تشبيهات واستعارات، وغير ذلك من الطرق المأهولة في تحليل لغة الشعر. ويظهر هذا القول أن المرحل الألفبتي، على الرغم من دعوته لتناول قضايا اللغة الأدبية، ارتبط بشكل وخيد من أشكال هذه اللغة ويتمثل في الشعر، وذلك لاعتبار جوهرى تعرض له فيما يأتي.

على الرغم من أن التنظيم الجمالي للغة بعد فاسما مشتركا بين جميع الأجناس الأدبية اللغوية، فإنه أظهر في الشعر من غيره، فهذا الجنس الأدبي بمكوناته المتمثلة في شكله التنظيم أساسا يرض «انتهاها خاصا ومباشرا إلى التمتع اللطفي»⁽³⁹⁾ وهو رأي يؤول إلى «كولريدج» الذي اعتبر الشعر أكثر إثارة للفتنة من النثر⁽⁴⁰⁾، فهو يتميز عنه بأن اللغة التي ينسجها «تتأني من الكل كما أنها تتأني من كل جزء من الأجزاء على حدة»⁽⁴¹⁾، فمع أن «كولريدج» يرى القصيدة بنية عضوية تتأزر أجزاؤها في تكوين منسجم بحيث لا تكون لهذه الأجزاء المستقلة بذاتها أية أهمية، إلا أنه يرى أن الصورة الكلية لا تتحقق إلا بأن يكون كل جزء منها مثيرا للأنشاء أي حيا ومعبرا.

إن تحديد الاختلاف بين التنظيم اللغوي في الشعر والنثر، على الرغم من صعوبة⁽⁴²⁾، استأثر باهتمام النقاد الأسلوبيين، بل صار قضية جوهرية في بعض التصورات الأدبية، نخص منها حركة الشكلانيين الروس الذين كادوا يقصرون نشاطهم النقدي على إشكالات لغة الشعر وتميزها عن لغة النثر⁽⁴³⁾.

البناء والبنية الأدبية

ويكاد معظم الأسلوبيين بالنظر لهم المختلفة يتفقون بأن وظيفة لغة الشعر تتمثل في تركيز الانتباه على العلامة اللغوية بذاتها، ومن هنا فهي تتنافس مع التوجه الحقيقي نحو هدف ما. وقد عبر «سارتر» عن ذلك واصفا الشعراء يقوم يرفعون باللغة عن أن تكون لعمية، وهي الحق أن الشاعر أبعد ما يكون من استخدام اللغة أداة. وقد اختار طريقه اختيارا لا رجعة فيه. وهو طريق فرضه عليه مسلكه الشعري في اعتبار الكلمات أشياء في ذاتها وليست بعلامات لعمى⁽¹³⁾.

وإذا كان من الصعب تجريد لغة الشعر من وظيفتها التوضيلية، فإنه ينبغي ألا تقبض التوضيل الفني على التوضيل النفسي الذي يسود اللغة العادية. وقد كان لابتعاد لغة الشعر عن أن تكون أداة تابعة في خدمة أغايات خارجية أن أصبحت تنظيمها لفظيا مطلقا بمعنى من المعاني، وإن كانت تضطلع بوظائف أخرى: «إن الشعر هو نوع من الكلام... الذي يجعل «الإشباع» أو «التألق» هدفه الغالب»⁽¹⁴⁾. أو هو «الكلام الرقيق اللغوي» والمشكل⁽¹⁵⁾.

في الشعر تصبح الكلمات غايات في ذاتها. ولأجل ذلك كان التركيز فيه على التسميح اللفظي الذي يملك نوعا من السحر أو الإشباع يصحان مع الترجمة. إن الشاعر يجعل التنظيم اللفظي هدفه الأول، فهو يحرم على التفاني الدقيق في الصياغة، إنه يوفر في فسيده كل المقومات التي من شأنها أن تجعل العلامة اللغوية تستوقف النظر وتجذب التأمل. أما التأثير فإنه لا يعمد إلى جعل «التظيم اللفظي» غاية في حد ذاته، ذلك أننا عادة ما نخلق العلامة القوية في النثر لبلوغ الغنى الشعري، دون أن نلتفت هذه العلامة إلى ذاتها.

وقد أشار صاغيا «نظرية الأدب» إلى أن لغة الشعر تشدد على وعي الإشارة ذاتها على الرمز الصوتي للكلمة. وقد وضعت جميع أنواع الصنعة لتكثف النظر إليه، كالوزن والمجع وأنماط صوتية مكررة. وهي صفات وإن كانت موجودة في لغة النثر، فإنها أقل كعيا، كما أنها في الشعر أكثر تنظيما «لوضعنا قسرا في حالة من الوعي والانتباه»⁽¹⁶⁾. هذه الفكرة الشائعة الآن، تمثل عماد تصور الشكلانيين للغة الشعر في اختلافها عن لغة النثر أو اللغة القياسية، وقد وجدت صياغتها العلمية المحكمة عند كل من «ياكوبسون» و«جان موكاروفسكي» (Jakobson)، ولم يحد منها حتى أولئك الذين دعوا إلى تجاوز الشكلية لبناء نظرية إلى لغة الشعر على أساس مختلف، على نحو ما نجد عند يوري لوتمان (Juri Lotman) الذي اعتبر «التكافؤ» Equivalence أحد المبادئ المكونة للشعر، فالشاعر يلجأ إلى جميع مظاهر التكافؤ الإيقاعي والفونولوجي والنحوي لجعلها مثيرة للانتباه⁽¹⁷⁾.

وكان «أحمد الشايب» يرى أنه على الرغم من اشتراك الشعر والنثر في كثير من العناصر، إلا أن «هذه الظواهر التنظيمية التي تذكر في الأسلوب الشعري إنما تعد فيه أقوى مظهرا وأحسن ملامة»⁽¹⁸⁾. فالشعر إذن يقوم على إثارة الوعي بالظواهر القوية المنظمة تنظيمها

جمالها لافتاً، وذلك بالتوسع في دلالات الألفاظ وصيغها وتركيبها واستفاد طاقات اللغة في التنبهر واستغلال إمكاناتها الإيحائية، وبذلك تختلف اللغة في الاستخدام الشعري عن استخدامها في الأجناس الأدبية الأخرى. وقد وقف «محمد غنيمي هلال» على فرق دقيق بين لغة الشعر ولغة السرح، حيث رأى أن اللغة في الشعر تعتمد «طاقات الصياغة وإشعاعات اللغة الإيحائية، بينما تعتمد اللغة في السرح على «امتداد الأبعاد النفسية والاجتماعية من خلال موقف إنساني تقوم الصلوات فيه مقام الاستدلالات الشعورية التحليلية لموقف هو اجتماعي بطبيعته، ولغة السرحيات معددة بالمسلك للدني للخصيصيات في حوارها»⁽¹¹⁾.

ويظل الوعي بأصول الجنس الأدبي ومكوناته مقدمة ضرورية لتحديد خصائص اللغة على نحو ما يتم استغلالها في الأدب بأجناسه المختلفة، ولعل الشعر الذي اختلفت طبيعته عبر الأزمنة وحامت حوله تصورات جمالية واجتماعية متباينة، قد ظل له ثابتة الوعي المتمثل في أنه كيفية خاصة في التعامل مع الكلمات.

لما كان إذن التنظيم اللغوي، بجميع مستوياته ومختلف تشكيلاته، مكوناً شعرياً، في المقام الأول، فإن ذلك كان دافعا لنا لقول بوجود صلة وثيقة بين الأنظار الأسلوبية أو البلاغية وبين جنس الشعر.

٢ - معان الشعر وعقوداته

نحاول الآن التعرف بعض خصائص الشعر التي كانت وراء صياغة النظر البلاغي العربي القديم وتوجيه أدواته الوصفية والتأويلية، وقد تمثل أحد السبل المؤدية إلى الوقوف على هذه الخصائص في مقابلة الشعر بالنثر، والمقصود بالنثر في هذا السياق، الخطابة والترسل، وكان الأجناس النثرية الأخرى لا وزن لها ولا يسمح مقابلتها بالشعر.

وإذا كان بعض علمائنا الأسلاف قد اعتبر الشعر والنثر «في طرفين ضدّين» وعلى حاتّين متباينتين⁽¹²⁾، فإن بعضهم الآخر أقر بتداخلهما وتفاعل أساليبهما «ففي النثر ظل من النظم ولولا ذلك ما خف ولا حلا ولا طاب ولا تحلّى، وفي النظم ظل من النثر، ولولا ذلك ما تميزت أشكاله ولا هذبت موارده ومصادر»⁽¹³⁾. ومع ذلك نظل للشعر أساليبه التي تعد أصولا في طبيعته. يقول ابن رشيق في تحديده لخصائص الشعر: «فلما لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استطراف لفظ واختراعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص مما أطاله سواء من الألفاظ أو صرف مضى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن»⁽¹⁴⁾.

لقد ارتبط الشعر عندهم بـ «حسب النثر» واختراع تشبيهه، «وتوشية لفظه» و«مدح ماعول وترقيق غزل وهجو منسي»⁽¹⁵⁾ وأهيات تختار و«معان تستفاد والفاظ تروق وتعذب»⁽¹⁶⁾ كما

البلاغة وعقود البيت الشعري

ارتبط عندهم «بالجواز والتسجيع» فيما سمي بمذهب القبائفة أو الغلو⁽¹¹⁾. يقول ابن أبي الحديد «الشاعر أن يبالغ ويوغل حتى يدخل في الإحافة وليس ذلك للكتاب»⁽¹²⁾. وذلك لأن الشعر بناء على «البلاغة والتجميل لا الصادقة والتعقيل»⁽¹³⁾.

إن الرّبط بين الشعر والتصوير اللغوي يمثل إضافة أخرى إلى ربطهم الاعتيادي بينه وبين الوزن. فعبد الشاعر الجرجاني يرى حذف المفعول سعة شعرية⁽¹⁴⁾. ويمثل هذا الرّبط يذكرنا بالعلاقة التي أقاموها بين التشبيه والشعر. ذلك أنه يروى أن عبد الرحمن ابن حسان «رجع إلى أبيه حسان وهو عصبى يهكي ويقول «سعني ظنن» فقال حسان «صنعه يا بني» فقال «كانه ملق في بُرقي حبرة» وكان لسمه زهور» فقال حسان: «قال ابني الشعر ورب الكعبة»⁽¹⁵⁾.

يقول ابن رشد «إن الأمور التي تقوم بها الصنائع صنائع: أمور ضرورية وأمر تكون بها أتم وأفضل»⁽¹⁶⁾. وسنصطلح على الأمور الضرورية بـ «المكونات» والأمر المتممة بـ «السمات». ولما كان الشعر صناعة كباقي الصناعات. فإنه ينس على جملة من المكونات الضرورية التي تعطي سماتها. وهكذا يتحدد جنس الشعر العربي الذي صدرت عنه البلاغة بهذه السمات الأسلوبية في ارتباطها بالمكونات التي يمكننا صياغتها في ثلاثة معايير تحكمت في ماعية الأسلوب الشعري الذي شكل أساس الخطاب البلاغي والفنّي الموروث.

أ- ماعية البيت الشعري

يرسم ابن خلدون حدود صناعة الشعر قائلا: «هو كلام مقفول قسما متساوية في الوزن متحدة في الحروف الأخير من كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا .. ويضرب كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده وإذا أفرد كان تاما في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء.. فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته ثم يستأنف في البيت الآخر كلاما آخر كذلك...»⁽¹⁷⁾.

يشير ابن خلدون هنا إلى أحد أبرز مكونات الشعر العربي. للتعمّل في البيت الشعري المستقل بذاته ومعناه. وكان صناعة الشعر تقوم على العناية الدقيقة ببناء البيت وإفادته نصيبه من الجهد والرعاية والإحكام حتى يصير مكفيا بذاته لا يحتاج إلى غيره من الأبيات الأخرى. إن القصيدة العربية عبارة عن أبيات مستقلة بذاتها تشكل محور إبداع الشاعر وتلقته. فلم يكن الشاعر العربي معنيا بوحدة القصيدة أو صورتها الكلية بالشكل الذي دعا إليه الرومانسيون. فوحدة البيت كانت تغنيه عن التفكير في مجال أرحب. وقد توجه عناية إلى إحكام مبنى القصيدة كالتفنن في الطالع وإحسان التظليل والختام. غير أن ذلك لا يتجاوز الهيكل الشكلي للقصيدة. ولا ينفي قيامها على وحدة البيت أساسا. وإن اجتهد بعض القدامى في التماس الوحدة بين أقسام القصيدة أو قصولها.

إن وحدة البيت التي شغل بها الشاعر العربي واستأثرت بصناعة النقد والبيان لا تأتي أن يكون الشعر العربي قد حرص على توطيد ألوان من الوحدة¹⁴ التي لا تشبه تلك التي دعا إليها النقاد الرومانسيون. كما أنها أكثر عمقا من تلك التي استوقفت ابن قتيبة وابن طباطبغا وخارضا القرطاجي. ومع ذلك فإن وحدة البيت تمثل الأصل والمعيار في صناعة الشاعر والنقاد معا.

لقد نظر مجموعة من نقادنا القدامى إلى سمات الشعر في ضوء معيار وحدة البيت. وكان ما تتميز به لغة الشعر من سمات، إنما أملت بها مكونات البيت الشعري الذي تحول إلى سلطة جمالية تعمل على توجيه الصياغة اللغوية وترض الاختيار الأسلوب. وفي هذا الصدد نسوق ما قاله أبو إسحاق الصابي في تبيين الوشاح بين سلطة جمالية البيت الشعري والسمات الأسلوبية التي تستمد منها: «الشعر يلي على حدود مقتررة وأوزان مقتررة وفصل أبيات، كل واحد منها قائم بذاته، وغير محتاج إلى غيره، إلا ما يتفق أن يكون مضمنا بأخيه، وهو عيب، فلما كان النفس لا يمكن أن يمتد في البيت الواحد بأكثر من مقدار عروضه وضربه وكلامها قليل، احتيج إلى أن يكون الفصل في العلى فاعتمد فيه أن يلطف ويدق، ليصير المفصلي إليه والتعلق عليه بمقولة الفائز بذخيرة خافية استشارها... ثم إن لتماثل وفنات على إعجاز الأبيات قد وضعت لإدراك المعنى والخطبة باللفظ وهي مثل ذلك بحسن خفاء الأثر وبعد الرمز». ويقول أيضاً: «الشاعر إنما يسمو بصيدته بشأينا، فهو يجمع قريحته وقدرته على كل بيت منها فيقهره ويبلغ إرادته منه»¹⁵ من الوزن، والتقافية، والفن، والبيان، فلو كان له بأكثر حدود الشعر، فكانت إنما يعجزه على مثل أو يفرضه في قالبه¹⁶.

بحسن بنا الإشارة إلى أن كلام أبي إسحاق الصابي ورد في سياق تبيان أسباب الفوق مرئية القوسل على مرئية الشاعر. وهو ما أتاح لنا التعرف بعض سمات الشعر التي تتميز عن سمات الرسالة. دونما أن يقولنا مبدأ الأفضلية في حد ذاته. ويمكننا توضيح السمات الأسلوبية لكل من هذين الجنسين ومكوناتهما، على نحو ما تم استخلاصها من مقالة الصابي، بهذا الجدول التوضيحي:

الشعر (القصيدة)	النثر (الرسالة)
استقلال الأبيات	ترابط الفصول واتحادها
القراءة الجزئية	القراءة المتصلة
اللفظي الخاص	اللفظي العام
القصير	الطويل
المفوض	الوضوح
الابتداء	4

أثره على أسلوب البيت الشعري

إن شكل البيت الشعري يتغير، ففرض على الشاعر العناية المتزايدة بالنسيج اللغوي وذلك بتوفير وسائل تكثيف المعنى وتدقيقه. كان يتم اللجوء إلى ضروب من الإشارة وأنواع من الإيماءات والتهيمات^(١١١)، أو استئثار ما تزخر به اللغة من إمكانات تركيبية، ط «لأشك أن بناء البيت قد ارتفع الاستعداد الطبيعي في اللغة للتفنن في التراكيب من تقديم وتأخير وحذف وتكرار ... إلخ»^(١١٢)، أو اللجوء إلى صور التوسع في المعاني والصرف والنحو^(١١٣)، مما لا يجوز لغير الشاعر، أو التوصل بالإيجاز. ولأجل ذلك اعتبر «البيت السائر» من خصائص جودة الشعر.

لقد كان قضاء البيت الشعري، لأن محور إبداع الشاعر، فهو يعتمد إلى بذل ما في وسعه لكي يفرغ فيه طاقته الخلاقة. وبدهي أن تتركز العناية هنا على اللغة بجميع عناصرها. إن هذا القضاء المقيد يفرض شروطاً إبداعية خاصة تتعلق في التصوير الدقيق والمكثف الذي يتوجه به الشاعر إلى مطلق خاص يساهم بدوره في تشكيل المعنى، وهذه الشروط تختلف عن تلك التي يفتحنها قضاء النثر المسترسل ذي الفصول المتصلة والطويلة التي يجد فيها الكاتب نفسه طليقاً، يضرب يميناً وشمالاً وبعد نفسه تارة ويُعصمه أخرى^(١١٤). وبدهي أن تنسم الكتابة الشعرية في مثل هذه الشروط بالسلاسة والوضوح، ألا يضطلع فيها «التظيم اللغوي» بالوظيفة نفسها التي ينفذ بها في الجنس الشعري.

إن هذه الوظيفة القائمة بين مكونات الشعر الشكلية والسمات الأسلوبية اللغوية التي كشف عنها نقادنا القدامى، أشار إليها النقد الأدبي الحديث، حيث يرى «غراهام هوب» أن الشعر بما له من تنظيم شكلي صارم مستقل عن معناه، يجذب إليه الإجماع اللغوي «لذلك يطلب من الكلام في النظم أن يكون من نسيج لغوي أرق من نسيج النثر الذي يقرأ دون كَشْفٍ من الاهتمام الدقيق... إن التقيد الدقيق في لفظ الشعر يبدو دائماً طبيعياً وملائماً، فالتنثر يؤخذ عادة بجراحات كبيرة، وإخضاعه لتحليل معالج يبدو نوعاً من الحذقة أو فرضاً لنوع خاص من الدراسات الأكاديمية»^(١١٥).

هل يجوز لنا القول بعد هذا إن البلاغة العربية، إذ اتركزت على الأسلوب القوي، فإنها كانت تعبر عن خضوعها للشعر بخصائصه ومعاييرها؟

(ب) معيار القيد الشعري

يشكل «الفرض الشعري» أحد مكونات الشعر العربي سواء بوصفه «موضوعاً» يعالجه الشاعر، أو «شكلاً أدبياً» له تقاليد ومفوماته الأسلوبية. والفرض الشعري بهذا المعنى ذو تأثير واضح في الصناعة اللغوية، فهو يلتقي مع معيار «البيت الشعري» في أن كليهما يساعدان في الكشف عن خصوصية الأسلوب الشعري الذي افترضنا صعود البلاغة القديمة عنه.

وإذا تجاوزنا عما يفرضه الفرض الشعري باعتباره «شكلًا أدبيًا» من سمات أسلوبية يسيطر عليها القدماء كالتراوحة بين المعاني والاستهلال والخروج والانتهاء... إلخ، وأحضرنا الفرض بوصفه موضوعًا، فإننا نجد لموضوعات الشعر العربي تأثيرًا في الصياغة اللغوية المختارة، ذلك أن المدح والهجاء على سبيل المثال باعتبارهما موضوعين شعريين، يعلمان على الشاعر لونا خاصا من البناء اللغوي الذي يعتمد التأثير المركز والنفوذ إلى النفوس والسيطرة بين الناس.

وإذا كانت مكانة الشعر تتجلى في قوة تأثيره وسيورته⁽¹⁴⁾ وسرعة وتوجه⁽¹⁵⁾، فإن من مظاهر ذلك في المجتمع العربي - إطلاق القاب على الأشخاص أو القبايل بالقائد الشعر، فقد قيل لبي تيم: مصاييح الظلام، منذ أن قال فيهم امرؤ القيس:

أمر حنًا امرؤ القيس بن حجر
بنو تيم مصاييح الظلام⁽¹⁶⁾

وهذا يبين أن الطاقة الأسلوبية للشعر تتجلى في الصيغ التصويرية المركزة سواء أكانت تضاهيا مفردة أم مركبة، فالتأثير الشعري يكون بإحكام صنف البيت والتوفيق في اختيار الأساليب والوقوف على «الثل السائر والاستعارة الرائعة والتنشئة الواضحة»⁽¹⁷⁾.

على هذا النحو يبدو أن للأغراض الشعرية بوصفها موضوعات تأثيرا في الاختيار الأسبوبي للشعر، الذي يعمد إلى خلق صنف من الشعر ينجح إلى التركيز والإيجاز الشديدتين، ولأجل ذلك امتدح الشاعر الذي يكتفى بالبيت الواحد من شعره بل بنصف البيت بل بربعة⁽¹⁸⁾، ولقد أصبحت صفة الإيجاز معيارا للتجويد يستطدعه النقاد في موازنتهم ومقارنتهم بين الشعراء، كتفضيل ابن جني لبيت أبي تمام على بيت للمعتبي اشتركا في معنى واحد، إذ كان أبو تمام قد «حاز» في مضارع واحد⁽¹⁹⁾.

لقد اعتبرت «الأغراض» من أركان الشعر وأصوله⁽²⁰⁾ ومقاصده⁽²¹⁾ التي بني عليها، وليس قيامها في الأجناس الشعرية إلا صفة عارضة وظارفة، ولا ينبغي أن تعد أصولا فيها، وبذلك كان «الفرض» مكونا شعريا ارتبط بجنس الشعر وأصبح من تقاليد الفنية التي يتوارثها الشعراء دون أن تكون لها أي صفة مرجعية أو معنوية حقيقية تصديقي، فامرؤ القيس وهو أشبه بن الملك اجتدى سعد بن الضياف بالشعر⁽²²⁾، كما أن شعراء الغزل نظروا إلى المرأة بوصفها نموذجاً شعريا أكثر مما نظروا إليها باعتبارها حدثا حقيقيا.

وعلى الجملة لقد كان «الفرض الشعري» مكونا من مكونات الشعر العربي، الذي يتميز كثيرا من الظواهر الفنية الأسلوبية التي لجأ إليها الشعراء، وبذلك أسهم في الكشف عن طبيعة الأسلوب الشعري الذي صارت سماته موضوع البلاغة والنقد.

(ج) معيار الوظيفة

لا شك أن ثمة علاقة وطيدة بين الوظيفة والبنية، فلما كانت وظائف اللغة متعددة، انعكس ذلك على بنيات الكلام حيث ارتبط اختيار النمط التعبيري بنوع الوظيفة المقصود توصيلها في الرسالة القوية. ويذهب إليه لا تستقل الرسالة بوظيفة واحدة، فقد نجد في الرسالة الواحدة وظائف عدة، ولكن ما يميز رسالة عن أخرى هو طبيعة النظام التراتبي الذي تتخذ هذه الوظائف القوية داخلها. حيث يهيمن بعضها على الآخر فيما يشبه تقدمها إلى الواجهة أو تراجعها إلى الخلف، هكذا نجد في النص الشعري هيمنة الوظيفة الشعرية، بينما يهيمن في النص الخطابي الوظيفة الإقناعية. فالشاعر يلجأ إلى تكليف وسائل التعبير الجمالي بصورة غير مألوفة قصد وضعنا قسراً في موضع الانتباه. أما الخطيب الذي يتبعاً الإقناع، فإن وسائله التعبيرية مختلفة عن تلك التي يستخدمها الشاعر.

وربما كان الفلاسفة المسلمون⁽¹⁷⁾ أوضح من وضع الحدود بين الخطابة والشعر في موزوننا النقدي والبلاغي، فعلى الرغم من إقرارهم بوجود تشابه بين الشعر والخطابة في كثير من وجوه الاستخدام القوي للتسمة بالانتعاش والتجوز، كما يحتاج إليه الخطيب في العبادة من وسائل «التخييل» الضرورية في تحقيق الإقناع، فإن وجود الافتراق بينهما لفظ واضحه في نظرهم. فهم يرون أن الخطاب ينبغي له الابتعاد عن استحداث التزيينات والاستعارات وكل ما هو خاص بالشعر، كما ينبغي أن يكون احتياؤه لها على أسس قريبة إلى الأفهام وشبهتها حتى لا يقع في كلامه غموض أو غرابة مما يفقد من سمات الشعر.

على هذا النحو تعدد وظيفة «التخييل» سمات الشعر المتمثلة في التجوز إلى صور البدیع بشكل لافت للنظر بأثر التأمل الذهني والوجداني. كما تعدد وظيفة «الإقناع» سمات الخطابة التي تعتمد إلى الاستعمال الحظوي والمنطقي للغة، ولا تلجأ إلى الأسلوب الشعري إلا بضرب من الاقتصاد حرصاً على إيقاع التصديق، وكما أن الشعر يتوخى بالإضافة إلى التخييل، التأثير في سلوك الجمهور المتلقي. من هنا حاجته إلى وسائل الإقناع، فلكذلك الخطابة في حاجتها إلى وسائل التخييل لإحداث الالتئام للمصاحب للإقناع. وبذلك يحوز كل منهما وظيفة الآخر ولكن في موضع نقوي.

وعلى الجملة فإن «التخييل»، يمثل وظيفة الشعر الأصلية التي تفسر لجوهره إلى جملة من السمات الأسلوبية التي ارتبطت به وأصبحت من ميادئه التي شكلت موضوع البلاغة، ويبدو أن هذه السمات قد تشكلت في خطابنا البلاغي والنقدي في مجموعة من الأصول ذات الطابع الكلي.

٢ - أصول البلاغة وعلمها

إن معظم الأصول الجمالية، التي تبلورت في إطار البلاغة والنقد القديمين، تمتد جذورها في جسد الشعر، فما كان يهم البلاغيين والنقاد القدماء هو إنشاء بلاغة للشعر، ولعل هارون

كتاب «منهاج البلاغة» وسراج الأدباء، الذي أقر فيه حازم بأن «علم البلاغة يشتمل على صناعة الشعر والخطابة»^(١٢١)، سيلاحظ أنه خاص بجنس الشعر، ولا يذكر الخطابة إلا عندما يقرنها بالإقناع الذي الشوق به من الشعر، وإذا كان القارئ لا يعدم في الموروث البلاغي غفابة بالخطابة نذكر على سبيل المثال الجاحظ والعسكري، وابن وهب، إلا أن هذه العناية كانت طبيعية في سياق المكانة التي احتلها هذا الجنس في المجتمع الإسلامي واقترباً منه من الأسلوبية من الأسلوب الشعري.

ولم يكن حضور الخطابة في الثقافة العربية وتأثيرها في موروثها البلاغي يعني أنها كانت تراحم الشعر، ذلك أن شلال التصور الخطابي إلى التفكير البلاغي، كما تشهد على ذلك عناصر عمود الشعر^(١٢٢)، إنما هو أمر راجع في الأصل إلى ما يسم به الشعر من نزعة خطابية، طالقصيدة العربية ارتبطت منذ التشال بالإنشاء والتخلي بالقيم الخلقية والدفاع عن القبيلة ثم عن الأمة بعد ذلك، فكان الشاعر لسان قومه المخد لأتباعهم والمجهر عن حكمتهم، ولأجل ذلك حرص على أن يوفر لقصيدته كل ما يضمن لها التأثير والسيطرة، ولكن هذه «الخطابية» لم تكن سوى صفة أسلوبية يلوذ بها الشعراء دون أن تطلق على السمات الشعرية الخاصة.

لم تكن الصفة الخطابية أو التحليل الخطابية سوى واحدة من بين سمات كثيرة اضمحلت من قوائم الشعر العربي، غير أن المهم بالمقاسة أنها هذا أن حازم الطوطاجني ربط بين الشعر وهذه السمات الأسلوبية، وهو ما يكتشف عن طبيعة وإبنة نوعية الشعر التي تتحدد عنده في إبداع للعاني وإحكام للياني. ويدهي أن يتم ذلك بالاستعارات والتشبيهات التطفلية أو توليد معنى واختراعه واختيار البناء اللغوي، وعلى الجملة تشكل الصفة الأسلوبية اللغوية معياراً جمالياً في الشعر.

يقوم الشعر - في نظر حازم والفلاسفة المسلمين - على «المحاكاة» والتخييل، اللذين يفيدان أن الشعر في جوهره تصوير أو تمثيل، والغرض من هذا التصوير إحداث ضرب من التأثير في المثلي. ولا يهم في الشعر ما يحتوي عليه من مادة، فهو كلام مطبّل يتغنياً منه التلقي الاستجابية الجمالية، والتخييل، وإن أضاف التأثير، فهو يدل أيضاً على التشكيل أو الصياغة الجمالية المؤثرة. وبذلك يلتقي مع مفهوم المحاكاة بالمعنى الواسع الذي لا يقتصر على علاقة التصوير بالواقع، أي كون الشعر قولاً مطبلاً لا يخضع لمعاري الصدق والكذب، بل يشمل عملية التأليف الشعري كلها^(١٢٣). ويتحقق القول الخليل بجملة من «الحاسن التأليفية» أو الصيغ البلاغية الشعرية:

«حسن التأليف والتلاوة، ويعني به التناسب الصوتي أو صور الموازنات الصوتية. ويقع تحتها جميع ضروب الجناس، جناس الأصوات والألفاظ مع مراعاة الاستخفاف والاستسجام.

أدبنا من عصوره الزمنية الأربع

« حسن الوضع القضي » وهو أن يؤاخي في الكلام بين كلم تتعالي في مواد لفظها أو في صيغها أو في مقامها فتحسن بذلك ديباجة الكلام⁽¹³⁾.

« السهل في العبارات وترك التكليف والاستعذاب والطلاوة والجزالة.

ومن السمات الأسلوبية المعنوية التي تتفوق بها المحاكاة الشعرية تصوير أقوى تأثيراً « المقاسمة بين بعض المعاني وبعض، والمقارنة بين ما تلاحظ منها⁽¹⁴⁾ » فالنفوس في نظر حازم القرطاجي تستجيب للمتشابهات والمخالفات، وهو يرى أن تضاهي القوميات بضفي التحسن على الصورة البلاغية، من ذلك تضاهي « التقابل » و« القلب » أو تضاهي « التجنيس » و« الاستعاره⁽¹⁵⁾ ».

وتقع تحت باب محاسن المحاكاة الشعرية جملة أخرى من السمات المعنوية، مثل الطابفة والمقابلة والتنسيم والتفريع⁽¹⁶⁾، حتى إنه يمكننا القول إن مضموني « المحاكاة والتضليل، على نحو ما صاغهما حازم بخصائص جنس الشعر ولا يستوعبان أساليب الأجناس الشعرية.

لم يفرح حازم إذن عن إطلاق لقب الشعر وبلاغته، وبذلك اعتبرت مجموعة من المفهوميات والأصول الجمالية التي قام بصياغتها، مستعدة من الشعر ومضمطة بروحه، من ذلك مفهومها « الغرابة » و« التمجيب » اللذان لا يخلو منهما شعر جيد، فهما يمكنان جوهر التصوير الشعري الذي عبر عنه حازم قتيلاً « و« التمجيب » (أو الغرابة) يكون باستدراج ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقلل التهدي إلى مكافأ، فزودها مستبدون مستطرونه بلكس، كالحجج بين مفترقين في جهة لطيفة قد انتسب بها أحدهما إلى الآخر وغير ذلك من الوجوه التي من يقرأ الشعر أن تستغربها⁽¹⁷⁾ ».

الشعر - في نظر حازم والملائكة السلمون - صياغة لغوية أسلوبية أحدث فيها الشاعر جميع ضروب الإبداع التي من شأنها أن تثير في القضي الاستطراف والتعجب، وعلى الرغم من أن نقادنا المتفلسفين عمدوا إلى تحديد الشعر ضمن مفهومات كنية مستعارة من أرسطو، بعد أن طوعوها لواقع الشعر العربي آنذاك، فإنهم صاغوا بالإضافة إلى ذلك مفهومًا أقرب إلى طبيعة التفكير النقدي العربي الذي كان ينظر إلى الشعر في صلبه باللق، هذا المفهوم استلحقوا عليه بـ « التقيير » وهو إذا تأملته وجدته لا يفتقر من مفهومات أخرى كان لها صدى في تراث البلاغي والتقدي، تذكر منها « المجاز » و« التديع » و« شجاعة العربية » و« التظم.

يرى ابن رشد أن الشعر يتحقق بواسطة « التغيرات » التي يلحقها الشاعر بالأقوال الحقيقية، وذلك باستخدام أساليب تتعلق بالإيجاب الصوتي والتركيبي والدلالي، يقول في هذا الصدد « وأنت إذا تأملت الأشعار المحركة وجدتها بهذه الحال، وما عرى من هذه التغيرات فليس فيه معنى الشعرية إلا الوزن فقط. والتغيرات تكون بالموازنة والموافقة والإبدال والتشبيه، وبالجملة بإخراج القول غير مخرج العادة مثل القلب والحذف والزيادة والتقصان والتقديم والتأخير والتقصير القول من الإيجاب إلى السلب، ومن السلب إلى الإيجاب، وبالجملة من التقابل إلى التقابل، وبالجملة بجميع الأنواع التي لمعن عندنا مجازاً⁽¹⁸⁾ ».

بعد مفهوم «التغيير» وجهاً آخر للمفاهيم السابقة التي توسل بها النقاد المتفلسفون في نظريتهم للشعر. غير أنه يتميز عنها بكونه مصطلحاً إجرائياً يضبط علاقة الشعر باللغة التنزيه التي لا تتلوه بـ «التغييرات». فإن كانت «الحركات» و«التخييل» و«الغرابية» مفهومات لتحديد الشعر هي علاقتها بمالم الأشياء، التنزيه، ومن حيث علاقتها بالمتلقي، أو هي علاقته بذاته باعتباره لشكلاً جمالياً، فإن مفهوم «التغيير» متضمن في كل هذا، ولكنه يظل اصطلاحاً لضبط طبيعة العلاقة بين الشعر واللغة في الاستخدام النظري. تقول «ألفت كمال الروبي»: «وقد تكرر استخدامهم (أي الفلاسفة) لهذا المصطلح وبمعدت دلالاته. فهو يدل أحياناً على (المجاز) بأوسع معانيه، من حيث التوسع في الدلالة وتجاوز القالوف في اللغة التركيبية، وقد يدل على الاستعارة وبمعناها دون التشبيه أو كليهما معاً»⁽¹³⁾.

إن الرابطة بين مفهوم «التغيير» والشعر هو الرابطة الذي أقامه الوعي النقدي العربي بين ضربوب المجاز والشعر. فقد رأينا حسان بن ثابت يعتبر التشبيه مدخلاً للقدرة على نظم الشعر. وهذا يفيد أن الشعر يتحقق بتنظيمه اللغوي أو أسلوبه اللغوي الذي يجاهي القواعد القياسية للنظام اللغوي. هكذا يصبح مفهوم «التغيير» نظيراً لمفهوم «المجاز» كما أورده أبو عبيدة وحده ابن قتيبة بقوله: «ولعرب المجازات في الكلام، ومعناها: طرق القول وماخذها، ففيها: الاستعارة والتخييل، والتقليد، والتقديم والتأخير، والحذف، والتكرار والإضافة»⁽¹⁴⁾. وكلاهما يتقاطع مع مفهوم آخر هو «البديع» الذي اشتغل على «قول» كثره وإن كان في البداية قد حصره ابن المعتز في خمسة مقومات. ويرى أحد الباحثين أن ابن المعتز «قسم قول البديع على الشعر على الرغم من حرصه في أول الكتاب على إيراد ما وقع منها في النثر أيضاً.. وهذا يؤكد إحساسه بأن صور البديع هي صور شعرية أصلاً على الرغم مما دفعته إليه لاجابة الصراع من البحث عنها في النثر وجعل الفارق كعياً والواقع أنه نوعي. إذ إن الشعر يشمل درجات من الخلق والتعقيد تتوق الوظيفة الخطابية»⁽¹⁵⁾.

إن وجود صور «البديع» و«التغييرات» و«المجازات» في النثر لا ينفي أصلها الشعري، فهذه الأصول البلاغية الصق بطبيعة الشعر، الذي سمينا من قبل إلى تحديد خصوصيته الأصلية التي تمثلت في تكليفه اللغوي وحيادته المحكمة اللذين يقتضيان لونا من القراءة المتأهبة في الدقة والتدبر.

وربما كان مفهوم «النظم» الذي صاغه عبد القاهر الجرجاني يدور في تلك المفاهيم المشار إليها، فهو أداة نظرية وإجرائية لتخصيص نحو اللغة والكشف عن لجلياته الأسلوبية ذات الصلة الإبداعية. إن «النظم» يختلف عن مفهومات «المجاز» و«البديع» و«التغيير» في كونه مفهوماً ينحصر في الجانب التحري من اللغة، ولكنه يلتقي معها في نظريته الشعر باعتباره نوعاً من الاستخدام اللغوي المجاهي للقواعد القياسية.

البلاغة ومفهوم الجنس الأدبي

لقد كان عبد القاهر يسلّم بأن «النظم» معيار شعري، وإن اعتبره الأصل في الإعجاز. إنه وسيلة لكثف تنسيق بلاغة القرآن. ولكنه ليس وسيلة لتحويل أسلوب النص القرآني نوعياً من الأسلوب الشعري. إن «النظم» صورة قلّعة على التخيز أو هيئة أساسها الفكر والروية وليس مجرد الجمع الذي «لا تحتاج فيه شيئاً غير أن تعطف لفظاً على مثله»⁽¹⁾. ويسوق أمثلة لهذا النوع من التانييف الذي يخلو من النظم بالمداول الدقيق، من النثر. وكأنه يرى في النظم معياراً جمالياً شعرياً لا يناسب النثر الذي يكون فيه الكلام مسترسلاً معطوفاً بعضها على بعض من غير تعبير دقيق أو تدبر في نظم المعاني.

إن مفهوم النظم الذي صاغه عبد القاهر، صياغة نظرية محكمة استناداً إلى وظيفة العلاقات النحوية والدلالية، يخلو في كفه نَسْجُ جمالية الشعر التي تفرقتها إلى بعض سماتها. ولا يخرج مفهوم «شجاعة العربية» الذي صاغه ابن جني عن نطاق هذه المصطلحات والأصول البلاغية التي اعتبرت الشعر نوعاً من الإبداع اللغوي الذي يخرج عن نسق القواعد القياسية.

خلاصة

حاولت في هذا التأمّل النظري بلورة مجموعة من الأفكار التي تكوّن السياق الذي نصدر عنه هي قراءة تراث البلاغي. ويمكننا صياغة هذه الأفكار في خلاصات عامة، على النحو الآتي:

١ - إن لكل جنس أدبي جوانبه الخاصة وبلاغة متميزة. وهذا ما يجعل اللغة خاضعة في بنائها ووظيفتها لمتطلبات الجنس الذي تنسب إليه، ولعل هذه الفكرة أن تسبب الباحث المعاصر في إعادة قراءة موروثة النقدي والبلاغي. على نحو يكثف عن أسواره الجمالية ويضطلع بتسميها.

٢ - اعتبرنا الشعر الجنس الأدبي الذي خضعت له التصورات النقدية والبلاغية الموروثة، على الرغم من اضطلالها برصد أنماط تعبيرية أخرى تمثلت في القرآن والخطابة والترسل. فقد كان الأسلوب الشعري معياراً جمالياً يوجه الأنظار وتتعاكم إليه الأصول والمبادئ، متكاملاً معياراً في جل الأنظار الأسلوبية والبلاغية المتأصلة.

٣ - لقد صيرنا في هذا البحث عن مبدأ يسلّم بأن اللغة أداة أسلوبية هي جميع أجناس التعبير الأدبي. غير أن هذه الأداة تظل مشروطة في تكوينها الجمالي والوظيفي بمتطلبات السياق الجنسي الذي يستخدم فيه. وبناء على هذا اعتبرنا النسيج اللغوي أظهر في الشعر من غيره من الأجناس الأدبية الأخرى التي لا تميل فيها اللغة إلى أن تصبح مكوناً جمالياً ضرورياً. إن الشعر نظامه ووظيفته يفرض العناية الدقيقة بالنسيج اللغوي.

٤ - إن التفاعل بين الأجناس الأدبية لا يتناهى مع تمايز كل جنس بأسلوبه الخاص، وإذا كان البلاغيون القدماء لم يشعروا بهد على هذه الخصائص المبرزة فقد كان لغاتهم الكبيرة بالشعر الأثر القوي في صياغة أسواره الجمالية وسماته الأسلوبية، التي لم يحط بها جنس أدبي آخر.

- 1- محمد طهومي هلال، قضايا معاصرة في الأدب والفن (ص ٧٧).
- 2- بيدر الكارن، ملامحة معاصرة في دراسة «محمد طهومي هلال» لنظرية النقد العرب الحديثين المنشورة بمجلة «قبول» العددان الثالث والرابع، ١٩٩٩.
- 3- يمثل مفهوم «الصورة الروائية» الذي صاغه محمود انشاز تعبيراً واضحاً عن مفهوم جماليات اللغة العربية التخييلية التخييري الجنسي، انظر كتابه «بناء الصورة في الرواية الاستعمارية».
- 4- انظر: محمد المسالم السدي، الأدب والحداثة (ص ٨-١٠) وشكري عواد، مشكلة التصنيف في دراسة الأدب، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد 12 - 1٩٩٢.
- 5- انظر تفاصيل هذا النقاش في دراسة «شافي».
- 6- Du texte au genre - poétique N° 53, 1983.
- 7- المرجع نفسه.
- 8- المرجع نفسه (ص ٧).
- 9- المرجع نفسه.
- 10- Les genres littéraires, in: la théorie littéraire (p.87).
- 11- يأس الأنيونوجيا (ص 14).
- 12- انظر: Multi questions de poétique (p. 45-46).
- 13- انظر على سبيل المثال: Style in Language, ed. by Thomas A. Schabak, 1960.
- 14- Linguistics and Literary Style, ed. D.C. Freeman, 1970.
- 15- محمد الهادي القزويني، «نقطة في الفن العربي» (ص ١٢٢).
- 16- روليه، وليك، والستون وآرون، نظرية الأدب (ص ٢٢٢).
- 17- محمد طهومي هلال، الأدب للقرن (ص ١٢٢).
- 18- نظرية الأدب (ص ٢١٧).
- 19- Schaeffer, Du texte au genre (p.17).
- 20- نظرية الأدب (ص ٢١٧).
- 21- الأسلوب (ص 21).
- 22- Stephen Ullmann, style in the French Novel. (P. 33-36).
- 23- الكلمة في الرواية (ص 4).
- 24- تعززت الأحداث الأسلوبية بارتقارها على دراسة الوسائل التخييلية في اللغة الطبيعية كالفرنسية والإنجليزية واللاتينية. فقد قام «شارل بالي» بمعنى القوة التخييلية في اللغة الفرنسية ولقد بذلك علماً أسلوبياً لغوياً لا يقتضي بالأسلوب الأدبي، انظر: - Bally and The Saussurian origins of Structural Stylistics, in, Linguistic Theory and Structural Stylistics, by, T. Taylor.
- 25- الخصائص ج ١، تحقيق محمد علي النجار، ط 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ (ص ٢٤).
- 26- المقدمة (ص 418).
- 27- المرجع نفسه (٩٧١ - ٩٧٢).

- 36- المرجع نفسه.
- 37- المرجع نفسه.
- 38- قضایا معاصرة في الأدب والفن (ص 156).
- 39- علم الأسلوب، مبادئ وأجراءاته (ص 196) الطبعة الأولى، دار الأفق الجديدة، بيروت، 1988 (ص 196).
- 40- مقالة في النقد (ص 117).
- 41- محمد الوادي الطرابلسي، يعود في النص الأدبي (ص 148).
- 42- حاديون الشيماء، مقدمة في نظرية الأجناس الأدبية، مجلة المعرفة، العدد 144، 1996، (ص 9 - 10).
- 43- نفا من محمد طهيمي غلال، الأدب المازن (ص 189، 190).
- 44- Les Genres Littéraires. (p: 91)
- 45- انظر: صفاري محمود، التشكيك البلاغي عند العرب، السبيل، العدد 10، (ص 10 - 11).
- 46- مقاربات النجاة التونسية، تونس، 1981 (ص 140).
- 47- انظر: الفتى كمال الروبي، الموقف من النص في تراثنا النقدي.
- 48- إنكسار صنعة الكلام (ص 10، 11).
- 49- المرجع نفسه (ص 10).
- 50- الموقف من النص في تراثنا النقدي (ص 121).
- 51- الموقف من النص في تراثنا النقدي (ص 121).
- 52- نجد هذه الملاحظة مثلاً في حواشي في المنهج، وقد أشار إليها بعض الباحثين معاصرين نذكر من بينهم: زكي مبارك، وعبد الستار كاشم وشكري عباد.
- 53- إنكسار صنعة الكلام (ص 10).
- 54- تحرير التعبير في صنعة الشعر والنثر وبيان أبعاد القراء (ص 10).
- 55- النثر المباشر، ج 1 (ص 96) وكتاب الصناعات (ص 147).
- 56- نستنتج هنا إشارة ابن الأثير إلى أسلوب القامع، انقل المباشر، ج 1 (ص 34) وإشارة ابن رشد إلى اختلاف المحاكاة القصصية من المحاكاة الشعرية، في تلخيص كتاب الشعر، (ص 34-35). وانظر تحديد المحصري.
- 57- لبوة القامع في زاهر الآداب، نقلاً عن الفتى الروبي، مرجع سابق (ص 128).
- 58- شكري عباد، مشكلة التصنيف في دراسة الأدب (ص 107).
- 59- بهيمة الدهر، ج 1 (ص 35).
- 60- أقصد بهؤلاء على سبيل المثال: الأصمعي وابن سلام الجعفي.
- 61- ابن قتيبة، الشعر والنثر، (ص 8).
- 62- نيل الشعر (ص 107).
- 63- نقد الشعر (ص 8).
- 64- أسعد الطرابلسي، نقد الشعر عند العرب، حتى أواخر القرن الخامس (ص 114).
- 65- يرى عبد الحكيم وأبي في كتابه «نظرية اللغة في النقد العربي» أن النقاد القدماء تعمروا نمطاً مثالياً تعرف عنه اللغة الأدبية. كما أنه قد جاء في كتاب الفتى الروبي «نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، أن هؤلاء تناولوا لغة الشعر بمقارنتها مع لغة العلم (البرهان) ولغة الخطابة.
- 66- ابن ميثاق الخطابي، سر القصيدة (ص 188).

- 55- كتاب الصناعات (ص ١٢٦).
- 56- يحيى بن حمزة الطولي، الطولان، ج ١ (ص ٢٦) وللمعروف، شرح ديوان الصناعات، ج ١ (ص ٢٢ - ٢٤).
- 57- انظر (ص ٢٨، ١٠١).
- 58- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج ١ (ص ١٣١).
- 59- المرجع نفسه.
- 60- أبو حبيدة، معجز القرآن، ج ١ (ص ١٤).
- 61- أحمد يوسف، بنية الخطيب البلاغي ومطابقة النص الغائب، القراءة بالمحاكاة، (مطال) العدد ٢، ١٩٩٢ (ص ٢٢).
- 62- معجز القرآن (ص ١٢٩).
- 63- المرجع نفسه.
- 64- انظر على سبيل المثال كتابي: «معجز القرآن، الخطيب» و«التكثيف في معجز القرآن، القرطبي ضمن: التلاوة ومطال في معجز القرآن».
- 65- التصوير الفني في القرآن (ص ٣٦).
- 66- عبد الكريم النجاشي، مقدمة في نظرية الأدب (ص ٦٩).
- 67- انظر: Plessner, V., La Rhétorique et la Néorhétorique (p. 13).
- 68- انظر: La Métaphore vive (p. 13).
- 69- انظر: Plessner, V. (p. 11).
- 70- انظر: Groupe Ma, Rhétorique de la poésie (p. 13).
- 71- انظر: Tzvetan Todorov, Théorie de la symbolique (p. 52).
- 72- انظر: Ibid (p. 68).
- 73- انظر: Ibid (p. 69).
- 74- انظر: Groupe Ma, Rhétorique Générale (p. 2).
- 75- الأسلوب (ص ٢١).
- 76- يقال جون كوهن أحد علماء الأسلوب الذين اعتبروا لغة الشعر المعيار النموذجي للتعبير الجمالي ويشاركه هذا الرأي جل الأسلوبيين المعاصرين.
- 77- انظر: Michael Riffaterre, Essai de Stylistique Structurale وقد قام الدكتور محمد عبدالمعطي بلحممة بتأليف من هذا الكتاب في مؤلف بعنوان «معايير تحليل الأسلوب» راجع المصنفات (٦٦ - ٦٠).
- 78- نجد هذا التطابق بين اللغة الأدبية ولغة الشعر في تعدد صانعي «نظرية الأدب» (ص ٢٢ - ٢٣ - ١٤٦).
- 79- انظر: B. Lodge, From The Novelist's Medium and the Novelist's Art In, Essays in Stylistic Analysis, de, by Horwads, Badd (p. 50-61).
- 80- الكلمة هي الرواية (ص ٩).
- 81- مرجع سابق (ص ١٠) وانظر أيضا المصنفات الأدبية، ٢٢ و ١٠٧ و ١٤١ و ٢٢٠ و ٢١٢. والمحق أن معظم الكتاب يتعمق حول هذه الفكرة.
- 82- من المعروف أن «بلاطين» ارتأى أن الأسلوبية الفيلسوف على القسائبات الطبيعية، وبذلك فتح الباب للتأويل البلاغية التداولية. انظر المرجع السابق وأيضا كتابي: «الماركسية والفلسفة اللغة» و«شعرية ديوسكسنتي».
- 83- غرامرمان هو، مطابقة في النقد (ص ١٢٥).

- 84- نثلاً من ديفيد هينشليد - منابع النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق - (ص 171).
- 85- التراجع نفسه (ص 168).
- 86- سعد مصطوح - الأسلوب (ص 44).
- 87- نظرية النوع الطائفي (ص 12).
- 88- ما الآيب - (ص 8).
- 89- غراهام هو - مرجع سابق (ص 122).
- 90- فيكتور شلوفسكي، الفن باعتباره تكتيكاً، هيون الثقافات - العدد 1، 1986 (ص 112).
- 91- نظرية الآيب (ص 22 - 23).
- 92- ليظهر: (83-85) Structure du Texte Artistique (p).
- 93- الأسلوب (ص 12).
- 94- قضائياً معاصرة في الآيب والنقد (ص 121).
- 95- المروزي، شرح ديوان الصمصامة، ج 1 (ص 74).
- 96- أبو حيان التوحيدي، المقامسات (ص 102).
- 97- ابن رشيق، المفردات، ج 1 (ص 116).
- 98- المقامسات (ص 85).
- 99- عبد العزيز الجرجاني، التوسيط (ص 44).
- 100- شامة بن جعفر (ص 54-55) وأبو سنان (ص 73) والشاعر (ص 12).
- 101- لعل الشاعر، الجزء الرابع بعنوان: «الخطبة الشعرية على المنبر الشريف» (ص 34).
- 102- المروزي، مرجع سابق (ص 69 - 68).
- 103- دلائل الإعجاز (ص 112).
- 104- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة (ص 122).
- 105- تاليف كتاب الشعر (ص 52).
- 106- المقدمة (ص 169).
- 107- حاول شكري عبك في دراسة له بعنوان «جماليات القصيدة التقليدية بين التطوير التقليدي والتجديد الشعري»، استخلاص نماذج من الوحدة في القصيدة العربية. انظر: مجلة فصول العدد 6 - العدد 2، 1986.
- 108- رسالة من القويون بين الشعراء والشعر (ص 596 - 597) وقد أورد المروزي هذا النص بتعليقه طفيفاً.
- 109- انظر: شرح ديوان الصمصامة، ج 1 (ص 14 - 14).
- 110- ابن أبي الحميد، المثلث الشاعر (ص 208).
- 111- شكري، عبك، موسيقى الشعر (ص 106 - 107).
- 112- تمام حسان، الأصول (ص 59 - 80).
- 113- ابن أبي الحميد، مرجع سابق (ص 208).
- 114- غراهام هو - مرجع سابق (ص 122 - 127).
- 115- المفردات، ج 1 (ص 37).
- 116- التراجع نفسه (ص 12).
- 117- التراجع نفسه (ص 80).

- 117- المرجع نفسه (ص 177).
- 118- ملة أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي (ص 67).
- 119- القيس، ج 1 (ص 80)، تحفيل صفاء خلوصي، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، بغداد، 1979.
- 120- الممداد، ج 1 (ص 150) وقواعد الشعر (ص 76 - 77).
- 121- ابن أبي العميد، مرجع سابق (ص 206 - 209).
- 122- المرجع نفسه.
- 123- أدت كمال البروي، نظرية الشعر عند المعتزلة المسلمين (ص 199، 200، 203، 204، 206).
- 124- انظر: (ص 19).
- 125- انظر: الموزع في مرجع سابق.
- 126- انظر: نظرية الشعر عند المعتزلة المسلمين (ص 91 - 92) و (ص 177 - 196) و (ص 177 - 178).
- 127- حازم القرطاجي، ملهاج البقاء (ص 221 - 222).
- 128- المرجع نفسه (ص 1).
- 129- المرجع نفسه (ص 15).
- 130- المرجع نفسه (ص 18 - 19).
- 131- المرجع نفسه (ص 90).
- 132- تلخيص كتاب الشعر (ص 177 - 178).
- 133- نظرية الشعر عند المعتزلة المسلمين (ص 78).
- 134- تأويل مشكل القرآن (ص 20 - 21).
- 135- معجم العمري، المادام الخطابي، وأقسام الشعر في القرنين الأولين (أساس)، العدد 8، 1991، (ص 12).
- 136- دلائل الإعجاز (ص 97).

أولاً : باللغة العربية والمترجمان

(أبراهيم السامرائي)

في لغة الشعر، الطبعة الأولى، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.

(أبو نمار)

ديوان أبي نمار بشرح الطعيط البيريزي، تحقيق محمد عويد عزازي، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢.

(أبو حنيفة)

مجاز القرآن، تحقيق فؤاد حركين، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١.

(أحمد الشاذلي)

الأساليب، دراسة بلانية تحليلية لأسلوب الأساليب الأدبية، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩.

(أحمد الطرابلسي)

نقد الشعر منذ العرب حتى القرن الخامس للميلاد، ترجمة إدريس بلطح، الطبعة الأولى، دار توفيق للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٢.

(أحمد كامل الزويدي)

الوقف من الشعر في نواحي القدس، مركز البحوث العربية، القاهرة، ١٩٩١.

نظرية الشعر عند البلاغة، تحقيق من الطبع حتى أبي زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١.

(البطلاني، أبو بكر)

إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة.

(أبي أبي الإصمعي المصري)

تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر، تحقيق محمد طه، تحقيق محمد طه، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢.

(أبي الأثير، حياء الدين)

لؤلؤ السائر في أدب الكتاب والشاعر، تحقيق أحمد العوفي وودي طهانة، دار النهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، القاهرة.

(أبي رشيد)

القصص كتاب الدين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجليل، بيروت، ١٩٥٥.

(أبي رشيد)

العمدة في معاني الشعر وأدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجليل، بيروت، ١٩٥٥.

(أبي سنان الخطابي)

در الصناعات، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٢.

(أبي طهانيا)

عبد الشعر، تحقيق عبد العزيز بن ناصر التاج، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية للدراسات، توزيع مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٥.

- (أبو حنيفة)
- الشعر والشعراء: تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.
- تأويل مسائل القرآن: تحقيق أحمد عيسى، الطبعة الثانية، دار التراث، القاهرة، ١٩٧٢.
- (أبو الحسن: هبة الله)
- كتاب اليربوع: تحقيق المشاطيوس كراتشكوفسكي، منشورات دار الحكمة، بيروت، «عقود».
- (أبو وهب الكلابي)
- البرهان في وجوه البيان: تحقيق حفي محمد شرف، الطبعة الأولى، مكتبة الشهاب، القاهرة، ١٩٦٦.
- (التوحيدي: أبو حيان)
- الإمتاع والمؤانسة: تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- القباسات: تحقيق علي شلق، الطبعة الأولى، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦.
- (الغضائلي: أبو منصور)
- بليغة الشعر في معاني أهل العصر: تحقيق مطهر طبعه، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، الجزء الأول، بيروت، ١٩٨٢.
- (كعب: أبو العباس)
- قواعد الشعر: تحقيق رمضان عبد التواب، الطبعة الأولى، دار المعرفة، ١٩٦٦.
- (الجاحظ: أبو هنادي)
- الحيوان: تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثانية، مطبعة ومطبعين كتابي الحلبي، الجزء الخامس، مصر.
- (جان كيهن)
- بنية اللغة الشعرية: ترجمة مصطفى الوائلي ومحمد العمري، الطبعة الأولى، دار فؤاد، الدار البيضاء، ١٩٨٦.
- (عازم القرطاجني)
- ملهاج الملهاة وسراج الأملأ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.
- (خليل أحمد صابرة)
- في نحو اللغة والقرآن: الطبعة الأولى، عالم المعرفة، جدة، ١٩٨١.
- (أحمد ديدات)
- مناهل النقد الأمي: ترجمة مصطفى بدوي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، الترجمة والطباعة والنشر.
- (الترمذي: أبو الحسن)
- النكت في إحصاء القرآن: تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ضمن ثلاثة رسائل في إحصاء القرآن، دار المعارف، القاهرة.
- (روآن بارث)
- مبدأ في علم الآلة: و ترجمة محمد البكري، الطبعة الأولى، دار قرطبة الدار البيضاء، ١٩٨٦.
- (رونيه ويلك)
- مناهج نقدية: ترجمة محمد هاشم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٢.
- (رونيه ويلك وأوستون وأرين)
- نظرة الأدب: ترجمة محيي الدين صبحي، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥.

- (الزرقاني، بدر الدين)
البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة التراث، القاهرة.
(سعد مصطوح)
الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1984.
(المسلكي، أبو يعقوب)
مفتاح العلوم، الطبعة الأولى، مطبعة مصطفى الرائي الحلبي، القاهرة، 1997.
(سبيو، أبو بشر)
الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، الجزء الأول والرابع، مصر، 1997.
(السيد إبراهيم محمد)
الضرورة الشعرية، دراسة أسلوبية، الطبعة الثالثة، دار الأندلس، بيروت، 1983.
(سيد قطب)
التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، دار الثقافة، بالبيضاء، 1988.
(شكري، حاتم)
اللغة والإبداع، ميدان على الأسلوب العربي، الطبعة الأولى، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1988.
والله الأبعد، مقدمة في أصول النقد، الطبعة الأولى، دار الواسع، القاهرة، 1997.
موسيقى الشعر العربي، الطبعة الأولى، دار المعرفة، 1998.
(شوقي، ضيف)
الخلافة تاريخ وتطور، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة، 1987.
(الصافي، أبو إسحاق)
رسالة في الفرق بين المرحل والشاعر، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الرحمن الهادي، كتاب النادي الأدبي الثقافي، جدة بعنوان: قرابة جديدة لتراثنا الشعري، المجلد الثاني، 1990.
(عبد أحمد إبراهيم)
تاريخ النقد الأدبي عند العرب، من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.
(عبد الحكيم راضي)
نظرة الفقه في النقد العربي، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، مصر، 1980.
(عبد القادر البغدادي)
خرافة الأديب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الأول، 1999.
(عبد القادر الجرجاني)
دلائل الإيجاز، تحقيق محمود شاكر، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1981.
أصول البلاغة، تحقيق زهير، الطبعة الثالثة، دار المسيرة، بيروت، 1983.
(عبد الله الشاذلي)
التصنيف والتأخير، الطبعة الأولى، كتاب النادي الأدبي الثقافي، جدة، 1988.
(عبد النعم النيمة)
مداخل إلى علم الجمال الأدبي، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بالقاهرة، 1988.

(العسكري: أبو هلال)

كتاب الصناعات الكتابية والخط - تحقيق طه سمير، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981.

(إبراهيم هو)

مقالة في النقد، ترجمة محيي الدين صبيح، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مطبعة جامعة دمشق.

(الندريس)

النقد، ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية، 1980.

(القاضي الجرجاني)

الرسالة بين الكتب، خضرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد الجبوري، منشورات المكتبة المصرية، صيدا - بيروت.

(قاسم بن جعفر)

نقد الشعر - تحقيق كمال مصطفى، الطبعة الثالثة، مكتبة الخارجي والقاهرة، 1996.

(كامل، بوب)

بؤس الأبيولوجيا، ترجمة عبدالحميد سمير، الطبعة الأولى، دار الساق، بيروت، 1989.

(الكلابي، محمد بن عبدالقادر)

إحكام صناعة الكلام، تحقيق محمد رشيد الصفار، دار الشفاء، بيروت، 1977.

(كمال أبو ديب)

في البداية الإبداعية للشعر العربي، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت، 1981.

<http://archivebeta.bakht.com>

(أطفي عبدالمدوح)

الشركب اللغوي للأدب، الطبعة الأولى، مكتبة نهضة مصر، 1990.

(الكتبي، أبو الطيب)

شرح ديوان المشي، عبدالرحمن البرافوني، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980.

(محمد انصار)

بنا الصورة في الرواية الاستعمارية، الطبعة الأولى، مكتبة الإنترنسي، تطوان، 1991.

(محمد حمادة عبدالطيف)

النحو والدلالة، الطبعة الأولى، مطبعة المدينة، دار الساق، القاهرة، 1987.

(محمد خطابي)

أدبيات النص - مدخل إلى استخدام الخطاب، الطبعة الأولى، لكرات الثقافية العربي، 1991.

(محمد خليفي هلال)

الأدب المقارن، الطبعة الخامسة، دار العودة، دار الثقافة، بيروت.

قضايا معاصرة في الأدب والنقد، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.

(محمد حجاج)

تحليل الخطاب الشعري، الطبعة الأولى، دار التوير للطباعة والنشر، بيروت، 1988.

(البرافوني، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن)

شرح ديوان الحماسة، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجبل، الجزء الأول، بيروت، 1985.

- (ميخائيل أو فسيانيكوف)
مشكلات علم الجمال الحديث، فناديا وأخلاق، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، 1999.
(ميخائيل باختين)
الكلمة في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1988.
الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمد البكري، ومبنى العبد، الطبعة الأولى، دار لوطيان للنشر، الدار البيضاء، 1986.
(تعدر أبو زيد)
إشكاليات التراث والذات القبول، الطبعة الثانية، المركز الثقافي العربي، 1997.
هنريش بلت
اللغة والأسطورة، ترجمة محمد المصري، منشورات دراسات سال، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1989.
(يحيى بن حمزة الطولي)
الطراز المضمن لأسرار اللغة وعلوم حقائق الإيجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980.



تاليا : واللغات الأجنبية

أ - الكتب

- R. Chapman, Linguistics and Literature (London, 1975, Faber and Faber).
S. Chatman, ed. Literary Style, a Linguistic Approach (London, 1971, Oxford University Press).
U. Eco, La Pragmatique linguistique (France, 1985, Fayard/Nahe).
V. Flouren, La Rhétorique et La Néorhétorique: Genèse, Evolution, Perspectives (Paris, 1982, Les Belles Lettres).
Groupe (ma), Rhétorique Générale (1982, Le Seuil).
R. Jakobson, Huit Questions de Poétique (1977, le Seuil).
J. Lotman, La Structure du Texte artistique (1973, Gallimard).
J. Malinot et J. Tassinot, Introduction à l'analyse linguistique de la poésie (1982, Presses Universitaires de France).
A. Moutamadill: Réflexions sur la théorie de la signification dans la pensée linguistique arabe (1982, la Faculté des lettres et des sciences humaines de Rabat).
Karim Gharib, la consonance (2ème édition, 1983, p. 1).
F. Riquar, la métaphore vive (Paris, 1975, le Seuil).
M. Riffman, Essais de stylistique structurale (1971, Flammarion).
T.A. Schenck, ed. Style in Language (New York, 1968, John Wiley).
T. J. Taylor, Linguistic Theory and Structural Stylistics (1980, Pergamon Press).
T. Todorov, Théorie du Symbole (1978, le Seuil).
- Symbolisme et Interprétation (1978, le Seuil).
- Littérature et Signification (1987, Larousse).

- K. Varga, *Théorie de la littérature* (Paris, 1981, connaissance des langues, Picard).
S. Ullmann, *the Image in the Modern French Novel* (1963, Oxford Blackwell).
- *Style in the French Novel* (1979, Cambridge).

ب- القرآن

- G.Genette, *(La Rhétorique restreinte)* in *Communication* N°16.
M. Glawinski, *les genres littéraires*, in *Théorie littéraire, problèmes et perspectives* (1989, presses universitaires de France).
J.M. Schaeffer, *De texte au genre*, in *Poétique*, N°53, 1983.



البيان والاستدلال اليباخي : « عناصر استقواء نظري »

أ. حبيب أعرابي*

إن شرح وتوضيح الحجاج يمكن أن يتيح الفرصة لشكلنة تبين بنيتة، وتوضح طابع الضرورة المنطقية للنتيجة فيه، إلا أن الوهم يبدأ حينها يشمل التطوير ما هو خاص وكأنه عام، أن كل حجاج لا يمكن أن يأخذ طابع الصرامة المنطقية في حد ذاته، فالقدمات لا يتوجب أن يصرح بها كلها، وبنيتات اللغة، على الرغم من أنها حجاجية، لا يمكن صياغتها وفق النموذج العلمي، بل ولا حتى وفق نموذج الجزم الذي يعبر عن معناه والذي يبدو أنه لا يعود إلى السياق لأجل ذلك.

Michel Meyer: Logique, Langage et argumentation.
Hachette Université.

Paris, 2^e édition 1982, P. 118.

٥٥

يعتبر مفهوم الحجاج (الحاجة) من المفاهيم الكثيرة للكتابان بالنسبة للباحث عن ضبطه وتدقيقه. ويعود ذلك إلى عدة عوامل أهمها:

- تعدد مظاهر الحجاج وتنوعها (الحجاج الصريح، الحجاج الضمني، إلخ).
- تعدد استعمالات الحجاج وثباين مرجعياتها: الخطابة، الخطاب، القضاء، الفلسفة، المنطق، التعليم، إلخ.

* باحثة في الكمبيوتر وحدة - المنطقة المغربية.

- خضوع الحجاج في دلالاته لما يعجز الفاظ اللغة الطبيعية من رخصة والبرونة تداولية، وكذلك من تأويلات متعددة، وطواعية استعمالية.

ومن هذا المنطلق، سيكون من العسير علينا التطلع، تلقائياً، إلى تحديد سريع ودقيق كل البنية لعنى الحجاج أو الحجاجية. وحتى إذا أخذنا مفهوم الحجاج بمعنى من معانيه العامة، فسيصرحنا ما تلقني تعبيناته وسياقاته على ذلك المعنى طابع النسبية والإشراطية. وإذا ما حاولنا إلحاق الحجاج - كمبحث قائم الذات - بالمنطق، فإن آلياته وصيغه الممكنة لا تحتل الشكثة الصارمة. وربما يحتاج الحجاج إلى إطار بحثي خاص به. وهذا ما حاول بعض الباحثين تناوله - حديثاً - في صيغة «نظرية الحجاج»^{١٢}.

وعلى المستوى الإجرائي، نجد كل حجاج يستمد معناه وحدوده ووظائفه من مرجعية خطابية محددة، ومن خصوصية الحقل التواصلي الذي يندمج في استراتيجياته الفردية والجماعية. ولا غرابة، والحالة هذه، أن هناك حجاجاً خطابياً (إسائياً) وحجاجاً خطابياً (بالاغياً) وآخر قضائياً أو سياسياً أو فلسفياً، إلخ.

وتبعاً لذلك، يصبح الحجاج - عملياً - بعداً من أبعاد الخطاب الإنساني المتاح باللغة المكتوبة والتلفونية. كما أنه هيكلياً إنسانياً - منطقياً ضمن هذا الخطاب - ويقدر ما تتباين وتغشي أشكال ومضامين هذا الخطاب، يشير ما يخلو وتتراين فيه درجات الفعلية الحجاجية على مستوى البروز أو على مستوى الأضمح، وكذلك على مستوى الأضواء والاشتغال.

وإذا صح ما قلناه، فإنه من المفيد جداً، لأجل الاستجلاء والتوضيح، أن نعين وضعية مفهوم الحجاج في مجالاته الاستعمالية الأساسية لتعطي أوسع الأفاق لدلالاته. وإذا كان اهتمامنا النظري والتطبيقي يتوجه، بشكل أساسي، إلى الاستدلال الحجاجي في الفلسفة وخطابها، فإن البحث عما يميز مفهوم الحجاج ومختلف استخداماته وحقله أمر لا بد منه. إلا أن مثل هذا البحث قد يتسع ويتشعب، وهذا يقتضي منا حصره في خطوات وعناصر أولية تشكل خطبات لما سيلها من مقاربات واشتغالات.

إن الوظيفة المفهومية والمنهجية للحجاج قد لا تتحدد إلا في سياقها الخاص، كما سيتجلى لنا ذلك فيما بعد. ومع ذلك، فإنه من المفيد لنا أن نعود إلى معرفة تمهيدية حول المعنى اللغوي لهذا المفهوم قبل تناوله تناولاً تحليلياً موسعاً.

١- المعنى اللغوي للحجاج

في لغتنا العربية، نجد الحجاج والحاجة مصدران لفعل حاجج. وفي «لسان العرب» لابن منظور جاء مايلي:

- حاججته أي طيئه بالحجج التي أدليت بها.

النقد والاعتدال في الجدل

- الحجة هي البرهان أو ما دافع به الخصم. وتجمع الحجة على صحيح وسجاج. ويقال حاجة معالجة وحجاجا أي نازحه الحجة.

- الاحتجاج هو التخاصم. والرجل المحتجاج هو الرجل الجدل.

- الاحتجاج: من احتج بالشئ أي اتخذ حجة. ويقال أنا حاججته فأنا معالجة وحججته أي مقابلته بإظهار الحجة التي تعني «الدليل والبرهان»⁽¹⁾.

ونلاحظ من خلال هذه التعريفات القاموسية أن لفظ المحتجاج أو الحاجة يحمل في مضمونه دلالة ومعنى مستعدين مما يشكل سبابه أو شرطه التخاطبي، والممثل في «التخاصم» و «التنازع» و«الجدل» و«الغلبة» كعمليات مأخوذة هنا بمعانيها الفكرية والتواصلية.

وهي اللغة الفرنسية - على نميل المقارنة - نجد اللفظة Argumentation تشير إلى عدة معاني مقاربة، أبرزها على الخصوص - حسب قاموس «روبير» - مايلي:

- القيام باستعمال الحجج.

- مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة.

- فن استعمال الحجج أو الاعتراض بها في مناقشة عقلية.

وهي القاموس ذاته نجد «Argumenter» تشير إلى الدفاع عن اعتراض أو أطروحة بواسطة حجج، أو عرض وجهة نظر معارضة لمجموعة معينة⁽²⁾.

ولا شك أن المعنى اللغوي للحجاج في الفرنسية لا يختلف في الجوهر عن معناه في العربية. على الأقل في وظيفته التبريرية والجدالية <http://Archivebeta>

٢- الجدال ومعناه في نظرية الجدال

قديمًا كان مفهوم الحجاج تابعًا لبيعة عضوية واستعمالية لجماليات وأفعال تعليلية واستدسية، أما بعض الأبحاث والكتابات الحديثة فقد جعلت منه موضوعًا خاصًا بها. وقد تقاطعت هذه الأبحاث مع اللغويات والمنطق والفلسفة... إلخ. فلي منظور بعض هذه الكتابات نجد الحجاج أو الدليل يشيران إلى ذلك الخطاب السريع أو الضمني الذي يستهدف الإقناع والإفحام معًا، مهما كان مثالي هذا الخطاب. ومهما كانت الطريقة المتبعة في ذلك. وهذا المعنى هو الذي يأخذ به أبرز منظري «نظرية الحجاج» المعاصرة كشافيم بيرتلان CH. Perelman وميشال ماهير M. Maier حيث يقول الأخير: «يمر الحجاج عادة بكونه جهدًا إقناعيًا (إفحاميًا). ويعتبر البعد الحجاجي بعدًا جوهريًا في اللغة لكون كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه»⁽³⁾.

ومن هذه الزاوية، يصبح الحجاج بعدًا جوهريًا في اللغة ذاته، مما ينتج عن ذلك أنه حوشما وجد خطاب العقل واللغة فإن ثمة استراتيجية معينة تعتمد عليها. لغويًا وعقليًا، إما لإقناع أنفسنا أو لإقناع غيرنا. وهذه الاستراتيجية هي الحجاج ذاته. وهي تستمد خصائصها ووظيفتها من التحلل

الذي تتحقق فيه ويعطيها الشرعية، وقد يكون هذا التحلل هو الحياة اليومية للناس وقيمتهم، أو يكون هو الفكر والتفكير من أبسط درجاته إلى أكثرها تعقيدا وتجويدا.

ويترتب على ما سبق أن الحجاج لا يتحصر في استعمالات خطابية ظرفية، وإنما هو بعد ملازم لكل خطاب على وجه الإطلاق، والسبب في ذلك أن كل خطاب حال في اللغة تمتعه هذه الأخيرة العناصر الأولية والقاعدية لكل حجاج، أي عناصر الاستدلال والتدليل.

إن الخروج من الدلالة الفاروسية للحجاج إلى دلالة النظرية والاستعمالية الواسعة والمتنوعة، أي إلى فضائاته التسمية، سيخضعونا إلى الاعتراف بوجود أكثر من سياق لهذا المفهوم، وأكثر من حقل وظيفي له، فهناك - على سبيل المثال - حجاج خطابي (بلاغي) وحجاج قضائي (قانوني) وحجاج فلسفي أو رياضي، إلخ. ومن ثمة، كان من البديهي، أيضا، أن يكون للحجاج كخطاب وكمعاملات استدلالية إقناعية علاقات معقدة ومتجددة سواء مع البلاغة الكلاسيكية والحديثة أو مع المنطق والبرهان، أو مع المسانيات والتداوليات.

ونلاحظ، حاليا، أن كل جنس من الأجناس المعرفية السالفة يسمى - بأبعاده - نحو ضم الحجاج إلى حضوره الخاصة، ومشاربته من زاوية المحددة، والنتيجة لذلك، اختلف مفهوم الحجاج، وتغيرت معانيهم ووظائف وتطبيقات مختلفة ما زالت هي تجدد مستمر.

ومع ذلك، تبقى هناك عدة تساؤلات تطرح نفسها في هذا الموضوع: هل الحجاج له معنى واحد عام وكلي، وإن كان يتحقق ويؤمن في حقول معرفية ومجالية على تفرع وتباين حقول ومجالات الحجاج لا تقضي بنا إلى القول بوجود هذه التماثل وأنواع من الحجاجات التي بين هناك فروق مفهومية ومنهجية بين الحجاج البلاغي والحجاج الفلسفي أو بين، الحجاج الرياضي والحجاج الفلسفي، مثلا؟

وهما كانت الأجوبة الفروض تقديمها عن هذه التساؤلات المشروعة، فإنه مبدئيا يصعب علينا فصل الحجاج عن حقل تعينه، وعن خطابه المرجعي، ولا سنكون كمن يبحث عن حجاج متعال وخالص، أي مجرد من أسباب وجوده، وهذا مجال - كما أن تركيز النظرة والتناول على الحجاج الفلسفي نون ما يوازيه ويحاذيه أمر يقلص من بعد النظر، ومن وضوح المعالجة - لذلك، فمن اللائق القيام باستقصاء نظري يربط الحجاج بأفلاكه الأساسية، وبأهم تجلياته فيها⁽¹⁾، وإذا لم نتمكن من هذه الطريق فمن أجل إضفاء أكثر وأعماق لدلالات الحجاج وثراء خصائصه، وهذا أفضل مما لو سلكتنا طريقا مستقيمة تنهض على عرض تماثل تعاريف الحجاج، وتحليلها بمعزل عن الخوض في سياقاتها ومرجعياتها الأصلية.

وسنركز، من الزاوية النظرية، على وضعية مفهوم الحجاج وعلاقته بكل من التداولية والمسانيات، ثم بالبلاغة والخطابة، ثم بالفضاء، وأخيرا بالفلسفة، وهي مجال الفلسفة سنتناول بالبحث والتقصي موضوع الحجاج الفلسفي، وكذلك الاستدلال الحجاجي، من حيث دوافعي التجوء إلى هذا المفهوم الأخير، ومن حيث مسوغاته وتجلياته.

أولاً : الجدل في التداولية واللسانيات

بما أن الحجاج يعتبر ظاهرة متجسدة في الخطاب، وبه يتحقق، فهو متجسّم بالصفة لسانية وأسلوبية. ومن نتائج هذا الأمر، إن مقارنة هذه الظاهرة مقارنة لسانية غدت حالياً مسألة طبيعية إن لم تكن ضرورية.

غير أن علاقة اللسانيات بالحجاج للهرم التساؤلات كبرى. وأبرز هذه التساؤلات يمكن طرحها كالتالي: هل مقارنة الحجاج هي مهمة ملقاة على اللسانيات العامة أم على التداولية، أم على الأسلوبية، أم على البلاغة؟ وإذا كان النص الحجاجي هو - لسانيا - نص متميز عن باقي الأجناس النصية الأخرى، فهل نولي اهتمامنا لبنيته الحجاجية وعلاقاتها الداخلية أم لقيمته وفعالته الحجاجية من خلال تفاعل ذاته أو ذواته مع محيطها الخطابي؟ وإذا كان من الصعب جدا اغتزال الظاهرة الحجاجية في النطاق اللساني المحض، أو في النطاق العقلي والفكري المحض، فإن تناول اللساني لها هو نفسه ملقّى تقاطع مقاربات متباينة أشد التباين.

لقد اعتاد اللسانيون النظر إلى الخطاب اللغوي الحجاجي كخطاب يتوفر على خاصيات بنائية وبراعمانية تجعله مختلفا عن غيره من الخطابات: السردية، الحكائية، الإخبارية، إلخ⁽¹⁾. وتستعصى المقاربة اللسانية، وحتى الأدبية إلى التعامل، بذلك مع نوع خاص من الخطاب والتكلم.

وإذا كان هذا الخطاب متعدد بمقدار الحجاجي التميز، فهو خاضع لقطبائ مختلفات سيولوجية لسانية:

- القربل - - - الرسالة - - - استقبل (جاكسون Jacobson)
- التعبير - - - المعنى - - - الإقناع والانفعال (بوهلر Bühler)
- المخاطب - - - الخطاب - - - المخاطب (أوستين Austin)

أ- الجدل والتداولية

يترتب على إدراج الحجاج ضمن النواثر السابقة، أننا حتى لو وجدنا الصور الأسلوبية في الخطاب الحجاجي أو صوره البنائية الاستدلالية، فإننا سنكون ميّليا بحسد رصد أعمال كلامية أو تكلمية لها مرجعية أو سياق مشترك بين المتكلم والمستمع، أو بين المخاطب والمخاطب. وإلا واجهنا أزمة على صعيد الترتيزات والمظاهر التواصلية والتأويلية.

والئن كان البعض يعتقد أن دراسة الحجاج في الخطاب اللغوي هو شأن التداولية Pragmatique فإن لهذا الاعتقاد ما يبرره. إذ، بالفعل، نجد الخطاب الحجاجي يغطي ظاهريا وباعتبارها لقواعد شروط القول والفعل. بمقاربة أخرى، إن كل خطاب حجاجي تبرز فيه مكانة القصيدة والتأثير والفعالية، وبالتالي، قيمة ومكانة أفعال النوات الخطابية،

هكذا ينتمي القول أو النص الحجاجي إلى مجال التداوليات، إلا أن مجال التداوليات هو مجال واسع من جهة، ومتشعب من جهة ثانية، وبالتالي يجوز القول بوجود تداولية البلاغيين وتداولية اللسانيين وتداولية المناطقة والفلاسفة، إلخ. هكذا، نذهب إحدى الباحثات إلى القول: «التداولية كبحث في قيمة الإظهار، لم يتحدد بعد في الحقيقة. ولم يتم بعد الاتفاق بين الباحثين فيما يخص تحديد افتراضاتها أو اصطلاحاتها»^{١٢}.
وبغض النظر عن تداول الاختصاصات المفردة للتداولية، فإن هذه الأخيرة تحاول الإجابة عن أسئلة مهمة مثل:

- من يتكلم؟ وإلى من يتكلم؟
- ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟
- ما هو مصدر التشويش والإيضاح؟
- كيف نتكلم بشيء ونريد قول شيء آخر؟

ولتستدعي الإجابة عن هذه الأسئلة استحضار مقاصد التكلم وأفعال اللغة وبعدها التداولي والسبقي، إلخ. ويسرف النظر هل التداولية هي قاعدة اللسانيات أم العكس، فإن الأسئلة المطروحة سابقا تطبق على كل أنواع الخطاب والتكلم، بما فيها الخطاب الحجاجي. إن هذا الأخير يتطوّر على البعد التداولي إلى عدة مستويات، فعلى مستوى أعمال اللغة التداولية في الحجاج هناك الأقوال «العرضية» والتي تستعمل - حسب أو ستين Austin - «لغرض مقاصد، وبسبب موضوع، ولتوضيح استعمال كلمات وضبط مراجع. مثال ذلك: أكد، وأنكر، وأجاب، واعترض، وهب، وسأل، وفسر، ونقل أقوالا»^{١٣}. وعلى مستوى السياق هناك أدوات وتعايير وصيغ تضمني السمة الحجاجية على تخطاب ما، مما يجعل الحجاج يكون ضمتها أو صريحا. هكذا، نجد تعابير إنجازية موجهة إلى ربط قول ما بباقي الخطاب وبكل السياق المحيط، من هنا نعرّض على «أجيب» و«استبط» و«استخلص» و«اعترض».... وتأتي هذه التعابير لتربط القول بالأقوال السابقة وأحيانا بالأقوال اللاحقة....^{١٤} لكن هناك مستوى آخر يتجلى فيه البعد التداولي للخطاب الحجاجي، ويتمثل في المستوى الحواري أو التحواري سواء كانت ذوات هذا التحوار مضمرة أو متعددة الأصوات والأمارات. وبهذا الصدد تقول فرانسواز أرمينكو Françoise Armingaud ما يلي:

«تعد الحوارية مكونا لكل كلام، وتعرف كتوزيع لكل خطاب إلى لحظتين توجدان في علاقة حالية. ويقدم البناء الحواري من خلال الحدود التالية، «كل لفظ يوضع في مجتمع معين، لابد أن يوضع بطريقة شاذية، تتوزع بين المتكلمين الذين يتعمسون على شاذية الإصانة وشاذية العرض، على حد تعبير فرانسيس جاك P.Jacques^{١٥}، ومن هذا المنطلق، فإن الظاهرة

البيان والاعتناء بالبيان

التخاطبية الحوارية تعبر صميمية في كل خطاب على الإطلاق، إلا أن الاتجاه الحجاجي الذي تأخذه هذه الظاهرة يبرز بوضوح أكثر على صعيد التواصل الفكري. وهذا ما نتضح مع التداولية المتعالية لدى كارل أوتو أبل K.O.Abel، والتداولية العقلية لدى يورغن هابرماس J.Habermas. إن أساس الحجاج، إذن، في منظور بعض الاتجاهات التداولية هو الحوارية، وما تتطلبه من عمليات حجاجية تتنوع وتنبين تقنيا بتنوع وتبين أنماط التخاطب وعراقب الحوارية. وقد شكل هذا الأساس دافعا دفع بعض الباحثين إلى إجراء تصنيفات ضمن الفعل الحوارية تحت مبرر مراعاة الشروط الموسمية - لسانية لكل صنف ولبعده التداولي الخاص. وقد ذهب الأستاذ طه عبد الرحمن إلى الاعتقاد بأن «الحوارية تنقسم إلى «الحوار» و«المحاضرة» و«التخاطب» وكل منها يخضع لتتبع حجاجي استدلالي وألية خطابية وبنية معرفية وشواهد نصية»⁽¹⁾. غير أن مثل هذا التصنيف للفعل الحوارية - الحجاجي، وما يترتب عليه من تقسيمات منهجية، قد يستقلنا في نزعة تقاضلية وتعسفية، أو موجهة بخلفيات أخلاقية هابرة. والحقيقة، إن الحوارية وحجاجها هي ذاتها من تلتج «العملية التواصلية» ومن ثم فمن الصعب جدا حصر كل الاتجاهات الناقضة والتخاطب الحجاجي. حتى ولو حاولنا أن نضع لذلك قواعد ومبادئ، أو مسلمات كذلك التي سماها «كرايس» Grice بمبادئ الناقضة القائمة على «التعاون» وهذه المبادئ أو الحكم هي أربعة وتتلخص كما يلي:

1- مبدأ الكم: استعمال المساهمة المنقولة على كمية من المعلومات المطلوبة لا زيادة فيها ولا نقصان.

2- مبدأ الكيف: المساهمة في النقاش تكون حقيقية لا تؤكد ما يعتقد صاحبها أنه خطأ. ولا تؤكد ما هو في حاجة إلى حجب.

3- مبدأ العلاقة: التكلم في صميم الموضوع، وعند الضرورة.

4- مبدأ الطريقة: الوضوح في الكلام، وتجنب الاكتباس في الحديث، وكذا تجنب الكلام الغامض، مع توخي الاختصار والمنهجية⁽²⁾.

وهذه المبادئ لا يمكن اعتبارها تداولية أو حجاجية محضة، لأنها تعبر عنديمة المضي خارج نطاق التشاغل الخطابي باعتباره نشاطا عقليا، وهذا النشاط بدوره ليس معزولا عن مضمونه السوسيو - أخلاقي والتواضعي (العرقي). والدليل على ذلك، أن كل مناقشة أو تفكير حجاجي أو غير حجاجي هو تفكير مع الآخر وتواصل معه.

ب - الجدال والاعتناء

بالإضافة مع التناول التداولي للظاهرة الحجاجية، هناك المقاربة اللسانية المنطقية لهذه الظاهرة، فالمقاربة اللسانية تلك، قد حاولت أن تعالج الحجاج كظاهرة لسانية نصية لا يمكن

تفسيرها دون إبراز مراتب المتكلمين، وأدوارهم في أفعال الكلام. وبالإضافة إلى ذلك، هناك الوقوف عند العناصر والروابط العجائية باعتبارها أدوات لسانية، ثم تشريح سلاسل الحجاج داخل المنطوقات والأفوال.

إن التحليل اللساني للحجاج ومماراته قد اتخذ من الموضوع وكيفية إنتاجها موضوعه الرئيس. ويسمى هذا التحليل إلى صوغ قواعد ومعايير قراء النص الحجاجي لسانيا (بمساعدة علوم أخرى)، بصرف النظر عن الحقل الأصلي لهذا النص، فقد يكون نصا صحافيا أو أيديولوجيا أو أدبيا أو فلسفيا... وتجد بذور هذا التحليل عند «إ. بينفنيست» Benveniste، والذي سمى «أ. ديكر» O. Ducrot وآخرين.

فكما تقدم من بعض أبحاث «إ. بينفنيست» أن اللغة لا يمكن أن تتحقق فعليا إلا بواسطة التلفظ Enonciation،. ويحذف تحول اللغة إلى خطاب يعيد علاقة بين متكلم ومستمع. ويرى هذا اللساني أن «الفعل الفردي الذي ستمعمل بواسطة اللغة، يجعل من المتكلم قبل كل شيء» ما يشبه المحيد الثابت في شروط التلفظ الضرورية. فقبل التلفظ لا تكون اللغة سوى عبارة عن إمكانية لغوية، وبعد التلفظ تصبح بمثابة الخطاب الذي يصدر عن متكلم في شكل صورة ناطقة تستهدف مستمعا، يبحث تلفظا آخر أو اتجاهيا⁽¹⁷⁾.

ومن جملة ما أكد عليه «بينفنيست» أيضا هو أن التلفظ يتميز بعدة العلاقة الخطابية مع الشريك سواء أكان شريكا نفسيا أو فكريا، فريبا أو غريبا، وهذه الخاصية تطرح بالضرورة ما يمكن أن نطلق عليه: الإطار التشخيصي للتلفظ⁽¹⁸⁾. ومن بين أشكال الخطاب يتخذ التلفظ «صورتين» ضروريتين: إحداهما بمثابة مصدر التلفظ والثانية بمثابة هدف التلفظ. إن الساتة تتعلق هنا ببنية الحوار.

واستنادا لأفكار «بينفنيست» حول التلفظ والكلام والخطاب سينصير «أ. ديكر» O. Ducrot أن الخطاب الحجاجي وراء ذات متكلمة أي له مصدر أو مصادر. فالتكلم داخل الخطاب - هو المصدر المسؤول عن الخطاب، بصفة عامة، وعن حجاجه بصفة خاصة. لكن «ديكر» يميز بين التكلم والتلفظ. وهذا الأخير، باعتباره مجردا، هو المسؤول عن منطوق (قول) أو أكثر. وهو الصوت المتحدث باسم المتكلم للتعبير عن رأي أو أطروحة (سوقه خاص) ضمن الخطاب الحجاجي ككل. وفي هذا السياق أيدج «ديكر» مفهوم «التلفظ» متعدد الأصوات، لحل مشكلة تحليل بعض الأفوال التي لا تعترف بالضبط لمن تنسب فيها الكلام، هل لتكلم واحد، أم لأكثر من متكلم⁽¹⁹⁾.

وعلى عكس الاتجاه اللساني الذي يجعل دلالة (معنى) القول تتعارض مع قيمة القول، ومن ثم تعارض علم الدلالة مع التداولية، يذهب «ديكر» إلى الاعتقاد بأن المعنى لا يحدد من دون الرجوع إلى مقاصد القول وحجاجه⁽²⁰⁾.

النبار والاستدلال النباري

وهذا الطرح اللساني لا يفصل فضلاً باتاً بين البعد التداولي والبعد الدلالي في الخطاب. إلا أن «ديكرو» يرى أن هناك فرقاً واضحاً بين الاستدلال العقلي وبين الخطاب. فالأول لا يشكل خطايا، لأن كل قضية من قضايا الاستدلال تحول بوجدتها إلى حالة واقعية أو افتراضية من حالات الواقع. هكذا يقول صاحب هذا الرأي، بالنسبة لي، إن كلا من الاستدلال العقلي والخطاب ينتميان إلى نظامين مختلفين إطلاقاً، أي نظام ما تطلق عليه عادة «المنطقي»، ونظام ما أطلق عليه «الخطاب»⁽¹⁾.

ويريد صاحب هذا الكلام أن يستنتج نتيجة مفادها، إن الخطاب المنطقي يتوفر على خاصية حيادية مباشرة له دون أن تتغير هذه الخاصية بمعايير منطقية خارجية. وحاج هذا الخطاب يتجلى في العلاقات بين المنطوقات والأقوال، وهي علاقات مكونة لتلك الأقوال وتوجيهها، في مجملها ما، توجيهها معينا.

ويطلق «ديكرو» و«جك» أسكوسير، على هذا الحجاج الخطابي اسم «الحجاج داخل اللغة»⁽²⁾. بعبارة أخرى، فالأمر يتعلق هنا بحجاج يمكن نعته بـ «منطق الكلام» أي تلك القواعد الداخلية للمنطوق، والتي تتحكم في ترابطه وتسلسله⁽³⁾.

وهي هذا الإطار، فإن كثيراً من أعمال القول لها وظيفة حيادية عندما تهدف إلى توجيه المنطوق نحو نتيجة معينة أو عكسها.

والجديد عند «ديكرو» - وأيضاً - أن تلك الوظيفة الحيادية تتوفر على خصائصها في نية الجملة ذاتها. بعبارة أخرى: «... إن القيمة الحيادية لقول ما، ليست هي حقيقة المعلومات التي يقدمها فحسب، بل إن الجملة بإمكانها أن تشمل على موزيمات وتعايير أو صيغ، والتي بالإضافة إلى محتواها الإخباري، فهي تصلح لإعطاء توجيه حيادي للقول، وتوجيه المنطوق في هذا الاتجاه أو ذاك»⁽⁴⁾.

إن هذا الطرح، الذي يجعل استعمال الحجاج ليس عنصراً يضاف إلى اللغة بل يسري فيها سرياناً طبيعياً، سوف يميز بين الدلول (الحجة القاطعة) وبين الحجة العادية، من جهة، وسوف يولي اهتمامه التحليلي لإبراز نظام وراثية الحجاج (حجاج قوية، حجاج ضعيفة) أو (حجاج عليا، حجاج سفلى) بالنسبة للنتيجة معينة طبعاً، من جهة ثانية. وعندما تتضمن فئة من الحجاج (GA) علاقة بين مراتب الحجاج، فإنك تسمي هذه العلاقة «سلماً حجاجياً»، ويمكن تقديمه في المخطاطة التالية⁽⁵⁾.



إن تتبع ورصد الأساليب الحجاجية ورصداً لسانياً هو ورصد علائقي وتربوي على الرضبة للتأثيرات اللسانية الدالة على الحجاج (عنى: لكن، إذا، فإن، عندما... إلخ). وهو على الخصوص رصد لا يتعدى الجملة الواحدة، أي ما يشكل قولاً أو منطوقاً له معنى.

أما خارج نطاق حجاج الجملة أي في إطار النص كمتواترة نهائية أو «لا نهائية» من الجمل والفقرات، فإن الأمر لا يتعلق بمسلم الحجاج، بل بـ «التحليل المنطقي» للنص. وهو تحليل تتواجه فيه الطروقة البرهانية (الحجاجية) للتضمنة والتكاملة في النص. كمنها ذاتها فيه، مع نموذج من نماذج الاستدلال العقلي التي صاغها المناطقة⁽¹⁾.

والآن، تكامل، إذا امتلكت كل من التداولية واللسانيات نواحي حجاج الخطاب، فماذا تبقى من هذه الظاهرة البلاغة والأسلوبية؟

والواقع، إن الفعلية الحجاجية كفعالية خطابية لا تظهر وتتجسم لغوياً إلا بمهارات أسلوبية وتأثيرات بلاغية. فهذه العوامل تخضع للشروط الإبداعية والابتكارية كمتطلبات جمالية وأبنية يتكسبها مسار الحجاج وعلاقاته الداخلية. هكذا، تتفاوت قيمة هذه العوامل من نص حجاجي إلى نص آخر، فالأساليب ومهارات البيان والتبيين لقوي الحجاج وتزيد من فعاليتها، أي تعمل لصالح التأثير والإشباع. لذلك، يمكن النظر إليها كظواهر أدبية وخطابية قائمة الذات، كما يمكن النظر إليها في علاقتها بانوارها الحجاجية وقيمها الإقناعية. إلا أن عرض البنية الحجاجية لنص ما يتطلب الاختصار والإيجاز والقرينة. ولنتضح تلك البنية ومكوناتها الوظيفية والعلائقية فمن اللازم إبعاد التمايز والبلاغيات والصور التي لا تشكل الحجاج ذاته بل «إخراج» واستعراضه، فقط.

ومع ذلك، فقد عني بعض البلاغيين والأسلوبيين بتحديد وتصنيف أنواع الحجج والأساليب الحجاجية، خاصة في مجال الخطابة، ولاشك أن أنماط الحجج وأساليب الحاجة هي عديدة جداً، مما يصعب على المهتم بها حصرها وتتميطها وتمييط نهائية، وقد حاول ج.ج. روبيرو J. J. Robiroux أن يفعل ذلك في كتابه «عناصر الخطابة والحجاج»⁽²⁾، كما حاولت ج. روس J. Ross أن أبرز الصلة العضوية بين أقبائ المنطقية وقواعد البلاغة الفلسفية والحجاجية، عارضة بعض هذه القباين والقواعد (الأساليب) في كتابها: «الشائع الفلسفية»⁽³⁾. وبالإجمال، فإن اللغة، باعتبارها نسفاً دلالياً لغظياً استراتيجياً في التواصل الإنساني، تتنوع عن باقي الأنساق الدلالية الأخرى بكونها - على حد التعبير من: بارط - «تعدنا بالمتنى، بل هي نموذج العنى، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن اللغة اللغظية بطبيعتها تؤثر، ووجدت لتؤثر، فخاصية العنى وخاصية التأثير هي اللغة الطبيعية تفسران نادراً لا يخلو كلامنا من حالات الاستدلال والحاجة، ولذا لا تخلو أساليب التعبير والقول من أفعال استدلالية وأدوات لغوية نحوية - لسانية تعفصل أجزاء الجمل وتجمعات الجمل، وتستضيفها العقول والمعايير المتعارف عليها لدى جماعة بشرية معينة.

البيان والخطابة

وإذا كان التعبير عماده الجمال، وهي بدورها عمادها المعنى، فإن اختيار مناسبات التعبير وكيفيات استعماله أمور تبقى من اختصاص التكلم ونوعية أسلوبه. فالأسلوبية الفنية لتطلق من الأسلوب باعتبارها، من وجهة نظر البعض، «قلما على استخدام الموارد الإبداعية للغة لصياغة الفكرة بأقصى ما يمكن من الفعالية»^(١٧). وبفعل التداخل الموجود بين القول المكتوب والقول المنطوق، وإحالة أحدهما إلى الآخر، لا نستطيع إعمال تلك الظواهر الأسلوبية التي تدخل سواء هي اتصال الحثويات والدلالات، أو هي تحقيق التأثير. وهذه الظواهر تتعلق بكيفية انتقاء عناصر العبارة وتناغم الأسس اللغوية، وإنتاج العبارة ونبراتها، والاستعارة والاشبهات، وبقي الطاقات الإبداعية والتعبيرية التي تلعب أدوارا متناقضة بالنسبة لوضع الحجة، أو بالأحرى، لتبين الحجة داخل نقاشية معينة. ومصدر هذا التناقض هو كون المضمون العقلي والمنطقي لاستعمال الحجة لا يستطيع أن يستغني إطلاقا عن التعبير والصيغ الأسلوبية. كما أن الألاعيب التعبيرية والأسلوبية، وإن لم تولد في درجتها، لا نستطيع أن نؤثر وتنتج من دون مضمون، أي من دون نفسية المعاني والأفكار. ومن دون العلاقة الحسية باعتبارها علاقة عقلية قائمة على أصل قسمة بين العقل، العقل.

ثانياً: الدين والخطابة

إذا كان هناك من لا يميز بين الخطابة والبلغا، فإننا في التراث العربي نجد هناك فرقاً واضحاً بين كل منهما. فالبلغا تعبير أشمل وأعم من الخطابة والتي هي جنس من أجناس التواصل وفن القول. إلا أن الخطابة كانت شديدة الارتباط بالشعر عند العرب، ويمكننا بهذا الصدد، الإدلاء بالملاحظات التالية:

- إن مفردة الخطابة، في العربية، مأخوذة من خطبة، أخطب، خطابة... وهي ذات موضوع وذات طريقة أيضاً. هما موضوع وطريقة الخطبة.

- إن الخطابة، بما أنها نوع من القول، فإن هذا القول له بناء وأسلوب. وأهم ما يميز هذا الأسلوب الخطابي هو أنه إقناعي وبلغا. أما «أرسطو» فقد فصل بين الخطابة (الريطوريكا) وبين الشعر (البولييتيكا). فالخطابة هي منظور «أرسطو» هي «قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة»^(١٨). وهذا الإقناع الخطابي يتطلب قواعد ووسائل يمكن أن نعتبرها منهجية - بلغة اليوم - تدخل في صميم بنائها. ومن عناصر الخطابة عند «أرسطو» هناك، وسائل الإقناع أو «البراهين» والأسلوب أو البناء اللغوي، وترتيب أجزاء القول ثم الإلقاء^(١٩).

هكذا، نجد هناك علاقة ثلثية وتوازنية بين الخطابة والفلسفة داخل الفكر اليوناني. إذ انعكس هذا التوتر - مثلاً - في موقف «أفلاطون» من الخطابة السفسطائية... أما في الثقافة

إن تتبع ورصد السلالات الحجاجية رسدا لسانيا هو رصد علاقاتي وثنائيي على أرضية المقدمات اللسانية الدالة على الحجاج (حتى، لكن، إذا... فإن، عندما... إلخ)، وهو على الخصوص رصد لا يمدى الجملة الواحدة، أي ما يشكل قولاً أو منطقاً له معنى.

أما خارج نطاق حجاج الجملة أي في إطار النص كمتواليات لسانية أو «لسانية» من التجميل والفقرات، فإن الأمر لا يتعلق بسلم الحجاج، بل بـ «التحليل المنطقي» للنص، وهو تحليل تتواجه فيه الطريقة البرهانية (الحجاجية) المتضمنة والكامنة في النص، كمتوالت ذاتية فيه، مع نموذج من نماذج الاستدلال العقلي التي صاغها المنطق⁽¹³⁾.

والآن، نسلط إذاً عينا من المناظرة والنسب من الدلالات والمساكنات نواصي حجاج الخطاب، فمما لا يخفى من هذه الظاهرة البلاغية والأسلوبية⁽¹⁴⁾

والتواقي إن القعالية الحجاجية كصناعة خطابية لا تظهر والتجسم لغويا إلا بعبارة أسلوبية وتأثيرات بلاغية. فهذه العوامل توضع للشروط الإبداعية والابتكارية كمتطلبات جمالية وأدبية يتبناها مسار الحجاج وعلاقاته الداخلية. هكذا، تتفاوت قيمة هذه العوامل من نص حجاجي إلى نص آخر. فالأساليب ومهارات البيان والتبيين تقوي الحجج وتزيد من فعاليتها، أي تعمل لصالح التأثير والإقناع. لذلك، يمكن النظر إليها كشواهد أدبية وخطابية قائمة الذات، كما يمكن النظر إليها في علاقتها بالذات الحجاجية وقيمتها الإقناعية. إلا أن عرض البنية الحجاجية لنس ما يتطلب المنطق والإبداع والتعبير، وتتضح تلك البنية ومكوناتها الوظيفية والعلائقية ضمن اللازم إبداع التأثير والبلاغيات والصور التي لا تشكل الحجاج ذاته بل «إخراج» واستعراضه فقط.

ومع ذلك، فقد عني بعض البلاغيين والأسلوبيين بتحديد وتصنيف أنواع الحجج والأساليب الحجاجية، خاصة في مجال القعالية، والاشك أن نشاط الحجج وأساليب الحجاج هي عديدة جدا، مما يصعب على المهتم بها حصرها وتصنيفها تمهيدا نهائيا. وقد حاول ج.ج. روبيرز J.J. Robrieux أن يفعل ذلك في كتابه «مناصر الخطابة والحجاج»⁽¹⁵⁾، كما حاولت ج. روس J. Ross أن تبرز الصلة العضوية بين المبادئ المنطقية وقواعد البلاغة الفلسفية والحجاجية، عارضة بعض هذه المبادئ والقواعد (الأساليب) في كتابها: «المنهج الفلسفي»⁽¹⁶⁾. وبالإجمال، فإن اللغة، باعتبارها نسقا دلاليا لغويا استراتيجيا في التواصل الإنساني، تتقوى عن باقي الأساق الدلالية الأخرى بكونها - على حد تعبير من - بارزة - متدنا بالغة، بل هي نموذج المعنى، هذا من جهة. ومن جهة ثانية، فإن اللغة المنطقية بطبيعتها تؤثر، ووجدت لتؤثر، فخاصية المعنى وخاصية التأثير في اللغة الطبيعية ليسرنا لذا لا يخلو كلامنا من حالات الاستدلال والحجاجة، ولذا لا نخلو أساليب التعبير والقول من أعمال استدلالية وأدوات لغوية لغوية - لسانية تمفصل أجزاء التجميل وتجمعات التجميل، وتستضيفها العقول والمعايير المتعارف عليها لدى جماعة بشرية معينة.

البيان والاستدلال اللفظي

والثاني راجع إلى اللفظ، وهو أن تكون الكلمة عربية أصيلة تجري على قوانين اللغة، وتكون سليمة من التافهات^(١٢١).

واستناداً إلى ما ذهب إليه أططاب البلاغة العربية في تعريفاتهم وأبعاضهم استخلص «أدونيس» أن «البلاغة تهدف إلى أمرين: التوضيح (الارتجال) والتأثير (الفتح)»^(١٢٢). ونفهم من هذا القول أن البلاغة هنا قد أخذت كمحدد أساسي للخطابة، لأن الخطابة تحتاج جمهوراً معيناً، ومن ثم حاجتها للبلاغة لإقناعه، والتأثير فيه. ومن منطلق أن الخطابة تحتاج للبلاغة، فإنها تحتاج بالتالي للصور البلاغية وللحجج والحجج. فالتأثير والاستمالة يتطلبان الإقناع والتوضيح وأساليب الإقناع. ومن هذا المنطلق، يجب الإقرار بوجود حجاج بلاغي يجد عناصره الأساسية في المعاني البلاغية كالدوافع إقناعية مثل الشاهد والاستشهاد والحجة والدليل والاستدلال... إلخ.

فالجاحظ، في «البيان والتبيين»، كان يرى أن الشاهد هو عنصر من عناصر الحجاج. كما أنه مرادف للحجة والدليل والبرهان. إن لفهوم الشاهد هنا دلالة بيانية وبلاغية. وكذلك ته محاولة عقلية ومعنوية، إذ به يحصل التصديق والاستدلال والتخير والبرهنة على صسطه. فالجحاج البلاغي القائم على الشواهد اعتبر عند «الجاحظ» ومن هذا جذور دعامته لإرساء الحقائق وصروح العلم. هكذا، يؤكد «الجاحظ» أن «مداد العلم على الشاهد والمثل...»^(١٢٣). ويستمد «الجاحظ» دور الشاهد والمثل في العلم (الخيال المصادق) من عادة العرب في هذا المجال. وكثيراً ما كان هذا الكاتب يجعل من الحجة والدليل والشاهد أشياء مترادفة ومتطابقة، إذ يقول في هذا الإطار: «وكان المفتح الكندي الشاعر، وأسمه محمد بن يعقوب، كان الدهر مقنماً، والقناع سيما الرؤساء. والدليل على ذلك والشاهد المصادق والحجة القاطعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يكاد يرى إلا مقنماً»^(١٢٤).

وهنا يصبح الدليل أو الحجة متمكنين في أقوال يستدل بها، ولا يطلقها الشك، أو حالات وأفعال تقوم مقام المربع والقدوة. وكما قال على ما يؤكد هذا، قول «الجاحظ» أيضاً: «والدليل الواضح، والشاهد القاطع، قول النبي صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالغبيا، وأعطيتم (جوامع الكلم) وهو القليل الجامع للكثير»^(١٢٥).

ونلاحظ أن إدراج مفهوم الحجة بمعنى الشاهد والاستدلال والبرهان ضمن دائرة البيان والبلاغة الإقناعية، هو الذي جعل القواميس العربية تذكر هذه المفردات أو المفاهيم بمعنى واحد، ولا تميز بينهما تمييزاً دلالياً أو وظيفياً.

وإذا كان الجحاج البلاغي قد تعدى نطاق الخطابة ليجد مكانته المنهجية في حضيرة العلوم والكتابة، فإنه مع ذلك قد بقي محتفظاً بخصوصيته الأصلية: كمسب ناهيد للتلفي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناع ذلك التلفي عن طريق إشباع مشاعره وفكره معاً.

حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطابة . الخطاب، بهذا المعنى يصبح القول إن الحجاج البلاغي هو حجاج موجه للقلب والعقل معاً، إذ يجمع بين المضمون العقلي للحجة وصورها البيانية، أو بين التبرير العقلي والمحسنات البيانية.

وإذا كانت أساليب الحجاج البلاغية تتميز بمعايير أممية وقيمية، فإن سرعان ما امتدت اليوم إلى جل أنشطة اللغة والقول، وفي هذا المعنى يقول م. مايبير ML Meyer: «إن كل شيء قد أصبح «تواصيلاً» من الصداقة إلى اللعب ومن السياسة إلى الاقتصاد، حيث نجد العلاقات تقام وتفسح بناء على فشل أو نجاح البلاغة»⁽¹⁾. وهذا يدل على أن وراء كل حجاج بلاغة، والعكس صحيح، لأن مدار ذلك هو الإغراء والاستغواء قصد الإمتاع والإقناع.

إن البلاغة هي قبل كل شيء عتاد بذائي وفيلفي يتوسله الخطيب، أو القائل عموماً، لفرض موضوعه أو رأيه أو قناعته، ولأجل كسب تأييد الأخر أو التأثير فيه. إلا أن الصور البيانية والحيل المجازية والقوية (من الإيصال) وحدها لا تحقق التصديق والتأويل ما لم تسند بأدوات ترجيح الرأي وتسويقه عقلياً. وهذه الأدوات هي التي يوفرها الحجاج أو المحاجة.

هكذا، فالبلاغة قد تركز وتسجيل وتمتع، ولكنها لا تقتنع وتسلم إلا إذا تلاصحت مع الحجج والمحاجة. وإذا كانت ج. روس تعتقد أن «الصور البلاغية» هي عملة أسلوبية تشط الخطابة، ولها وظيفة إقناعية⁽²⁾، فإن هذه الصور - على الرغم من أهميتها - لا تستطيع أن تصمد أمام العقل النفاذ والشك الزوفا، ما لم تكن مدعومة بمشهور بالحجج العقلية التي تخضع هي بدورها لعيار الضعف والقوة. ويمكن القول إن الحجاج ينشئ ويسوغ الرأي المصاب والمصدق، أما الأسلوب البلاغي فهو يعرض هذا الحجاج وموضوعه في صور وتقنيات تفتننها جمالية الإيصال والتلقي.

صحيح، إن البلاغة تشكل إمبراطورية واسعة - على حد تعبير ش. بيرلمان - والأساليب المحاجية ما هي إلا رافد من روافد هذه الإمبراطورية، لذلك لا يجوز إطلاقاً اختزال البلاغة سواء كفن الكلام والقول أو كمباحث وتداسات في مفهوم الحجاج والمحاجة البلاغية.

ويترتب على كل ما قلناه سابقاً أن هناك حجاجاً يمكن نعتهم بالبلاغي، أي هناك صنف من الحجج يخضع في بنائه ولزيمية لقواعد البلاغة والبيان، ويتسم هذا النوع من الحجاج بالسمات التالية:

- اندماجه عضوياً بالخطابة في شكلها المكتوب والمنطوق.
- اشتراطه لرغبتين هما إرادة المتكلم (المؤثر والمقنع) وإرادة المتلقي (التأثير والمقتنع).
- خضوع حجيجه للتراتبية والتنظيم: القوة الضعف، البدء، الختم، الإبطال، الإثبات ... إلخ.
- اشتعاله على البدء الاستدلالي والبدء الإمتاعي أو الجمع بين البيان والبدء.
- عدم قابليته للقولية والصياغة المنطقية الشكلية والرمزية ...
- ويمكن اختصار أهم أهداف الحجاج الخطابي والبلاغي في العناصر التالية:

النقد والاستعداد للخطاب

- التأثير في المتلقي (المستمع أو القارئ) وجعله يتقاسم مع الخطيب اعتقاده واقتناعه الطامس أو :

- التأثير في المتلقي لجعله يقوم بالفعل الذي يطلبه ويريد به الخطيب.

- استمالة وإغواء المتلقي باعتباره ذهنًا وعاطفة (عقلًا وقلبًا) لكسب تأييده وتوافقه الطبيعي أو الصريح.

واعتبارًا لخصائص الحجاج البلاغي وأهدافه، فإن الحجاج، سواء كان استدلالًا أو سجالًا، في الحقول التواصلية والعرفية الأخرى مثل السياسة والقضاء والفلسفة، لن يتخلص كلية من رواسيه البلاغية والخطابية. فالحجاج الذي يتغنى من اللغة الطبيعية وهاجس الإقناع والتأثير سيظل دائمًا محتفظًا بقدر معين من البلاغة والخطابية.

وقد لا نبالغ إذا قلنا إنه، باستثناء لغة الرمز والدلالات الواحدة، لا نكاد نعتبر على لغة طبيعية لا تفرق من لقاء ذاتها إلى الإغراء. وهذا النزوع هو الذي يبرز ضمانيًا أو صراحة وجود البلاغة والحجاج البلاغي. لذلك نجد «ج. جودريار» يؤكد أن «الإغراء هو أمر بدائي في اللغة وكل خطاب يتواطأ في هذا الاستماتح، وفي هذا الانطراف الإغرائي. وإذا لم يفعل ذلك بنفسه فإن هناك من سيفعله مكانه»³².

لقد سبقنا هذه المواقف لذكر العناصر التالية:

- إن تحليل «المسار الحجاجي» أو «البنية الخطابية» أو «الخطاب الحجاجي» في خطاب أو نص ما، خاصة النص المكتوب، على الرغم من اهتمام القارئة السامية بما هو شفاهي، ليس إجراءً يسيرًا ولا في متناول الجميع، فعندما تتداخل الأبعاد التداولية واللسانية والبلاغية - الأسلوبية والسيميوطيقية في منتجات النسق اللغوي للشايك أوضاع الحجاج والتعدد وظلالها وأماراتها.

وهذا الأمر يعقّد عندما تتأرجح الحجاج بين الإضمار والظهور أو بين الإخفاء والبروز - ومهما قيل، إن، من نمذجة ذلك التحليل ومحاولة تفكيكه، فإن الحصيلة لن تكون سوى «قرارات» خاصة أو فرضيات للقراءة صادرة عن خدوس عقول نيرة.

- إن السمة الحجاجية في «الخطاب» أو في أبنية الاستدلالات والمعاني داخل النصوص، لا تتجلى وتبرز كشفاً إلا إذا كنا أمام القول اللغوي المكتوب. أما القول اللغوي الشفاهي، حتى وإن كان تحليلًا لطاقت اللغة، فهو لا يشكل أرضية التحليل معمق ومتماثل بل يفعل زائما من الأسئلة والحالات المتفردة، وماعدا في حالات نادرة جدا. يعاني الخطاب الشفاهي من تشوهات وتشككات تنعكس آثارها على اتساقه البنائية، وعلى ضوابطه ومساراته المعاجية³³.

- إن الأطروحة التي اعتبرت الحجاج خاصة مباحثة لكل خطاب لغوي (مايبر - ويكرز) لم تراع في تحليلاتها الفروق الواضحة بين الأداء الشفاهي والأداء الكتابي، بين الاستماتل

التواصلي المعقوي والحي لغة وحجاجةا وبين الاستعمال التقني والدروس لهذه اللغة. وهذا يقتصر لما لا يسهل انتقاء بعض الجمل والصيغ وتحليل سلمها الحجاجي. ويصعب ذلك حينما يطول الحديث أو النص طولاً مفرطاً.

ثالثاً: الحجاج في القضاء أو الحجاج القضائي

إذا افترضنا مع «ش. بيريلمان» أن الحجاج يغطي كل مجال الخطاب الذي يهدف إلى الإقناع والإقناع منهما كان المنطقي ومهما كانت الطريقة المنهجية^{١٢١}. فإن مجال القضاء يعتبر من المجالات التي تتطلب الحجاج والحجاجة. والقضاء المقصود هنا ليس قضاء التشريعات وصوغ القوانين، بل هو قضاء إصدار الأحكام. أي قضاء المرافعة والمداولة.

أ. خصوصيات الحجاج القضائي بمعييراته:

إن مجال المرافعة والمداولة في النشاط القضائي يتميز بالسجلات والتأويلات والمعانيات. ففي الجلسات القضائية تتدخل أطراف أساسية هي القاضي أو القضاء والمحامي والدعي العام... إلخ. وحتى تأخذ الأحكام الصادرة من القضاء صبغة شرعية عادلة يفسح المجال - غالباً - لخطابة الإقناع والتبرير. فالمرافعة هي قبل كل شيء خطابة ومحااجة، والمداولة هي الأخرى تبرير وحجاج. وقد كان «أرسطو» من الفلاسفة الأوائل الذين صنفوا أنواع الخطابة، إلا ميز فيها بين الخطابة الاستثنائية والخطابة القضائية والخطابة الاحتمالية.

إن الحجاج القضائي يشتر بدوره، إذن، في الخطابة القضائية والتي تتميز بمقاسها وحالها وبموجبها وأقيمتها. وعند «أرسطو» تشكل الخطابة القضائية من القوانين والشهود والاعتراضات وأحوال الحكماء، والتي هي بمثابة شواهد وحجج جاهزة^{١٢٢}. أما قياس الخطابي، الذي يجسده الحجاج القضائي، فهو قياس قائم على الاحتمال والترجيح أثناء المرافعة القضائية^{١٢٣}. ولعل الداعي إلى وجود هذا القياس وهذا الحجاج هو ضرورة التبرؤ من التهمة «بالاحتجاج» والأدلة المقنعة، أو ضرورة تبرير الأحكام والتأويل القانوني المطلوب في نازلة معينة.

ومن وجهة نظر أخرى، يمكن اعتبار القضايا القضائية بمثابة مشاكل تتطلب حلاً أو حلاً أو تسامح في صورة قرارات وأحكام قضائية. فالحجاج، إذن، يكون مسبقاً بوجود مشاكل تقتضي المناقشة. وفي هذا السياق يقول م. ملبور: «بمجرد ما تطرح المشكلة فإن إمكانية الرأي المعارض أو إمكانية التنازع تصبح ذاتها»^{١٢٤}. عندما تعالج مشكلة ما في سياق معين تصبح الحجة هي الجواب المناسب للنتيجة «الحل»^{١٢٥}. وهكذا، فالمشاكل والمعضلات التي تواجه الناس أفراداً أو جماعات تضطربهم إلى الاستعانة، على الأقل، بإناتين لمحاولة حلها هما: اللغة والسؤال (التحاور).

إن التحاورية أو المناقشة تقومان بدورهما على المسألة وطرح الفرضيات أو الأطروحات

البيان والاستدلال اللفظي

- التأثير في المتلقي (السامع أو القارئ) وجعله يتقاسم مع الخطاب اعتقاده واقتناعه الطامح أو:

- التأثير في المتلقي لجعله يقوم بالفعل الذي يطلبه ويريد الخطاب.

- استمالة وإغراء المتلقي باعتباره ذهنًا وعاطفة (عقلًا وقلبًا) لكسب تأييده وتوافقه الطمحي أو الصريح.

واعتبارًا لخصائص الحجاج اللفظي وأهدافه فإن الحجاج سواء كان استدلالًا أو سجعًا، في القول التواصلية والعرفية الأخرى مثل السياسة والقضاء والفلسفة، لن يتخلص كلية من رواسيه اللفظية والخطابية. فالحجاج الذي يتغنى من اللغة الطبيعية وهاجس الإقناع والتأثير سيظل دائمًا محتفظًا بقدر معين من البلاغة والخطابية.

وقد لا نبالغ إذا قلنا إنه، باستثناء لغة الرمز والدلالات الواحدة، لا نكاد نعيش على لغة طبيعية لا تنزع من لقاء ذاتها إلى الإغراء. وهذا النزوع هو الذي يبرر ضمها أو صراحة وجود البلاغة والحجاج اللفظي. لذلك نجد «ج. مودريار» يؤكد أن «الإغراء هو أمر بدائي في اللغة وكل خطاب يتواءم في هذا الاستمالة، وفي هذا الانطواء الإغرائي. وإذا لم يفعل ذلك بنفسه فإن هناك من سيفعله مكانه»³².

لقد سبقنا هذه المواقف لذكر العناصر التالية

- إن تحليل «السر الحجاجي» أو «البنية الخطابية» أو «الخطابة الحجاجية» في خطاب أو نص ما، خاصة النص المكتوب - على الرغم من اهتمام القارئة السامعة بما هو شفاهي - ليس إجراءً بسيطاً ولا في متناول الجميع، فعندما تتداخل الأبعاد التداولية والسامعية والبلاغية - الأسلوبية والمسميوطيقية في متوجات التنسيق اللفظي لتشكيل أوضاع الحجج والتعدد وظائفها وأماراتها.

ويرداد الأمر تعقيداً عندما تتأرجح الحجج بين الإضمحار والظهور أو بين الإخفاء والبروز. ومهما قيل، إذن، من نمذجة تلك التحليل ومحاولة تعميمه، فإن الحصيلة لن تكون سوى «قراءات» خاصة أو فرضيات للقراءة صادرة عن حدوس عقول نيرة.

- إن السمة الحجاجية في «الخطاب» أو في بنية الاستدلالات اللفظية، داخل التصوص، لا تتجلى ويتيسر كشفها إلا إذا كنا أمام القول اللفظي المكتوب. أما القول اللفظي الشفاهي، حتى وإن كان تحليلاً لطافات اللغة، فهو لا يشكل أرضية لتحليل معمق ومتناسك بل يمثل زلواً من الأمثلة والحالات المتفردة. وماعدا في حالات نادرة جداً، يعاني الخطاب الشفاهي من تشوهات وتشكلات تنعكس آثارها على اتصافاته البنائية، وعلى ضوابطه ومساراته الحجاجية³³.

- إن الأطروحة التي اعتبرت الحجاج خاصية مياطنة لكل خطاب لفظي (أليجير، وديكرو) لم تراخ في تحليلاتها الفروق الواضحة بين الأداء الشفاهي والأداء الكتابي، بين الاستعمال

للحقيقة واليقين، كما أنه لا يجادل ويحتج ليقتنع ويمتنع وإلا كان خطيباً عموماً، إن القاضي يطبق القوانين التي يراها ملائمة للحالة أو النازلة المخصوصة ويقوم بتأويل تلك القوانين في اتجاه تبرير الحكم تبريراً مدعماً بالحجج المتناسكة، فاستدلال القاضي، إذن، لا يقوم على استنباط نتائج معينة من مقدمات يقينية وإنما يقوم بالأحرى على تخصيص المعطيات والوقائع لربطها ربطاً حقيقياً بالقواعد والثمن القانونية، إنه، بهذا المعنى، استدلال تراجمي أو تهنقري. أما الحكم والقرار (حصولية التبرير) فهو قرار ثواقفي يمثل ترجيح القاضي أو إجماع الهيئة القضائية، وهو نتيجة تحكم الضمير وإعمال التبرير المعقول والمقبول معاً.

ويمكن أن نستخلص مما سبق أن الحجج القضائي كفعالية عقلية وقولية يعتبر في بعض جوانبه قريباً من الحجج الخطابي ومن الحجج الفلسفي أيضاً. فهو يجمع بين الإقناع والتأثير من جهة، وبين الحجة العقلية والاستنباط المنطقي من جهة ثانية، أي بين الصرامة المنطقية اللغوية وبين إقناعية البلاغة والبيان، وفي هذا التحس يقول ج. إزار. G. Izard أحد المحامين الفرنسيين المرموقين: «إن الهدف من الدفاع هو الإقناع، وقاعدته العليا هي الوضوح. ومثل الدفاع هو إنشاء تسليق في غاية الوضوح وتفاصيل منطقي جيد: إنشاء قصص وحض متكامل للاعتراضات حتى ينطبع هذا التبرير التمسلسل في ذهن القاضي ولا يترك أي مجال لتأييد مقابلة. ولا يعني، للأسف، أن لاف ويدور كيفما اتفق ذلك، فالمصوغ الجيدة هي التي تلخص وتكشف وتلمح بجمع كبراهين في جعل كلمات مختصرة...»⁽¹⁷⁾

إن الكلام التسليق يجعل من حجاج خطاب أحد أطراف القضاء ومنازعته، أي الدفاع، حجاجاً خطيباً (بياناً) ومنطقياً في آن واحد. إنه حجاج يجمع بين التعليل والتسديق والإقناع. وباعتبار أن القضاء يعمل على تطبيق القوانين والمسايطير في ظل شروط عادة تقترض المواجعة والتعارض، على مستوى تفسير الوقائع والقوانين، فإن عملية التفسير والتأويل هذه تقوم على أساس الحجة أو «البرهان» الذي لا يرقى إلى مستوى البرهان المنطقي التقضي الشاطع. كما أن الحجة، في هذا المجال، لا تنزل إلى مستوى الصور البيانية والبلاغية الفخيدة بالهم الجمالي والإمتاعي فقط، إنما، بالأحرى، أمام حجاج قضائي يضفي طابع الصدق والصلاحية على أشكال الادعاء والتبرير والمحاكمة، وفق ما ترسخ وتوطد في ظل القضاء والتقاضى من عادات حجاجية.

٢- الفن والحجج

إذا كان القضاء، كما لاحظنا، يستدعي حجاجاً خاصاً لتسوية الأحكام الصادرة، وحجاجاً خاصاً بخطاب الزماعة، فإن التشريعات التي تلهم القضاء وأطرافه قد تتلوه في الأخرى على نوع من الحاجة الفقهية. وهذه الحاجة الأخيرة هي استيعابية وتقديرية فقط، وليست برهانية -

النزاع والاستدلال البَيِّناني

بَيِّنانية. وهذا راجع إلى طبيعة الفقه ذاته والذي تحدث عنه «الفرايبي» قائلا: «وصياغة الفقه هي التي يقتدر الإنسان على أن يستبسط تقريره شيء مما لم يصرح وأصبح الشريعة بتحديدده على الأشياء التي صرح فيها بالتحديد والتقدير، وأن يتحرى تصحيح ذلك حسب عرض وأصبح الشريعة باللة التي شرعها في الأمة التي لها شرع»⁽¹⁷⁾.

إننا هنا أمام نوع من استنباط المجهول من المقوم وفق قواعد قياسية مثالها جدل واسع تولد عنه فقه إسلامي متعدد المذاهب حول موضوع إرساء البَيِّناني والأسول ومناهج النظر. ومع الفيلسوف ابن رشد تكمن محاولة تأسيس الشريعة والفقه الإسلاميين على الاستدلال والبرهان بدل الجدل والحجاج الكلاميين.

صحيح. إن الفقه الإسلامي قد توصلت قواعد مع القياس البَيِّناني ومع سلطة النص. إلا أن ابن رشد - المقتنع بالبرهان كإداة العلم والبَين بدل الحجاج المنطقي إلى الحق - قد رأى في «البرهان العقلي» و«التأويل البَيِّناني» أصديق السبل لاستنباط الأحكام والحقائق الشرعية.

وهذا ما عبر عنه هذا الفيلسوف بقوله: «- وليس ليقل أن يقول: إن هذا النوع من النظر في القياس العقلي يدعى، إذ لم يكن في المصدر الأول: فإن النظر أيضا في القياس الفقهي وأنواعه هو شيء استنبط بعد المصدر الأول ولا يرى أنه يهمل فذلك يجب أن يعتمد في النظر في القياس العقلي»⁽¹⁸⁾. إننا هنا أمام إشكال قار و«براهيني فقهي» برهاني ومع آخر كلامي - بَيِّناني. ومع ذلك، فإن القياس الفقهي مهما أريد له أن يكون قائما على الاستنباط والاستدلال والبرهان المنطقيين فإنه، بحكم ثوابت الفقه وعقل بنيته وتداوله، لن يكون إلا نشاطا جدليا حجاجيا وبلاغيا معياريا.

أبج - جدل الفلسفة: معياراته وألياته

أ- صراع الجدليات في الفلسفة

إذا كان الحجاج فعالية خطابية وتداولية وبلاغية، فإن القول الفلسفي يشكل خطلا وإنجازا خاصا لهذه الفعالية. ولا يتعلق الأمر هنا بمقاربات فلسفية خارجية للحجاج أو للخاصية الاستدلالية، بل بمعد جوهرية في الفلسفة سواء اعتبرناها معرفة أم تفكيراً. وعليه، فمن المحال تصور مذهب فلسفي أو تحليل فلسفي معدم الصحيح والحجاج، بصرف النظر عن أساليب هذا الحجاج وقيمه.

وحتى الفلسفات التي فضلت، في أساليبها، الاستراتيجية الشذراتية والاستعارية⁽¹⁹⁾، أو الاستراتيجية الشعرية والخطابية⁽²⁰⁾، لا تخلو كلها من الخاصية الاستدلالية والحجاجية بوجه من الوجود.

لنقل، إذن، إن التفكير الفلسفي هو تفكير حجاجي بامتياز. ولكن أي حجاج يتم اتباعه واعتماده في الفلسفة؟¹⁷⁴ وهل يجوز الحديث عن الحجج في قول الفلسفة وإنتاجها، أم عن الدلائل والبراهين؟ وهل هناك طريقة أو استراتيجية خاصة بالفلسفة في استعمال الحجاج ومنطقيته؟ ثم ما الذي يضطر الفيلسوف وحتى المتكلف إلى الاستدلال حجاجيا؟

نحن في حاجة إلى طرح هذه التساؤلات، إذن، من أجل استجلاء وضعية الحجاج في الفلسفة لأهداف نظرية وأخرى تطبيقية أو تعليمية.

وقبل بحث وسط أجوبة لتلك التساؤلات، نود الإشارة إلى أن قضاء الحجاج الفلسفي هو الأشكال القولية الفلسفية المشكلة من نصوص قد تطول وقد تقصر، أي سواء كانت مقولة أو مقطعية.

كما يتعين التأكيد على أن الممارسة الحجاجية والاستدلالية، في الفلسفة، ليست مضمودة لذاتها. ومن ثم فهي ليست معزولة كلياً عن الإجراءات والأبعاد الأخرى في هذا النسيج من القول والفكر. وبعبارة أوضح، تكون الممارسة الحجاجية الفلسفية مبرزة بغايات بعضها تعليمية وعقلية (إقناعية، حوارية...) وبعضها منهجية وفكرية (سجالية، جدلية، تحليلية، نقدية...). وكل ذلك في ارتباط عضوي مع ما تنطويه روح المتكلف من وضع الإشكالات فلسفياً ومعالجتها معالجة تفهم، اللغة وتشهد الأطروحات والمواقف والتطورات تشبيهاً عماده الحجج والاستدلالات المنطقية... لهذا السبب لم لا يستقيم الحديث عن الحجاج في الفلسفة دون إثارة علاقة «الحجاج الفلسفي، بالحقائق والقيمة والتعليل والبرهنة... إلخ».

ولذا كانت الفلسفة، إجمالاً، هي خطاب العقل والعقولة، مسار لازماً علينا بالتالي اعتبار الحجاج الفلسفي شرطاً حاسماً لهذا الخطاب العقل المعقول، ومن هذا المنطلق، يرى ولوشيو العقلانية الفلسفية أن خطاب الفلسفة هو خطاب الدليل والبرهان لا خطاب الحجة والبيئة، معنى ذلك أن الحجاج هو مطلوب عند صاحب الإيمان والاعتقاد، والذي لا يرضى باعتقاد وإيمان ما لم يقتضيه معه الآخر. ومن ثم، يتوجب على المعتقد إقناع الآخر بالحجة والحجج حتى يتقوى إيمانه هو، وإن يكون سوى إيمان المحتج والمبادر إلى الإقناع بالحجج.

وبهذا الصدد يقول هـ. غرونير H.Gronier: «عندما أعمل على الإقناع فإني أرغب في اقتسام اعتقادي مع الآخرين، علماً بأن التفكير عندي يعني التفكير معي»¹⁷⁵.

إن غاية الفلسفة عند مناصري العقلانية ليست هي الاعتقاد، وبالتالي الإقناع واستمالة الآخر، بل هي إرساء الحقيقة. وتفكير الحقيقة هو تفكير الدليل والبرهان، لا تفكير الحجاج والتعليل. وإذا كانت الأطروحة الفلسفية تحتاج إلى إثبات ولصديق، فإن «الحجة لا تعد الأطروحة سوى بدعم سطحي، والثوري، إنها تضر بها أكثر مما تخدمها»¹⁷⁶. فالحقيقة التي تشهدها الفلسفة، إذن، بحاجة إلى الدليل (الحجة الحاسمة) لا إلى الحجة، طالما إن كل حجة هي حجاج في صيغة الجمع.

البرهان والاستدلال الحجاجي

ولكل هذا الموقف الداعميات إستمبولوجية ومنهجية قد تعود بنا إلى خلاف الأفلاطونية مع السفسطائيين أي إلى صراع فلسفي / خطابي. وحتى تثمين الأمر جهدا، يتعين القول إن بعض المفاهيم والقولات سواء داخل الممارسة الفلسفية أو خارجها، يتعين عدم تسيان حملاتها الاستمرارية، خاصة إن الفلسفة، على الرغم من معقوليته وعقلانيته البادية، فهي مدونة بالكثير للغة الطبيعية. وما تمع به هذه الأخيرة من استعارات وتباسلات، وبناء على ذلك، فالخطاب الفلسفي هو خطاب برهاني، ولكنه برهاني بالمعنى «الحجاجي» أو الشبيهي البرهاني لا بالمعنى الحرفي والدقيق له.

ومعاقبة الفلسفة لإشكالات الحياة والوجود والقيم، وما يطبع الوضعية الإنسانية من مفارقاته يجعلان عمل الفيلسوف أقرب إلى اللغة الطبيعية والوعي والتفكير منه إلى لغة الأبنية الرمزية والصورية، فالحديث عن الدليل والبرهان في الفلسفة، أو الحديث عن الحجاج والحاجة فيها يتطلب الاحتياط من الانزلاق نحو الحرافين ممكنين هما: شكلانية الاستدلال وبلاغية الخطابة.

ب - البرهان والحجة الفلسفي: تطابق أم قاطع؟

إذا سلمنا بوجود حجاج فلسفي فهو، **عموما**، حجاج تسويغ وإقناع الصلاحية (التصديق) أكثر منه حجاج تقرير، أو حجاج إقناع وإمتاع **مباشر**، **والذي** استمرافق الوجه البرهاني، بالمعنى اللطفي والرياضي، لدى بعض الفلاسفة⁽¹⁾ **التي** **تؤثر** **فرا** **على** **الافتقار** **بم** **نموذج** **البرهان** **والإقناع** **ببعض** **ملاحظته** **في** **غير** **سياقه** **الأصلي**، **وبين** **البرهان** **لعمليات** **عقلية** **تريد** **التخلص** **من** **غنى** **اللغة** **وتعابيرها** **ومن** **تعذر** **الرؤى** **التحليلية** **والتأويلية**.

وربما يصح القول إن هناك استدلالا بالبرهان واستدلالا بالحجة (الحجاج). فالفلسفة، بوصفها تصومنا ومنونا، تستدل بالحجة لا بالبرهان أو الدليل. وما يدعم هذا الكلام هو أن البرهان محكوم بمعايير هي غير معايير الاستدلال بالحجة والحجاج. فالبرهان إما أن يكون صحيحا وإما أن يكون خاطئا، والحالة الثالثة إما متعذرة أو مفيدة بشروط. والبرهان يكون صحيحا بمسحة نتائجها وكثافتها الذاتية، أي استغناؤها عن دعم أو تقوية خارجية، كما أن صدق البرهان هو صدق قضائه وما يلعبها من علاقات، ومن ثم، لا تقاس قيمة البرهان برأي أو موقف الآخر منه وتقييمه له، بل قيمته مباحثة له.

فالصدق الداخلي في البرهان وقابليته الرمزية (تحرره من ليس الدلالة والتأويل) تجعله أنسب لقضاء النطق والرياضيات دون غيرهما. أما الاستدلال الحجاجي فهو لا يملك صرامة وإلزامية البرهان ولا موضوعية وقوة الدليل. إن صلاحية الحجاج الفلسفي تقاس بمعايير خارجية أي بمعايير قوته أو ضعفه، كفايته أو عدم كفايته، نجاحه أو فشله (في الإقناع). فغاية الحجاج، إذن، ليست هي الصواب أو الصحة بل التأثير والتقبل⁽²⁾.

وهناك من يذهب إلى القول إن «مضامين الخطابات الفلسفية لا يمكن اختزالها في خطابات وأنسقة منطقية». وكل محاولة في هذا الاتجاه هي مجرد وهم⁽¹⁷⁾. ومن أسباب تعذر إخضاع العمل الفلسفي للنسقية المنطقية هو كون هذا العمل يتجلى في إضفاء المعنى، بشكل شمولي، على الواقع ووضعيته. إننا نعلم تتأصل وتعمسك معادلات المفاهيم أكثر مما نحن أمام تعامس قضايا منطقية صرفة.

وقد لاحظ ج. غ. غرانجر G.G. Granger - يعنى - أن «البرهان» في الفلسفة هو بدوره مفهوم فلسفي. إلا أنه مفهوم «رخو» إن لم يكن استمراريا. والذي يجعل «البرهان» في الفلسفة برهانا مرنا ورخوا. هو كون مادته الفكرية تعتبر غنية جدا، أي عبارة عن نشاط خطابي لا يخلو من بلاغة وبراعة أسلوبية.

وإذا كان لابد من المقارنة بين البرهان الحقيقي و«البرهان» الفلسفي فإن هذا الأخير لا يمكن أن يختلف في قواعد بنائية أو علاقات رمزية وحيدة الدلالة، فكلما لا يتطلب تسلسلا صارما للقضايا. وما يعنى التفرق بين البرهان الحقيقي و«البرهان» الفلسفي (الحجاج الفلسفي) هو أن هذا الأخير يشتغل على الأطروحات والمفاهيم والإشكالات لا على الأوليات والأكسيومات كما هي النطق والرياضيات.

وفي السياق نفسه، لا يجوز أن ننظر من الاستدلال الحجاجي في الفلسفة ما تتكلمه من الاستدلال في الخطاب العلمي. هذا يتطلب الذي لا يتصوره من دون برهان أو من دون دليل. فالبرهان معناه اليقين والصدق والدليل معناه التحققي والموضوعية، ولأنك أن التباين الواضح بين البرهان والاستدلال الحجاجي في الفلسفة هو الذي شجع ج. غ. غرانجر على الاعتقاد بأن «خصوصية الاستدلال الحجاجي العقلي الفلسفي لا تكمن في «البرهنة» بل في «الإظهار» أو ربما «الوصف»⁽¹⁸⁾. ويوافق هذا الفيلسوف الإستمبولوي ل. فنتششتاين. حينما اعتبر هذا الأخير أن الفيلسوف يجب ويظهر بواسطة المفاهيم أكثر مما يبرهن بواسطة القضايا والحساب.

إلا أن تحليل «المعرفة» الفلسفية من جناف البرهان وفقره الدلالي ومعاييره المنهجية، واكتشافها «بالإظهار» و«الوصف» وإضفاء المعنى، على الواقع المعيش ليس مبررا لتوجيه تلك «المعرفة» نحو وجهة فلسفية مذهبية خاصة. كما أن مثل هذه المقارنة لا يجب أن يفهم منها أن هناك مفاضلة بين ما تقوم به الفلسفة وما يقوم به المنطق أو العلم. ذلك أنه مهما حاولت الأساق البرهانية أو الاستدلالات العقلية أن تستمد من نموذج النسق اللغوي أو العقولانية المنطقية. فإن هذه الأخيرة تبقى هي المرجعية الأولى لاشتغال العقل وعملياته. وهي الأكثر شيوعا رمزيا وتواصلية. لنقل، إذن، إن الفلسفة تستدل عقليا بالحجج المنطقية والخطابية وتحلل الأفكار بالأفكار. لكنها لا تستدل بالبرهان القطعي التوضوي المنط.

الجدل والاستدلال الحجاجي

الدالة، ولا تستمدل بالدلائل الواقعي الموضوعي الذي يؤسس القنوتين. هكذا يتبين لنا أنه من الأنسب اعتبار التفكير الفلسفي تفكير (أو معرفة) استدلال حجاجي أو تفكير حجاج على الطريقة الفلسفية.

أ- الجدال العقلي ومصادره في الجدال

إن المرء لا يمكن أن يبقى لا مباليا تجاه ذلك المنظور الجيتيولوجي التبتسوي، الذي يجعل حقيقة الأشياء تكاد تكون في متناول «اليوم والأصابع». عندما نعود إلى أصل نشوئها الأول، وكيف صارت على ما هي عليه، وهذا المنظور الجفري والخلقي قد زعزع مفهوم الحقيقة ذاته حينما خلق «نيتشه» جيتولوجيا أصولها الفريزية والاستعارية التي طالها التسيان، وفي المجال الذي يخصنا، يجوز القول إننا قد نسبنا كون الفلسفة كانت هي أصلا جدلا ومناقشة قبل أن تصبح أنساقا ومثونا، وقيل أن تكون هذا المذهب أو ذلك، هذا الاتجاه أو ذلك.

فالفلسفة الأولى (الابتدائية) كانت خطبا عقليا لفظيا أدواته الحجج العقلية والاستدلالات العقلية الكلامية في مواجهة خطاب الاعتقاد الأسطوري الذي لا يفسر ولا يفتح، بل يتحلى ويسود، ويفترس هي الوجودان والمشاعر القروية والجماعية⁽¹⁾.

وعلى الرغم من أن عددا من الفلاسفة اليونان قد حاولوا أن يرسعوا الحدود الفاصلة بينهم وبين الجدل - خاصة الجدال المنطقي - فإنهم في أعمالهم الفلسفية لم يمارسوا سوى الجدل والحاجة. إن «الحقيقة» التي يجدها «أفلاطون» و«ألم» الذي كان «أرسطو» يعتقد أنه يتهدده ويهنيه، هي أمور لم تر النور إلا مع العلم الحديث. فاليوم الجدلي والحواري هي الأعمال الفلسفية هو بعد لا أحد يستطيع إنكاره. ويمكن القول، والحالة هذه، إن الحجاج الفلسفي لا ينجلي وينفتح إلا مع ممارسة الجدل العقلي والفكري بمعنى التداولي لا بمعنى المذهبي أو الديماغوجي.

هكذا، إذا لم يرتبط الاستدلال الحجاجي بالبراهين والحسابات الصورية فلأنه يرتبط بالجدل والمناقشة أو بالمواجهة بين الأفكار والأطروحات (الدعاري). والحقيقة أنه منذ «أفلاطون» و«أرسطو» (أي منذ أعمالهم نفسها) والاستدلال الحجاجي يمارس في الفلسفة كضرورة بهدف إضفاء التصديق على أطروحة ما. وذلك عن طريق حشد التعليلات والتسوغات والحجج المدافعة عن أطروحة صاحبها، أو الداحضة والمصححة لأطروحة الخصم، أو التسوية والكلمة لأطروحة التصير.

وما دام منطق الاستدلال الحجاجي هي الفلسفة هو الأطروحة (الموقف) المراد بسطها واقتسامها مع الآخر، بغض النظر عن الإشكال الذي استدعاهها وتطويعها. فإن على هذه الأطروحة أن تأخذ بعين الاعتبار مختلف الاستجابات العقلية لها، مما يعني أن عرضها هي

مشهد فكري حوارى جدلي (تقاسمي) صراحة أو ضمناً هو أمر لا مفر منه. وقد لاحظ R. Blanchot أنه، عندما يعرض فيلسوف ما، فكرته، فهو يفعل ذلك، غالباً، عبر الحجاج. إنه يتمتع، بطروحاته ويدافع عنها، لكن هذه الأطروحة ليست مجانية بل يكون قد توصل إليها بعد تأمل طويل^(١٩). والاستدلال الحجاجي في الفلسفة - بصرف النظر عن مظاهر أساليبها - لا يمكن أن يقف على رجله من دون الاستناد إلى أرضية حوارية جدلية بالمعنى التداولي والتواصلي لهذه الأرضية.

وبالرغم من أن نصوص الفلاسفة سيجد أن عرض الأفكار فيها، ونسجها نسجاً عقلياً - خطابياً كان ولا يزال خاضعاً لإكراهات اللغة الطبيعية، وهذه الإكراهات تفرض على استدلالات الفيلسوف العقلية درجة كبيرة من المرونة والبراغماتية. لهذا السبب، سيكون من العبث الظن أن لعبة إنتاج النصوص الفلسفية هي لعبة متعالية أو خارج نطاق التحليلات العلمية (الاستيمولوجية، اللسانية، التداولية... إلخ). وعندما نقول إن اللعبة هي الفلسفة بعدا حوارياً نلعب حجاجاً ومعالجة دون إنكار ما لهذا البعد من أثر على وضع الحقيقة في القول الفلسفي، فإن هذه الحوارية أو الجدل بشأن بطروحة خلافة وإنكارية، حسب خصائص الفضاء الثقافي الذي يذكر فيه الفيلسوف، وحسب الاختيارات الخطائية والأسلوبية لدى هذا الأخير.

وستطبع القول، إن ما يطوي عليه التفكير الفلسفي من حوارية وجدل لا يخضع لنموذج من البرهنة الصريحة والصارمة، فذلك الحوارية وذلك الجدل يقتضيان صوغ الأطروحات في شكل أحكام وجعل يؤكد أو تنفي، وقد سبق أو تراقب أو تعقب هذه الأطروحات سطحة من الحجج، هي أيضاً أفكار وقضايا لفظية، وعندما تتحرك عجلة التفكير الفلسفي الحوارية والجدلي، وتتجمع في خطاب عقلي متعاضد، يصبح من الصعب الإفصاح عن كل الضممرات والمقتضيات الحجاجية التي يوجهها الجدل أو المعلوم سواء للأخريين أو لذاته. استاء في مجال الفلسفة، أمام بنيات وعلاقات رمزية، ولا أمام تداعيات لغوية «تشارلية» بل نحن أمام نسق من الأفكار والمعاني التي تأخذ برقاب بعضها البعض، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، إنها أفكار ومعاني منسوجة نسجاً عنكبوتياً لا تحدد فيه البدايات (كل كلام لا بداية له) ولا النهايات. كما لا يتحدد المفصوح عنه والمكشوف عنه وبإالي «الناورات» التقاسية إلا على سبيل الافتراض والاحتمال. ومع ذلك، فما من قارئ لنصوص الفلاسفة إلا ويتلذذ شعور قوي إزاء ما تكتفه هذه النصوص من إرادة عميقة في إشراك الآخر بخصوصيته أو كونه كمنصت متفلق أو كمتجاوز مخالف... وإذا لم يكن الأمر كذلك فلأجل من يستدل ويحتاج الفيلسوف؟ ولن يضرب الأمثال ويتساءل؟ ولماذا يثبت ويتلفي، ويتفقد ويرجع؟ ولماذا يستشهد ويلمع، ويحلل ويفسر؟

الحوار والاعتدال التبادلي

ويكفي أن نعتبر كون الفلسفة تشكل النقبيض السالب للعنف والإكراه لبتأكد لنا دور الحوار والجدل التحاوري. وما ينبع ذلك من نقاشي وسجال لتحييد العنف وتجميع أخطائه... ولعل هذا هو ما عناه أحد الفلاسفة عندما قال: «إن العنف هو مشكل بالنسبة للفلسفة (...)»^(١٠٠) والنتيجة المفارقة هي، إذن، أن العنف لا معنى له إلا بالنسبة للفلسفة، هذه الأخيرة التي تعتبر رفضا للعنف (...)، فاللاعنف هو نقطة بداية للفلسفة وغايتها التصوي^(١٠١).

ولأجل تحقيق تلك الغاية النبيلة ليس هناك أنبل من وسيلة غير وسيلة خطاب المناقشة والحوار والإقناع. كما يكفي أن نعتبر الفلسفة هي طريقة في طرح المشاكل أو الإشكالات طرحتها جديراً لبتأكد لنا أن حل هذه الإشكالات أي تحليلها تحليلًا عقلياً، يقتضي التحاور والجدل بالمعنى الصريح للتحاور والجدل أو بالمعنى التسموي والإيديولوجي لهما. ألم يعمل أفلاطون من المحاورة وسيطاً خطيباً لعرض آرائه الفلسفية؟

ولكن يتعين علينا الإشارة إلى أن الجدل في «التفكير فلسفياً» أو «الواجهة» في الخطاب الفلسفي هي «واجهة» حوارية تبادلية لا «واجهة» بلاغية أو براهنية. وهذا ما أثار انتباه أحد الباحثين المفارقة حينما قال: «ما كانت الفلسفة خطاباً طليعياً، فلا يفيدها تقليد أهل البرهان في صنع استدلالات مسورية، لا هي ارتقت بها إلى درجة البطلان الرياضي ولا هي هدتها إلى سبيل التوجيه إلى العمل. والحق أن الفلسفة الواعية بأسسها الطبيعية والتداولية (...) لا تبغي إلى مسالك الحجاج بديلاً^(١٠٢)».

ونحن لا يهمننا أن تكون الفلسفة التبادلية أو عملية تصب في مجرى القيم والأفعال، بل ما يهمننا هو معرفة رسوم الاستدلال الحجاجي في الخطاب الفلسفي وقيامه على أرضية الحوار والجدل. ولأنك أن السمة الحجاجية في الخطاب، ذلك، تتضح نفسها بامارات قليلة للتحليل والفهم سواء أكانت ذات المخاطبة (الفيلسوف) ذاتاً موعدة أم منشطرة. والتناس في الإنجازات الفلسفية النصية ممثل للتحاور ودال عليه. لأنه آلية حجاجية.

إن التناس هو طريقة حجاجية تستهدف إشراك الغير في تأليف النص ملكاً تستهدف إرادة تحقيق التميز والأصالة. والتناس فاعله يأخذ عند «ديريدا» J.Derrida، مثلاً، شكل تقديم عندما يشرح تصوراً جديداً لتاريخ الفلسفة والتصوّم التي تشطب لعروض التسمير والمقطع، والتي ترتبط بالتصور الجديد للنص: نسج ظهيرات، لعبة مفتحة / مغلفة، فالتناس لا يملك أبداً واحداً، جزراً واحداً^(١٠٣). ولأنك أن التقديم للشار إليه هنا هو عبارة عن تناس مضمّر أو صريح. والواقع، إنه ما كان لعملية التناس الصريح أو المضمّر أن تحظى بأية قيمة لو لم تكن مظهراً من مظاهر التحاور والحاجة. وهناك من يرى أن «الحوار يدمج في نصه خصوصاً مفارقة سابقة، مماثلة أو مبهمة^(١٠٤)» (لمصطفى نصه بصيغة المفارقة الصمعية^(١٠٥)). إنشاء، إذن، أمام جدلية الأخذ والرفض.

وهكذا، يمكن القول إن ظاهرة التناس في التصور الفلسفي هي ظاهرة تقدم لنا دليلاً قوياً على الترابط بين القمالية الجدلية - الحوارية والقمالية الاستدلالية الحجاجية داخل النص الفلسفي، أي داخل الفلسفة وهي إنجاز ينجز بالفعل.

د- الجدال المنطقي والبلاغي، أية علاقة؟

نقد رأينا كيف أن الخطابة تلجأ إلى الحجاج لغرض الإقناع العقلي والعاطفي معاً. فالحوجاج البلاغي الذي يسم الخطابة، ملذ أن وجدت إلى الآن، يعتبر إجراء خطابياً استراتيجياً إذا ما رام المتكلم التأثير في المخاطب (المتلقي) واستمالته لأخذ قرار ما، أو اتخاذ موقف معين، أو القيام بعمل ما. لذلك فالصنيع الأسلوبية والصور الاستعارية والبيانية تعتبر من العناصر ذات الأهمية القصوى في عملية الحاجة الخطابية.

أما في الفلسفة، كمعرفة أو تفكير، فتجد التقاطع والتكامل بين البعد التحليلي (العقلي) والبعد الخطابي أمراً لا شك فيه. ومن البدهي أن تكون هناك إذن، «خطابة فلسفية، لأن أفكار الفيلسوف ومعانيه لا تعرض عارية من متعلقاتها اللغوية والأسلوبية، لكن «الخطابة» الفلسفية وبلاغها لا تروم استراتيجياً تحقيق أثر عامق مباشر، أو توجيه سلوك المتلقي توجيهاً مباشراً وعملياً.

إن بلاغة الفلسفة نجد ما يبرهنها في سعي هذه المعرفة أو التفكير إلى جعل المتلقي يتقبل «محتلقها» التي لا يتوفر الفيلسوف على وسيلة أخرى للتصوير عنها غير اللغة ومطابقتها التواصلية والاستدلالية. وهناك من يرى أن الخطابة الفلسفية هي خطابة غير مباشرة، إذ لا يمكن عزل مضمونها عن صورها. فهي جزء لا يتجزأ من العمل الفلسفي ذاته.

وقد بين ج. غ. غرانجر - مثلاً - أن الخطابة الفلسفية تقوم بـ «بنولة الأوضاع اللسانية» باستعمال الحوار والاستقهادات العرضية (...) لتتطوّر التفكير⁽¹⁴⁾. وفي الوقت نفسه يلاحظ المفكر ذاته أن الخطابة الفلسفية تقوم ببنولة وحدات الدلالة بحيث تعيد استعمال مضامين اللغة المتداولة استعمالاً فلسفياً يلائم وضعية المفاهيم باعتماد الصور التشبيهية والاستعارية...⁽¹⁵⁾. إلا أن بلاغة الفيلسوف لا تشبه بلاغة الخطيب إلا في ملامحها العامة، وليس في كيفية تدبيرها وهي مسوغاتها وغاياتها. نقول هذا لتجنب كل مبالغة في إبراز مكانة البلاغة في الكتابة الفلسفية، خاصة عندما يلهم بعض الباحثين من «البلاغة الفلسفية» تلك الصور البلاغية المعتادة في الأدوات الأدبية والخطابية الصرفة⁽¹⁶⁾.

هكذا، علينا أن نفر بأن الفيلسوف يشبه، ويستعير، ويصف، ويمثل... لمفهوم التصورات الأولية، وليس لتشكل القضايا، أو ليجعل استدلالاته الحجاجية تصدر عن العقل دون أن تتجاهل متطلبات المتلقي.

النقد والاستعداد للبيان

واليس غريبا أن نجد الصور البلاغية وتحققها الأسلوبية تعطي بمنزلة مركزية في النصوص الحجاجية من النوع الإشهاري والصحافي والأيديولوجي. وقد استلهمت بلاغة هذه الأجناس الخطابية بعض ملامح حجاجها من بلاغة الشعر والخطابية. وإذا كان هناك من فرق بين حجاج بلاغة الفلسفة وحجاج البلاغة كبلغة، فإنه يمكن في كون حجاج بلاغة الفلسفة ليس مقصودا لذاته ولا اقتضاء دالها حتميا، بينما في حجاج بلاغة الشعر أو الخطابية وما تأثر بهما من أجناس قولية، فهو حجاج يشدرج ضمن تصميم يسمح دلالة ومحتوى هذه الأقوال والكتابات.

إنه فرق بين بلاغة كثيفة وألبد منها وبين بلاغة عرضية وثالوية. ففي النص الشعري، مثلا، نجد الحاجة إلى التخيل والتصوير تولد الحاجة إلى المجاز لأغراض دلالية، كما يشير إلى ذلك أحد الباحثين قائلا: «الاستعارة تعمل المعنى عبر محور الاستبدال، وهو اختيار شيء لوضعه في موضع شيء آخر، في حين أن الكتابة تعمل المعنى عبر خط آخر هو المجازة. وكلاهما، أي محور الاستبدال والمجازة، يؤثر في البعد الدلالي للنص (الشعري)»^(١٧).

وإذا ما صعدنا لدى بعض الفلاسفة ميلا متكررا إلى توظيف الطاقات الحجاجية البلاغية للتعبير عن أفكارهم، فهل يحق لنا القول إننا أمام مفارقة ملغزة أي حل عقلانية ومقبولية التفلسف تتطلب نصب العناء القائم بالأسلوبية والبلاغية؟

إن الاعتقاد في وجود مفارقة من هذا القبيل ناتجة بحدوثه عن سوء إدراك وضع الحقيقة في الفلسفة أولا. ثم عن سوء فهم العلاقة بين الفلسفة والبرهان العقلي، وبين الفلسفة والحجاج البلاغي ثانيا. وإذا ما تأكد لنا - مثلما تبين لذلك أحد الباحثين - أنه «لا يمكن التفكير في الاستعارة داخل الخطاب الفلسفي بوصفها محسنا بلاغيا، بل بوصفها مكونا داخليا من مكوناته (...) وربما كانت إحدى ركائزه»^(١٨)، فإن المسألة لا تتعلق بـ «توتر قلق» بين النزوع إلى التجريد والنزوع إلى الشخصيات، بقدر ما يتعلق الأمر بالهوة الفاصلة، لدى جل الفلاسفة، بين التطلع إلى نموذج لمعرفة فلسفية خاصة وخالصة، لا تقبل سوى محددات واحدة (الحقيقة، العقل، البرهان...)، وبين واقع حال الأعمال الفلسفية المتجزئة. هذه الأعمال التي لا تعدو أن تكون خطابات مثالية لفظية، لا تقوى على تجاوز إمكانات اللغة الطبيعية من حيث الدلالة والتعبير والتداول، وأمام هذه الحقيقة، يجد كل فيلسوف نفسه مجبرا على اقتسام ما يدور في ذهنه مع مخاطب منظور أو محتمل. وفي هذا الإطار، لم يكن ف. نيتشه F. Nietzsche، بعيدا عن الرؤية الصائبة حينما قال: «كلما كانت الحقيقة التي تريد تعليمها أكثر تجريدا كلما وجب عليك أن تزيناها لإغواء الحواس»^(١٩). والحقيقة المقصودة هنا هي الحقيقة الفلسفية «المجردة». والتعلم الذي يعاونه صاحبها هو علاقة بين الأنا والآخر. أما التزيين المطلوب فهو تزيين عبادة البلاغة وأساليب اللغة.

خلاصة: «الاستدلال الحجاجي» - مفهوم ومفوضية

يقدر ما يصح القول بوجود «حجاج فلسفي» يصح القول أيضاً بوجود «استدلال فلسفي» وحتى بوجود «استدلال حجاجي» فلسفي، لكن ما المقصود بـ «الاستدلال الحجاجي»؟

ولذا هذه الصيغة التركيبية دون غيرها؟

إن مفهوم «الاستدلال الحجاجي» - إن صح اعتباره مفهوماً - هو مركب أو مكون من قطبين أحدهما هو «الاستدلال» وهو اسم معنى لكنه كلي، أما الثاني فهو «الحجاجي» وهو نعت يضمّر مفهومي «الحجة» و«الحجاج» - لكن مفهوم «الحجاجي» بحد ذاته النسبة الشدّة فيه، هو ملحق على الاستدلال وصفة تطبعية هي له أيضاً - وإذا كان مفهوم الحجاج قد حظي - في الفقرات السابقة، بحثاً واهتم من إسماعيل النضر والأضاح، فإن مفهوم الاستدلال لم نلأمسه لظافها إلا عندما تناولنا الحجاج في الخطاب الفلسفي وعلاقاته بالبرهان والبلاغة، إلخ.

ووزاء تعاملنا النظري الاستثنائي مع مفهوم «الاستدلال الحجاجي» - دون غيره - سبب رئيسي يتمثل في ملائمته ومواءمته للتوظيف في مجال الفلسفة والفلسف، وهذا التوظيف هو الذي أباح لنا الجمع بين كل من الاستدلال والخاصية الحجاجية لهما نعرف مسبقاً ما قد يثيره ذلك من اعتراضات - خاصة من طرف كل حريص على تفرقة مفاهيم المنطق الصوري، وتجنب كل القياس أو تموضع محتمل يعجز عن إظهار إنّه القيام بالتوضيحات التالية:

١ - الجزء اللغوي - اللفظي للاستدلال

إن مفهوم الاستدلال عند العلماء والبلاغة العرب - هذا أهل للمنطق والبرهان - كان يتم استقصاء القول فيه ضمن إطار علم البلاغة وعلم المعاني والبيان - معنى ذلك، إنهم قد ميزوا بين الاستدلال أو القياس المبني على «الحد» (المنطقي) وبين الاستدلال المبني على أسس بلاغية (إلغائية) - فقهية، نحوية، إلخ - والاستدلال البنياني، إن صح التعبير، هو ما يشكل دليلاً أو دلائل، بمعنى البينة والحجة، كمنهاوير يحصل بها التبيين أو إظهار الحق وصديق الخير - وهي المنظور العربي اللغوي - البلاغي نجد مفهوم الاستدلال (المرادف للقياس أيضاً) لا يخرج عن حضيرة التشبيه والوصف والاستعارة - ومن ثمة فهو ليس عملية عقلية استيعابية معضنة، بل عملية «خطابية» يتم بموجبها اتصال علامة مادية أو معنوية وجعلها شاهداً ومثالاً على شيء - أو صفة من صفاته - لذلك قد لا يخرج الاستدلال عن دائرة التشبيه والاستعارة، ويشكل أهم عن دائرة المجاز.

لذلك الاستعارة التي عرفها عبد القاهر الجرجاني بقوله: «... إنها دالة على حكم بثبت القصد وهو نقله على الأصل اللغوي وإجراؤه على ما لم يوضع له، ثم إن هذا النقل يكون في الغالب من شيء إلى

التيار والاستدلال الجبراني

ما نقل إليه وما نقل عنه^(٢٠). وإذا كان هذا هو فهم «الجبراني» للاستعارة والحقيقة الاستعارية، فإن الاستدلال سيكون، تبعاً لذلك، هو اعتبار كلمات أو عبارات (ذات معاني استعارية اسمياً أو تشبيهية) دالة أو دليلاً على معاني أخرى غير المعاني الظاهرة (الحقيقية). وعند «الجبراني»، مثال ضرره لنا في هذا السياق يكمن في تلك «الهيئة التي يستدل بها على الأجلان كزلي الملوك وزلي السوقة. فكما لم خلعت عن الرجل أثواب السوقة ونقيت عنه كل شيء يختص بالسوقة والبسنته زلي الملوك فأبدته الناس في صورة الملوك حتى يتوهدهم ملكاً وحش لا يصلوا إلى معرفة حاله إلا باختيار واستدلال من غير الظاهر كنت قد عرته هيئة الملك وزيه على الحقيقة...»^(٢١).

وما نستخلصه من هذا المثال، إذن، وهو تطبيق الصفة (الزلي) الظاهرية مع الاستدلال الاستعاري. علماً بأن «الجبراني» كان يفكر في البلاغة والتنظم وفي ذهنه القرآن وأشعار العرب أي بيانهم. ومن منظور أهل البيان، دائماً، اعتبر القياس الذي هو من الصور الأساسية للاستدلال، إلى جانب الخبر، من الوسائل التي يتوصلها العقل والبيان معاً لإدراك حقائق الأمور في ظاهرها وباطنها. وإذا كان الاستدلال البياني هو نوع من «معرفة الغائب بالشاهد»، فهو أيضاً إحدى طرق التصديق والتحقق إلى جانب الخبر. وقد استقصى الباحث محمد عابد الجابري علاقة القياس بالبيان عند إسحاق بن وهب هتيج له أن العقل والبيان متكاملان عند هذا الأخير. وذلك من خلال أربعة وجود هي: بيان الأماني وبيان الاعتقاد، وبيان العيارة، وبيان الكتاب. هكذا، فعندما يكون مصدر معرفة باطن الأشياء وتكوين الحواس قاصرة على مدرك تلك المعرفة، وتكون العقول غير متفهمة، فإن حاجتها لتكوين كبيرة «إلى أن يستدل عليه بضروب من الاستدلال ويعتبر بوجود القياس والأشكال، والطريق إلى علم باطن الأشياء في ذاتها والوقوف على أحكامها ومعانيها من جنس: القياس والخبر»^(٢٢). إن هذه المعاني التي يتحدث عنها ابن وهب ويجعل من القياس سبيلاً عقلياً - بيانياً إليها هي التي فعدها وأرسل منطقها محمد بن علي السكاكي، ثم ألحق بها الاستدلال وجعله مكملاً لعلم المعنى والبيان.

إن «السكاكي» حتى وإن تناول الاستدلال تناولاً جافاً - عكس «الجبراني» مثلاً - فقد اجتته من صرح المنطق الصوري وجعله ضابطاً للجمال الخبرية. وعلى هذا الأساس، صار الاستدلال، مع هذا العلامة، مرادفاً للإشارة إلى الجملة الواحدة، خاصة الجملة الخبرية والتي تكون بمثابة حجة واستدلال ودليل. علماً بأن المصطلحات الوترية لدى «السكاكي» هي مصطلحات منطقية لا لغوية، كالحد، والاستدلال والدليل، والحكم، والاستقراء، والاستقراء، إلخ. وبدلاً من الحديث عن مقدمات الاستدلال أو فضلياته، نجد الحديث يدور حول جعل خبرية أو شرطية متبينة أو متبينة، كلية أو معنوية، مطلقة أو مقيدة، إلخ. وكل هذا يؤكد قول «السكاكي» الثاني، «من كلمة علم المعاني في الاستدلال» وهو إكساب الخبر للمعنى، أو نفيه عنه، بواسطة تركيب جعل، تبينه على ما عليه أصحاب هذا النوع من إياه أن يسموا الجملة الواحدة حجة واستدلالاً...»^(٢٣).

ونلاحظ، في ضوء ما سبق، كيف وظف مفهوم الاستدلال توضيحياً عقلياً، لكنه في أرضية معنوية استدلالية أو معنوية تركيبية. وبذلك صار حجة ودلالة عقلية - برهانية. فالتبعت عن طريق التدايل على الحقيقة المجازية أو على صدق تلازم المعاني ووضوحها في ظل قواعد معينة، هو ما جعل مفهوم الاستدلال - ذلك لا يخرج عن دائرته الفلسفية - التحوية. ولاشك أن وراء كل ذلك إشكالية العلاقة بين المنطق والنحو، وبين الفكر واللغة. ونحن بدورنا لا نعدم رسوخ مفهوم الاستدلال على أرضية اللغة الطبيعية ودلائلها. وهذا لا يعني عدم انجذاب هذا المفهوم نحو المنطق وضوره.

٢- الجدل العقلي - المنطقي للاستدلال

لقد جرت العادة أن يحصر مفهوم الاستدلال أو الاستدلالات في مجال المنطق، خاصة المنطق التصوري الذي أرسى «أرسطو» قواعده في «تحيلاته» الأولى والثانية. فالاستدلال عند «أرسطو» هو تفكير عقلي بواسطته يتم إنتاج العلم. ولكن هذا الاستدلال لا ينطلق من الضراح، بل من معارف سابقة أهمها: **البديهيات** والتعرفات أو على مسميات شائعة، وبهذا الصدد اهتم «أرسطو» بأكثر صور الاستدلال أهمية وهي الصور الفلسفية. ومن ثم، يصح الحديث عن الاستدلال التحليلي الذي يعرفه «أرسطو» بأنه «قول مؤلف من أقوال إن سلم بها لزم عنها بالضرورة قول آخر». وبالإضافة إلى الاستدلال الفلسفي، هناك أيضاً الاستدلال الاستقرائي (القام والناتج)، وعموماً، يمكن القول إن العلاقة وطيدة جداً بين الاستدلال والقياس والاستقراء. هكذا يقول محمد عابد الجابري:

«والفعل العقلي الذي ينتج «العلم» بالاستقراء إلى معارف سابقة هو الاستدلال «Raisonnement». وعلى الرغم من أن الاستقراء نوع من أنواع الاستدلال فإن الاستدلال الأمثل عند «أرسطو» هو الملوحيتموس أي القياس الجامع»^(٣).

ونتموضع عن ملوحيتموس أرسطي مايلي:

كل البشر هاتون

كل الإغريق بشر

إذن كل الإغريق هاتون

فما نلاحظه - في هذا المثال - هو أن الاستدلال قد تشكل من مقدمتين (الثانية مستتبعة من الأولى) ثم من نتيجة لازمة وضرورية، إلا أن أحد المناطقة المعاصرين وهو جان لوكاسييفيتش J. an Lukasiewicz يرى أن هذا التعمد من الاستدلال ليس أرسطوياً حقيقياً. ويقول ج. لوكاسييفيتش بهذا الصدد: «إن «أرسطو» لم يقم أبداً بصياغة استدلالات عقلية في

البيان والمقدمة، التباديل

صورة استنتاجات، ولكن دائما في شكل تضمينات (اقتضابات) يسبقها اللازم للخدمات وارتباطها. وثاني النتيجة حسيمة لذلك⁽¹⁾. فهل العلاقة بين قضايا (مقدمات) الاستدلال هي علاقة استنتاجية أم تضمينية؟

إن وراء هذا التساؤل مشكل علاقة مادة الاستدلال (العنى والدلالة) بصورة (التلازم الصوري المحض). لذلك نجد أحد الإيمبيولوجيين الغربيين المعاصرين، القريب من الفلسفة التحليلية، وهو ج.ج. غرانجر G.G. Granger، يحاول أن يفسر جان لوكا سيغيفيش لقياس «أرسطو» الذي اعتبره تضمينا على طراز العلاقة: $P \supset Q$ ، لأنه لكي تكون العلاقات استنتاجية في قياس «أرسطو» يجب أن تكون مقدماته صادقة لا محتملة الصدق، وقابلة للتميز الكمي (الصوري حقا). ويعترض ج.ج. غرانجر على هذا الرأي بقوله: «بالتنسبة لطابع الضرورة في الرابطة القياسية ذاتها (الضرورة الاستدلالية انطلاقا من مقدمات)، فإنها تظهر حينما يكون كل نموذج للمقدمات هو أيضا نموذج للنتيجة. وهنا، لا مجال لافتراض كونية المقدمات ولا اتسامها بالضرورة»⁽²⁾. إن جان لوكاسيغيفيش لم يكتفِ بشرطيات الاستدلال الأرسطي المتمثلة في مبادئ العقل (خاصة مبدأ عدم التناقض، والهوية، والثالث المرفوع)، ثم هي التعريفات، وفيام العلم على البحث في الناحية الوجود معا هو موجود، إلخ، وعدم الاكتفاء بكل ذلك هو الذي قاد ج. لوكاسيغيفيش إلى إصدار الحكم التالي: «إن «أرسطو» والبيان الأرسطي لم يكونا صوريين Formalistes. وقد سبق لنا أن سجلنا أن صياغة «أرسطو» لأطروحاته لم تظهر بظاهر الصدق الدقيق. والحالة العبرة بقوة من عدم هذا الصدق، هي الانقسام التينوي بين الصور المجردة والصور العينية لقياسه»⁽³⁾.

وعندما نتأمل الجدل الذي انزاع استدلال «أرسطو» وهو جدل مازال مستمرا، نرى كيف يجوز جذب هذا المفهوم إلى النطق وحش إلى الجبر والحساب مثلا يجوز أيضا جذبه إلى حلول البلاغة والدلالة أي إلى قضاء اللغة الطبيعية.

٣ - الاستدلال الفلسفي، استدلال حجاجي اقناعي

إن ما هو حجاجي يحيلنا مباشرة إلى الحجة والحجاج. والحجة ليست استدلالا أو قياسا بالعنى التطبيقي الدقيق لهذين المفهومين⁽⁴⁾. فالحجاج، كما رأينا، هو شديد الصلة بـ «الخطاب» و«البلاغة»، و«الجدل التخاوري»... أما غاية الفعل الحجاجي فهي ليست «الصدق الدقيق» ولا «البرهنة القاطنة»، وإنما هي الإقناع والإقناع، ومن ثم ارتباط هذا الفعل بالنطق وبالأحر. فالحجاج، في تكبير ما، لا يمكن أن يستغني عن المناقشة والجدل، كما أن كلا من المناقشة والجدل لا يستغنيان عن معارف وموارد فكرية سابقة. لذلك قد

لا يصلح الحجاج لإنتاج العلم (القوانين) ولا لإثبات نتائج يقينية (بالعنى الرياضي مثلاً)، إن الحجاج يسوغ ويدعم ويظهر، وسلاحيته مقيدة بقيود الاحتمال والنسبية. هكذا، فالفعل الحجاجي، على الرغم من محاولة البعض القيام بتنظيم خطاطته الممكنة، هو متأثر حتماً بكل ما يحتويه «الخطاب المفقود» من طاقات مجازية وإضهارية وثواصلية... وبالتالي تداولية.

أما علاقة الفلسفة بالحجاج فقد فصلنا فيها الحديث سابقاً، وقد وصلنا إلى نتيجة ثابتة وهي أن الفلسفة بخصوصها ومثوتها لم تفلت من الممارسة الحجاجية إطلاقاً، وإذا كانت هذه النتيجة تكاد تكون بديهية، فإن ذلك لا يجب أن يشكل مبرراً لاستخلاصات قد تكون مغلوطة، بعبارة أخرى، فالممارسة الحجاجية في الفلسفة تعطيها الحاجة إلى اقتسام الحقيقة وصرامة معقولية التفكير وليس الحاجة إلى اقتسام قناعة أو اعتقاد. وليست غاية الفلسفة التأثير في العواطف والمشاعر، ولا البحث على الفعل المباشر. ذلك الفعل السابح في تناقضات اليوم التي لا تنهي... لقد سبق لبيير باسكال B. Pascal أن تحدث عن فن الإقناع واعتبره مرتبطاً باستعداد الأشياء ووضع الأشياء. كما لاحظ أن التمس تلقى الأراء على طريقتين أساسيتين، هما الإدراك والإرادة¹⁰⁰. وإذا ما استقبلنا هذا الرأي في فن الإقناع على الإقناع الفلسفي وحجابه فسيكون إسقاطاً قصير ملامئ. ذلك أن الحجاج الفلسفي له قيمته الخاصة التي هي كون الحقيقة يتوخى إقناع كل عقل مهين للتفكير العقلاني. ومن ثم فالمطروقة الفلسفية ليس هدفها هو التأثير في الأشخاص، بل منح الأفكار قوتها الإضهارية¹⁰¹.

وهي ضوء ما سبق، نعتقد أن العمليات الحجاجية في أي خطاب فلسفي، حتى ولو كان خاصاً بصرامة منطقية، استدلالية (على الطريقة السبينوزية)، هي عمليات ذاتي لمد لغوات عرض تلك الصرامة، أو دعمها، أو لتدارك عجزها الإقناعي... كما أن العمليات الاستدلالية في خطاب فلسفي خاضع لتنظيم بلاغي - حجاجي (على الطريقة النيتشوية، مثلاً) هي عمليات جاءت لتعطي طابع الصرامة العقلية والتطبيقية عليه وتسد لغوات ذلك التنظيم وتعلقه.

فالأساس في الفلسفة، إذن، هو العقل واستدلالاته، ولما كانت تلك الاستدلالات هي لفظة أولاً (وليس رمزية ولا صورية بعلة)، ولما كانت مادتها هي المفاهيم والأشكال والمواقف الفكرية، ولما كان التلقي يأخذ بالحسيان، فإنه من الطبيعي أن تكون استدلالات حجاجية في سياق خاص.

٤ - الاستدلال الفلسفي، مفهوم وممارسة

لقد التفت لنا الآن لماذا وقع اختيارنا على مفهوم «الاستدلال الحجاجي» دون ما هو قريب منه من مفاهيم مثل: «البنية الحجاجية»، أو «البنية المنطقية» أو «المسار الحجاجي» أو

النزاع والاعتدال النجدي

«الأسلوب البرهاني الحجاجي»... وعلى الرغم مما قد يبدو من اختلاف بين صليتين عقليتين وعطائيتين مشمولتين في «الاستدلال الحجاجي»، فإنه اختلاف سرعان ما يتبدد قوله عندما يتعلق الأمر بالفلسفة، وعندما يباشر في سياق فكري محدد ومشخص. وهذا السياق ينطوي على عمليات وشروط أخرى جوهرية تستدعي ذلك الاستدلال ويستدعيها، أهمها: الفهمه والتساؤل على الطريقة الفلسفية.

إن فهمنا مما قلنا به، ومما سنقوم به لاحقاً، ليس هو البحث في موضوع الاستدلال الحجاجي بحثاً نظرياً صرفاً، وإنما هو استقصاء خلفيات هذا الفهم وعلاقته من ناحية أبعاده المتعددة. وهذه الخطوة نريدها جسراً ومعبراً نحو توظيف الفهم نفسه في حقله الفلسفي - الأمبريقي. هكذا، يصبح الاستدلال الحجاجي - فلسفياً - هو أكثر من مفهوم ينصب على موضوع ملموس أو مجرد محدد الخصائص - إنه يصبح بالأحرى طريقة ومنهجية عامة ومبررة.

وعلى هذا الأساس، نمتعمل الاستدلال الحجاجي في الفلسفة وعطائها بالعبء التالي: تلك المنهجية أو الطريقة العقلية التي يستلها الفيلسوف أو المتكلم لأجل إرساء «حقيقته» في صورة إثبات أو نفي أطروحة أو قضية ماء أو كيفية من كيفيات معالجتها. وما يقتضيه ذلك من مختلف العمليات العقلية - المنطقية المتعارف عليها من جهة، ثم تبرير تلك «الحقيقة» تبريراً حجاجياً، أو ما يقتضيه ذلك من مختلف الأنساب الإقناعية - الإطعامية الثلاثة لتخطاب الفلسفي عموماً من جهة ثانية. والواقع، إن الاستدلال Raisonement والحجاج Argumentation يلتزمان ويتناظران تكاملياً في الفلسفة - إنتاجاً وتعليماً - ضمن مدار واحد، ومركز هذا المدار هو عرض الحقيقة العقلية - اللفظية عرضاً استدلالياً متماسكاً توافقه إجراءات حجاجية معروضة في وشاح مع إنجازات لسانية وبلاغية وتداولية وغيرها.

خلاصة: تحليلات ومفاهيم الاستدلال الحجاجي في الفلسفة

إن الفلسفة التي تشكلت وتجلست في خطاب لفظي خاص سرعان ما تحولت إلى إرث معرفي وفكري تناقلته الأجيال. وقد شاعت وعلمت باعتبارها استعمالاً خاصاً للمفاهيم، واستعمالاً خاصاً

لغة. وكذلك طرحها خاصاً للمشكلات، ثم، بالطبع، باعتبارها استعمالاً خاصاً للبرهان، أو بعبارة أدق للاستدلال الحجاجي. وعلى الرغم من تنوع مظاهر القول الفلسفي وثبوته، فإن الأداء الكتابي لهذا القول (نصوص وأعمال، مذاهب واتجاهات) سيظل هو المجال الأنسب لمعالجة كيفيات اشتغال الحجاج بطريقة فلسفية.

ومن المسلم به أن الظاهرة الحجاجية في الكتابة الفلسفية لها ما يسوقها من البواعث والغايات، ولها ما يثبها من شروط الوجود والرسوخ. وإذا كنا نعرف أن هناك عدة محاولات منها - فلسفية قد سعت إلى مقارنة تلك الظاهرة الحجاجية، فإن هذه المحاولات ما فتئت أن تحولت إلى عطاءات شبه فلسفية بدورها، ومن هذا المطلق بالذات، تبني كل نمذجة للاستدلال الحجاجي الفلسفي هي أقرب إلى مجموعة فرضيات لفهم والقراءة منها إلى إجراء منهجي دقيق وصارم. وعليه، فمن المنطق لأوانه الحديث الآن عن وجود ما يمكن نعتة بـ «نظرية الحجاج الفلسفي».

ونحن، في هذا المضمون، ملزمون بمراجعة تباين الفاربات التي انطلعت من ظاهرة الحجاج الفلسفي موضوعها لها، حتى نتمكن حدود كل مقارنة على حدة، وانكرها على تعليم وتعلم الفلسفة، مثلاً. فعلى سبيل المقارنة، نجد هناك من يربط وجود الحجاج الفلسفي - في حمولته التحليلية والبلاغية - بضرورة ترويض المفاهيم الفلسفية وتماشيها لإضفاء الدلالة والمعنى على الميثاق أو على جزء منه (ج. غ. غرانجر، 1988). وهناك من يبرز وجود ذلك الحجاج بضرورة المعالجة العقلية (اللامرئية) للمشاكل والمسائل المتأسلة في وجود الإنسان... هذه المشاكل والمسائل التي لا تحتمل أجوبة يقينية ونهائية (م. ماير، 1986). كما أن هناك من يبرز وجود نفس الحجاج بالحاجة إلى إضفاء الصلاحية والتصديق على الأطروحات الفلسفية، بغض النظر عن نوعية هذه الأطروحات ومقتضاها (أ. ك. كوهن، 1989).

هذا، وإذا كان أ. ديكرود، ومنه لسانيون آخرون، يربطون الفعالية الحجاجية بمصدرها، أي بالذات المتكلمة، فإن هذا الساني لا يحمس الحجاج في الاستدلال العقلي وحده بل يعممه على شتى العناصر التي يستعملها المتخاطبون للتأثير على بعضهم البعض بطريقة صريحة أو ضمنية. ومع ذلك، فإن أي صوغ للذات الفوقية الخاصة بالحجاج الفلسفي في شكل جداول وسلاسل عامة، وعلى قاعدة لسانية فقط هو أمر سيكون، من الناحية التطبيقية، مفقراً ومعقماً لباقي أبعاد وفهم النص الفلسفي المحددة لذلك الحجاج.

والسمة للعقدة والتعقيد الأبعاد للتخصصات الفلسفية المثبوثة في الأساق الفلسفية لا تمنعنا من القول إن هذه النصوص قد شكلت مبدئياً بواسطة لغة متمنصلة. كما أن معقولتها هي معقولة خطافية، لأنها صادرة عن ذات متكلمة مثلاً يحدث ذلك في باقي أجناس النصوص المشابهة.

إلا أن الأدبيات الفلسفية - الكتابية خاصة - قد اختارت وكرست استراتيجيات فكرية عقلية استدلالية أكثر منها جمالية أو شعورية، ومن ثم، لا غرابة أن تلقى الحجاج الفلسفي مثل اللغة الفلسفية مداراً لتقاطع استدلال العقل مع حجاج التكلم والتخاطب بوجه عام. ولا أدل على ذلك من أن القضايا في الفلسفة هي أفكار ومعاني، والفهميات أو النتائج هي أطروحات ومواقف هي صيغة أفكار وأحكام مسبوكة في جمل ووحدات لفظية. كما أن الحجج والدلائل

النسب والاشتداد البشري

هي بدورها أقوال منطقية وأفكار منسوبة... منسوبة لأن الروابط بين الأفكار أو بين الحجج وموضوعاتها هي روابط لسانية لها وجه «منطقي» وعقلي.

ولذا لذلك كله، علينا أن نفرق بيننا أمام حجاج «برهاني» مجازاً لا حقيقة. وأما أمام أفعال لسانية تركيبية وتدوائية ذات وظيفة حجاجية فعلاً، إلا أنها خضعت للمسة الفيلسوف ولشيطان عظامه.

ففي المنصوص الفلسفية لتتجلى الأطروحات والأحكام يشتمل أنواع الاستنتاجات والاستقرارات، وبهاقي الاستدلالات الحجاجية على قاعدة تدابير لسانية وأسلوبية. وهذا التلاحم الطبيعي هو الذي حدا بفريدريك كوسيتا إلى القول: «في النشاط الفلسفي هناك امتزاج بين الأطروحات وبين عمليات التدليل (الحجاج) عليها»⁽¹⁾. وإذا كانت كل عملية استدلالية داخل نظام وترتيب الحجج تخفي وراءها توحد الأفكار والمعاني مع فعالية الخطاب واللق، فإن ما يجعل الاستدلال الحجاجي ذا ماهية فلسفية يكمن في مكان آخر.

إن الاستدلال فلسفياً بالحجج هو إجراء لا يشكل سوى وجه واحد من وجود الخطاب الفلسفي المأخوذ بمعنى المعرفة والتفكير الفلسفيين. هاتاهي الفلسفة للاستدلال الحجاجي مستعدة - فاعلياً ومضمونياً - من طريقة خاصة في إبداع المفاهيم أو إعادة استعمالها - وطريقة خاصة في المسألة كما سبقت الإشارة إلى ذلك - ويتم كل ذلك في ظل سياق ومرجعية منسجمة بالجناس والتعلق الذي لا يسمح بالاختلاف والتفرد حينها. ولقد التالفة في الفترة نفسها أو مع توالي الحقب التاريخية.

<http://Archivebeta.Bakhril.com>

وهي ضوء ما سبق ذكره، فإن كل مقارنة للحجاج الفلسفي، ولو لأغراض قرائية، بمعزل عن تقدير ومراعاة تفاعلاته وعلاقاته، ستظل مقارنة تائهة، بل ومغلوبة. وستكون النتيجة أسوأ إذا ما تحولت تلك المقاربة إلى تلمسات تطبيقية تزعم صوغ «براديفم» محيط بكل أسرار الاستدلال الحجاجي الفلسفي.

والتوقع، إن هناك مشاكل كبرى تطرح، خاصة على مستوى القراءات التطبيقية، يصعد استكشاف مظاهر وخصائص الاستدلال والحجاج في أجزاء ومقاطع فلسفية منسوبة لصاحبها. وربما إن أقصى ما يمكن جنيه من هذه القراءات هو توثيق والتخصيص أنماط الفهم والتأويل لا للاتساق الفلسفية وأعمالها الطويلة بل للعطبات من لحظات نسج بعض نصوصها. والجهد الذي يبدل لتحليل أحوال الاستدلال الحجاجي، في عمل فلسفي ما، لن يتعدى هبة التفديرات والحدوس الذكية. وعلى هذا الأساس، لا حاجة إلى ادعاء خضوع ذلك الجهد لقواعد ومبادئ ومساكن منهجية دقيقة جداً.

إلا أن ما قلناه أننا لا ينبغي أن يشكل ذريعة لتترك عملية الكشف عن اشتغال الاستدلال الحجاجي الفلسفي، داخل منصوص معينة، الفرضيات وتداعيات متهافلة. فما أوجعنا، هنا،

إلى اتخاذ بعض الاحتياطات اللازمة، واستثمار بعض التوجهات المعينة على ذلك الكشف، والتعامل مع ذلك، يعتبر بنا التنبه إلى أنه، في مجال الفلسفة بالذات، يحتاج الفارئ أو المحلل إلى الفصل، داخل النصوص القطعية أو الطويلة، بين ما يشكل موضوع الاستدلال الحجاجي وما يشكل أساليب، وهناك هذا الاستدلال، وبالإجمال، فكثيرا ما نلاحظ أن ذلك الموضوع يتشكل من أطروحات ومواقف مفهومية أو منظورية، مثلما قد يتشكل من أساليب حجاجية سرجمية... ومن الناحية الإجرائية يضم الحجاج الفلسفي موضوعه (مادته) ووسائله خاصة عندما يأخذ ذلك الحجاج صورة الترجيح والتسوية العقليين. وذلك لا يعني أن كل ما يقال في تلك النصوص لابد أن يخضع للشرطة والتدليل. فهناك منطوقات ومقاطع نصية عديدة مشروكة من دون تدليل صريح وبارز لأسباب قد تعود لأغراض التخاطب، وقد تعود لعادات أسلوبية تخص شخصية المتكلم.

هكذا، فإن السمة الإضمارية والضمنية لمرافقة لكل قول أو نص نسج باللغة هي السمة نفسها التي تطبع عمليات الاستدلال الحجاجي في الإنجازات الفلسفية. إذ لا تكشف تلك العمليات وإواضعها بكل شفافية إلا بكيفية نسبية بعد أنشطة الفهم والعبارة المعينة. ومن هنا، ربما سيكون من المفيد، منهجيا، تركيز الجهود على الاستراتيجيات الإجمالية لتلك العمليات لتجنب مزالق المقاطعات المنبثقة والمبالغة فيظاھر النص الفلسفي⁽¹²⁾. وسيكون من المفيد أيضا تجنب إقرار كل صيغة عقلانية ومنطقية لتجزيات الاستدلال الحجاجي الفلسفي، طالما أن استراتيجيات وأساليب إشفاء التمديد غير متطابقة ولا متعاقبة في جميع الأدابات الفلسفية. لكن من الخطأ الاعتقاد بأن هناك فلاسفة قد دأبوا على نهج تفكير الاستدلال العقلي بينما آخرون دأبوا على نهج تفكير استعماري (بلافي). إن مثل هذا الاعتقاد لا يبرره سوى وهم الإقرار بوجود فلسفة برهانية وأخرى أدبية بلافية.

ومثل هذا الاتجاه هو الذي تكسبه عند القائل: «هناك عدد من النصوص الفلسفية لا تلجأ إلى الاستدلال العقلي ولا إلى العرض النسقي». ولكنها تستعمل الأشكال الشذائية (الحكمية) التجزئية. ويحركها منطق ضمير المتكلم ومنطق ذو طبيعة استعمارية»⁽¹³⁾. فهل معنى هذا أن «اسبينوزا» أو «أرسطو» هما أكثر إخلاصا لروح الفلسفة من «نيتشه»؟ أبدا. إن طريقة التبرير والاستدلال العقلي تتوقف في جزء كبير منها على اختيارات المتكلم وعلاقته بالمتلقي والمخاطب وحتى على منظوره الخاص للفلسفة، مما يتطلب استبعاد كل مفارقة أو تمييز معياري في هذا المجال.

ليس المهم أن يكون حجاج الفيلسوف صاخبا (ماركس...)، أو محسوب الخطوات (اسبينوزا...)، أو حتى تعبيريا (نيتشه...)، إنما المهم هو عمق النظر وأصافته على مستوى المفهمة وإدراك المواقف، أي ما يعيد ذلك الحجاج.

البرهان والاستدلال الحجاجي

بقي أن نشير إلى أن الاستدلال الحجاجي هي الفلسفة يأخذ هذه التسمية من الحقل الفكري والعرفي الذي تطمّنت فيه وليس من مدونة تدوين أصناف الحجاج. هكذا، يتعين علينا تجنب التمثل بين نصوص برهانية، وأخرى حجاجية، وبخاصة أن البرهان في الفلسفة كما بينا ذلك، سابقاً، هو برهان مجازي واستعاري فحسب، وليس من الصائب اعتبار نصوصاً لاسينيوزاً أو لعقلانيين آخرين استلهموا البرهان الرياضي هي نصوص برهانية بالمعنى القاطع والصارم الشامل لفهوم البرهان.

والحال، إن سيادة التعانك والانساق المفاهيمي والاستنباط (اللفظي) الصريح، واستبعاد الاستطرادات التناسلية أو البلاغية، ليس دليلاً كافياً على أننا أمام نصوص برهانية وغير حجاجية، كما أن وجود نصوص فلاسفة آخرين استلهموا أو أبدعوا التعبير البلاغي والاستعاري ليس دليلاً هو الآخر على أنها نصوص حجاجية بحتة.

وما يمكن التأكيد عليه هو أن هناك في العمل الفلسفي شيئاً ما، يراد تمييزه والاستدلال عليه، أي الاستدلال على صدقه ومعقوليته. وهناك بالولاء مع ذلك وسائل وعمليات لا محيد عنها لتطعيم ونجاح ذلك التمييز بهدف الإقناع والإقناع معاً، أما الكشف عن المضمون الحجاجي لتلك الوسائل والعمليات فهي مهمة **الشروط التجريبية والتأويل المفتوح**.

ومن الصعب جداً إخضاع تلك المهمة البحثية لتمرير مقترن أو لقاعدة مطلقة. ويبدو أن أكبر عائق أمام هذا النزوع التجريبي هو خصوصية الأسبق التاريخية، وتعدد وتنوع النصوص والانتاجات الحجاجية ذاتها، وبالإضافة إلى ذلك، هناك صائق أخرى يتمثل في عدم تطابق وتماثل استعمال الروابط والشبكات المنطقية أو الحجاجية، والتي تنظم أجزاء الكلام وعلاقات الجمل والخطوط على صعيد اللغات المعروفة دولياً، أو على الأقل على صعيد تلك اللغات القادرة، فعلاً، على احتضان خطاب الفلسفة.

- 1- يهدف الحججاج جذوره ومنشأاته هي كل أنماط الخطاب والخطاب والخطابة. وما تشتمل عليه من جدل وبروز وإقناع... أما نظرية الحججاج، فإنها تجد إرصاداتها النظرية الأولى عند الفيلسوف «أرسطو» في كتابه «البروتوريقا»، ويستشهد هذه النظرية أيضاً بجديد مع الباحثين: شر، برلمان (Ziglerman)، وأوبراين (O. Tyrell) في مؤلفات لهما فردية أو ثنائية مثل: «مبادئ الحججاج»، «الولاية والفلسفة»، «محل الحججاج»، «الامبراطورية العجاجة»، «الغة الحججاج»، وفي الفلسفة التحليلية الأنطربسكسوية، خصوصاً، سيحطى موضوع الحججاج بمكانة مهمة جداً.
- 2- «معجم دانيال الميريد» (لبن نظريون الإفريقي المصري)، مادة «حججاج»، دار صادر، بيروت 1997، ص 338.
- 3- Le grand Robert. Dictionnaire de la langue française. T. 1 Paris 1989, P. 325.
- 4- Meyer (Michèle) Logique, langage et Argumentation. Hachette Université, 2ème Édition, Paris, 1982, P. 136.
- 5- إن اعتقادنا الراسخ في حاجة الممارسة، ومقتضياتها الإمبراطورية، إلى الأقل النظري، ثم حاجة هذا الأخير بدوره لهذه الممارسة، هو الذي كان وراء القيام بهذا الاستقصاء. فالتعاملية النظرية للحججاج والاستدلال الحججائي ليست مقصودة لذاتها. كما أنها وإن كانت تدور في فضاء إشكالات فلسفية فهي لا لزوم ليات أو فهي فرضيات محددة. فما أثر ذلك هو، بالأحرى، ربط المصور الطبيعية والضرورية بين عناصر الحججاج النظرية وعناصر الفلسفة الإمبراطورية.
- 6- إن المسألة تتعلق بتعريفات تدور على أساس المعطيات العقلية بل وكل خطاب متعدد في نفس ما (ياغنى العام للفهم) وليس (تعود) فطرية. هناك اختلاف بين أبحاث الخطاب (نفسى) هناك نجد جيم. برونتار (Jean Paul Bronckart)، مثلاً، يحدد الأساس الخطاب في أربعة هي: السيرة، المعاكسة، التفاعلية - الحوارية، ثم النظرية. ويبنّي هذا التصنيف على أساس ثنائية داخلية، (إذا كانت التصويف التفاعلية - الحوارية وكذلك النظرية هي الأكثر احتشاداً للحججاج، فإن أشكال التصويف الأخرى لا تلحق تماماً من خصائص حوارية، وبالتالي، فإن التصويف الحوارية يدورها، لا تعتمد فيها كلية بعض عناصر الإخبار أو السرد... بالنسبة للتصنيف الذي قدمه جيم. برونتار لأنماط الخطاب والأجناس النص النظر:
- J.P. Bronckart: Language et représentation in "Sciences Humaines" N°21. Hors série Juin - Juillet 1998. Auxerre, PP: 20-23.
- 7- أرمينكو (فرانسواز) القارية الثقافية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي (د.د.)، ص 11.
- 8- أرمينكو (فرانسواز) نفس المرجع، ص 77.
- 9- نفس المرجع، ص 74.
- 10- نفس المرجع، ص 62.
- 11- طه (عبد الرحمن)، في أصول الحوار وتجهيز علم الكلام، المؤسسة الحديثة للكتاب والتوزيع، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1997، ص 81.
- 12- Cassata (Fredéric) Éléments pour la lecture des textes philosophiques. Bordas, Paris 1989, PP: 187 - 188.

انظر كذلك أرمينكو (فرانسواز) المرجع السابق، ص 85، حيث نجد «المبادئ الحوارية» عند «كرايس» (Orin) قد صيغت في سيطرة حكم يدور عنها بأفعال الأمر: اجعلوا خطابكم... لا تقل ما تعتقد... كن واقعياً، كن واقعياً... إلخ.

- Meyer (Michel): *Questions de rhétorique. Langage, Raison et séduction*, Librairie Générale Française, Paris 1995, P. 7. -36
- Rais (Jacqueline). *Les méthodes en philosophie*. Op. Cit. P. 125. -37
- Ciel par Meyer (Michel): *Questions de rhétorique...* Op. Cit. P. 125. -38
- إذا كان الخطاب الشعاعي قد يتطلب من الذات، التي تشكل مصدره، اعتماد استراتيجيات مجازية، هي مناسبات محددة، فإن عدم لوقت هذا الخطاب، على هذه المناسبات، وحدها يجعل منه خطاباً قابلاً للاختلافات إخبارية وسردية ثقافية وحية. وهذه الاختلافات المتبادلة تعني التكيف من مستلزمات الحجاج والاستدلال الواعي والعمد على مستوى خطابه وتناجده. هكذا، فالشاعر العمومي لزعم سياسي، مثلاً، أثناء مناقشة انتخابية حاسمة، لن تتكلم، حتماً، بمناسبات المجازية مع ما يتميز به حديث الجيران عن بعضهم البعض، أو مع ما يتميز به الكلام من وصفة من وصفات الطبع. -39
- Meyer (Michel): *Logique, Langage et argumentation*. Op. Cit. P. 112. -40
- أعمري (محمد)، في بلاغة الإقناع... مروج سابق، ص 70. -41
- نفس المروج، ص 47. -42
- Meyer (Michel): *Logique, Langage et argumentation*. Op. Cit. P. 137. -43
- Blanchet (Robert): *Le raisonnement*, P.U.F. Paris 1973, PP: 238- 239. -44
- Ibid, P. 236. -45
- Chapelle Blanchet (Robert). Op. Cit. P. 136. -46
- الصارفي (أبو نصر) *أحاديث علوم*. تحقيق وتقديم عثمان أمين. دار الفكر العربي، القاهرة، 1418هـ، ص 107. -47
- ابن رشد (أبو الوليد): *فصل الفال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال*. دراسة وتحقيق محمد عمارة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الثانية، بيروت، 1401هـ، ص 96. -48
- تجد مثل هذه الطريقة الفلسفية في الكتابة عند كثير من الفلاسفة المشهورين بها مثل، هرقليط، فث، أبلشت، شلرل Schlegel، ويشكل أخت، عند فلاسفة آخرين: مونتيغي Montaigne، ب. بسكال Pascal، س. كير كيرارد S.Kierkegaard، وغيرهم. -49
- هذه الاستراتيجية التعبيرية لتجدها عند عدد من الفلاسفة الإنجليز مثل باركليز، وأميانو ألدس... وكذلك عند فلاسفة، محددين مثل ر. شار B. Char، وإن كان كل من الشعر والخطابة لا يتواءم على تحمل كل متطلبات وسيلة النقل للمعرفة الفلسفية. -50
- إذ من الصعب، جداً أن نصف التفكير الفلسفي بأحد المحددات القويحية، فيبحث بأصابع بصامة الفلاسفة. وهناك عدة أسباب تحول دون ذلك، وإذا كنا ندرك ما قد يواجهه مفهوم «المواجه» الفلسفي من تحفظ وإرتياب، فإننا لم نجد بدا من استكشاف القول في هذا المجال المتشبا مع روح الفلسفة ومنطقها. -51
- Grenier (Hubert): *La connaissance Philosophique*. Ed. Messin et Cie. Paris 1973, P- 148. -52
- Ibid, P. 150. -53
- إن الذين يدافعون دفاعاً حاراً عن أطروحة التمام المنهجية الفلسفية بالنسبة البرهانية والقرائية، مثلاً مثل الحريقة البراهنية، في صرامتها ومنطوقاتها، هم غالباً ما يلحدون من طريقة التفكير فلاسفة مثلأبيون أمثال ديكرت، ولا ينيز والسيلوز، صحة على صحة هذه الأطروحة، وربما كان هذا الوقت يتسمين لمسيباً

من الصحة قبل اكتشافات الاستيمولوجية المعاصرة، وقبل ما سمعته القليل ونظرة الحجاج من تطورات
صحت الأبحاث فيها - فلسفية في قضايا عديدة منها هذه القضية والأشياء.

Blanché (Robert): Le raisonnement. Op. Cit., P. 223.

Granger (Gilles - Gaston): Pour La connaissance Philosophique. Édition Odile Jacob. Paris.
1988, P. 211.

Ibid, P. 214.

في هذا الإطار يقول بـ. فرنان P. Versant... وهكذا إلى جانب الوعي المعيني الذي ظل وثقنا على
طائفة ضيقة من العارفين. وإلى جانب المعتقدات العامة التي يمتلكها الجميع دون أن يوضع أي سؤال
يصددها، فرض مفهوم جديد من الحقيقة نفسها وأكاد دأته. إنها حقيقة مطلقة في مقابل الجميع، وهي
التي تقيم معايير صلاحيتها على قولها البرهانية الذاتية. خلافا عن «الحقائق الفلسفية» (التفكير الفلسفي) (1)
إعداد وترجمة جـ. السلام بلعيد العالي، ومحمد سميللا. دار نوفل للنشر. الطبعة الأولى. دار البيضاء،
1987. ص 17.

Blanché (Robert): Le raisonnement. Op. Cit., P. 230.

Weil (Éric): Logique de la philosophie. Nouv-édition, Vrin Paris, 1982, PP. 28 - 29.

طه (عبد الرحمن): في أصول الحوار والتعدد. علم الكلام... سبق ذكره. ص 70.

سارة كوفمان - روجي كايوت، ودخل إلى فلسفة هؤلاء من باب... وترجمة إدريس كايوت. من الدين الخطابي.
الطبعة الأولى. دار البيضاء - 1984. ص 17.

طه (عبد الرحمن): مروج سبق ذكره. ص 74.

Granger (Gilles - Gaston): Pour la connaissance philosophique. Op. Cit., P. 205.

Ibid, P.P. 205 - 206.

إذا كان الاتجاه الفلسفة مع الخطابة والبلاغة قد يعمل، إجمالاً، في نطاق الحجاج الفلسفي ومناقشته، فإن
ذلك لا يبرر الاندفاع إلى ربط علاقة التبعية بين الحجاج الفلسفي وبين صور البلاغة ومحصلاتها. ولعل
مثل هذا الاندفاع عند جـ. ريس J. Riss... والتي أشد على تلك التوصلات دون تحفظ الطور:

Riss (Jacqueline): Les méthodes en philosophie. Op. Cit., P.P. 50 - 53.

خليل (إبراهيم): الأسلوبية ونظرية النص. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى. بيروت.
1997. ص 98.

منصف (عبد الحلي): مقارنات الخطابي الفلسفي بين الاستعمال اللغوي لغة والاستعمال الاستدلالي.
مجلة الفكر العربي المعاصر. عدد مزوج 100 - 109. بيروت 1997.

نوشه (إبراهيم): ما وراء الغير والنشر، ترجمة جزيلا غاليو حنجر. الطبعة الأولى. بيروت. 1995. ص 179.

البرجاني (عبد القاهر): أسرار البلاغة... مصدر سابق. ص 77.

نفس المصدر. ص 90.

أوربه محمد عابد الجابري. في مؤلفه: نقد العقل العربي 7. بنية العقل العربي... المركز الثقافي العربي.
الطبعة الأولى. دار البيضاء. 1987. ص 29.

السكالي (محمد بن علي): مفاتيح العلوم، مصدر سابق. ص 178.

الجابري (عبد عابد): المروج السابق. ص 107.

- 75- Lukasiewicz (Jan): La Solfystique d'Aristote. Traduction de C. Zaslowsky. Armand Colin. Paris 1972, P. 32.
- 76- Granger (Gilles. Gaston): La théorie Aristotélicienne de la Science. Aubier Montaigne. Paris, P. 120.
- 77- Lukasiewicz (Jan): La solfistique d'Aristote. Op. P. 35. .
- 78- لقد لا شك أن الفرق بين الحقيقة والاستدلال والدليل ليس دقيقاً ولا شاملاً جداً لدى كثير من الجاهلين والمجموعين. بينما هو ليس كذلك بالحقيقة للمناقشة وكثير من الفلاسفة. فالهواجش عند أرسطو - مثلا - أنواع لكنه لا يقضي إلى نتائج يقينية ولا يؤسس علما، لأن نتائجه طبقية نظمية أو بدائية أو تطبيقية أو استدلالية. لذلك رسم أرسطو، خطا فاصلا بين الهواجش والاستدلال البرهاني. وهذا المظهر «الطبقية» الهواجشية هو الذي قاد أوبير غرونييه H. Gröniier إلى التمسك في مناقشة الطبقية الهواجشية، طالما أن كل حجة هي حجة، كما قال بوراينا (ذلك في فترة سابقة).
- 79- كريسبون (أنثوني) باستكمال، هيلنه - فلسفته - منطقته - ترجمة نهار رضا - منشورات موهبات - الطبعة الثانية، بيروت 1999. ص 196.
- 80- Polackiel (D) et Wassenburger (J.J): Méthode-Épée philosophique. P.U.F. Paris 1982, P. 1331.
- 81- Cossette (Pédric): Éléments Pour la lecture des textes philosophiques. OP. Côté, P. 140.
- 82- إن هذه الأطروحة البرية الإيجابية ليست بهذا هادئاً وموالياً، منها استدلالا تشككا كل المفاهيم الهواجشية في نفس فلسفي ما، وكذلك أسلوبا لفرار هذه المفاهيم عن كل المفاهيم البر الهواجشية. أضف إلى ذلك كله، إن الكشف عن الاستدلال الهواجشي ليس الفلسفي هو عمل يتدرج في إطار منظومة العناصر التشككية لموضوعية قواعده ونطاق مقارنته من مقارباته.
- 83- Cossette (Pédric): Éléments pour la lecture... op. Côté, P. 145.

مسرينا أوديب ملكا وأوديب هاج كولون بين الأسطورة اليونانية والفجة التوراتية

دراسة مقارنة

أ. محمد عبد الكريم الجراح*

أ. هتحي طالب الجراح**

المقدمة

ليس من شك في أن سوفوكليس (496 - 406 ق.م.) قد بنى مسرحيته أوديب ملكا وأوديب هاج كولون على الأسطورة اليونانية، ولكن الألفت لتظهر بعد الدراسة - كما سيتضح - أن هناك تشابها بين أحداث المسرحيتين وبين ما جاء في التوراة.

ومن هنا نبه علي عبدالواحد وأفي إلى وجه الشبه بين ما جاء في الأساطير اليونانية، وما ورد في القصص الدينية المذكورة في الكتب المقدسة^(١)، ويذهب فرويد إلى تبيان وجه الشبه بين أسطورة سرجون الأكادي وميلاد موسى عليه السلام، ثم يذكر رأي تلميذه رانك الذي جمع أسماء مستوحاة من عالم الأسطورة أو الشعر، وتطبق عليهم القصة في كليتها أو في أهم أجزائها ومنها اسم أوديب^(٢). يستخلص من هذا أن هناك تشابها بين قصة ميلاد موسى وميلاد أوديب بملامح عامة. ولد موسى عليه السلام ونشأ وأصبح نبيا في منصر أيام الدولة الحديثة عصر الإمبراطورية المصرية 1575 - 1087 ق.م^(٣). وهذا يقودنا إلى تاريخ تحرير الأسفار حيث تمت المقارنة بها في هذه الدراسة. وهذه الأسفار (الخروج والعدد والانشية ويشوع). وبناء على ذلك فالمسؤول الذي يدور في ذهن القارئ، هل اطلع سوفوكليس على التوراة؟

* وزارة التربية والتعليم - الأردن.

** كلية الآداب - جامعة اليرموك - الأردن.

قدم ويلاهوزن فرضيته الوثائقية لأسفل الأسفار الخمسة الأولى (التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية)، وطوam هذه الفرضية أن تشكل هذه الأسفار ثم من خلال أربعة مصادر مستقلة من بعضها في الأصل وهي: اليهودية، من التثنية الموحدة بهذا وسلسلة داود ١٠٨٠ - ٩٨٢ ق.م، الإيلوهيمية، مع التثنية للمفصلة ودولة إسرائيل ٩٨٢ - ٧٢٢ ق.م، التثنية، من إصلاحات يوشيا ٦٤٨ - ٦٠٨ ق.م، التثنية: مع مراحل النبي من القدس وما بعد - كما بين ويلاهوزن وإغراف مدى إسهام مصادر الأسفار الخمسة الأولى في مجموعة المانوراث المروية من الأنبياء كما في سفر يشوع^(١). فالأسفار السابقة ألفت قبل عهد سوفوكليس (٤٩٦ - ٤٠٦ ق.م).

وهي الحقيقة يمكن أن يعزى التشابه بين أحداث المسرحيتين وقصة موسى وفرعون من جهة، ثم رحلة موسى بين إسرائيل من مصر من جهة أخرى - كما سيتضح - إلى ثلاثة افتراضات هي: أولاً: تأثر سوفوكليس بالتوراة، ثانياً: التأثر بقصة شعبية مصرية أو يهودية أو كليهما معاً، ثالثاً: التأثر بمصدر يوناني، ولذلك لابد من مناقشة هذه الافتراضات، ففيما يخص الافتراض الأول، لم يثر الباحثان على رأي يشير إلى أن سوفوكليس قد اطلع على التوراة، ولكن هناك تفاصيل دقيقة متشابهة بين ما جاء في التوراة والمسرحيتين علاوة على توافق التطبيق في ثروة أحداث المسرحيتين وقصة موسى وفرعون وخروج موسى من مصر - كما سيتضح - وهذا يمكن أن يعزى الافتراض وقبوه.

أما فيما يتعلق بالافتراض الثاني (القصة الشعبية) فاحتمال وارم لكنه غير مرجح لسببين، الأول: أن القصة الشعبية لا تحفل كثيراً بالتفاصيل الخرافية، وبخاصة أنها تحول مشاهدة وتعتبر اعتقاداً على تعدد الروايات وتباين الأحوال، الثاني: لم يهتم المصريون بقصة موسى وفرعون لأن المصريين كانوا يحدون اليهود خدماً، وعما هو معروف أنهم لم يسجلوا انتصاراً لليهود على المصريين، ولذلك لم يسلطوا من الآثار المصرية أثر من ذلك. وإن كان الافتراض نفسه سبب تأثر سوفوكليس، فهذا يستدعي تبيان الصلة الحضارية بين اليونان ومصر التي كانت الوطن الأول لدعوة موسى عليه السلام. وهل اعتك، اليونانيون باليهود؟ وما ينبغي التشبيه إليه أننا لم نصل في حدود معرفتنا إلى ما يؤكد استماع اليونانيين للقصة من اليهود، على الرغم من حصول الاحتكاك بينهما كما سيتضح.

إن أبكر ملمح يدل على التواصل الحضاري بين مصر واليونان أن هوميروس أشاد بمكانة مصر بعد توسع إمبراطوريتها الأولى أيام تحتمس الثالث، وإمبراطوريتها الثانية على يد رمسيس قبل حرب طروادة بأكثر من مائة سنة، إذ امتزجت دعاء المصريين بدعاء الآخرين أجداد أغاممنون، وهذا بين سنة حرب طروادة بمصر^(٢).

لقد تطورت العلاقات المصرية اليونانية في عهد الفرعون المصري بسماتيك الأول فأقام التجار اليونانيون مدينة في مصر عرفت باسم نقراطيس، واستخدمهم بسماتيك مرتزقة في الجيش، ضمن معسكرات، وهي فترة لاحقة اتحاد المصريين واليونانيون ضد العدو الفارسي في عهد أرتابروس أحد أمراء بسماتيك الثالث وبعد الانسحاب بقي عدد كبير من الاتنين في

مسرحية أوديب ملكا وأوديب في كورن

مصر^(١)، وهذه الأحداث المتأخرة من الاحتكاك المباشر بين اليونانيين والمصريين كانت في عهد سوفوكليس (٤٩٦ - ٤٠٦ ق م).

وفي خضم الأحداث السابقة يشهد إلى الذهن السؤال هل احتك اليهود باليونان؟ نعم، فهي هو بسماتيك الأول يقوم بإصلاح المعابد ويزيد في عهده دخول الأجانب إلى مصر أمثال السوريين واليهود^(٢)، بحيث ينشئ اليهود لأنفسهم مستعمرة في الفنتين وينشون معبدا لإلههم يافو، وهو - يهوه في التوراة^(٣)، بمعنى ذلك أنهم كانوا يعيشون في مصر في هذه المستعمرة جنبا إلى جنب مع اليونانيين، إذ إن بسماتيك الأول أقام لليونانيين مستعمرة في الفنتين^(٤).

ومن خلال هذه المحطات والمسكرات نشأت المدن الإغريقية على شواطئ المتوسط وكونت بداية الوحدة الهلينية الإغريقية، لتشكل فيما بعد نقاط ارتكاز للعصر الذهبي الأثيني في القرن الخامس قبل الميلاد، ومن هذه المدن وجعل بعض جهابذة الفكر والفلسفة اليونانية إلى مصر، وأخذوا عن الكهنة المصريين كثيرا من العقائد والشرائع^(٥)، ويرى محمد بيومي مهران أن المصريين أول من عرف علم العرافة ومنهم نزل إلى بلاد اليونان^(٦).

وهذا يشير إلى حصول التواصل الثقافي بين الحضارتين، فيما يدل على الأثر المصري في المسرح الإغريقي مسرحية هيلين لأوربيد^(٧)، معتقدا على قصة أحد الكهنة المصريين في حقيقة هيلين، وهذه القصة وردت في تاريخ هيرودوت^(٨).

أما فيما يتعلق بسوفوكليس وهيرودوت فقد كانت لجمعتهما علاقة مميزة، إذ إن سوفوكليس كتب في ٥١١ ق م أو نحوها قصيدة لهيرودوت^(٩)، كما أطلع سوفوكليس على تاريخ هيرودوت وعرف من خلاله العمليات الحسابية التي نتج عنها بناء الأهرام^(١٠)، فتحال خلق الذي كان على شكل أسد رابض رأسه رأس إنسان عرف عند الكتاب الكلاسيكيين باسم سفينكس (Sphinx)^(١١) وجد في أسطورة أوديب فالتصال أعلام الإغريق بمصر ليس جديدا فهو هيرودس شاعر الإغريق الأول صاحب الإلهادة والأوديسة يخبرنا هيرودوت أنه عرف مصر وسمع من كهنتها عن تاريخ بلادها^(١٢).

ومما يدل أيضا على التمازج الثقافي بين الحضارتين أسطورة طيبة، فولد أبوس المصري زيوس كبير آلهة الإغريق ووالدته إيو الأميرة الإغريقية ابنة الإله الإغريقي ايناخوس، أنجب أبوس المصري فتاة تدعى ليبيا، فتزوجها يوسيدون إله البحر الإغريقي فانجب منها توام أجنور ويليوس، فانجب الأول كادموس الذي أسس مدينة طيبة الإغريقية، وأنجب الثاني من زوجته المصرية أنطينوئي ابنة نهر النيل المصري ولدين توام إيجوتوس وديئاس، فتحكم الأول أرض النيل التي سميت بعدد باسم مصر (إيجبت)، وحكم ديئاس أرجوس وأصبحت العشائر الإغريقية تسمى عشائر الديئيين^(١٣)، ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنه في مسرحية أوديب ملكا قال أوديب: «إنها الذرية الناشئة من نسل كادموس»^(١٤)، وهذا التزاوج لم يقتصر على الأسطورة فقط، فهذا رمسيس الثاني تزوج من العيليين (آباء الإغريق وعلمت قبل حرب طروادة بحوالى مائة عام ١٢٢٥ ق م)^(١٥).

ومما يدل كذلك على التلاقي الحضاري بين اليونانيين والمصريين في القرن السادس ق.م-) وجود تماثيل في المعابد اليونانية تشبه التماثيل المصرية الأصيلة وتؤرخ للفنونة التاريخية نفسها، وهذا يؤكد حالة الاندماج بين الشعبين^(١٢٠). ولذا فالحالة هذه توفر إمكانية حصول المعرفة لأعلام الإغريق فيما يتعلق بالأحداث التي جرت على أرض مصر، وبالنسبة إلى الافتراض الثالث: المتأثر بمصدر يوناني، لم نثر على مصدر يوناني يتحدث عن موسى وقصته مع فرعون وخروجه بني إسرائيل من مصر، على الرغم من أخذ جهازة الفكر اليوناني كثيرا من العقائد والشرائع من الكهنة المصريين.

منهجية الدراسة

تقوم منهجية الدراسة على أساس إبراز العناصر المشتركة بين مسرحيتي أوديب ملكا وأوديب في كولونا وبين التوراة وتعيدا الأسفار (الخروج والعدد والتثنية ويشوع)، وفقا للتطبيق في نواة أحداث المسرحيتين مع قصة موسى وفرعون ثم رحلة موسى بني إسرائيل من مصر، وكذلك التطبيق في خط سير الأحداث، كما سيوضح. إذ اقتبس الباحثان نصوصا من المسرحيتين بشكل متسلسل وفقا لتسلسل الأحداث ومقارنتها بالأسفار السابقة: أما العناصر العامة وغير المشتركة فلم يطرق لها الباحثان، لأن المسرحيتين عملان أدبيان لم يرد متاهتهما أحيانا التسج على متوال القصة التوراتية، وأما كتابة عمل أدبي يستوحى، ولا يهمل قصة امرأة يهودية فلو أن يدخل عنصرها ويخرج عنصرها لأغراض أدبية، إضافة إلى أنه يجب ألا يقرب من النقص أو الخلل خصمت لإعادة التحرير.

أما فيما يتعلق بالنصوص التاريخية القديمة من المسرحيتين فقد تم اعتماد ترجمة طه حسين للمسرحيتين مع الأخذ بعين الاعتبار أن الباحثين قد استبدلوا ترجمته للأسماء (أوديبوس وإليسة) بـ (أوديب- وطليعة) لشيوعتهما عند القارئ العربي- وسيتناول الباحث التالية في هذه الدراسة: أولا: مبررة سوفوكليس، ثانيا: أسطورة أوديب، ثالثا: عناصر أسطورة أوديب والتوراة، رابعا: مقارنة المسرحيتين مع التوراة، أ - أوديب ملكا، ب - أوديب في كولونا، وأخيرا الخاتمة حيث تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

أولا: مبررة سوفوكليس

ولد سوفوكليس في قرية كولونا عام ٤٩٦ ق.م، ومات عام ٤٠٦ ق.م وهو في التسعين من عمره^(١٢١)، وهي أيام حياته وصلت أثينا إلى أوج ازدهارها الأدبي والفني^(١٢٢)، كما تجاوزت الديمقراطية مراحل كثيرة

اشترك فيها سوفوكليس نفسه إذ عين عام ٤٤٢ ق.م مديرا هيكلها في اتحاد المدن الإغريقية التي اتحدت بوجه العدو الفارسي^(١٢٣)، فكان ممن يقومون بالإشراف على الطقوس التي تعابها الجزيرة الفروسة على حضراء أثينا، ويقال إنه قد قاد جبهة الاحتفال عند انتصار اليونانيين على

مسرحية أوديب ملكا وأوديب في كورنثوس

الفرس^(١٦)، وفي عام ١٤١ ق.م انتخب قنصوب «استراتيجي» بمعنى قائد في الجيش أو الأسطول البحري^(١٧)، حيث حاصر مع بريكليس مدينة سمسون تسعة أشهر إلى أن افتتحها، وأخذ منها الأثري وأخضعها لنفوذ أثينا^(١٨).

بعد هزيمة منفلية كان سوفوكليس أحد أعضاء مجلس الشورى لأجل دراسة أزمة الهزيمة ومعالجتها^(١٩)، فعملوا على الاقتصاد في النفقات العامة وحصلوا السونيون (رأس في جنوب غرب أثينا)، وجهزوا أسطولاً جديداً، ولعبت مواجهة الأعداء في خليج سارونيك على سواحل آسيا الصغرى. وبهذا تم إنقاذ مدينة أثينا.

ولكن بعد ذلك احتدم صراع في الداخل على يد حزب يطالب بحكم الأقلية حيث طالب الحزب بدستور جديد، فكلّف الشعب لجنة من ثلاثين عضواً وضعت دستوراً لم يتبل به الحزب الذي أصغر قراراً بتشكيل حكومة من أوبماتة شطط، فكان سوفوكليس أحد اللذين الموافقين على هذا القرار. إلا أنه تم عليه الطير^(٢٠)، وكان قائداً في الجيش عام ٤٤٠ ق.م وزميلاً لبروكليس في إخماد الثورة الصامية^(٢١)، كما عين خازناً للضريبة عام ٤٣٦ ق.م. ومثل بلاده سفيراً لها في عدة بلدان، وعليه لم يكن مستريحاً سوفوكليس بمنأى عن هذه الأحداث المتلاحقة^(٢٢)، وكما يقول جاري: «سير سوفوكليس... عن زمن مضطرب تحولت فيه أثينا إلى مستعمرة وقد تمكنت أوجسائل حروب الهلويونيز ونشأت فيها الحكومات الاستبدادية، مما يفسر ميل سوفوكليس إلى التفتير في أحوال الحياة والتفتير من الحكام، كما بدأ كاريون في مسرحية أنتيفون وأوديب في مسرحية أوديب ملكا^(٢٣)». ولكن ميوله السياسية لم تظهر بوضوح في مسرحياته^(٢٤).

كان سوفوكليس تقياً، فمما يقال عنه إنه أكثر البشر خشية للآلهة خاصة وقد علمنا أنه كان كافلاً لآله الشفاء أميتوس، ثم إنه قد جعل من داره مقراً لاسكولاب إله الطب، ومن ثم معبداً، ولأجل ذلك كرم كيبطل بعد موته^(٢٥)، حيث رفعة الأثينيون إلى مرتبة البطولة إن لم تكن الآلهية قبلوا له معبداً وهدموا له القربان والأضاحي^(٢٦).

إن أهم تغير طرأ على المسرحية عند سوفوكليس هو التجديد في فلسفتها الدينية، فالثالوث لم يعودوا ضحايا القدر، فمسييرهم مرهون بما اتصفوا به من حكمة واعتدال^(٢٧).

كتب سوفوكليس كثيراً من المسرحيات، بقي منها ثمانية: التراشيبيات، أجاثيس أنتيفون، أوديب ملكا، الكترا، فلوكتيت وأوديب في مدينة كولون، ومسرحية سائيرية هي الميكلوب ومعظم هذه المسرحيات كتبها في مرحلة متقدمة من حياته بين سن الخمسين والثمانين، وتاريخ تأليف كل مسرحية غير معروف بالضبط^(٢٨)، واللائق نشط أن أوديب يقول لأنتيه اسمينا في مسرحية أوديب في كولونا عن ولديه: «إن أخلاقهما وسيرتهما في الحياة لنتشبه أباكوف من عادات الصوريين، ففي معمر يهيم الرجال في بيوتهم متبلين على الغزل والتسبيح.

فأما قريناتهم فيسعين في غير انقطاع تكسب القوت⁽¹²⁷⁾. ولا شك أن سوفوكليس قد اطلع على هذا الأمر من عادات الصوريين من هيرودوت الذي تحدث عن مصر فقال: «... اختلفت الصوريين كل الاختلاف عن سائر الشعوب في عاداتهم وسننهم، فالتساء عنهم يرتكن الأسواق ويمارس التجارة. أما الرجال فيلبون في البيوت وينسجون»⁽¹²⁸⁾.

ومن الأهمية بمكان القول كما يرى لويس صوحى: إن كثيرا من التقاء يذهبون في سيرة سوفوكليس الأدبية إلى أنها متأثرة بهوميروس شكلا وموضوعا بصرف النظر عن اختلافهما في النوع الأدبي والدرامي والمهد الذي ينتمي إليه كل منهما، فسوفوكليس استوحى كثيرا من تراكيب هوميروس ومفرداته، وهما متشابهان باستخلاص مادتهما من قصة حرب طروادة⁽¹²⁹⁾، وفي الحقيقة إن مسرحيتي أوديب ملكا وأوديب في كولونا - موضوع الدراسة - متشابهتان مع قصة موسى وفرعون كما سنبين في هذه الدراسة، على الرغم من كون سوفوكليس قد نسج المسرحيتين على أسطورة أوديب.

ثانياً: أسطورة أوديب

إن أقدم إشارة مدونة لأسطورة أوديب عند اليونان تجدها عند هوميروس (القرن التاسع قبل الميلاد)، فيذكر في الأوديسة الأسطورة كالآتي: «وأبصر أدم أوديبوس... ابنتكسيتي... الضالعة، والتي قامت بعمل وحشي جهالة من التفكير، إذ قد تزوجت أبها بعد أن قتل أباء فتزوجها، ولكن الآلهة كشفت هذه الأمور للبشر في الحال، ولكن مع ذلك ظل سيدا على الكادعين في طيبة الجميلة، يعاني الحزن بسبب خطيئة الآلهة المضارة، أما هي فقد هبطت إلى بيت هاديس، الخازن القوي. لقد غلفت أنشوطه في فضيب عال، وقد استبد بها الحزن، وشنت نفسها، وخلقت وراءها محناً لا حصر لها، وكل ذلك تقوم به ربات الانتقام من أجل أمها»⁽¹³⁰⁾.

كما يشير هوميروس في الإلياذة أيضا بشكل سريع وموجز إلى الحروب التي وقعت بين ولدي أوديب إيتوكليس وبوليديم⁽¹³¹⁾، ولا شك أن الأسطورة كانت قبل زمن هوميروس وعليه لا يمكن أن تكون القصة السابقة مطابقة بشكل حرفي للأصل، فالأصل ليس موجودا وإذا ما قدم الأفكار المتوافرة من قصة أوديب لننمي إلى الأدب⁽¹³²⁾، ومن هنا لسوق الأسطورة التي بنى عليها أوديب مسرحيته أوديب ملكا وأوديب في كولونا ضمن سياقها الأدبي والتي مفادها أن لا يوس بن لايدكوس تزوج من جوكاستا، فتلقى تحذيرا من أحد العرافين بأنه سوف يولد له ابن يقتله في يوم ما⁽¹³³⁾، عاقبا له على جنايته على بوليس الذي استضافه حين كان ملجأ من طيبة ولكنه غدر بمضيفه وهرب بابله كريسيب كما ورد في أوديب ملكا⁽¹³⁴⁾، وحين ولد الطفل حملته إلى جبل كيثرون، وثلب قدميه، للتخلص منه، لكن راهبا أخذاه إلى بوليبيوس ملك كورنثا،

مصريّة أوديب ملكا وأوديب من الجبل

فتيناء وأطلق عليه اسم أوديب لأنّ قديميه مجروحتان، ولما كبر أخبره أحد العرافين بأنّه سيقتل أباه ويتزوج أمه، ولأجل التخلص من هذا نفي نفسه من كورينثا حتى لا يرى أيضا بوليبيوس وزوجته الذين اعتقد أنّهما والداه الحقيقيان، فكان شكّه سبب لعاقبته.

انطلق أوديب نحو يورثيا وهي الطريق لخاصم مع رجل يحبهه فقتلته، إلا أنّه كان والده، فواصل رحلته ونسب النبوءة قد صار حقيقة، وحين وصل إلى طيبة كان البلد مهددا بمصع له وجه وصدر امرأة، وجسم أسد وجناحا طير، وكان السفينكس، كما سمي هذا المصع، يسيطر على الطريق للثوبية إلى طيبة، حيث كان يوقف المازين ويطلب منهم حل لغز من اللغز، ومن لا يستطيع الحل يهلكه، ولذا أعلن كريون الذي حكم طيبة بعد مقتل لايرس بأنّه سيمنح التاج لمن يخلص المدينة من هذا السوء، ويوزجه من جوكاستا، فقرر أوديب أن يجرب حظه، فكان سؤال السفينكس: من هو الذي له أربعة أرجل في الصباح، ورجلان عند الظهر وثلاثة عند المساء، فأجاب به: الإنسان الذي يحبو على أربعة مطلقا ويسير على رجلين عند البلوغ، ويتكبر على بعضا عند الشيخوخة، وحين أجابه رمى السفينكس نفسه في البحر.

وبذا صار أوديب زوجا لأمه دون أن يدري وأنجب من هذا الزواج ولدَيْن: ايشوكليس وبوليبيكس، وابنتَيْن: أنتيجونا وإسمينا، وعلى الرغم من ازدواجية الجريمة فقد هدّ حاكمها مطلقا لشعبه، لكن العقاب كان ينتظره.

هزّت البلاد أوبئة شديدة أصابت الناس وأهلباب في الوقت نفسه الأرض جفاف خلف الجماعة، وبعد أخذ مشورة كاهنة دلفي قالت: إن المصائب لن تزفح حتى يقوم أهل طيبة بطرد قاتل لايرس المجهول من البلاد، فأخذ أوديب بالتحري صرف بعد ذلك أنّه القاتل وأن جوكاستا هي أمه، فشنقت نفسها للتخلص من العار وهنأ أوديب عينيه، ونفى نفسه من البلاد، ثم ارتأقه ابنه التخلص أنتيجونا، ثم التجأ إلى مدينة كولونا في اتيكيا، وأخيرا طهر نفسه من الجرائم واختفى بشكل غامض من على وجه الأرض⁽¹⁴⁾.

لرى ماري ديلكور أنّه من اللغز فهم الأسطورة قبل فكها قطعة قطعة، فربما يكون لكل حدث مصدره ودلالته المستقلة، ولقد ديلكور الترافد العميق في أسطورة أوديب استنتاجها وأخيرا تتوصل إلى أنّ أسطورة أوديب وحدة واحدة تمت في وقت متأخر وهي حوادث مستمدة من سياقات مختلفة، وتقل من شأن الزمن بالأقرب لأنّه لا يتسجم مع التصوير الأولي لتفسير الأسطورة، لكنها توافق بسهولة على مقتل الأب، وأن الأسطورة أتت من مصادر خرافية غير متجانسة⁽¹⁵⁾.

إن الكلام السابق الذي أشارت إليه ديلكور صحيح، على الرغم من كونها قد طرحت على سبيل الافتراض، ودليل صحتها ورود قصص مشابهة عند أمم أخرى، فأقدم قصة وردت عند الهنود أيام حروب بهارت كما جاءت عند البهروني في كتابه: «تحقيق ما للهند من رواية مقبولة في العقل أو مردولة»، فهي هو باسندو يولد حين تكثر الجبابرة في الأرض ليخلصها من الظلم.

«... عرف كس أن هلاكه من جهته ببناء سمعة وقت عرس أخته هوكل بها من يحمل إليه أحمالها إذا وضعت. وكان يقتل ذكرها وأصلها إلى أن ولد لها «بلهدر» فأخضته «جسو» زوجة «مده» البقار وريته. واحتالت لإخفاء أمره على الوككين، ثم ولد لها بعده هي البطن الثامن «باسيدو»... ففضل الحراس بنوم أثقلهم وسرقه أبوه وحمله إلى «مندكول» أي موضع مرتبط البئر الذي لند زوج «جسو» وهو قريب من «ساهرة» وبينهما نهر «جون» وأبدله بأبنة لندكول. اتفق ولادتها وقت بلوغ باسيدو إليهم. وحمل الابن إلى الحراس بدل الابنة، فأراد «كس» الوالي فتحها فطار في الهواء وذهبت وترى باسيدو في يد جسو الموضوعة من غير أن تعلم أنه بدل ابنته وأطلع كس على أمره، فكداه بكل كيد ومكر رجعت كلها عليه حتى طلبه من أبويه للصراع بين يديه، فأتاف في فعله على الجميع بعد أن فعل في الطريق ما أعاق به الخيانة من فيهر حية كانت موكلة بحفظ نيلوفر (حوضه) وزمها في مغربها... وبلغ من عمل الغيظ في كس أن انشفت مرارته وهلك لوفته. وملك باسيدو ابن أخته مكانه»^(١٧). وكما يذكر البيروني في كتابه السابق أن حروب بهارث حصلت سنة ١١٣٢ من كلجوك - فترة زمنية عند أهل الهند لها طول محدود - وأن زمن روايته للقصة السابقة حتى وقته هو ١٢٤٠ للإسكندر^(١٨)، وعليه يكون زمن كتابة البيروني للقصة السابقة كالتالي: ١٢٤٠ للإسكندر - ٣١١ = ٩٢٩م. فإن صح تاريخ البيروني للقصة السابقة يكون زمن الخيانة في التاريخ الهندي هو ١١٣٢ = ١٠٢٩ = ٢١٠٢ م. وقت مولد بلهدر الذي تنص القصة حول أخيه باسيدو الذي ولد بعده، واللافت للفتور أن القصة السابقة تشبه في إطارها العام مولد موسى وقسمته مع شرعون، بتبديل ورود العناصر الألفية هي القصتين: ١- نبوة لره إلى الملك تحذره من مولود يملأه الملك. ٢- قتل كل مولود ذكر. ٣- مضاطر تحيط بمولد الطفل بحيث يتم إنقاذ بطريقه خفية عن الملك. ٤- وجود مريضة للطفل. ٥- ذكر النهر. ٦- ذكر الأفعى. ٧- اكتشاف الملك أمر الطفل في وقت لاحق. ٨ - الصراع بينهما وهلاك الملك.

تحسن الإشارة هنا إلى ما قاله فرويد عن ذلك أحد التلاميذ الذي كتب كتابا بعنوان Das Mythos von der gebun des Helden وملخص قوله عن الكتاب بأن أغلب الشعوب المتحضرة نسجت في وقت مبكر أساطير لتحدث عن أبطالها وملوكها وأمرائها ومؤسسي ديانتها وأسرها الملكة وإمبراطورياتها وملكها الأسطورية، ولكن التشابه فيما بينها يثير الدهشة، بل إن النماذج الحرفي لها يمتد على الدهشة، حتى لو كانت هذه الأساطير لشعوب مختلفة. وأحيانا ما تكون متباعدة جدا عن بعضها جغرافيا وهذا ما أثار استغراب كثير من الباحثين^(١٩). ثم يمضي فرويد قائلا: «وكما قال «راند» وتبعها بخطوط منهج «جالتون» استطيع أن أقول إن هناك أسطورة تجمع في نفسها أهم خصائص كل الأساطير فهي أسطورة تتوسط كل الأساطير، أو أسطورة متوسطة، مؤداها: «إن البطل هو ابن والدين لهما مكانة من أعلى الكائنات، وكثيرا ما يكون ابن ملوك».

سرجيون ملكا وأوديب ملكا

«إن إنجابه اعترضته العولق مثل الزهد أو العقم الموقت أو أن والديه كانا يستعلمان سراً بسبب وجود موانع أو غير ذلك من العولق الخارجية. وخلال حمل أمه فيه أو قبل ذلك يعثر أحد القتبين الأب أو يتلقى الأب تحذيره من حلم مؤداه أن ميلاد الطفل ستكون فيه خطورة على سلامة الأب».

«ومن ثم فإن الأب (أو من يمثله) بأمر بقتل الطفل المولود حديثاً أو بتعريضه لخطر خارجي، وهي أغلب الحالات بوضع الطفل في سلة ويسلم أمره للأموح».

«وهيئة تنفذ الحيوانات الطفل. أو يتخذ الناس القتراء كالرعاة ويرضع الطفل من أنثى الحيوانات أو ترضعه امرأة ذات نشأة متواضعة، وعندما يبلغ الطفل يكتشف اسم والديه اللذين يمتنان إلى النبلاء وذلك بعد أن يفرش مخاطر كثيرة وغريبة، ويحقق الانتقام من أبيه ثم يعترف له شعبه فيحقق لنفسه الشهرة والعظمة»^(١٢).

ويقتر فرويد أن أسطورة سرجيون الأكادي أبعد شخصية تنطبق عليها أوصاف هذه الأسطورة المتوسطة ويرجع إلى نحو سنة ٢٥٠٠ ق م^(١٣). وفي الحقيقة، إن أسطورة سرجيون الأكادي ليست أبعد شخصية تاريخية ودليل ذلك القصة الواردة في حروب يهاتر. ويسوق أسطورة سرجيون فيقول: «لني سارجون، ملك أجاد - كانت أمي رفيقا، أبي ثم أعرهه، بينما كان شقيق والدي يسكن في الجبال وفي المدينة التي نشأت فيها أروبراني عملت في أمي الترفيق، جعلتي سراً، ووضعتني في سلة من البردي وألقيت فوقها البقلة والقار، وأدلتني إلى الماء، ولم يفرقتي النهر، ولكن جعلني أبي الصفاء الذي كان يسحب الماء ويرباني كابنه. وجعلني «التي» صاحب الماء، يستأنه. وعندما كنت يستأنه أضعفت عشتار في حبي وصرت ملكاً وحكمت كملك مدة خمس وأربعين سنة»^(١٤). هلين بعيدا أن يكون سرجيون قد نسج هذه الأسطورة ليحكم الناس بصيغة دينية.

ومن أشهر الأسماء المعروفة في السلسلة التي بدأت بسارجون هي موسى وهنوش ورومولوس. ولكن راتك وضع عددا آخر من الأبطال جمع أسماءهم من عالم الأسطورة أو الشعر، ولتصحب عليهم القصة بكاملها أو في أهم أجزائها. مثل أوديب، وكارنا وباريس وإليافوس وبرسيوس وهيراقل وجولجاميش وأفيون وزيتوس وآخرين^(١٥).

وتستمر النبوءات بعد ذلك لحكم الناس تحت شرعية دينية فهناك رواية ترجع للأسرة الثانية عشرة من فراتة مصر (٢٠٠٠ - ١٧٥٨ ق م) مفادها أن الساحر إيمور النمر فرعون مصر يحصل قحط واضطرابات في مملكته، حيث يصبح الغلي فقيرا والفقير غنيا، ويبدأ يحتاج البلاد قوم أجنب فيقلب النظام رأسا على عقب، وبعد سرد الساحر لهذه الأخبار أخبر بأنه سيأتي بعد ذلك رسول يظني نار ذلك الذهب فيمدحه الناس ويعبدونه راعوبهم لطيفة عليه، ولم شعبهم فيتصرونه ويزيل الضرر عنهم، وتعاين الساحر قائلا هل ينال هذا الرسول

معنا الآن^(١٢٠) ويذهب برستد الذي يسوق هذه الرواية إلى أنها مثال لقبوة أندالك حيث توقع فيها القائل قديم رسول كسيدا داود عليه السلام، وليس بعيدا كما يرى أن القصد منها القيام بمناورة من طرف اليهت المالك كي يمدحهم الساحر... ويرى برستد أن أمثال هذه التنبؤات أخذت تزداد من تلك الفترة حتى العهدين اليهودي والمسيحي، ويعدّها أقدم نبوة معروفة حتى هذا الوقت، ولا يستبعد أن تكون التوراة الأصلية الجامعة لتنبؤات رسل اليهود المعروفة، والتي صاغوها بأسلوب آمن^(١٢١)، وهي الحقيقة ليس هناك دليل على أنها التوراة الأصلية الجامعة لتلك التنبؤات، والقصة التي وردت عند اليهود أقدم منها بكثير، ومما يستخلصه الباحثان من خلال القصة الواردة عند اليهود في حروب يهات (٢١٠٢ ق.م) أنها ربما كانت متأثرة بروحي ديني أصيل، ثم وجد ما يماثلها في عهد سرجون الأكادي (٢٨٠٠ ق.م) وكذلك في مصر أيام الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ - ١٧٨٨ ق.م) كما لبين، أيضا في عهد منفتاح (١٢٢٤ - ١٢٢٤ ق.م) أيام الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ - ١٢٠٠ ق.م)، كما سيتضح لاحقا.

وربما لم يجانب كروزر الصواب حين رأى أن الأسطورة نوع من أنواع التعاليم الدينية، متبعها وحي ديني أصيل، ثم نقلت للأجيال اللاحقة بصورة رمزية عبر رجال الدين، كما يعتقد أن حكمة الشرق قد انتقلت إلى بلاد اليونان لتؤلف نواة لجميع الأساطير التي اشتعلت على حكمة الأجيال المسيحية في صورتها مجازية^(١٢٢)، فأنه ما فعله اليونانيون بالأسطورة أنهم كانوا يعدّلونها ويطورونها ليصنعوا لها حياة متفتحة بالديمقراطية والعدل^(١٢٣) وفقا لتطور الأحوال، وأخيرا كان أول ذكر مبين لأسطورة أوديب عند اليونان يرجع إلى عهد هوميروس (القرن التاسع)، وعلى هذه الأسطورة بنى سوفوكليس المسرحيتين لكن الأسطورة نفسها تشابه في بعض عناصرها مع ما جاء في التوراة.

ثالثا: عناصر أسطورة أوديب والتوراة

إن بعض عناصر أسطورة أوديب لها ما يماثلها في التوراة ومن هنا أشار علي عبد الواحد وأفي إلى وجه الشبه بين ما جاء في بعض الأساطير اليونانية وما ورد في القصص الدينية التي في الكتب المقدسة^(١٢٤).

فهناك إخراج للطفلين أوديب وموسى عليه السلام من معضن الأميرة مع اتفارق بين الحالتين فوالد أوديب دفع به لأجل إهلاكه بينما دفعت أم موسى به للحفاظ عليه من بطش فرعون، تقول الأسطورة بخصوص أوديب أن والده رماه على جبل كثيرون بعد أن جرح قدميه، لكن راعيا عثر عليه وأخذته إلى ملك كورنثا فتيناه^(١٢٥)، وهي رواية أخرى أن زوجة ملك كورنثا كانت عاقرا فتيناه^(١٢٦)، وتقول رواية أخرى للأسطورة إن الراعي أشفق عليه وأسلمه لراع مثله وحمله إلى الملك^(١٢٧).

موسى اوديب ملكا وأوديب في كنانة

أما فيما يتعلق بالطفل موسى فنقول التوراة عن أمه وأخته وبناته فرعون والمرمعة: «ولما لم يمكنها أن تلعبه بعد أن أخذت له سبطاً من البردي وطلته بالحمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعت بين الحلفاء على حافة النهر، ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به، فترأت ابنة فرعون إلى النهر لتغسل وكانت جواربها ملشبات على جوانب النهر، فترأت السبط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته، ولما فتحته رأت الولد وإذا هو حي يبيكي. فترأت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين، فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرمعة من العبرانيات لترضع لك الولد، فقالت لها ابنة فرعون اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد، فقالت لها ابنة فرعون اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطيك أجرتك، فأخذت المرأة الولد وأرضعته ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصارت لها ابناً^(٢٧)».

يلاحظ أن كلا الطفلين حينما عثر عليهما قد صوملا بالمطبخ، وتم تربيتهما، إضافة إلى أنهما قد تربيما في البلاط الملكي.

وهناك رواية أخرى لحادثة التخلي عن الطفل أوديب أثبتت ماري ديكور وجودها وهي غمرة بلقاء ضمن صندوق^(٢٨) والآيات السابقة من التوراة تبين أن أم موسى وضعت في النهر لأجل الإبقاء على حياته. والافتقار للنظر التشابه في طريقة تسمية أوديب بهذا الاسم وكذلك مبيدنا موسى عليه السلام، فالأسطورة تقول أن ملك كوراش سبأ بهذا الاسم لأن قدميه مبروحتان^(٢٩)، وفيما يتعلق بمبيدنا موسى عليه السلام فنقول التوراة أن ابنة فرعون أطلقت عليه هذا الاسم لأنها انتشلت من الماء^(٣٠) ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من الماء^(٣١) فمن ينتشل من الماء يسمى في العبرية موسى..

الضح من خلال الأسطورة أن أوديب تزوج أمه دون أن يدري أنها أمه وقتل والده دون أن يعرف هويته، ففي نسخة من البلاط^(٣٢)، «وإن نظرنا إلى شريعة التوراة لوجدنا أنها تقر القتل لمن قتل نفساً سهواً، «والذين التي تعطفون اللاويين تكون ست منها مدناً للملجأ»^(٣٣)، «وكلم الرب موسى قائلاً، كلم بني إسرائيل وقل لهم إنكم غابرون الأبدن إلى أرض كنعان فتبنون لأنفسكم مدناً تكون مدناً ملجأ لكم ليهرب إليها الفاعل الذي قتل نفساً سهواً»^(٣٤)، «وكلم الرب يشوع قائلاً كلم بني إسرائيل قائلاً: اجعلوا لأنفسكم مدناً للرجاء كما علمتكم على يد موسى لكي يهرب إليها الفاعل ضارب نفساً سهواً بغير طعم»^(٣٥).

تفيد الأسطورة أن والد أوديب قد تلقى تحذيراً من أحد العرافين بأن ابنه سيقطله في يوم ما وإذا نخلص منه عند ولادته^(٣٦) والتوراة لا تتحدث عن تحذير قادم لفرعون من أحد العرافين، وإنما خشي من فكرة اليهود هي المستقبل فطلب من القابلات العسريات قتل كل مولود ذكر^(٣٧).

بينما يذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس (٣٧ - ١٠٠ م) في كتابه آثار اليهود: أن العراف الأخير لذلك المصري بأن مولوداً من بني إسرائيل سيكون له شأن ويكسب شهرة دون أقرانه ويعلي من

شأن الإسرائيليين، وبناء على هذا الإنذار أصدر الملك أوامره بأن يتم الخلاص من كل مولود ذكر من الإسرائيليين من خلال إلقائه بالنهر، بحيث تتم رقابة صارمة على النساء العبريات في أثناء المخاض من خلال رقابة القابلات المصريات^(٢٢)، وعليه يكون لهرسيفوس مصدر آخر غير التوراة استلقت منه هذه الرواية.

أخيرا : ثقافة المسرحيين مع القوادة

أ - مسرحية أوديب ملكا

قبل الشروع في مقارنة مسرحية أوديب ملكا مع التوراة من المهم تبين شخصية أوديب وما تحفبه بعض فقرات المسرحية على سبيل

النال لا الحصر فيما يتعلق بنمط شخصية أوديب وإنائه السلوكي وذلك من خلال بعض أقوال أوديب نفسه وكذلك شخصيات المسرحية .

فها هو يقول: «أنا أوديب الذي يعرفه الناس جميعا، علم أنها الشيخ تحدث... ما مصدر هذه الهيبة التي أنتم عليها؟ أوهية أم رقية؟ كل يأتي شاهداً الحرم على سمعوتكم. فقد أكون خليفاً بالخطوة والقسوة إن لم يمسسني الإشفاق عليكم...»^(٢٣) حين يقول: «أنا أوديب الذي يعرفه الناس جميعا، إنما يريد منذ البداية أن يظهر تميزه وذاتيته على الآخرين، وحين يتحدث عن الرقية قبل الرغبة فهذا يعزز تميزه وذاتيته على غير ما تم ألا ينفي من قوته القول بأن أنه في الأصل خليق قاس والشفقة حادث طارئ؟ ولذلك يشتم من كلامه رائحة التهديد، وفي سياق آخر يقول إنه الكاهن: «... فقد أرى أنه إذا أتبع لك أن تحكم هذه الأرض، فالظهير في أن تحكمها معصومة لا مقسرة، ما قيمة الأسوار، وما قيمة السفن إذا خلت ولم يوجد من يلوذ بها ويحتس من ورائها»^(٢٤)، يلاحظ أن الكاهن يخاطب الملك صاحب السلطان مقدما له النصيح والإرشاد بأسلوب حذر، ثم إنه يحمله مسؤولية خراب العمران بطريقة خفية ظاهرها الاستعطاف، وهي عمقها الخوف.

وعندما أصدر أوديب على معرفة قاتل الملك قال: «... إن أمحو هذا الرجز إيثارا لأصدقاء بل إيثارا لنفسي. أي الناس قاتل الملك فهو خليق أن ييسط يده علي بالشر نفسه»^(٢٥)، يعود أوديب هنا ليؤكد على تميزه وذاتيته، على الرغم من كونه استجاب لطلب الناس في البحث عن قاتل الملك، فهو يبحث عن قاتل الملك حماية لنفسه ومن هنا يتمركز حول ذاته في أفعاله وأقواله، وعليه لا يستطيع أوديب أن يطرح من هذا الإطار الذي تمحور حوله، فها هو يخاطب رئيس الجوقة بأسلوب الاستعلاء: «إني أحظر على أهل هذه المدينة التي أنا صاحب العرش والسلطان فيها أن يستقبلوا هذا الرجل كالنم من يكون»^(٢٦).

وحيثما أخبر تريسباس (الكاهن) أوديب بأنه القاتل بدأ طغيانه واستبداديته إذ يقول: أبلغ بك هقدان الحياء أن تتعلق بهذا الكلام؟ وأين تستطيع أن تضع نفسك بآمن مما تستحق

مسرحية أوديب ملكا وأوديب في كولون

من العقاب»^(١٢٧)، وعلى الرغم من كون أوديب يمدو واقعها في الظاهر في بث الرسل إلى المرافين، إلا أنه شتم ترميسياس الذي ينطق بصوت الآلهة^(١٢٨).

إن أكثر حوار في المسرحية يظهر عن أوديب من حيث كونه طائفة الحوار التالي: «كربون - لسد أراك تحسن الحكم.

أوديب - بل أنا أحسنه فيما يعطيني.

كربون - يجب أن تحسنه فيما يعطيني أيضا.

أوديب - ولكنك خائن.

كربون - إن كنت مخطئا في هذا الرأي.

أوديب - يجب أن تطيع على الرغم من ذلك.

كربون - كلا - لا طاعة إلا كان القاضي جائرا»^(١٢٩).

وبعد أن حقق أوديب عينيه كان كربون أكثر جراءة معه وبذلك أزال الضاع عن حقيقته فقال له: «لا تحاول دائما أن تكون صاحب الأمر، فإن ما أهالك ظفرك قدبها لم يصاحبك في افوار حينك كلها»^(١٣٠)، وكما يقول إيتا الحاربي: «وإذا كانت المسرحية ذات نزعة تعليمية، فإن الكاتب كان يظهر أهات الطغيان ومشاغره وأعراضه، وهو ما نشاهده في أوديب الذي ينهم ويحكم من ذاته، ولا يحفل بالبيئة والشعب، إنه المستبد المطلق»^(١٣١) وبناء على ما تقدم إن الأسطورة والمسرحية يظهران عن أهل أوديب الفطري نحو الفطوسة التي أوصلته إلى الإثم، والزواجية بينه وبين كربون وترميسياس تظهر سمات وخصال أوديب السلوكية للمزوجة بالتهور الذي لا يبرر له والفرور والتكبر والثقة المفرطة بالنفس والتزوع إلى التناول على الأرياب من خلال إنكار مقدراتهم^(١٣٢).

بعد هذا العرض الذي بين قسمية أوديب وسلوكياته تأتي مقارنة مسرحية أوديب ملكا مع التوراة لمعرفة أي شخصية في التوراة تقابل شخصية أوديب.

جاء على لسان الكاهن مخاطبا أوديب لأجل اكتشاف قاتل الملك: «... هذه طيبة كما ترى تهز هذا عتيفا، وقد اضطرت إلى هذه عميلة، فهي لا تستطيع أن ترفع رأسها، وقد أحذفت بها الأخطار الدامية من كل مكان، إنها تهلك فيما تحتوي الأرض من البشر، إنها تهلك القطعان الرائعة في المراعي، إنها تهلك بما تصيب النساء من إجهاض مقيم، إن الإله الذي يعمل نار الحصى قد اندفع في المدينة مدمرا مضرها، إنه الوياء للهلك على مدينة كادموس...»^(١٣٣) هالكلام يشير صراحة إلى موت البذور وهلاك القطعان وقاء الناس وعضب الإله المدمر، وهذه الصورة الكئيبة بالخراب تشبه تلك التي حلت بأرض فرعون، حين امتنع عن إخراج بني إسرائيل مع موسى، تقول التوراة: «فغضب البرد في كل أرض مصر جميع ما في الحقل من الناس والبهائم، وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل»^(١٣٤)

«فالتكلم والشعير ضريبا»^{٣٧٢}، ثم قال الرب لموسى وهارون هذا مله أهدبكما من رعاة الأئون، ولتذر موسى نحو السماء أمام هينى فرعون، ليصير ليبارا على كل أرض مصر، فيصير على الناس وعلى البهائم دماخل طالعة يثور في كل أرض مصر»^{٣٧٣}، ثم قال الرب لموسى بكر في الصباح وقت أمام فرعون وهل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين أطلق شعبي ليعبدوني... فإنه الآن لو كنت أمد يدي فأمسريك وشعبك بالقوباء لكنت أباد من الأرض»^{٣٧٤}، «وكان صراخ عظيم في مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت»^{٣٧٥}، «وقال موسى هكذا يقول الرب إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر، فيموت كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى وكل بكر بهيمة ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن مثله لا يكون مثله أيضا»^{٣٧٦}.

فالهلاك الذي أصاب طيبة سببه الخطيئة المتمثلة بعقتل الملك لاويوس على يد الملك أوديب، والهلاك الذي حل بأرض مصر سببه امتناع فرعون عن إخراج بني إسرائيل مع موسى، والذي نفذ الهلاك في كلا المدينتين غضب الإله.

ومما جاء على لسان الجوقة، وأجسرتاما إني لأختلأ ألاما لا تحصي، لقد سرت العدوى في الشعب كله، وعجز العقل عن أن يشرح سلاخا يندب به عن إنسان، لقد جمعت ثمرات الأرض فهي لا تنمو، وجمعت الأمهات فهن لا يتوهجن من سواقدهن، قد اتبعت عليهن الأم التوضع، وجعل الموت يرسل صحابة منتظمة في سرية العار التي لا ترد إلى آلهة الجعيم.

وجعلت المدينة وقد فطدت أبنائها بغير حساب هلاك، وبلغ عليها الدمار في غير رحمة ولا رفق، وهذه الجثث مكددة على الأرض لا تجد من يبكها، وهي تشر في المدينة تشرأ، وهؤلاء الأزواج وهؤلاء الأمهات ذوات التشمع الناصع قد أعطن بالعمد من كل وجه، وأقمن على درجته شاكيات باعسات أبنيا، ماكتات به الفضاء، ضارعات إلى الآلهة هي أن تضع حدا لهذا الشقاء»^{٣٧٧}.

إن سياق الكلام يشير صراحة أيضا إلى المسببة التي حلت بالشعب كله وإلى موت ثمرات الأرض وجمودها، علاوة على معاناة الأمهات من الأم التوضع إضافة إلى التهام الموت للمواليد، وهناك الجثث المكدة على الأرض، ولا تجد من يبكها، ثم يعود سوفوكليس ليؤكد من جديد على معاناة الأمهات الشاكيات والناصع إلى الآلهة لتضع حدا لهذه المعاناة، ولو نظرنا ثانية إلى ثبات التوراة لوجدناها تشير إلى ذلك بوضوح حين امتنع فرعون عن إخراج بني إسرائيل مع موسى، بحيث نجد صورة الدمار: «ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه النضريون، على أنهارهم، وعلى سواقهم، وعلى آجامهم، وعلى كل موضع مياههم لتصير دما»^{٣٧٨}، «فقال الرب لموسى قل لهارون مد يدك بعصاك على الأنهار والسواقي والآجام وأصعد الضفادع على أرض مصر»^{٣٧٩}، «ثم قال الرب لموسى قل لهارون مد عصاك واضرب تراب الأرض ليصير دموضا في جميع أرض مصر... فصار الدموض على الناس وعلى البهائم... وقمل كذلك

مصرية أوديب ملكا وأوديب مع تولد

العراقرق يسعدهم ليخرجوا اليعوز فقام يستطعموا^(١٢٧)، فتشغل العراقرق في إزالة اليعوز هو في الحقيقة يشبه عجز العقل الذي أشار إليه سوفوكليس من حيث كونه لم يستطيع أن يشرع سلاحا يذود به عن الإنسان، ثم قال الرب ثوسى بئر في الصباح وقف أمام فرعون... فإنه إن كنت لا تطلق شعبي ها أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذين فتمتلئ بيوت المصريين ذبانا... فتسل الرب هكذا، فتدخلت ذبانا كثيرة إلى بيت فرعون وبيوت عبيده، وفي كل أرض مصر خربت الأرض من الذبانا^(١٢٨).

ثم قال الرب ثوسى مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد، ليصعد على أرض مصر ويأكل كل عشب الأرض، كل ما تركه البرد... فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل في جميع تخوم مصر... وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذي تركه البرد... حتى لم يبق شيء أخضر في الشجر ولا في عشب الحقول في كل أرض مصر^(١٢٩).

وهيما يتعلق بالأم الوضع التي أصابت الأمهات والموت الذي يرسل شعباها بشكل متتابع، فسيه على الأرجح إشارة من طرف خفي إلى ما أمر به فرعون حين قلب قتل كل مولود ذكر، تقول التوراة: «وكلهم ملك مصر فاملتي الميراثات... وقال جوهيا تولدان الميراثات وتظنانهن على الكراسي. إن كان ابنا فاقطلاه وإن كان بنتا فقتلها»^(١٣٠)، ومما يعزز هذا الرأي أن أوديب نفسه حين كان يخاطب رئيس الجوقة لأجل اكتشاف قاتل الملك قال: «وانى لأتمنى على الآلهة أن ينزلوا غضبهم على الذين يخالفون كمي أمري فلا تفت لهم أرضي»^(١٣١)، ولولا ذلك لهم تساقطهم البتة... وأما أنت يا أبناء كنعوس استم الذين يطهونى ويسمعون لى فأنى أتمنى أن يكون العدل لكم خليفا وعونا»^(١٣٢)، فهذا الكلام فيه استبدادية واستعباد فمن لا يعطيه يكن خصما له ولا يعاقبه العدل، وهذا يشبه ما فعله فرعون بني إسرائيل أكثر وأعظم منا، فلم نحتال لئلا ينمو فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربونا... فاستعيد المصريون بني إسرائيل بعنف^(١٣٣)، ومما ينبغي التنبيه إلى أن أوديب كان ملكا جديدا لطيفة بعد مقتل لاوس.

وعندما رأى الملك أوديب هذه المصائب وقد حلت بطيبة طلب من تريسباس الكاهن أن يخلص المدينة من هذا الوفاء بحكم كونه يطالع على كل شيء، فقال له: «أي تريسباس أنت الذي يظهر على كل شيء، على ما يمكن أن يعلم وما ينبغي أن يحفظ، على آيات السماء وإعلامات الأرض... يجب أن تعلم بأن خلاصنا من هذا الوفاء رهين بأن تستكشف قاتل لاوس... ألقذ المدينة... إن أمرنا كله إليك...»^(١٣٤)، يستخلص من هذا الكلام أن أوديب قد رفع تريسباس إلى مقام النبوة.

ولما رأى فرعون المصائب قد حلت بأرض مصر دعا موسى وهارون لرفع هذه المصائب، تقول التوراة: «فدعا فرعون موسى وهارون وقال صليا إلى الرب لرفع الضفادع عني وعن

شعبي...^(١٠٠)، «فأرسل فرعون ودعا موسى وهارون وقال لهما أخطأت هذه الأمة الرب هو البار وأنا وشعبي الأشعار، صلبا إلى الرب وكفى حدوث رجوع الله والبرق فأطلقكم ولا تعودوا تلبثون»^(١٠١)، «دعا فرعون موسى وهارون مسرعين وقال أخطأت إلى الرب إلهكما وإلهكما، والآن استغفرا من خطيئتي هذه المرة فقط، وصلبا إلى الرب ليرفع علي هذا الموت فقط...»^(١٠٢)، «فالربط المشترك بين الحدين أن الملك أوديب يطلب من تريسياس الكاهن الذي رفعه إلى مقام النبوة أن يرفع الأذى عن مدينة طيبة وكذلك فرعون يطلب من موسى وهارون رفع الأذى عن أرض مصر، إضافة إلى أن المصائب حلت بطيبة وأرض مصر بسبب كل من أوديب الملك وفرعون الملك.

وعندما أخبر تريسياس أوديب بأنه القاتل قال أوديب: «إنما هذا صديرك وصديرك كريون... هذا كريون قد احتفظه السلطان الذي أهدته إلى طيبة دون أن أعلمه إليها، فإذا هو ينسل من تحتي يريد أن يسقطني ويقتل عرشني مستغفرا على ذلك بهذا الساحر، بهذا الماكر، بهذا المشعوذ الخلف»^(١٠٣)، «وحينما طلب كل من موسى وهارون من فرعون إطلاق بني إسرائيل، التمسوا الرب، حول فرعون المسألة إلى أمر سياسي متعلق بالثورة الشعبية ضد الملك، تقول التوراة: «ومع ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعبدوا لي في البرية...»^(١٠٤)، «فقال لهما ملك مصر لئلا يا موسى وهارون تبهطلان الشعب من أفعالكم»^(١٠٥).

بعد ذلك العرض ألا يمكن أن نستشف أن أوديب الملك الطاغية يتقابل فرعون مصر الذي يعزز ذلك أن هناك طائفا جديدا بين أوديب الطاغية مع كريون البصير وتريسياس الكاهن الأعمى، والمواجهة هي التوراة كانت بين فرعون الطاغية من جهة وموسى صاحب اللسان الثقيل وهارون الفصيح من جهة أخرى، وعليه ألا يمكن أن يكون تريسياس الكاهن الأعمى يمثل في المسرحية موسى النبي صاحب اللسان الثقيل، وكريون البصير يتقابل هارون الفصيح. فالتساؤل الذي يطرح نفسه الآن لم جعل سوفوكليس في المسرحية شخصيتين اشتري فقط تواجها شخصية أوديب إلا مبرزهما بسمات جسدية متعلقة بالإبصار والعمى وفي الوقت نفسه نلاحظ أن كلا من موسى وهارون قد واجها فرعون إذ كان موسى تقيل اللسان بينما كان هارون فصيح اللسان. تقول التوراة: «فقال موسى للرب... أنا ثقيل الفم واللسان... فحمني غضب الرب...»^(١٠٦)، «وقال ليس هارون التلاوي أخاك أنا أعلم أنه هو يتكلم»^(١٠٧) وعليه فهذه ثنائية ضدية متعلقة بطلاقة اللسان وعدمه بينما تتضح هذه الثنائية عند سوفوكليس بثنائية الإبصار والعمى فهل جاء الأمر صدفة وخاصة إذا علمنا دور ومكانة هذه الشخصيات.

لبيت لأوديب من خلال حوار مع الرسول والخادم بأنه قد عاش بالتبني عند بوليبيوس حاكم مدينة كورثا حيث كانت أسرته عاقرا^(١٠٨)، ومما هو معروف أن موسى قد عاش هو الآخر

مسرحية أوديب ملكا وأوديب مع توت

بقصر فرعون. وقد بينا من خلال مسرحية أوديب ملكا أن أوديب يشبه فرعون، إلا أن سوفوكليس في هذا الموضع بالذات قد جعل شخصية أوديب التينى تقابل شخصية موسى عليه السلام ولذا يكون بوليبيوس تقابل شخصية فرعون.

ولما تربع لأوديب أنه قاتل أبيه فتأ عينيه وقال: «... التقوني في البحر حيث لا تروني آخر الدهر»^(١٢٠)، والسؤال المطروح هنا لم اتجأ سوفوكليس لأن يذكر البحر على سبيل النهاية لأوديب الطاغية، على الرغم من كونها لم تتحقق في المسرحية؟ بينما نراها قد تحققت لفرعون في التوراة وبهذا يغيب عن مسرح الأحداث: «فدفع الرب العبريين في وسط البحر. فرجع الماء، وغطى مركباتهم وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر. لم يبق منهم ولا واحد»^(١٢١).

ومن التفسيرات الواردة في مسرحية أوديب ملكا أن سوفوكليس يعد القتل رجسا يدين الوطن حيث جاء على لسان كريون: «إن الملك أبولون بأمرنا أن ننقذ الوطن من رجس ألم به... أما الظهور فإن شفي مجرما وأن نقتنص من القاتل بالقتل فإن الإجراء والقتل هما أصل الشر في طبيعة»^(١٢٢). وما هي التوراة تقول: «لا تدنس الأرض التي أنتم فيها لأن الدم يدين الأرض، ومن الأرض لا يكثر لأجل الدم الذي سفك فيها إلا بدم سافكه. ولا تجسوا الأرض التي أنتم مقبضون فيها التي أنا ساكن في وسطها»^(١٢٣)، ويصف كريون أوديب بأنه لا يرى الحقيقة بسبب الخطيئة، على الرغم من كونه مبعوثا... ليستعيدك إنما أدين بالطاعة لأبولون... فلأجل لك في سواحة إن ما كنت تغيرن فقد ان البحر إن عينيك مفتوحة إن الضوء، ولكك لا ترى ما أنت فيه من شر... إنك تجهل أنك بغض إلى أسرتك في الدنيا وهي دار الموتى مستصحبك اللغة من أبوك وأهلك...^(١٢٤)، وهي هذا المعنى لقول التوراة: «ولكن إن لم تسمع الصوت الرب إلهك التحرس أن تعمل بجمع وصايا وفرائض التي أنا أوصيك بها اليوم تأتي عليك هذه العنات وتتركك... يضربك الرب بجنون وصم وحيرة قلب فتتلمس في الظهور كما يتلمس الأعمى في الظلام ولا تتجح في طرقك»^(١٢٥).

ويبقى الأمر خلافها بين الباحثين في تحديد اسم فرعون موسى، إذ إن التوراة لا تذكر اسمه، وإنما تذكر لقب الملك «فرعون»، ولكل من الباحثين دليله، فالأراء كما يسوقها محمد بيومي مهران تنحصر في الأسماء التالية: أحسن الأول: لحولمن الثالث، توت خنخ آمون، رمسيس الثاني، منتفح سبتي الثاني، بعد نهاية الأسرة التاسعة عشرة، بعد عهد رمسيس الثالث، لكنه يؤيد أنه منتفح بعد أن ذكر ست عشرة حجة^(١٢٦).

وعما يرجح أنه منتفح من هذه الدراسة المقارنة أن أوديب بعد أن فقد مكانته كملك وخرج إلى كوالنا أصاب المملكة اضطراب سياسي تمثل في خلافة العرش ونزاع ولديه عليه من بعده حيث ظهر به الأصغر اليوكليس ولهذا جاء الأكبر بولينيكس متوسلا لأبيه^(١٢٧)، وعين مات

منفتاح واجهت مصر أزمة سياسية مفاجئة حول من يتولى العرش، ففي أثناء حكمه كان والي العهد سيدي بتاح أكبر الأبناء، وعلى الرغم من ذلك لم يتول العرش وتحول لغيره لأسباب ما زالت مجهولة، فجلس أمون من على العرش، في ظل ظروف مبهمة حتى الآن، ويمكن الافتراض أن يكون منفتاح قد مات في غياب ولده عن العاصمة، وأن مؤامرة حصلت بين حريم القصر فشكت صغير السن من الوصول إلى العرش والإسراع بذهن أبيه، فدانت له الأمور⁽¹⁴⁾، فالرابط المشترك بين الحدين حصول الخلاف على ولاية العهد في ظل غياب الملك، وكذلك ظهر الصغير بالعرش وحرمان الكبير، ثم إن الخلاف يقع بين اثنين فقط، والدليل الثاني أن أوديب قد هُنا حينه فقد بصره، وما هو هردوت يقول عن منفتاح: «وحدث أن أصابه العمى من جراء هذه الحادثة الثانية؛ فاضى النهر وقتئذ فيضاً شديداً جداً... وهم يروون أن الملك - وقد تمكنه سخط ممل - أخذ رجلاً واقفاً به وسط دوامات النهر، وبعد ذلك أصابه في الحال أدنى في عينيه ففقد بصره، وبقي أعمى عشر سنوات. وفي السنة الحادية عشرة جاءه وهي من مدينة بوطو بنيت أنه مدة العقوبة قد انقضت، وأنه قد يسترد بصره إذا غسل عينيه ببول امرأة لم تجتمع إلا بزوجه فقط... ولما عاد إليه بصره... جمع جميع النساء اللاتي جربهن، حالاً تلك التي أبصر بعد **الاغتسال ببولها**. جمعوهن في مدينة تسمى الآن (أورتري بولوس) وبعد جمعهن أحرقن والدننه معهن»⁽¹⁵⁾، وما هو أوديب في مسرحية أوديب في كولونا يعود له بصره حيث جاء على لسان الرسول: «لم يكن أبي لأوديب بل كان بقودنا جميعاً»⁽¹⁶⁾.

http://Archivebeta.Bakhril.com

ب - مسرحية أوديب في كولونا

قبل الشروع في المقارنة مع التوراة نحسن الإشارة إلى تبدل حال أوديب حيث رقت له الآلهة، فعندما حل في كولونا نزلت عليه الرحمة واسقطته الآلهة، بلُذد ذلك دراسة كوليت استنبه «أسطورة أوديب» والتي تروى أنه حينما وصل إلى غاية كولونا اختطفته الآلهة وأصبح فيه مباركاً بالسمية إلى الأرض التي يدفن فيها، وهذا يذكر بالقدرة التي تكون للرسل الذي ينحصر في الامتحن الإلهي⁽¹⁷⁾، وأوضح دليل على الاصطفاء الإلهي لأوديب ما جاء في مسرحية أوديب في كولونا على لسان الرسول: «لما طرد أحد الآلهة أو انشقت الأرض فابتلته لتجعله بمنجاة من الأمم»⁽¹⁸⁾.

بعد أن خرج أوديب إلى كولونا دخل أرضاً مقدسة يتضح ذلك من خلال حوار مع ابنته أنتيجونا: «... أما هذا المكان الذي نحن فيه، فمكان مقدس من غير شك، فإنه مغطى بالغار والريون والكرمة»⁽¹⁹⁾، بدليل أن الغريب خاطبه بهذه القائل: «قبل أن تزيد على هذا حرفاً يجب أن تخرج من هذا المكان فإنك في موضع لا ينبغي للإنسان أن يطأه بقدمه»⁽²⁰⁾، أما ما يقابل هذا الكلام في التوراة ما جاء في سفر الخروج حين ظهر ملاك الرب لموسى: «وظهر له ملاك

مسيرة أوديب ملكا وأوديب في كورنثوس

الرب بلهيب نار من وسط العليقة... فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة فقال موسى موسى فقال هاأنذا فقال لا تقترب إلي هنا أطع حذائك من رجلك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة^(١٢٦) يلاحظ من النصين السابقين أن المكان المقدس الذي جاء إليه أوديب مغطى بالغار والزيتون والكرم، وكذلك المكان الذي جاء إليه موسى، ففيه شجرة الحليق المقدسة، فالقدوس عامل مشترك مع وجود الشجر بصرف النظر عن النوع، إضافة إلى ذلك خلق التعل.

واللافت للنظر أن الآلهة التي تسكن المكان المقدس الذي وصل إليه أوديب هي آلهة مخطوفة، إذ يقول الغريب: «مكان مقدس غير معصور تسكنه الآلهة المخوفة بذات الأرض والليل»^(١٢٧). ولما نادى الله موسى من وسط العليقة غطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله^(١٢٨) كما تزعم التوراة، فالسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الموضع هو ما سر تقارب الحوار في المسرحية فيما يتعلق بالآلهة المخوف توافقا مع آلهة النوراء في سفر الخروج، أضف إلى ذلك أن أوديب خرج بعد فعل إجرامي، وموسى قتل القصري بغير قصد - قبل النبوة - وخرج هاربا من وجه فرعون.

وعندما أراد أوديب أن يدخل كورنثوس حاول الغريب أن يمنعه كما تقدم وقال له: «... الأرض التي تغطي عليها تسمى العتبة التجارية لهذا البلد أساسا إني»^(١٢٩)، فالعتبة بمنزلة مدخل باب المدينة. ثم سأل أوديب الغريب عن اسم سيد القرية فأخبره بأنه ثيسبيوس وقال له: «... أقم هنا حيث وجدتك جيش ألقبيد، فأجعل كلاله لا إلى أهل المدينة بل إلى أهل هذه القرية، فهم الذين سيقررون بقاءك أو ذهابك»^(١٣٠) فاهل القرية من عليا القوم وثيوقها.

وبعد ذلك تخاطبه ابنته أتييجونا: «الصمت يا أبي، إني أرى قوما يدنون فيهم شيوخ وقد تقدمت بهم السن ويريدون أن يستكشفوا المكان الذي أقمته فيه»^(١٣١)، ونحن تأخذ أعضاء الجوقة في البحث عن أوديب يصفه أحدها بالجرأة والوقاحة. عند ذلك يرد متوسلا: «إني أضرع إليكم في ألا تطروا إلي تطروكم إلى العدو»^(١٣٢)، وأخيرا يصاع لأوامر رئيس الجوقة فيقول لأبنته: «قوديني إذن يا ابنتي إلى حيث ترضي ما يرضى الدين وإلى حيث نستطيع أن نقول وإن نسمع ولننتجنب مقاومة الضرورة، فبهد عليه رئيس الجوقة: «قف هذا ولا تتجاوز هذه العتبة المتصلة بهذه الصخرة»^(١٣٣) وأخيرا ألقى أوديب بحجته: «... إن الأعمال التي أقدمت عليها والتي تخلفك مني إلى هذا الحد قد فرضت علي فطعنت لها، ولم أقدم عليها عامدا ولا مریدا... من أجل هذا أضرع إليكم أيها الغريباء أن تتقدوني وتحصوني بعد أن أخرجتموني من هذه الغابة المقدسة...»^(١٣٤) ونحن أتى ثيسبيوس سيد المدينة أوى أوديب بعد أن سمع شكواه ودعواه قال: «من ذا الذي يستطيع أن يرفض عطف رجل كهذا الرجل؟» وأشار إلى رئيس الجوقة بالقول: «إن أراد الغريب أن يقيم في هذا المكان فأكل إليك العناية بحمايته، وإن

أراد أن يصطحبني فله ما يشاء...^(١٢٢) كما خاطب أوديب فانتلا: «واختر أنت يا أوديب مكان إقامة لك كما تحب وتهوى»^(١٢٣).

يستخلص مما سبق أن أوديب قد وقف على عتبة المدينة التي جازها متقبها، وحين قدم دعواه وبث شكواه إلى شيوخ القرية مركزا القول على أنه لم يكن متعمدا ما فعل من إجرام، آل القرار إلى حاكم المدينة ثيسبيوس فمتحه مكانا للإقامة مع الحماية، ولو نظرنا بالتفصيل إلى الثوراء لوجدنا أنها تحوي العناصر السابقة من خلال الآيات التالية: «كلم بني إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان، فتعيون لأنفسكم مدنا تكون مدن ملجأ لكم يهرب إليها القاتل الذي قتل نفسا سهوا، فتكون لكم المدن مجلا من الولي لكي لا يموت القاتل حتى يقف أمام الجماعة للقضاء»^(١٢٤). «اجعلوا لأنفسهم مدن الملجأ كما كلمتكم على يد موسى لكي يهرب إليها القاتل ضارب نفس سهوا يغير علم، فتكون لكم ملجأ من وادي الدم، فيهرب إلى واحدة من هذه المدن ويقف في مدخل باب المدينة ويتكلم بدعواه في أذان شيوخ تلك المدينة فيضعونه إليهم إلى المدينة ويعطونه مكانا فيسكن معهم»^(١٢٥).

على الرغم من أن ثيسبيوس قرر منح أوديب مكانا ليعيش فيه، فإن أوديب كان متطوفا، ودليل ذلك أنه يقول لثيسبيوس: «سأقبل بعض الناس»^(١٢٦) ويتصد بذلك محاولتهم إرجاعه إلى وطنه طيبة لكن ثيسبيوس يطمئنه بالقول: «إن الذين اجتروا على أن يسطفوا بهذه الكلمات الخطيرة وينذروا بأنهم سيخربونك من هذه الأرض سيجدون دون الوصول إليك بحرا واسعا شديد الاضطراب، آمن نفسك إذن فليس عليك بأس حتى ولو لم أقم دونك ما دام أبولون هو الذي أرسلك»^(١٢٧).

وبالعودة إلى ما جاء في الثوراء بخصوص البحر الذي يقف حاجزا بين موسى وفرعون: «قال الرب لموسى مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرساتهم، فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لغائهم، فدفع الرب المصريين في وسط البحر، فرجع الماء فغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، لم يبق منهم ولا واحد، وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر وأما سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم»^(١٢٨) والمكان الذي وصل إليه أوديب هو مكان غضب ثرعاء الآلهة إذ تصفه الجوقة من خلال الحوار التالي: «إن القرية التي وصلت إليها أيها الغريب ذات الأرض البيضاء والتي لا يشبهها مكان في الدنيا هي كولونا ذات الأرض البيضاء، هنا يتلفس الليل ذو الصوت الناهذ في أعماق الأودية الخضراء أكثر مما يتلفس في أي مكان... هنا يحب ديونيسيوس أن يهيم في عبقة القدس بين العذارى اللاتي فمن على تربته... لا تنام في يوم من الأيام البنايع الغريبة لنهر كليفيس الذي ينساب ملوكيا هنا وهناك كأنه لعبان في كل يوم يهذي بأواز الصفاي إلى الأرض طعنا سرورا»^(١٢٩).

مصر يا أوديب ملكا ياوديب مع كايوس

لاحظ رواية التوراة بخصوص الوعد الإلهي لموسى ولأبنائه فيما يتعلق بطبيعة المكان الذي سيحل فيه: «ويكون مثل أرض إصطفاه الرب أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والحيويين واليبوسيين التي حلف لأبائكم أن يعطيكم أرضاً تفيض لبناً وعسلاً...»⁽¹⁾، وفي موقع آخر: «... بل الأرض التي أنتم عابرون إليها لكي تمتلكوها هي أرض جبال ويقاح. من مطر السماء تشرب ماء أرض يعطي بها الرب إلهكم. عيناى الرب إلهكم عليها دائماً من أول السنة إلى آخرها»⁽²⁾.

يتضح من خلال استقراء الفقرات المسرحية السابقة أن هناك حماية لأوديب من خلال البحر الذي سيشكل حاجزاً بينه وبين من يتبعه بالإضافة إلى أن الإله أبولون هو الذي أخرجه إلى كولونا ذات الأرض الخصبة بشمارها ومائها مكللة بغاية الآلهة، وهذا يمثل ما جاءت به آيات التوراة السابقة من حيث كون البحر قد شكل حماية لموسى وقومه وهلاكاً لفرعون وجنده بعد أن أرسله الرب، وكذلك فيما يتعلق بالأرض وطبيعتها الخصبة ووفرة المياه فيها متوجة برعاية الرب.

بعد هذه الفرائض ألا يمكن أن يقال إن أوديب في كولونا يشبه موسى بعد الخروج؟ وإن طبيعة تقابل مصر وعلى هذا فهل كولونا ذات الأرض الخصبة هي أرض الميعاد كما نزعهم التوراة؟ بعد أن أعطى شمسوس حاكم المدينة أوديب مكاناً ليقيم فيه، تبعه كريبون ليعيده إلى طبيعة على اعتبار أنه ولى الدم، إلا أن زوجة أوديب هي أخت كريبون. يتضح ذلك من خلال الحوار التالي: «كريبون - أيها القوم... لا تخفوا... فإني لم أقيم ولم يهرت شراً... إنما أقيمت مكلفاً أن أفتح هذا الرجل الطميع بأن يعود معي... لو يديسوس أسمع لي وعد إلى وطنك... أوديب - أيها الرجل الذي بلغ من التجارة انفساحاً... فبم هذه المحلوة... وكان التقي محبباً إلي وكنت أريده وألح فيه هابسته علي... والآن وقد رأيت هذه المدينة وأهلها يقتوتني لقاء كريما لتحاول أن تفسدني من بينهم... كريبون - إني أحستكم إلى هؤلاء الناس لا إليك، فليسا ذلك علي أصداقاً... فإذا ظفرت بك».

أوديب - من ذا الذي يستطيع أن يظفر بي رغم جبراتي؟... أيها الذين أجاوروني ماذا تصنعون؟ التخفرون دعني؟...

رئيس الجوقة - اتصرف أيها القريب. أسرع إلى الترحيل من هذه الأرض... كريبون من حظي أن أفقد أبناء أسرتي!...

رئيس الجوقة - إن أطلقك حتى تزد هاتين الفتاتين... كريبون - ... أعلم... أن الأثليين لا يقتلون في بلادهم رجلاً قتل أباه وبنى نفسه واتخذ أمه له زوجاً. أعلم هذا كله كما أعرف حكمه مجلسكم القضائي الأعلى، عليه اعتمدت...

أوديب - أيها الكائن الوحيد!... إن تستطيع أن تلومني أنا في خطيئة واحدة لأني إنما اخترت هذه الآثام هي ذات نفسي وهي ذات أسرتي، وإلا فينبى لي كيف الأم على موت أبي إذا

كان وحي الآلهة قد أتياهم بأن الموت سيأتيه من يد ابنته... فخاصمت أبي غير عالم بأبوتها ولا عاصد لخصومته وقتلته غير مزهد لهذا القتل! أما أبي أيها الشقي فقد كنت خليفة أن تستخذي من أن تضطروني إلى الحديث عن الاقتربان بها وهي الضلّة... لقد ولدني دون أن أعلم ودون أن تعلم هي بأمر المستقبل... وأنت تريد أن تزعمني من هذه المدينة، أنا الشيخ المستجير بها اللاجئ إليها...

رئيس الجوقة - إن الغريب أيها الملك رجل خيرا! إن شقاءه لعظيم! إنه الخلق بالمعونة!

ثيسبيوس - حسبنا كلاما! إن المعتدين يعضون، ونحن نقيم في هذا المكان.

كريون - ماذا تريد أن يصنع رجل لا سند له؟...

ثيسبيوس - ... أما أنت يا أوديب فأقم وليس عليك بأس...⁽¹⁴⁾

يتبين من الحوار السابق أن كلا من كريون (ولي الدم) وأوديب قد قدم حبيته أمام مجلس القضاء فأمر حاكم المدينة برد كريون ومنح أوديب مكانا كي يقيم فيه، تقول التوراة: «... وإذا تبعه ولي الدم فلا يسلموا القتلى بيده لأنه يغفر ظلم ضروب قريبه وهو غير ميفض له من قبل. ويسكن في تلك المدينة حتى يلف أمام الجماعة للقضاء...»⁽¹⁵⁾

وإذا ما عدنا إلى الوراء قليلا حينما تبع كريون أوديب من طيبة إلى كولونا وكلفه إصرار على إعادته معه إلى وطنه، ألا يمكن أن يقال: إن كريون يشبه فرعون موسى بناء على ما تقدم؟ ومما تجدر الإشارة إليه أن تريسباس يذهب عن الأجداد في مسرحية أوديب في كولونا حيث كان - حسب افتراضنا - يشبه موسى في مسرحية أوديب ملكا، وذلك لأن أوديب في مسرحية أوديب في كولونا يقابل - حسب افتراضنا - موسى في التوراة. فهل هذا يقصر سر غياحه؟

ومما يبرز الافتراض بأن أوديب في كولونا يشبه موسى بعد الخروج، أن الآلهة أعطته بقرب وفاته بالإضافة إلى الإشارات القادمة من السماء التي بعثها الآلهة لتكون علامة على قرب موته مدة في ظهور البرق وسماع قصص الرعد المتكرر والصواعق وهذا جلي في السياق المسرحي التالي: تقول الجوقة حين سمعت قصص الرعد من بعيد: «لقد قصص الرعد لي زوس».

أوديب - إن هذه الصاعقة ذات الجناحين التي أرسلها زوس والتي سمعناها قصصها الآن ستعلمني عما قيل إلى دار الموتى...

الجوقة: تنظر إن قصصا عظيما... فعلا الجو وفد أرسله زوس... (يومض برق في السماء)...

ثيسبيوس - أي آية على موتك تقلك هذا الموقف الملق. أوديب - إن الآلهة يبدئوني بذلك.

يتبني به مناديوهم نفسه، وهذه الملامات التي يملؤها آية على مولي!

ثيسبيوس - ما هذه الآيات أيها الشيخ؟

أوديب: قصص الرعد السريع للتصل وهذه البروق الكثيرة، قد أرسلتها يد لا تقهر⁽¹⁶⁾ وقيل موت موسى ظهرت علامات سماوية تضاهي تلك الإشارات الضعيفة بالبرق والرعد.

موت أوديب ملكا وأوديب مع أولاده

والتعويض قبل موت أوديب من خلال النص التوراتي التالي: «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله نبي إسرائيل قبل موته فقال: جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من بعيد وتلاّلا من جبل هارون وأتى من ربوات القدس ومن يعلوه نار شريعة لهم»⁽¹²⁾ «وهي موقع آخر:» وقال الرب لموسى هو ذا أيامك قد قربت لكي تموت... فتراش الرب في الخيمة في عمود سحب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة»⁽¹³⁾.

ولما تحققت لأوديب هذه العلامات الدالة على قرب موته ينهض مضطربا ويضاطب ابنه قائلا: «يا ابنتي يا ابنتي! أليس هنا من يستطوع أن يذهب فيدعو الكرم فيسيوس... أيها الملك إن مقدمك ليحقق أصالي، وإنما فادك الأكلية إلى هذا المكان لتلقى فيه سعادتك... إن حياتي لتبلغ أجلها، وما أريد أن أموت قبل أن أهر لك وللمدينة بما وعدت»⁽¹⁴⁾.

بالبحث أن أوديب أصبر على رؤية فيسيوس قبيل موته تلبية لأمر إلهي، حينما أخبر الله موسى بقرب أيامه لكي يموت طلب منه رؤية يشوع. تقول التوراة: «وقال الرب لموسى هو ذا أيامك قد قربت لكي تموت. أوع يشوع وفضا في خيمة الاجتماع لكي أوصيه، فأتطلق موسى ويشوع وفضا في خيمة الاجتماع...»⁽¹⁵⁾ وعليه «لا يمكن أن نفترض أن فيسيوس يشايل شخصية يشوع»

لقد لفت القموض موت أوديب وفي مكان قهره غير معروف وهذا واضح من السياقات التالية: الرسول - أيها المواطنين! استطيع أن أوجع في كلمة ما أريد. إن أقول: لقد مات أوديب ولكن الظروف التي أحاطت بموته والآيات التي ظهرت حوله ليست من الأشياء التي يمكن أن نقص في إيحاز...»

رئيس الجوقة: كيف مات الشقيفة آتعله على الموت أحد الأكلية فتقضي في غير المة...»

أنتيجونا: ... ولكن الأجواء المجهولة أحاطت به واحتملته في موت غامض مجهول...

اسميثا: إنه مات وليس له قبر ولم يشهد موته أحد!

فيسيوس: - أيها الضالكان! لقد حطرت على أوديب أن يعرف إنسان قبره...»⁽¹⁶⁾.

ومما يقوي الافتراض بأن أوديب يشبه موسى هو أن موسى مات أيضا وقد أحاطت بموته هالة من القموض ويمكن قبره ليس معروفا أيضا. تقول التوراة: «مات هناك موسى عبد الرب في أرض مزاب حسب قول الرب. ودفنه في الجواء مقابل بيت ظفور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم»⁽¹⁷⁾.

إن القموض في موت موسى أثار التساؤلات عند الباحثين إذ يرى أحمد سوسة أن أغرب ما ابتدعه كتبة التوراة عن موت موسى أنهم ألهموا هذا الرسول الجليل كما ألهموا آلهة هارون ببطانة الرب فمالقاهما بالوث، ومن هنا نشأت التساؤلات: هل مات موسى موتا طبيعيا، أم هل أمر الرب بموته حقا؟ ثم يسوق رأي الباحث الألماني «سلون» بأن موسى مات شهيدا واغتاله

الكهنة استنادا إلى بعض الفقرات من سفر يشوع، وهناك من يرى أن يشوع بن نون هو الذي اغتاله بعد أن استنسخه إلى أعلى الجبل ثم عاد من دونه ليعلم لبني إسرائيل أن موته كان تنفيذا لأمر الرب، كما يقدم استهجان أيكاز السكاف من كتيبة التوراة إذ يرى أن التوراة تعد موسى خائفا، وبمعد ذلك كيف يمكن أن ينسب هذا الدين اليهودي إلى موسى؟، ثم يقدم أحمد موصى رأي فريد الذي يوافق على استخلاص ملحق من حيث كون موسى قد اختل⁽¹⁴⁷⁾.

وبالعودة إلى المسرحية ها هي أنتيجونا تشير إلى المصائب التي حلت بها وبأختها قبل الخروج من طيبة وبعده من خلال الحوار التالي:

أنتيجونا - إني أفكر ...

رئيس الجوقة - فهم تفكرين أيضا؟

أنتيجونا - كيف نمرد إلى وطننا؟ لا أجد إلى ذلك سبيلا.

رئيس الجوقة - لا تلتصبي هذه المسيل.

أنتيجونا - إن الشقاء ليبهظنا.

رئيس الجوقة - لقد كان يبهظكما آنفا أيضا.

أنتيجونا - لقد كان حينئذ شقاء لا مخرج منه وهو الآن أشد استعلافا⁽¹⁴⁸⁾.

وها هم بنو إسرائيل يصوبهم الذي قبل الخروج بعهده حينما قالوا لموسى: «... هل لأنه ليس قبور في مصر اخترنا الموت في البرية، ماذا سيقب لنا عيش أخرجتنا من مصر؟»⁽¹⁴⁹⁾. وبناء على ما تقدم ألا يمكن القول إن ابنتي أوديب: أنتيجونا وأسمينا، تشبهان شعب الخروج مع موسى؟ ومما يعزز هذا القول: أن أنتيجونا وأسمينا قد طلبتا من ثيسبيوس أن يعيدهما إلى طيبة بدليل قول أنتيجونا: «... ولكن ردتنا إلى مدينة طيبة القديمة...»⁽¹⁵⁰⁾ وهذا يعني أن ثيسبيوس هو الذي يتولى أمر القتاتين بعد موت أبيهما أوديب، وفي التوراة نلاحظ أن يوشع يتولى قيادة بني إسرائيل بعد موت موسى ليدخل بهم إلى أرض الميعاد كما نزع التوراة إذ ورد على لسان موسى: «... لتشد وتشدج لأنك أنت تدخل مع هذا الشعب الأرض التي أقسم الرب لأبائهم أن يعطيهم...»⁽¹⁵¹⁾.

لقد وصى أوديب ثيسبيوس قبيل موته أن يتولى شأن ابنتيه قائلا: «ضع يدك في أيدي ابنتي، ألتصبا يا ابنتي شعبا أيديكما في يده...»⁽¹⁵²⁾، ومما يقابل ذلك في التوراة: «... ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وضع موسى عليه يده فسمع له بنو إسرائيل وعملوا كما أوصى الرب موسى»⁽¹⁵³⁾.

وأخيرا بعد تحقق موت أوديب خاطب رئيس الجوقة ابنتيه قائلا: «كنيا لاتمدا فنانا كما الحزين، فإن هذا الوعد محقق لا شك فيه»⁽¹⁵⁴⁾ وبهذا تنتهي أحداث النص المسرحي، ليس من اللافت للنظر أن تكون نهاية سفر التثنية التي تتحدث عن موت موسى نهاية المسرحية

مسرحية أوديب ملكا وأوديب مع نوليه

نفسياً فكلانها تنتهيان بمناخ حزينة. «هيكلي بنو إسرائيل موسى في هريوات مؤاب الذين يوما. فكملت أيام بكاء مناة موسى»⁽¹⁾.

وبناء على ما تقدم من الترجيح ألا يكون التشابه والتطابق والتحويل بين أحداث المسرحيتين والثورة معلى صدفه أو من ابتداء خيال سوفوكليس.

المقدمة

يتبين من الدراسة التشابه بين أحداث المسرحيتين وقصة موسى وفرعون التي تجدها في الثورة وتعيدنا الأسفار: الخروج والتعدد والتثنية ويشرح سواء لأثر سوفوكليس بالثورة نفسها أو بقصة شعبية

مصرية أو يهودية أو كلاهما معا، أو من مصدر يوناني لم نعر عليه.

لكننا نرجح احتمالية تأثير الثورة كما أثرتنا سابقا ودليل ذلك هذه الدراسة على الرغم من أننا لم نعر على نص يشير إلى أنه اطلع على الثورة حيث تبين من الدراسة التطابق في ثوات أحداث المسرحيتين مع قصة موسى وفرعون ورطة موسى بني إسرائيل مع مصر، علاوة على التماثل في تنامي سير الأحداث بينهما، وأيضاً هناك تفاصيل دقيقة متشابهة بين ما جاء في الأسفار المتأخرة والمسرحيتين على سبيل المثال اليموضي في موت أوديب وموسى. وكذلك الغناء الحزين حين موت أوديب والتألمة عند وفاة موسى ليصبح ذلك كنهاية لمسرحية أوديب في كولونا، وكنهاية لمسفر التثنية، وإذا نظرنا إلى الشخصيات وجدنا شخصية كرون البصير وترسيساس الأعشى في مسرحية أوديب ملكا تقابلان شخصية موسى صاحب اللسان الثقيل وهارزون التصحيح اللسان كما ورد في الأسفار. وفيما يتعلق بالطفلين أوديب وموسى يلاحظ التشابه في كثير من الظروف التي أحاطت بهما من ولادة، ومحاولة الإخراج من معبد الأسرة، وكيفية اشتقاق الاسم، والتبني، وحادثة قتل كل منهما لنفس. والظفر بمكانة عليا. وأخيرا الخروج من الوطن والموت الفاض.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الباحث لا يستطيع استكشاف كل الخيوط والإشارات المتعلقة بتأثير سوفوكليس بقصة موسى وفرعون إلا من خلال دراسة المسرحيتين بشكل متتابع كوحدة واحدة، وعليه لم ينته أحد من الباحثين لتأثير بالقصة التوراتية، لأن الدراسات وكثرت على مسرحية أوديب ملكا مع أن أغلب الإشارات الدالة على التأثير واردة في مسرحية أوديب في كولونا، إضافة إلى ربط الباحثين المسرحيتين بالأسطورة اليونانية دون الالتئام إلى إمكانية ارتباطها بالقصة التوراتية والحضارة المصرية القديمة، فسوفوكليس في المسرحيتين على الأسطورة اليونانية، لكنه حرك الشخصيات عمليا من واقع القصة التوراتية، ومن هنا بقي اكتشاف حقيقة عمله الأدبي فاقها في الزاوية غير الثابتة بالنسبة للباحثين.

ولذا ينبغي إعادة النظر في دراسة وتحليل أعمال سوفوكليس بناء على تأثره بالقصة التوراتية. إذ إنه امتلك قدرة على توظيف الشخصيات والأحداث بشكل درامي. وهذا لا ينطبع إلا بعد دراسة ومقارنة معمقة بالتوراة، فعلى سبيل المثال تقول التوراة: «... أنا الرب إلهك إله غير اعتقد تنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من بعضي»⁽¹²⁾. وكذلك «معتقد إنم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع»⁽¹³⁾. وهذا هم إنشاء أوديب نظاردهم اللغة المتوارثة من زمن الأيوس والد أوديب. وهذا واضح من مسرحية أنتيجونا.



- 1- علي عبد الواحد، وفي: الأدب اليوناني القديم، مصر: دار المعارف، 1960، ص 39.
- 2- سيمون فرديناند، موسى والفريد، (ترجمة: يوزاليم الحفني)، القاهرة: دار المصرية، 1968، ص 35 - 37.
- 3- محمد عوض مهران، مصر والتشويق الأولى القديم (5)، الجزء الثاني، الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية والثقافية والدينية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1989، ص 80.
- 4- لويس ل. طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، (ترجمة: صلاح علي سوادج)، بيروت: بيسان للنشر والتوزيع، 1998، ص ج: 11.
- 5- علي نور، ملاحم مصرية في القصر الإفرنجي، وزارة الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للكتاب والنشر، دار الكتاب العربي، 1977، ص 8 - 12.
- 6- حسين الشيوخ، دراسات في تاريخ حضارة مصر اليونانية الرومانية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1987، ص 71 - 74.
- 7- سيد لوفيل، معالم التاريخ وحضارة مصر الفرعونية، القاهرة، دار النهضة العربية، 1987، ص 298.
- 8- سحر أن جاردنر، مصر القديمة، (ترجمة: نجيب ميخائيل إبراهيم، مراجعة: عبدالقادر بكر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977، ص 288.
- 9- المرجع نفسه، ص 289.
- 10- علي نور، 1977، مرجع سابق، ص 12.
- 11- محمد بيومي مهران، مصر والتشويق الأولى القديم (4)، المجلد المسبوق القديم، الجزء الأول، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1989، ص 39.
- 12- علي نور، 1977، مرجع سابق، ص 78.
- 13- لويس عوض، مفهوم الفن الأدبي اليوناني، الجزء الأول، نشر دار المعارف، 1978، ص 275.
- 14- محمد زكي العشماوي، دراسات في الفن المسرحي، الإسكندرية، دار الكتب الجامعية، 1978، ص 85.
- 15- سيد لوفيل، 1987، مرجع سابق، ص 108 - 109.
- 16- هريوت، يتحدث من مصر، (ترجمة: محمد صابر شافيع، تقديم: أحمد بدوي)، دار الكتاب، 1979، ص 331 - 332.
- 17- عبدالعظيم الشعراوي، أساطير إفريقية، الجزء الثاني، أساطير الآلهة الصغرى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1998، ص 92.
- 18- طه حسين، من الأدب الكلاسيكي اليوناني، (مجموعة مسرحيات لسوفوكليس، نظر: مسرحية أوديب ملكا)، بيروت: دار العلم للملايين، 1988، ص 140.
- 19- علي نور، 1977، مرجع سابق، ص 73.
- 20- رؤوف عباس، 1987، مرجع سابق (مجموعة أبحاث) النظر بعد محمود إبراهيم السحني، ص 82 - 88.
- 21- عبد الرحمن بدوي، تراجميات سوفوكليس، (ترجمة عن اليونانية مع تقديم وإعقاب)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ص 8.
- 22- حسين الشيوخ، دراسات في تاريخ حضارة اليونان والرومان، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1987 (ب)، ص 70.
- 23- إلهيا الحاي، سوفوكليس والتراجيديات الإفرنجية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980 (ق)، ص 89.
- 24- حسين الشيوخ، 1987 (ب) مرجع سابق، ص 208.

الهوامش والمراجع

- 25 عبد الرحمن بنوني، 1996، ص 6.
- 26 إيلى الحناوي، 1990 (2)، مرجع سابق، ص 19.
- 27 لويس عوض، 1978، مرجع سابق، ص 388.
- 28 عبد الرحمن بنوني، 1996، مرجع سابق، ص 7.
- 29 لويس عوض، 1978، مرجع سابق، ص 388.
- 30 سوفوكليس، بنات تراخيس، (ترجمة وتقديم: أحمد عثمان، مراجعة: محمد حمدي إبراهيم)، سلسلة من المسرح العالي، العدد 719، الكويت: وزارة الإعلام، د. ت. النظر كلام المترجم وتقديم، ص 8.
- 31 إيلى حناوي، استيفولوس والتراجيديا الإفرقية، بيروت: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1980 (1)، ص 91.
- 32 إيلى الحناوي، 1980 (3)، مرجع سابق، ص 20.
- 33 لويس عوض، 1974، مرجع سابق، ص 398.
- 34 سوفوكليس، د. ت. ت. مرجع سابق، العدد 719، النظر كلام المترجم وتقديم، ص 9.
- 35 محمد صابر طه، دراسات في المسرحية اليونانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ص 79.
- 36 إيلى الحناوي، 1980 (3)، مرجع سابق، ص 19 - 20.
- 37 طه حسين، 1981، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوليب في كولون، ص 232 - 237.
- 38 مروت، 1976، مصدر سابق، ص 115 - 117.
- 39 لويس عوض، 1978، مرجع سابق، ص 398.
- 40 أمين سلامة، أوليب هوميروس، دار الفكر العربي، 1987، ص 199.
- 41 كوليت إستيف، أسطورة أوليب، (ترجمة: زياد المود، مراجعة: مناجح الجويوم، دمشق: وزارة الثقافة، 1989، ص 12، النظر المحرور في إيلى هوميروس (المعرب ونقل) سليمان المستطفي، الجزء الأول، د. 1991، ص 220، المشهد الخامس، وكذلك ص 237 المشهد الرابع، والنظر الجزء الثاني، د. 1991، ص 109، المشهد الثالث والخمسون.
- 42 كوليت إستيف، 1989، مرجع سابق، ص 9 - 10.
- 43 لطفي الخوري، معجم الأساطير، الجزء الأول، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1990، ص 77.
- 44 لويس عوض، 1978، مرجع سابق، ص 387.
- 45 لطفي الخوري، 1990، مرجع سابق، ص 77 - 78، النظر روايات الأسطورة في: د.أ. شبيب - أساطير الإفرق والنورمان، (ترجمة: هسيق فريز)، عمان: دائرة الثقافة والفنون - المطبعة الأردنية، 1987، ص 202.
- 46 كوليت إستيف، 1989، مرجع سابق، ص 77 - 78، محمد فتحي هلال، الأدب القارن، بيروت، دار العودة ودائرة الثقافة، د. ت. ص 391 - 398.
- 46 كوليت إستيف، 1989، مرجع سابق، ص 10 - 11.
- 47 محمد بن أحمد المبروكي، في تحقيق مالفند من مقولة مقبولة في العقل أو مرادفة، جودو آباد، مجلس دائرة المعارف المشايخ، 1988، ص 339، 337.
- 48 المصدر نفسه، ص 398 - 399.
- 49 سيجموند فرويد، 1998، مرجع سابق، ص 23 - 24.
- 50 المرجع نفسه، ص 23 - 28.

- 51- الترجيع نفسه، ص 25.
 - 52- الترجيع نفسه، ص 25 - 26.
 - 53- الترجيع نفسه، ص 26.
 - 54- جيمس هنري برنسلي، تاريخ مصر من القدم المصنوع إلى الفتح العربي، (ترجمة)، حسن كمال، مراجعة وإستيفان محمد حسين القمراوي، بغداد، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1990، ص 171.
 - 55- الترجيع نفسه، ص 26.
 - 56- عبدالمعطي الشمراني، أساطير إفريقية، الجزء الأول، أساطير البشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص 27.
 - 57- ثروت عكاشة، الإفرنج بين الأسطورة والإبداع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص 278.
 - 58- علي عبدالواحد وأخيه، 1990، مرجع سابق، ص 27.
 - 59- لطفي الطويري، 1990، مرجع سابق، ص 27.
 - 60- د. ا. غريب، 1996، مرجع سابق، ص 206.
 - 61- محمد لطفي هلال، ب. د.، مرجع سابق، ص 282.
 - 62- خروج 10: 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10.
 - 63- كوثيت إستيف، 1989، مرجع سابق، ص 28.
 - 64- لطفي الطويري، 1990، مرجع سابق، ص 28.
 - 65- خروج 10: 1.
 - 66- لطفي الطويري، 1990، مرجع سابق، ص 28 - 29.
 - 67- ص 28.
 - 68- ص 28، 29، 30، 31.
 - 69- خروج 10: 1، 2، 3.
- وعما تجدر الإشارة إليه أن طريقة التفسير وردت في قوانين حمورابي (1750 - 1750 ق.م.) فمن يتابع البنية يتلقى النظر الفد 501 من: قوانين حمورابي. (ترجمة، محمود الأمين)، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1987، ص 28. كما وردت هذه التسمية في الأساطير السومرية فهناك أسطورة ترجع إلى القدرة الوافية القديمة (حوالي 1700 ق.م) لتحدث عن اختفاء الإله إنليل من قريته الآلهة شلوم. وكان أثر ذلك يتم في الآلهة إنليل، انظر: ديوان الأساطير سومر والأكاد وآشور - (ترجمة وإتظيق - قاسم الشواف، تقديم وإشراف: أنونيس) بيروت، دار الساقي، 1996، ص 57.
- 70- لطفي الطويري، 1990، مرجع سابق، ص 27.
 - 71- خروج 9: 1، 2.
 - 72- Joseph, Jewish Antiquities, Books I-I V, Harvard University Press, London, 1967, P. 253.
 - 73- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكاً، ص 191.
 - 74- المصدر نفسه، ص 197.
 - 75- المصدر نفسه، ص 197.
 - 76- المصدر نفسه، ص 200.
 - 77- المصدر نفسه، ص 206.

- 113- انظر التفاضيل في القمل الثالث فرعون موسى من كتاب: محمود بوهي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم (3) مصر الجزء الثالث، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1994، ص 220 - 210.
- 114- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب ملكا، ص 211.
- 115- كلاً أ. كلثوم، فرعون الجدد والانتصار ومسيح الثاني ملكه مصر، (ترجمة) أحمد زهير أمين، مراجعة: محمود ماضي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص 301.
- 116- هريوت، 1971، مصدر سابق، ص 298 - 299.
- ويشول أحمد بدوي معلقاً على هذه الرواية، ليس بعيداً أن تكون هذه القصة من أثار الدعاية المسيحية التي نشرها بنو إسرائيل حول سيرة متفاج، المرجع نفسه، ص 228، الحاشية.
- 117- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 222.
- 118- كوليت إيشيف، 1989، مرجع سابق، ص 30.
- 119- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 221.
- 120- المصدر نفسه، ص 288.
- 121- المصدر نفسه، ص 288.
- 122- خروج 3: 2 - 5.
- 123- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 208.
- 124- خروج 4: 1.
- 125- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 208.
- 126- المصدر نفسه، ص 211.
- 127- المصدر نفسه، ص 212.
- 128- المصدر نفسه، ص 212.
- 129- المصدر نفسه، ص 212.
- 130- المصدر نفسه، ص 214.
- 131- المصدر نفسه، ص 214.
- 132- المصدر نفسه، ص 214.
- 133- عدد 10، 11، 12.
- 134- يشوع 2: 2، 3، 4.
- 135- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 207.
- 136- المصدر نفسه، ص 288.
- 137- خروج 16، 17، 18، 19.
- 138- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 288.
- 139- خروج 17، 18.
- 140- ثنية 11، 12.
- 141- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفوكليس) أوديب في كولونا، ص 291، 292، 293.
- 142- يشوع 5: 6، 7.

- 143- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفولوجيس) أوديب في كولون، من 219 ، 219 .
- 144- تشيكا 1، 27 ، 3 .
- 145- تشيكا 2، 21 ، 11 ، 11 .
- 146- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفولوجيس) أوديب في كولون، من 219 ، 219 .
- 147- تشيكا 1، 21 ، 11 .
- 148- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفولوجيس) أوديب في كولون، من 219 ، 219 ، 219 ، 219 ، 219 .
- 149- تشيكا 1، 21 ، 11 ، 11 .
- 150- أحمد سويح، مفضل العرب واليهود في التاريخ العراقي، دار الرشيد - منشورات وزارة الثقافة والإعلام - 1981، من 272 ، 272 .
- 151- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفولوجيس) أوديب في كولون، من 231 .
- 152- خروج 11 ، 11 .
- 153- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفولوجيس) أوديب في كولون، من 231 .
- 154- تشيكا 1، 21 ، 11 .
- 155- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفولوجيس) أوديب في كولون، من 231 .
- 156- تشيكا 1، 21 ، 11 .
- 157- طه حسين، 1961، مصدر سابق، (سوفولوجيس) أوديب في كولون، من 231 .
- 158- تشيكا 1، 21 ، 11 .
- 159- خروج 11 ، 11 ، 11 .
- 160- خروج 11 ، 21 ، 11 .

سينما المعتقل

أ. سمير صالح*

مقدمة

يشير استخدام مصطلح معتقل لوصف
سينما أمرا يستدعي التوقف، كونه يحمل في
طياته مغامرة نقدية سينمائية تتعلق
بمطابقة هذا المصطلح وحقيقة ظهوره للتيقن
في السينما المصرية، وهي البدء يتبادر إلى

http://www.8akhrif.com

هل سينما المعتقل سينما سياسية؟ وبأي معنى؟ وهل يمكن اعتبار كل ما يصور فيه ظلال
سياسية على أنه فيلم سياسي؟ أم هي سينما ظاهرة وجدت في سياق المناخ المحموم ثقافيا
وسياسيا ومن خلال تصفية الحسابات مع مراحل سياسية تغيرت معالها وتبدل رجالها، فلم
تختلف من بنوية الفيلم المسائل وأقترنت بها السياسة إقناعا؟

حين نشير إلى التباسات المصطلح فلأنه يلامس مشكلة حساسة من أدق مشاكل الإنسان
العربي المعاصر، ويتجلى فيه انعدام حريةه وبمستوياته المتعددة لعل أهمها حرية الرأي
والتعبير، وحرية العقيدة والفكر والانتماء، ولأنه يبحث وينطلق من المفاهيم الجوهرية، حقوق
الإنسان التي أقرتها الشرعية الدولية وتعارف عليها المجتمع المدني.

ويصور الأمر حول مصطلح سينمائي يرمي إلى التمييز بين ما اصطلاح على تسميته (سينما
سياسية)، وبين (سينما المعتقل)، ويجب أولا تحديد مفهوم المعتقل ودرره كما هو مطروح
لديها، خاصة وأن الفيلم الاعتقالي حاول على وجه الدقة إخفاء أهدافه بمحاولة عرض نفسه
ككيان شفاف مفتوح على عالم والقي.

* باحث وكاتب من سورية.

والإشارة إلى أن تاريخ الفيلم السياسي في مصر هو تاريخ الفيلم المصري ذاته، حيث تشير إلى فيلم (سعد زاقول) عام 1922 على أنه أول فيلم مصري في القاهرة، فهي إشارة ذات دلالة.

وعلى مدى تاريخها فإن السينما المصرية لم تكن بعيدة عن التأثير بموجة الأفلام السياسية التي سادت العالم، فتلقفتها وصنعت أفلاما خاصة بها موارية ومباشرة.

والفيلم السياسي كمصطلح أصبح رائجا في تسريح الكتابات النقدية السينمائية كونه أحد أوجه النشاط الداخلي أو التشريحي في تناول ظاهرة معينة ليتم إنقطاعها على ما يدور داخل المجتمع من نشاط أو صراع اجتماعي محلي أو معتبر.

وعلى الرغم من أن هذا المصطلح يشابه الكثير من التناول، فيه تتداخل وتتمازج الآراء، لتعارض والتناقض، لتشرق وتقترب، فهناك من ينفي وجوده واعتباره نسفا فلاميا لا يختلف عن الأنساق الأخرى بتصنيفاتها المتعددة، وبالتالي لا يملك أي فائدة للنظر إليه في السياقات النقدية برؤية مختلفة عن الرؤى التي تتناول الأفلام الأخرى.

إن هناك من يعتبر أن كل شيء في الفن سينمائي مرتبطا إلى أيديولوجيات المجتمعات المختلفة، وتسويق هذه الأيديولوجيات بالعلماء وأشكال مختلفة من خلال البنى القوقبية، وبالتالي لا يعزل الفن عن هذه الأنماط التي تعيد في الاتجاهات الأيديولوجية المسيطرة. السينما المصرية لم تكن بعيدة عن هذا الجدل النقدي، حيث برزت الكتابات العديدة التي تناولت هذا الموضوع من جوانب مختلفة ويرى متناقضة متصارعة أحيانا، تؤيد وتنتفي هذا المصطلح، وتدخل بؤر شائكة ومسورة بحقول الغام.

وإذا كان الفيلم السياسي يواجه مشكلة معينة، يكتنفها ويعيرها ويبحث عن حل لها، وباقي الحلول لتفرع عن المشكلة الأساسية وتدور حولها، فإن المشكلة الأساسية التي تحكم سينما المعتزل هي معالجة الاعتقال التعسفي. ومن هذه النقطة يتم الانشراق ما بين السينما السياسية وسينما المعتزل، من خلال طريقة معالجة هذه القضية الحاسمة والشائكة، وطريقة التعبير عن طبيعة الموقف من هذه الممارسات، إلا أننا نلاحظ أنه حين تتم معالجة هذه القضية ويبدى الاعتقال سينمائيا فإن الهدف ليس البحث عن دلالة الاعتقال في الأمل السياسي المفلح، وليس التفتيح في نسج المجتمع عن المفجورات التي أخضت إلى مثل هذه الممارسات، ولا تكشف لثوب الأدوات والتؤسسات القانونية والجماعية التي يمكن لها - وإن أخذت دورها الفعال والحقيقي - أن توقف ألية هذا النمط من الفعل السياسي، فتعاسره وتهدمه، وذلك ببناء مجتمع سياسي لا اعتقالي يحمل فسحة التمازج والتلاقح بين القوى السياسية والفكرية المختلفة، إشادة إلى أن هذه السينما لم تأت بجديد على سعيد اللغة السينمائية.

إن هذه السينما جعلت في داخلها بني ضمنية متعددة، ولكنها خاصة بنص واحد متقارب، وهنا يمكن السؤال: كيف استطاعت أن تحول هذا النص الواحد لعدد من التكرارات المتفاوتة الانتظام فتتجاوز ظاهريتها وتقترب من نوع خاص بالسينما القصصية دون غيرها من سينما العالم، ترسي دعائمه وتتميز به حيث تتشكل سماته الجمالية - السياسية، ومقاييس لا يستطيع المخرجون الخروج عنها حتى مع تغير المراحل التاريخية السياسية ومرور عقود على الظهور الأول لأفلام سينما المعتقل؟

فيصبح فيلم التركيز هو الخيط الناظم لجمل هذه الأفلام، وإن اختلفت ليوغرافيتها وتباينت أساليبها، وبداية يمكن القول إن سينما المعتقل هي تلك التي تضم أفلاما تعتمد في محوريتها حدثها على المعتقل السياسي كشكل محدد يتم من خلاله تناول مرحلة سياسية وتاريخية، ومن هذه النقطة لتدخل سينما المعتقل مع السينما السياسية لداخلها جزئيا في الشكل فقط، من حيث محوريتها الحدثية بمضامينها السياسية، ولكن يفتقر عنها في الجوهر من خلال تناول هذه الحدثية ووصف تفاصيلها البوليسية، والتأكيد والتركيز على المردد البوليسي، وهنا نشير إلى أن المردد البوليسي لا يصلح لتقييم السياسي الفعلي يتناول الحدثية مدخلا للفضح القوي والاتجاهات التي تتحكم فيها - الوصول للحليل - وبمعدل - آليات المجتمع الذي ينتج هذه الاتجاهات، فيما سينما المعتقل تحول وفكرت، وتغير سياقات الوقوع برؤية تعتمد على المعتقل السياسي شكلا محددا لليل من مرحلة سياسية معينة، وهي الأفلام خاصة شكلت وتشكل نموذجا محددا لتكريس صورة منطلقة تفرس في ذهنية المثقف لرسم تفاصيل المعتقل، هذا الأمر الذي تقترب عليه رؤية الكيفية التي تمت بها المعالجة السينمائية للمعتقل، وهي حقيقة الأمر قد يكون مصطلح سينما المعتقل إشكاليا، إذ لا توجد دراسات أو أبحاث في سياق السينما العربية، تتناول هذا المصطلح، تؤكد أو تنفيه، وبالتالي قد نأخذ هذه الإشكالية مداها خلال النقودات اللاحقة التي تتناول منهاج أو منهجيات مختلفة لدراسة هذا النوع من السينما التي محورها المعتقلات السياسية، لاسيما وأن المعتقل بشكل مدخلا للإشارة إلى دلالاته المتعددة في سياق حركة المجتمع وصراعه الاجتماعي والعطشي حيث التناقض بين الفرد والسلطة الحاكمة بما لملك من آليات ونش وفتواتين، وبين الأحزاب المعارضة والطبقات والطوائف الاجتماعية المستحوطة من جهة أخرى.

بين الشريحة الحاكمة المعززة بأدوات القمع والمسلحة بالأسلحة والتواهي التي تستنها بما يخدم مصالحها ويكرس بقاها في السلطة، وبين جموع الشعب،

هذه التناقضات التي تقود بالضرورة إلى العلاقة القصصية بين السلطة والشعب والمسودة بالأنظمة والقوانين والتشريعات، وتتناول بنية النظام من الناحية الأخلاقية والتشريعية ومدى الإسهامات في تطبيقها - اخترايا أم ابتعاوا - وبالتالي نستطيع تحديد مدنية المجتمع الذي

تتناوله هذه السينما، حيث لا ذاتي مدينة أي مجتمع إلا بوجود مؤسساته المدنية التي تتحكم في نظمها الداخلية والمستقلة عن أليات السلطة.

ومن خلال هذا التهديد نبحث، هل قامت سينما المعتقل من خلال موضوعاتها المختلفة بتركيز عدستها لتضخ سيع التلقيقات السلطوية وتسويقاتها المفترضة حول الديمقراطية للزعومة؟ وهل افترت في سياقاتها من إثارة السؤال الجوهري أين يقف المختلف من فكر السلطة وأطروحاتها؟

وبعيدا من فسح المجال للتأويل أو الانتباس، نشير هنا إلى أننا نتناول أفلاما محددة بذاتها تأخذ من خلال موضوعاتها علاقة الفرد بالسلطة مع التطبيق في أسلوبية تناول، وأبعاد التي اعتمدت على صورة بصرية مثقبة بالهواجس والتعاطف الإنساني لترميز موضوعاتها ومقولاتها، واتخذتها منهاج إعادة رسم ملامح فترة سياسية محددة من خلال وجهة نظر خاصة مسبوقة. هذا مع الإشارة إلى أننا لا نضع جميع أفلام المعتقل في كفة واحدة، وحتى لا نخوض في التعميم فإننا نشير إلى أن هناك نمطين في التعاطي مع هذه القضية، فهناك بعض الأفلام كان الدافع الأساسي في العمل فيها هو تصوير الخلل القائم لعلاقة الفرد بالسلطة، ومحاولة الإشارة إلى أهمية العودة لأسس الديمقراطية حيث تمكنت بأطر النقد البناء والذي يشير إلى بعض المسائل التي يجب أن نتحدى كنموذج لتعامل السلطة مع الآخرين، بينما نرى في الجانب الآخر أفلاما اعتمدت على شكلانية أطروحاتها الكثرين وإفهاما محددا بؤلته نذكر منها فيلم (الكركند) ١٩٩٥ لعللي بدرخان وهو

الذي شكل البداية لهذا السيل الجارف من الأفلام <http://archive>

فيلم (وراء الشمس) ١٩٩٨ لـ محمد راضي، (أسباب وعيب) ١٩٩٨ لعللي رضا، (أعنا بنوع الأوتوبس) ١٩٩٩ لحسين كمال.

[إنشافة أفلام مثل (آه يا ليل يا زمن) ١٩٩٧ لعللي رضا، (امرات من زجاج) ١٩٩٧ لنادر جلال، (طائر القيل الحرزين) ١٩٩٧ ليعلى العلمي... هذه الأفلام التي تنحو إلى تصوير المعتقل النفسي بشكله الرمزي، تتناول مراكز القوى وممارستها لنفوذها اللامحدود، فتخلق المعتقل النفسي وصولا للأثر السياسي لفكرة الذي تتركه لدى المتفرج.

والتماذج التي ذكرناها، التي سبقت جميعها عام ١٩٨٠، تقدم نفسها على أنها سينما كلية المعرفة، وتحاول وتجهد بالتقول أكثر مما يحتمله النص. وأكثر مما تعرفه الشخصيات، وأكثر مما يتسع له الواقع نفسه، وأفلامها تنطوي على ثلاثة عناصر: المعتقل، مراكز القوى، المؤسسات القضائية المدخسة مع هذه العناصر والتي تدعم عمل هذه المراكز.

الاعتقال من وجهة نظر هذه الأفلام يعتبر السمة المبرزة، بل والسمة التاريخية الوحيدة التي اتسمت بها المرحلة السابقة، والدولة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة هي الراعية لهذه الوحدات العضوية التي تؤمن للمعتقلات.

والقوة الأولى تنبئ هذه الأفلام بأنها تعري وتكشف وحدة المجتمع وإتجاهاته الموهومة والدعائية، وبالتالي فإنها تنتج حقيقتها الشاملة وتقدم نفسها بمعرفتها بخطاياها كواليس السياسة والأجهزة والقوى المتنفذة.

هذه السينما لا تلتفت عند حدود التأمل، ذلك أن مشروعها الأساسي وبحكم ظهورها والمواقفة على عرضها تجلي بما هو أبعد من ذلك، حيث تختزل الصراع وتجهد بالقول إن التقارير المفضلة والمزورة هي العامل المحرك لسياسة المعتقلات، ويسموية كلاسيكية ذات مقام هش فتحاول الإقناع، وبشكل غير ظاهر، بأن المعتقلات قد سورت اليهد بأكمله؟ وبمكنا في الجانب الآخر أن نرى أن هناك سينما معتقل أخرى تقول بما تصورت أنه حدث من خلال وجهة نظر خاصة تتعلق من المؤلف والمخرج. ولكنها وإن استعبد مضامين ظاهرة سينما معتقل السبعينات إلا أنها تترك هامشا للتأمل وقسحة للحوار على الرغم من انحيازها لرؤيتها (مع أو ضد).

ونذكر منها فيلم (البريء) ١٩٨٦ لعاطف الطيب، والصحة النازية والرد القاتل جدا بفيلم (الهجامة) ١٩٩٢ لحمد النجار وفيلم (قانون الزنا) لأشرف فهمي ١٩٩٦، وفيلم (دماء على الثوب الأبيض) ١٩٩٥ لحسام الدين مصطفى، وفيلم (التحولة) ١٩٩٦ لأمالى مهنسي.

هذه السينما تجهد وبإصرار لافت على استعادة التوافق تلك الفترة، وبمقاربات وإن كانت جديدة ومختلفة من سينما السبعينات من خلال محاولات الملتصق على خيط الأزمات والتحويلات على الزمن الحقيقي للأحداث الدائرية ومحاولة السير تحت راية ما يسمى بالكشفية والمراجعة النقدية والتاريخية، إلا أنها لا تعتمد عن حدود رسم تفاصيل العمل الخاص بهذا النوع السينمائي التي أرسى دعائمها فيلم (الكركند)!

وبمكنا الإشارة إلى أن سينما المعتقل وإن تواصلت على المستوى التاريخي مع مرحلتين تاريخيتين تعاقبت خلالهما سلطان سياسيتان على الرغم من أن كلا منهما اعتداد للأخرى، وإن هذه الأفلام محل الدراسة قد أنتجت وعرضت خلال ثلاثة عقود، وعلى الرغم من أن هاتين السلطتين السياسيتين قد اختلفتا في الأوليات والاهتمام، وكان لكل منهما أولوياته السياسية والثقافية، فإن الخيط الناعم الذي حكم ظهور هذه السينما بقي كما هو ولم تتبدل مهامه وأولوياته، ولم تتغير رؤيته للمرحلة التي يتناولها، وهو ما يشكل علامة استفهام هائلة لحقيقة هذه السينما.

إلا أنه ومن خلال البحث والمناظرة والاستقصاء نجد أن سينما المعتقل قد اعتمدت على المكان السينمائي كمعيار محدد للإشارة وبصفة عامة إلى اتهام القاضي وفتح نوافذ المستقبل، حيث إن المعتقل هو المكان الدرامي الذي يصوغ مجمل أحداث متعددة، ويتوهمات مختلفة، ويمنسك بموضوعه المحوري، وإدانة المرحلة السياسية من خلال تصوير ما يدور خلف الجدران

من العذوب وسایه مطلقه. هنا نستطيع القول إن سینما المعتقل القصصية التي تناولت حقبة سياسية مشخصة المرحلة الناصرية، شملت نفسها على أنها داعية لتطبيع كارثية هذه المرحلة، تحت شعارات مختلفة كالوطنية والمكاشفة ووقف التجاوزات، ومن دون أي التباس كانت هذه الأفلام تتناول مرحلة الرئيس جمال عبدالناصر، بما هي مرحلة مثيرة للجدل، حصل من خلالها لفظ كثير. فعمدت هذه السينما إلى تطويع المرحلة من خلال تناولها وفق منظور رؤوي وحيد مع اعتمادها على أشكال مختلفة تبعاً لاختلاف المصالح والأهواء السياسية. في هذه السينما لم التمايق والعمل لإتجاز عدة أعمال هدفية، ومن خلال تسويقها، الحصول على إمكانية فتح نقرة في الوعي الجمعي. قبل فوات الأوان وبإصرار منقطع النظير، على وسم تلك المرحلة بالعار والدموية السائدة المرفقة في حب الذات، لتضع هذه الأفلام بالكمية الهائلة من الأناث، ومقولات التعذيب التي تنكس بحفلات لعذيب يشتمل منها المثلي فينغر وفهربر من بين يديه حميمية تلك المرحلة، بأعلامها التي اجتاحت المحيط إلى الخليج، بهزور الرؤى التي شكلت تلاطم وتعاقد سمع هديره في شئ أصفاق الوطن العربي، فشككت فيما شكلت رافعة نهضوية لفكر قومي ورؤى عربية واحدة، تطلعت في النفوس والوجدان، فكر حصد من هو الصديق ومن هو العدو وطرق الاختبارات بينهما.

مما يعني لتساؤل استراتيجي، هل تعيد هذه السينما ومخرجوها حيال فكرتها عن المعتقل برمته بما هو أرضية لموضوع الصراع السياسي؟ هل حقيقة تطبيعها لعبة السياسة وعلائقها الاجتماعية والحزبية؟ هل شكلت على هذه الرؤى أم إن الهدف من ذلك هو صائب وأغراض مستترة بعيدة عن المحتوى القيمي الأخلاقي لموضوعاتها التي تناولتها؟

إن التطور السينمائي للمعتقل قد حكم برؤية وحيدة الجانب، وبمفهوم يرى انعدام إمكانية الحل، ولا يملك ولا يرغب في تحليل طرق أخرى للحل، وبمعنى أدق لم يعمل على ابتكار حل خاص به بل اكتفى برسم صورة واحدة تمت استعارتها من وهي، ينظر بشكل غامض من خلال أكثر من فيلم لمسألة المعتقل بانعكاساته الأمنية فقط.

نجد أن هذه الأفلام تواصل فيما بعد، ترتب معادلات الصراع السياسية المتعلقة داخل المجتمع وفق منظور خاص، الاتحياز السياسي والأخلاقي للنظام الذي ظهرت هذه الأفلام في ظله، وعلى هذا الأساس سيبدو الموضوع، لا باعتباره موضوع تناقض سياسي، يعتمد المواجهة والصدام الاجتماعي ذا الطابع الأمني، وإنما بصفاته الإشكالية التي تنجم من خلال حوادث عرضية أو موجهة، يمكن تسويقها بإبداء أقصى قدر من التهم للآخر، وفي السياق نفسه نجد أن سينما المعتقل لا تقدم أي إسقاط نقدي للسلطة السياسية التي انجزت الأفلام في مرحلتها. فعندما نفحص الكيفية التي جرت بها مقارنة السياسة سينمائية في لحظة تحقيق الأفلام وخروجها إلى الجماهير، نجد أنها تطرح فكرة المشاركة، مناوية ذلك، أن حلولها توفيقية

بينما المتأمل

لصالحية، الأمر الذي يعني الاستعداد الفعلي لمشاركة المثقف السياسي في خطته ومواقفه، وإلا ما معنى أن تحيد جميع الظواهر السياسية والراهنة وتتصب على الجانب الأمني فقط. خاصة وأن المنطقة الجديدة كانت في موقع القرار في السلطة السابقة وخرجت من رحمها؟

هذه الرؤية المثبتة لا يتم النظر إليها على أنها مجرد حكاية سينمائية تتناول فترة تاريخية محددة بل كإشارة سياسية على الإمكانية الفكرية للتحقق بين يدي السينمائي لمقارعة النظام الجديد، فبلا مواربة يكتب المخرج محمد راضي في إعدائه لفيلمه (وراء الشمس) ١٩٦٨ بأن موضوع فيلمه: (قضية الحرية في كل زمان ومكان ولولا مناج الحرية التي تعيشها مصر ثورة التصحيح، لما شاهدنا هذا الفيلم الآن)، في إطار هذه الرؤية للكشف إشكالية اجتماعية سياسية. في النظر إلى ركن أساسي لتحقيق إنسانية وهو الحرية ومدى مطابقة هذه القدرة لتحقيق مفهومها التاريخي في الاستخدام الحقيقي، كمحور تأظم في التصاطي مع الآخر. فإذا كان المخرج قد بسط سلطته على مدى المساحة الزمنية لفيلمه، تحت لافتة هذه القدرة لتعزيز رؤيته المثبتة، فإننا نرى عكس ذلك عند د. حسن حنفي حين يرى الحرية، (إنما تعني القدرة على التفكير الباعثي دون أثر لتقوالب الذهنية المبرزة على المجتمع، كما أنها القدرة على التحرر من الخوف الداخلي حتى يصبح الإنسان هو ذاته لا غيره، وأن يكون مظهره حقيقته، وأن تتوحد شخصيته فاضيا على الأرواحية التي تعاني منها في حياتنا المعاصرة، ومن جانب آخر لتضعن الحرية القدرة على التجرير من الرغبات والتعطيلات الجبرية من حيث هي القدرة على الاتصال عن الشائع وإقناع الذهن من المتعارف عليه والتعبئة إلى الذات الحرة الأصلية التي تصبغ المسائل منذ البداية^(١)، ومن هذا المنطلق فإن الأعمال الفنية ليست مجرد نسخ من الواقع وإن التصديق الفني مداء بلضل كون الفنان يجرد المظاهرة الحياتية عما هو ظاهري ومصادف ويعممها فيكشف عن الملائق والروابط الخفية بين الأشياء التي يصورها. هنا يحيل الحديث عن الحرية التي جسدها المخرج محمد راضي إلى اتجاهات بحث التناقضات التي عكسها والتي حاولت تصوير لوحات من الحياة مما يطرح على بساط البحث المسائل الملحة في المجتمع، وهنا نتساءل عن مدى صدق فهمها لظواهر المجتمع، هل تطابقت الفكرة المتضمنة موضوعيا في العمل الفني مع ميول الإنسان الطبيعية والتي تستجيب لمعالجته الملحة، أم أنها مصطنعة تنشأ بفعل لشوية طبيعة الإنسان في ظروف اجتماعية غير طبيعية؟

وكذلك نجد المخرج أمالي بهنسي عند تقديم فيلمه (التصويلة) يقول: (إن هذه المحاكمات تمت لولف تجاوزات حدثت في زمن سابق)، يشير السؤال عن التجاوزات إلى اتجاهات السياسة ونجسدها بمحاكاة مرحلة بذاتها أخذين بعين الاعتبار أن الناصرية وحركة الرئيس جمال عبدالناصر، بسفتها ثورة قامت على انقراض الملكية والفساد الذي استشرى في عهد الملك فاروق، قد عيدت بعض الطبقات والفئات الاجتماعية من مواقع النفوذ والسلطة، بل

والحقت بها الأضرار الفادحة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي. هذا التهديد ومن ثم الاقتصاد سينمائي من الدور الذي لعبته الناصرية في تهديم البعض السيطر تاريخيا كان المدافع لهذه السينما. هنا يثور السؤال كيف عملت سينما المعتقل على كشف التهديد ومن ثم محاولة الناصرية كشفها وفحصها بشكل إبداعي يزيل الحجب عن الواقع ويرصد لقهرات المجتمع وحركته. ليس عكسا فونوغرافيا ولا حوارا من جانب واحد، بل محاولة تشكيل صورة هيلمية تستمد مقوماتها من الواقع وتحلق بقضاياها لتعكس الجانب الإنساني كافة ليصبح الخاص هو العام، الذاتي هو الموضوعي، المحلي هو العالمي.

ويحق لنا أن نتساءل بهذا الصدد هل كانت سينما المعتقل بشخصيتها ومفرداتها وأفكارها السينمائية ووقائعها ضرورة مجتمعية إبداعية وثقافية ملحة جدا بحيث لا تحتلها تجربة أو اقتناع؟ أم أن الاتجاهات الراهنة للسلطة السياسية الجديدة فرضت توبيعات في الاتجاه الواحد لتناول هذا الموضوع ذي الصلة الحساسة وبمعيار يتجبه لوصف المرحلة السابقة بالكارثية؟

لقد كان فيلم (زائر الفجر) للمخرج معدوح شكوي في السبعينات من أوائل الأفلام التي حاولت معالجة مسألة القمع السياسي غير أن الفيلم لم يمرح إلا بعد سنوات من إنتاجه وبعد أن دخلت الرقابة وفرضت تغيير الكثير منه. وربما أن مصير الفيلم كان عبء أثرت على ما تبعه من أفلام حاولت الدوران في تلك نفسه واستغلت من وضع سياسي محدد سمح بوجودها ضمن الحدود التي فيها وكان في ذلك مبررته. حيث أن السينما التي حاولت طعن غمار المواضيع السياسية ومن منظور تقدمي خضعت لرقابة شديدة فعلت وشوهت كما حصل مع فيلم (الهارب) لكمال الشيخ الذي لم تسمح الرقابة بمرضه إلا بعد تعديلات أدت إلى مسخه كلها. اللافت للنظر أن معظم الأفلام التي تناولت مسألة القمع الذي تمارسه الطائرات وجدت تعاوناً من قبل الرقابة ذاتها. ذلك أن السماح بالحديث عن القمع ومراكز القوى كان يعني بالضرورة وبالشكل الذي أنجزت فيه في هذه الأفلام، بدءاً من (الكركند) وانتهاء بفيلم (أعنا بتوع الأوتوبس) عام 1979 الحسب كمال، مجموعة هذه الأفلام التي تم إنتاجها في عصر السادات تبثت بأنها موجهة ضد عبد الناصر ذاته⁴. وهنا يحق لنا أن نسأل، هل كانت سينما المعتقل بريئة الدوافع وهي تعمل على نعي الأحلام البريئة... أم هناك نزوع مضمحل نحو التصالح مع السلطة الجديدة؟

بعد هزات الثقة ولاسيما بعد هزيمة حزيران وهي ضوء ذلك النزوع، وبدلاً من أن يكون السينمائي في الموقع التنفيذي الحقيقي، وجد نفسه مثملاً مع شروط السلطة مغالاً لها بأن تلك السلطة التي عملت جهادة ومنذ بدايتها على لتخديم المسألة الأمنية للمصر السابق ووضعت التحفظات على دور المسألة الأمنية ومؤسساتها برؤية لا تتطابق من النظر للإنسان بوصفه الإنساني الحضاري. وإنما بإصرار لتكون هذه النوعية من السينما نموذجاً

يحتذى به ويتوجب العمل على تسويقه لثلاثة فيما بعد عن مجمل مكتسبات المرحلة تلك، بهذا المعنى تفسر ظهور الرئيس السادات- في بداية فيلم التهيئة وهو يقوم بالإشراف على حرق التقارير الأمنية والتسجيلات الصوتية للمواطنين المصريين- وبهذا أقصى نرى تجاوز فيلم (الكرنك) مرحلته ليصل إلى مرحلة السادات- كما تشاهد أكثر من فيلم يقوم بإسوار لافت وهو يشير إلى التغيير الجوهري الحاصل جراء ثورة التصحيح وتسلطه أن نجد ذلك في فيلم (أ... يا ليل يا زمن) للمطرج علي رضا، ففي حوار الإفخاق هائل بطله الفيلم والتي تؤدي دورها العنصرية وردة تسمع محمود شوقي المسؤول والذي يؤدي دوره رشدي أباطة يقول لها: (في إمكانك لرجعي مصر، وتعيشي زي كل الناس، مصر حصل فيها ثورة، ثورة تصحيح، قضت على كل مراكز القوى التي كانت بتظلم الناس) ويتابع: (السيادة النهار ده للقانون، وكل مظلوم ممكن يسترد حقوقه عن طريق القانون.. والتثورة مسؤولة عن إنقاذ كل الجرحى)، أي (حركة التصحيح).

والدكتور فهمي يتعرض للاشتغال ونشوية سمعته وهدم عائلته من قبل الضابط فهمي لأخطائه في الرأي معه بعدما يقوم بشراء ضباط الجيش وإساق تيمة صدم أحد القارة وقتله مع أن زوجته هي من قامت بذلك في فيلم (أمراء من زجاج).

أما الخلاص لعدايل المحكوم عليه بالإعدام بتهمة قتل وهو بريء منها فإنه يأتي إليه من خلال انتصار ثورة التصحيح حيث يخرج منه فتكون إشارة فيلم (طائر الليل الحزين) للمطرج

يحيى العلمي بالعهد الجديد وأضحة المعنى، <http://Archivebeta>

بينما يعبر الثري أحمد على التوقيع على شهادة طبية تثبت عدم وفاة عماد صديق أحمد بالجماعة السياسية تحت التعذيب والاعتقال بل بصورة طبيعية مقابل الإفراج عنه، فيرضخ تحت تهديد رئيس المخابرات ويخرج، وذلك في فيلم (أسود وعبيد).

بينما تحاول الطالبة السابقة والأستاذة الجامعية لادة القانون إخراج الدكتور حسين مرسى من حالة الهذيان بالإشارة إلى أن المرحلة السنية الذكر والمثلية بالقمع والوحشية قد ولدت إلى غير عودة، وأن المرحلة الآن هي مرحلة الإنسان وحقوقه وتظهر إليه بشكل أدعي وذلك بفيلم (قانون إيك).

وبالعودة إلى تقديم محمد راضي لقبيله (وراء الشمس) وما يشير هذا التقديم من الانتباس في جوهر الإبداع ومزاكاته المتغيرات الديمقراطية ومناخاتها الحقيقية، نجد أن للإبداع معايير مختلفة، فالكسندر روشكا، يعرف الإبداع بقوله: (يمكن اعتبار الإبداع وفق تعريف ميرمنج، بأنه الوحدة التكاملية لجموعة العوامل الذاتية والموضوعية التي تقود إلى إنتاج جديد وأصيل وذو قيمة من قبل الفرد أو الجماعة فالإبداع بمعنى الواسع هو حلول جديدة للأفكار والمشكلات)⁽¹⁾.

وسواء كان الإبداع هزديا أم جماعيا، فإن الديمقراطية أهم شروط تحفيظ، ويتناول الديمقراطية نجد أولياتها التاريخية الوثيق أو المباشر بالدولة والنظريات السياسية، حيث جاء عنها في الموسوعة السياسية: «إنها نظام سياسي اجتماعي، تقيد العلاقة بين أفراد المجتمع والدولة وفق مبادئ المساواة بين المواطنين، ومشاركتهم الحرة في صنع التشريعات التي تنظم الحياة العامة»⁽¹⁾. وأساس هذه النظرية يعود إلى البدء القائل إن الشعب هو صاحب السيادة ومصدر الشرعية، وبالتالي فإن الحكومة مسؤولة أمام ممثلي المواطنين وهي رهن إرادتهم). ويرى الدكتور حسن حنفي أن الديمقراطية هي: (احترام الرأي الآخر والاستماع له وعدم تكفيره وإدانته، والولائية به لدى السلطات وكأنه خيانة عظمى، والاعتراف باحتمال خطأ الذات وبأنها قد تتعلم من الآخر)⁽²⁾.

وعملها فإن أي بحث نظري في الديمقراطية، هو بحث في طبيعة الدولة وجوهرها، حيث واقع القسام المجتمع إلى حاكم ومحكوم، إلى فئة تسيطر على معطيات الخلا سلطة القرار، وأخرى يتوجب عليها الالتزام بالقرارات والسياسات التي يتم إقرارها، وبالتالي هل كانت سينما المعتقل بكونها سينما ذات مضامين سياسية، فبحث القضايا التي تتعلق بجوهر التنظيم الاجتماعي من حيث هو موضوع جليل وخلاف، مثل طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، أو من حيث أساس الطاعة السياسية العمياء القروض، وابتعاد هذه الطاعة في التفاصيل والقوابع التاريخية من اختلافها وتعدد على القوانين والتي المؤسساتية مما يلغضي بها إلى الصدام والمواجهة.

<http://Archivebeta.Bakhril.com>

فداحة الشخصيات

النمذجة في سينما المعتقل تتم عن طريق إبعاد الصفات الفردية وتلاونها المختلفة، وتلبث جانب واحد من جوانب الشخصية، وينتججة التجريد هذا لا تبقى سوى صفة واحدة من صفات

الشخصيات، مثل شخصية المعتقل الطيب وضابط الأمن الشرير، وفي سينما المعتقل سوف تتكرر هذه الشخصيات، باستمرار وتسيط شديد حتى درجة السذاجة، حيث تجعل الناس إما طيبين أو شرار متفادين، وتجعل سياقات الفيلم يجعلها تنحو هذا المنحى، الذي يفقد الدراما مصداقيتها حيث يتم رسم الشخصيات وتأثيراتها بتساخنها عن سياقاتها الاجتماعية، وإن قدمت في إطار اجتماعي، فإنها تقدم بصيغة محايدة تميل لتزعة الاستسلام، بلهاء، يحاول أن يثبت ما يعانيه المجتمع المذكور من تخيف، وتهيات، وتتجسد دائما شخصيات الفيلم المحوريان: المعتقل الذي هو على الألف طالب جامعي أو استاذ جامعي، وضابط الأمن، وتداخل بينهما شخصيات هامشية، لا تلعب دورا مؤثرا هي رسم الخطوط التفصيلية للعمل

القلي حيث نجد العسكري أو الجند، أو الزوجة أو الأم وغالباً ما تكون هذه الشخصيات ذات مناهج اجتماعية مسبوقة فتجدها بسيطة وإنسانية في تصرفاتها. والشخصيات الفيلمية هذه تلمع بشكل يجعل في طياته الثبات من البداية للنهاية، فلما يمتلئ من الصورة الأولى هو كل الدور وكل البطل. وإن نتجح الصور اللاحقة في إضافة ملمح جديد يعيدنا عن الاكتشاف والتأثيرات والاهتزازات التي تلمس في النفس والتجربة التي تصقل، حيث نجد أن الثاني يبقى على مثاليته، خلال القيام بكامله، والشرير يبقى على نزغته السادية مستلهما منها أصناف العذاب، هذه الشخصيات تشعر بأن العمل لا يقضى أي عناء لكفها أو حتى تضع ميزونها الثقافي أو الفكري الاجتماعي أو الحزبي بل تجدها متعسكة بمقولات صافية وبمفاهيم مجردة تتعلق بها بآلية مثل: الخير، الحق، الحرية، الديمقراطية، إضافة لسؤال الهزيمة.

وحسب في مجال حركتها الاجتماعية كداعية لهذه المقولات نجدتها غير متعطلة (لا في إطار الجامعة، والتي تشكل في غالبية الأفلام بؤرة الظهور الكثير من التنظيرات، وثمة إشكاليات تلاحظ في أن الطلبة المعتنقين من طلبة الجامعة لا يكتفون بهم الإطار الحزبي المتعلق بمعارضة السلطة القائمة، وبالتالي نرى أن سجل التنكرات غير منسقة، وهي تدور عن المازق الاجتماعي المفترض (غياب الأحزاب الجماهيرية في العمل) حيث لم لاتجذ الجامعة المقروضة من السلطة قد حظرت أي شكل من أشكال (تنظيمات) سياسي، بل الطلبة وعلى سبيل المثال نعت الفقراء (٤) من المادة (٨٩) على حظر تشكيل جماعات طلابية، أو الإسهام فيها من دون ترخيص سابق من سلطات الجامعة كما فرض حظر مشابه في الفقرة (٥) على توزيع المنشورات أو جمع التوقيعات أو إصدار مجلات انحاط، وحظرت المادة (٦) للمظاهرات في الجامعات، وعلى الرغم من هذه القيود (إلا أن الدور الأساسي في تركيز الضوء، على الخلافات السياسية كانت تقوم به الجامعة، حيث ورثت التنصيرية نظاماً سياسياً، ولعبت في الجامعات دوراً مهماً سواء في الحركة الوطنية أو في الصراع من أجل السلطة، في البداية، ومن أجل تدعيم السلطة، كان على النظام العسكري أن يكتسب الكتلة الطلابية النشطة سياسياً والتي اعتادت شأنها شأن الجماعات السياسية الأخرى العمل داخل الإطار الليبرالي للشاغل السياسي، فوجدت أنه من الصعب عليها أن تتفق مع حكم الطوائف المسلحة، وكان الطلبة والعمال يعيشون بمثابة مصدر كامن للاضطرابات السياسية، هكذا قال الرئيس السادات، (التي عاين يسير موقف في مصر يلاقي انداداً للتفجيرة في مكانين من الطلبة باعتبار أنهم شباب منفع لا يترؤى في التفكير عاوز يعيش معركة وعاوز يكون له كيان والمادة الثانية العمال)^(١).

من آنية التفكير هذه نرى أن أولى الصدمات ما بين النظام والطلبة بدأت عام ١٩٥١ وهو تاريخ لم يكن قد بدأت الثورة فيه بتشكيل ملامحها النهائية وإنما كانت في إطار التجريب

والبحث عن صيغ تجتث فيها مطلقات عهد الملك فاروق، إلا أنه يمكن القول إن التوجهات التي حدثت في الجامعات سواء مع الأساتذة أو مع الطلبة كانت نتيجة التصادم بين الليبرالية للجامعيين، والليول الأوتوقراطية للحكام العسكريين كما يقول الدكتور لويس عوض، (كان العديد من الناس يتصورون أنه يمكنهم الحصول على جمهورية وإصلاح زراعي وفي الوقت نفسه المحافظة على الأشكال التقليدية والديمقراطية الليبرالية)¹¹.

وعلى الرغم من أن النظام قد استبدم منذ بداية تسلمه السلطة السياسية، مع الطلبة الجامعيين، إلا أنه حاول أن يوجه النشاط السياسي للطلبة، ليصب في عدد من التنظيمات السياسية التي أقامها ابتداء من (مكتب الطلبة) في هيئة التحرير، وانتهاء بمنطقة (الشباب الاشتراكي) و(طلبة الاشتراكيين السرية)، و(التنظيم الطلابي)، كما تم إنشاء تنظيمات غير سياسية تحت إشراف الأجهزة الحكومية للإشراف على الرياضة والأنشطة الترفيهية للشباب والطلبة، وكان من أهم هذه الأجهزة (الجلس الأعلى لرعاية الشباب) و(وزارة الشباب) اللذان أعطا على التوالي، وعلى الرغم من كل ذلك، فإن الاتجاهات التي تحققت قليلة نسبياً على امتداد السنوات التي تواجدهت بها هذه المنظمات والأشكال الحكومية في الجامعات، معزوف الطلبة وأساتذتهم عن الانضمام لهذه النشاطات خوفاً من وصمهم بموالاة السلطة، وخضوعهم في جانب آخر للتيارات والاتجاهات الفكرية والدينية المتعارضة مع السلطة (شيوعيين - حوان - وطنيين)، مما أفضى في نهاية بديناميات السلطة أو تنحسب من الجامعات.

في سينما المعتقل على الرغم من الأعدادات في التميز والدلالة بالابتعاد عن المسائد، إلا أننا نجد حقيقة التميز في الشكل الجديد، باعتناء السرد الفيلمي على المعتقل كمكان جغرافي يلعب دوراً هاماً ومؤثراً في صيرورة النص، إضافة إلى الغنياء والاعترااب لجيل بدأت أسلته تتلاحق.

إلا أنها في الواقع لم تستعد عن شبك النذاكر، فاستعدت الحبكة السينمائية القديمة (سينما الباشلوات) حيث مواضع الحب والغرام ونجوم الشباك بأوصداتهم الجماهيرية ورواساتهم أو كوميديتهم التي لم يحاولوا أن يتخلوا عنها حتى وهم في المعتقل تمهيدا لأفلامهم الطلبة.

هنا البطل القديم الحالي، في الحصول على حقه الطبيعي من الحياة والحب وبناء أسرة كريمة في شقة يظللها الحب والأمل بالمستقبل المشرق، يواجه البطل الشرير الفاسد، المتمثل في ضابط الأمن الذي هو العيوق والمفرق للأحلام.

في هذه الأفلام نجد الشهيدة القديمة نفسها، والحبكة القديمة نفسها، فلم يتعد هذه السينما عن بشوية الفيلم العادي ووسائل تعبيره التي تم تناولها من دون الطموح لتقديم لغة جمالية تقدم علاقة جديدة بين هذه السينما وجمهورها. فعلى الرغم من أنها تتناول علاقة

سياسية فمعية إلا أن روح التسلية بقيت تكلف مواقفها قديما من الإنسان نفسه على الرغم من محاولات التمويه التي تراها.

الشخصية النمطية (نماذج الأيدي)

لقد صيغت هذه الشخصية، ونمطت في الذهنية العربية، وبحكم واقع المجتمعات العربية كمعادل موضوعي للقمع والإرهاب. هذه الرؤية النابعة من تاريخية الأنظمة والصراع السياسي معها وانعكاسات هذا الصراع باعتماد الأسلوب الأمني العسكري شكلا متاعلا في التعامل مع الآخر المختلف المعارض. بالإضافة لاستخفافها بالقوانين والبنى المدنية، فيضيء هذا الموضوع من ناحية علاقة أشكال التنظيم الاجتماعي المدني وعلاقتها مع النظام العسكري وقوانينه، فهي أكثر من فيلم لشاهد الجنود بتجهيزاتهم الميدانية وهم يندفعون لتلقي واستقبال المعتقلين الجدد بالكلمات، كما نشاهدهم يتصدون بالطريقة نفسها للتظاهرات والاضطرابات. هذه المشاهد التي تطوي على دلالة مهمة لتفسير العلاقة بين المعتقلين والجنود، وأسلوبية التحوار فيما بينهم ونحاول أن نعمم ذلك لنطرح علاقة الميماهير الواسعة مع النظام السياسي. وتظهر التكريس لمحاولات الالتصام القسري للفروخ ونماذجهم، والذي أفضى إلى حرمانهم الأهل والحرية، وضمن هذه الرؤية لاسيما للأنظمة والتجارين دورا بضميم صورة بشعة مطبقة لضابط الأمن الذي تطلق الصورة عن عبيد الأمن لتفوية ويحتلها أنية من تحول في نظر ضحيته إلى فعل لا يحده حد، تلك الإنسان الذي يعيش الضمير، تجبرونه وقوته وقسوته داخل المعتقل، وخضوعه وانكساره ولذلك أمام رؤسائه خارج المعتقل. هذه الشخصية النمطية والإنسانية التي تعارض جميع أشكال الفساد بعيدا عن أي قيم إنسانية يقدمها المخرج محمد راضي في فيلمه (وراء الشمس) حيث تمكن شخصية الجعبري التي أداها العمل رشدي أباطة مجمل الصفات النمطية لضابط الأمن. هذه الشخصية تقوم في بداية الفيلم بقتل اللواء حسن سلامة المسؤول عن مصلحة السجن، والذي جمد نفسه في المنزل مطالبا بمعاملة المسؤولين عن الهزيمة. هنا نجد شخصية الجعبري تأخذ أبعادا درامية مختلفة، من حيث تصوير بنيتها الأخلاقية، فتجدها تقوم بالاستيلاء، وتوظيف الأموال الخاصة التابعة لإدارة المطارات لصالح زوجها التي تقوم بشراء العقارات، وتأسيس شركات الاستيراد والتصدير، وهي الجناح الآخر، نراه يقيم علاقة محرمة مع سفير الأستاذة الجامعية وابنة حسن سلامة، فيعد مقتل أبيها يقوم بإيهامها بأن هناك مؤامرة لقتلها فيخبرها ويمنحها ويوفق ذلك بأشرطة التسجيل، ليخبرها فيما بعد على العمل معه كمخبرة، وإشارة على حركة الطلبة، ويتناول شخصية الجعبري كما عكستها سياقات الفيلم نجدتها شخصية مؤامرة متفجرة، تعمل جهدها للحصول على رضا الرؤساء وهي الآن ذاك تحاول جهدها لتوريط رؤسائها، وإرسالهم إلى ما وراء الشمس، أي إلى

المتنقل تصبح هي الشخصية الرئيسية في العمل بينما بالمقابل نجد شخصية هاشم رئيس ~~الشخصية~~ ~~والتي~~ لا يابه كثيراً للقرار يزود به عن طائرات القاتوم التي وصلت إلى إسرائيل بقدر اهتمامه بتحركات الداخلين والخارجين إلى منزل الرئيس جمال عبدالناصر. بل ويذهب أبعد من ذلك ويإشارات تحمل أكثر من مغزى وأكثر من تأويل حين يطلب مراقبة تسجيلات الرئيس نفسه هو وزوجته وأولاده.

هذه الشخصية تتجلى لنا، وبحكم موقعها الأعلى، أكثر هدوءاً واتزاناً وقدرة على التماس وصوغ الأحكام الجاهزة التي تقدم بقاها في موقعها، شخصية تتحكم في خيوط اللعبة المرمومة سلفاً بإعطائها هامشاً جزئياً لحركة الآخرين مع مطالبتهم بالرقابة الذاتية لكل عنصر من عناصرها للأخر، وبالتالي التحكم في مصائرهما جميعاً، شخصية منخورة تحوز على الرضا وتعارض الفجور مع زوجة الجعبري وأيضاً مع سفير عشيقه الجعبري، وفي حين ترى شخصية الجعبري كأداة نزقة مشرعة ومولوة بالدماء والسيادة من خلال حصولها على الاعترافات والتوقيع الدموي عليها من قبل المعتقلين، فإننا نرى شخصية هاشم مصافة للدلالة على الهيمنة الفوقية للسلطة التي لا تمارس سلطة الدماء بديها وإنما من خلال أدواتها - عناصرها - وبهذا تكون شخصية الجعبري كمثل الضابط الأمن الذي تناط به الهام الفذرة تأسيساً لجعل التناول الفلوس لمعطية الصورة السيئة للضابط الأمن، وعلى الرغم من أنها مسقوزة إلا أنه أصيد ظهورها مرة أخرى ومن خلال سياج الأمن في فيلم (أحنا بشوع الأولويين) للمخرج حسين كمال، حيث تظهر المشاهد السيئة بصرية ضابط الأمن الذي صيفت لمعطية، والوساوس تتأكل حتى العظم حيث نراه حريصاً كل الحرص على منع بديه بالمحارم الورقية عند كل لحظة له فيتحرك في مساحة ضيقة ضمن غرفته المعدة للتعطيق بين الفلسفة ومقاولة المصافير، هذا الضابط الذي يقترب بأدائه الحسي من تحقيق الشكل والحركة الأتلية (كيشعرا بشووه) وهنا رمز جديد يضاف إلى الصفات التي أضيفت بشخصية ضابط الأمن.

نعرف إليه وهو يسأل عن حمام الشمس فيجيبه العسكري بأن المعتقلين والقانون تحت أشعة الشمس منذ الصباح في مشهد سديمي لا ينبئ عن ملائح، فيه يتهاول ضوء الشمس الكثيف كسيات لافية على الرمال الصحراوية لتشتعل تحت أقدام المعتقلين الحفاة والمستسلمين لقدرهم بيأس، وضابط السجن يملطي خصائه مستعرضاً قوته وجبروته مستمعاً حتى الثمالة بفطرات العرق التي تنز من الأجساد المتهكة المتهوية والتي تنتظر إشارة الرحمة من يده لمقاولة هذا الجحيم والاحتواء، وفيه الزنانات ثقيلة الظل، هذا المشهد صاغته الكاميرا بشغف شديد فأحالت وجه الضابط إلى مساحة سوداء طائفة فلا تتبين أي ملائح لفسادته كما أنها ركزت نظرتها من الأسفل للأعلى للدلالة على العنجهية والصفات اللاإنسانية التي يتعلل بها،

فلمعكسه متطاولا، هذا الضابط الحريص على القضاء على راحة التعرق في جسده يشتري أنواع المطورات يظهر كشخصية متناقضة ويدور يحاول أن يؤشر إلى الفارق الكامن بين الحياة والموت، بين الحقيقة والنفاق، ومن خلال هذه الرؤية يأخذ الضابط مهاد الأبعد في سبيله التأملي النوعية الضابط ودوره، حيث الاختلاف هنا نراه في محاولات الحصول على الاعترافات من خلال الكين والبقاء، فالضابط يأخذ بالانصاف الجميل ليصبح جملا متكاملة لعدم عقيدته، فثبوت رؤيته للمعتقلين الذين بين يديه، وتظهر قناعته غير المعلنة بأنهم مدانون سلفا ومعكوم عليهم، فيفسر الكلمات على هواه وعندما يصطدم بالحقائق يعود ليلبس قناعه الحقيقي حيث لا مخلص من استعمال الضوء والتمويه وإعادة صلاحيته للحصول على الاعترافات الخطية الواقعة من قبل المعتقلين بما يريد.

الضابط الشروع بأدعائه في القاعة الأولى مع المعتقلين الجدد بأنه هنا (يوجد عدل وأيضا يوجد لتحقيق لأجل كل معتقل يأخذ حقه)، والسرع للحصول على الاعترافات تلبية للاتصال التلقوني الذي تلقاه من الأعلى، نجد مبدئيا الطاعة العمياء للآخرين، والاستعداد للمضي لأخر الشروط وصولا للقتل حتى يتم إيراد اسمه في جداول التزيينات القادمة.

أما في فيلم (التحويل) لأسمي بهنسي، فإننا نشاهد ونكتشف أكثر من نموذج لشخصية ضابط الأمن، حيث ترى التريب سياسي، المعقل إليه مهمة إرهابية ألا وهي ترحيل قطعة من السجناء السياسيين إلى أحد المعتقلات الصحراوية، وفي لحظة التوقف المطرات يكتشف هروب أحد السجناء فترام يعيش الرعب والذعر المزدوج، حيث الارتجاف واختلاف قسمات الوجه والرهشات التي تطفئ عليه، وفي لعبة للبرج من هذا المأزق تلعب يدهنه للحظة فكرة شيطانية فيقوم بإبدال عامل التحويل حلمي مكان السجن الفار، وفي المعتقل الصحراوي يبلغ صديقه الآخر الضابط مرزمي سلام والمشرع بشكل مباشر على المعتقل وسجنائه بما حصل فيصوغا مؤامرة الصمت هروبا من تحمل المسؤولية والتعامل مع حلمي عامل التحويل بأنه حسين الصحراوي السجن الفار، وتبدأ عملية الضغط على حلمي بشئ الأشكال ليعملان القضاء والاعتقاد بأنه هو حسين الصحراوي، وفي جانب آخر معاكس نرى شخصية مختلفة لضابط الشرطة القديم عمر خالد الذي يمارس عمله الذي في قسم الشرطة فيرفض الواسطات، وبالتالي لا يساوم ولا يهادن حتى مع مراكز القوى لقضايته الداخلية بأن نس القانون ينطبق على الجميع من دون استثناء، ومعكسه الكاميرا صاحب ضمير حي ملتزم بالسلوك الأخلاقي والاجتماعي السوي، هذا الضابط ومن خلال رنين التليفون الذي يلح، بينما دوائر التدخاين تتعالى في غرفته مشكلة ضبابية ترمز لضبابية المرحلة، يرفض الرد على الهاتف مبركا أنها وسامة لأحد أبناء المثقفين، فيدفع ثمن مراقبته تقارير ملفقة يحتويها ملفه الوظيفي، وينقل بسببها إلى المعتقل الصحراوي بموقع هامشي غير فاعل حيث مال التحكم

الحقيقي بالقرارات. يؤول إلى التعذيب عزمي الذي يمتلك مصادر الجميع فيمارس فوقيه مفرقة بحب الذات. وهنا نعود مرة أخرى لنعطية الشخصية المرسومة لتنفيذ مهمة تلقين الاتهامات والحصول على الاعترافات الخطية للمعتقلين بعد حفلات التعذيب التي يعاشرها مستمتعا حد التماثل. إضافة إلى التستر على الخطأ مستلما مصادر قوته ومكوناتها من خلال علاقاته مع مراكز القوى والنفوذ في الهيئة الأعلى. في المعتقل يكتشف القدم عمر المفارقة الكامنة بأن حسين النهراني التهم بانتمائه لجماعة الإخوان المسلمين ليس إلا مسيها فبطيا، فبدأ رحلة السؤال والبحث عن الحقيقة. فتكون رحلته في الوقت ذاته هي رحلة فضح المؤسسة الأمنية بتركيباتها المستعملة هيأته الرد ساعقا: (هل تريد أن أروي باثن من زملائك في السجن مقابل مجهولي؟) فيعود للقدم التمسك بمواقفه المبدئية مقلنا أمام مسؤوله أن (القانون لا يفرق بين ضابط ومجهولي) فيتهدد ويتوعد فتكون النتيجة إعادته إلى المعتقل سجناء هذه المرة. بعد ذلك يؤخذ قرار تصفيته الجسدية لأن خروجه من المعتقل سيكون سببا في فضح العلاقات والخطايا التي تتحكم في هذه المؤسسة من حيث المصالح أو الظروف. وعند لحظة التنفيذ التي يوكل القيام بها للتعذيب عزمي يحاول طفل التحريية حلمي إقناعه مما يؤدي إلى اختراق الطغفان صدرههما صماتتين، فينساب الدم في النهر الصغير لتتحول مياهه كلها حمراء (دلالة على كمية الدم التي تخرج في المعتقلات) وبعداً من شخصية القدم عمر التي ستؤولها فيما بعد، إلا أننا نرى أن هذا الفيلم لم يثبت بالحق عن نعطيات ضابط الأمن وسمااته. وخصوصا ضابط أمن المعتقل على الرغم من أن الفيلم يحاول أن يخلط الأزمنة فيما بينها، فلمي حين نرى قاهرة التسمينات، مبالغها وسياراتها وناسها، فإننا نرتد إلى مرحلة الناصرية بإشارات هائلة يحتويها الفيلم.

أما في فيلم (البريء) قصة وسيلاريو وحوار وحيد حامد وإخراج عاطف الطيب فإننا أمام الشخصية الناصرية المزدوجة لضابط الأمن. حين نرى توفيق (محمود عبد العزيز) يدخل متجرا للألعاب باحثا عن لعبة هدية لطفلة عمرها ست سنوات فيشترها، وعندما يخرج يتعرض له عسكري المرور لميسجل بحقه مخالفة مرسومة بسبب إيقاف سيارته في المكان المنوع فينصاع له. متصاعرا دون أن يمرضه على نفسه. والضابط توفيق الذي يقوم بدور المهرج لإسعاد الأطفال في حفلة عيد ميلاد صديقة طفله يبعثنا نشعر بإنسانيته للوهلة الأولى وهو يزرع البسمة على شفاه الأطفال من خلال مواقفه الدعشة. ولكن هذا التعاطف يقف متحولا حين نراه معتقلا حصاته مختالا بين صفوف المعتقلين الجدد وبدأ بمسألهم عن تهمهم (أنت شيوعي) (أنت اخوان؟) مستعرضا قوته ومهارته بتبيان المعلومات الأسرية والهنية لكل معتقل. ثم فيما بعد يربط أحد المعتقلين خلفه بالحبال (الدكتور علي خليفة دكتور الجيولوجيا) والذي يؤدي دوره الفنان جميل راتب ويلكز قلمه لتعبر بهلما جسد الدكتور يحفر عميقا في باطن

سجناء المعتقل

رمال الصحراء مشكلاً خطاً متعرجاً تحت أشعة الشمس اللاهية، ويأخذهم بهيمته بتعطسه في الماء. بلذة منقطعة التطير، ذلك الإنسان الذي يخلق للسجناء عملاً منذ الصباح إلى المساء ليتلذذ بعضهم الشديد، بتكليفهم بحفر بئر ثم رمه فيها بعد، هذا الضابط الذي يقوم بقتل الروائي ويغن جثته في الصحراء وتذيل توقيعه بأنه قتل من جراء محاولة الهرب، يحاول أن يصور ويكل وضاعة الوعد قصي الحقائق عن مقتل الروائي رشاد عويس (صلاح قابيل) بأن هذا المعتقل هو فندق موجود في الصحراء، ولكنه يحمل ميزة مهمة للزلاء على اعتبار أنهم من المثقفين والفلاسفة والسحاب الراي، يمدونه، وبالتالي فهو المكان المناسب للتأمل والتفكير، بل ويذهب إلى اعتباره مصعباً نفسياً، يعالجون به، ولكن على طريقته، ويضيف بأنها طريقة كلها إنسانية. في دولة ثالثة يدهونهم في الحياة ولكن (نحن نكتفي بعزلهم عن الناس ومن، ونحن في النهاية تحت أمر القانون وطبعا حضرتكم من رجال القانون والعدالة وتضيقكم يمكن أن يخرس الإشاعات والأكاذيب التي في الخارج)، فيجول الوعد في أرجاء المعتقل ليرى إنسانية التعامل المبرمج والمرسوم مسبقاً نتيجة العلم بالزيارة. هذا الفيلم يظهر جانباً مهماً فُيِّبَ في بقية الأفلام الأخرى، وهو أن ضابط المعتقل ليس السلطة المطلقة، كما يظهر الفيلم إلى الانفصال بين السلطة القضائية والسلطة الأمنية، حيث يضطر الضابط إلى الكذب والتفوق في كل شيء ومع ذلك فإن السلطة هي للوزير وأجهزة الاعتقال والضابط المسؤول عنه لم ينج منها الفيلم الذي ناقش متولات أكثر مصداقية من غيره من الأفلام.

أما في فيلم (الهجامة) لأسامة النور عنكاشة قصة وسيناريو وحوار وإخراج محمد النجار، فإن هذا الفيلم يتفرد بالكامل، من بقية الأفلام، بتناول أحداث ١٨/١٧ يناير ١٩٧٧ وما سبق إعلامياً، يوصف تلك الأحداث الشهيرة من قبل السلطة بانتفاضة الحرامية فيناقش الفيلم مرحلة الانتفاخ، في ظل حكم السادات، والتحول الاجتماعي والقيمية التي حصلت في تلك الفترة الزمنية، والفيلم بعيد الذاكرة الصور الحية لتلك الهبة الجماهيرية حيث نجد الطاعرات وكيفية تعامل قوات الأمن مع الجماهير الفاضلة، فتصور الكاسيرا الإطارات المحترقة والدخان المتصاعد في الأجواء والهرارات الغليظة التي تنهال على رؤوس البشر، سفارات الإذثار وخرابهم المياه، والمعتقل هنا هو سجن للنساء حيث نجد إناث الهجامة الحرامية، المحكوم عليها بثلاث سنوات سجن لقيامها بالسرقة والتي يفرج عنها هي والكثير غيرها قبل انقضاء مدة العقوبة، تخرج لتدري الدنيا تشعل أمام عينها فيلقى القبض عليها وبشكل مفضوح وتودع المعتقل لإتهام الراي العام بصفتها لسة وأعدى الشراكات في الأحداث لتطبق مواصفات انتفاضة الحرامية على ما يحدث.

في جلسة التحقيق يخبرها الضابط المسؤول بأن جميع المعتقلات حرامية وأنهم ضا سيدهبون للمحكمة تقول (نحن يعملن معها وتتم الإغرابات بفتح مشروع كبير لها، إذا قامت

بالشهادة.. وأمام وكيل النيابة تقفي معرفتها بأي من البنات وتشرح ظروف اعتقالها المفاجيء هي اليوم تقصيه الذي أطلق فيه سراحها، ويتساءل القاضي بعدة مؤلّيا ضباط الأمن (أسأل فين الاعتراضات التفصيلية يا يهوات) وهي المعتقل وبعد عودتها تعود مرة أخرى للمطية ضابط الأمن وصورته المعروفة حيث يقوم بعصفها وفيما بعد يلعب حفلة تعذيب متكاملة على أنفها وسراخها، فتشاهد التغطيس في برميل الماء، وتستمر سادية طلعت محاولا إرضاخ إيناس وكثير مقاومتها وحتى عندما يخاطبه أحد الضباط (كفاية يا طلعت ما توديش نفسك هي داهية وتحمل نفسك مسؤولية) تكون إجابته (مسؤولية إيه دي لة شوارع ما حديش حيسال عنها زي بنات الجامعة) وعندما يقول له زميله معترضاً على الأسلوب (دك كثير)، تكون إجابته (ما عنديش غير).

ومن كل ما سبق يمكننا أن نسجل التالي:

١- إن سينما المعتقل ليس أن رجال الأمن يتعاملون بالهبة ومن أي حس إنساني أو وازع أو ضمير وهم يعملون فوق اكتافهم أعباء الحركة القسومية بدقة وممارستهم تتم إما بشكل فردي أو إرضاء لزملائهم أو مرؤوسهم. وهناك أكثر من إشارة ودلالة على حقيقة هؤلاء الأفراد وهم المجهدون عن الأمن الرقابة، حيث إنهم بممارستهم هذه، يتجاوزون منطقة الصلاحيات الممنوحة لهم والتي أساساً تقوم بتجسس حركتهم في التعامل مع المعتقلين.

٢- الأزدواجية والتقسيم الكلاسيكي لمجسبة غربية وممارسات شاذة وسادية أقرب إلى الحيوانية هي أبرز الصفات والملامح التي تتجسد بشخصية الضباط الأمني.

٣- تلفيق الاتهامات والحصول على الاعتراضات بعد حفلات التعذيب فاسم يشترك فيه جميع ضباط الأمن في أفلام سينما المعتقل- إنه السبيل الوحيد ولا سبيل آخر هذا ذلك.

٤- تركيز الضوء على الخدمات التي تقدم للأعلى والاتصاح للأسفل حتى لو كانت تحمل إشارات الكذب والتزوير- فهي فيلم (الهجامة) لمحمد النجار تتحدث هذه الرؤية من خلال حوار بين عناصر قوى الأمن الذين يتأهبون لتفريق المظاهرة، يقول أحدهم (أحنا لازم نضرب هي المليان) فيجيبه آخر مستغنياً: (أحنا نضربة جابر نضرب واحد يطع أخوك أو ابن عمك) وآخر يقول (دي فرصتنا عشان نعمل حاجة نتطلعنا لفوق)، أحد الضباط يضم النقاش (فاهمين غلط... هاكرين اللي يضرب أكثر يعجب أكثر ويترفي أكثر)؟

القضية الإيدلية

إن التغيرات العميقة التي عايشتها السينما المصرية خلال عقد الستينات وبرزت مواضيع وأهداف جديدة للفيلم المصري فرضت اختفاء ابن الذوات بسماته العديدة وملامحه البارزة التي عملت السينما المصرية على إرسالها خلال مسيرتها برمتها، مما أدى إلى ظهور الأبطال

فيما العبد

الهامشيين والأبطال العامين البعيدين كل البعد عن مقاييس النجومية التي كانت رائجة فيما مضى، أبطال في أسفل السلم الاجتماعي، يملكون العلم ولا يستطيعون تحقيقه. ولكن سينما المعتقل (عادة لأفلام أولاد الذوات حيث أصبح الأبطال (المعتقلون) الجدد تحديفا لحلم العودة لأفلام أولاد الذوات، الذين يحملون بذور الخير والحب والإنسانية، فيما ظل النموذج الحقيقي للإنسان القلزم، المعتقل خارج الواقع اليومي. هذه السينما هي محاولة منها لتقديم الصيغة بشكلها الجديد (المعتقل) بوصفه ابن نوات من طراز جديد يحمل نواها من تصاعدي الحلم الضامد بمدى حجم الكارثة التي مضت.

وبشأنها لتعالج المعتقلين قدمت سينما المعتقل نماذج لشرائح اجتماعية عدة كشاهد إثبات على أن المعتقل طال جميع أبناء الشعب من الريف للمدينة، من الأمي إلى الجامعي، من الروائي للعامل، من مروج الدعارة ومشغري النساء إلى الشيخ. هذه الشرائح التي تريد أن تشهد على خواء النظام وتطبيقاته من خلال مستوى واقعي خاص تجسده الشخصية في الانطلاق من خطأ ما أو رؤية تساؤلية لتجد نفسها في مواجهة الأحداث وهي خضم المعتقل، لتجسد أشخاصا مثقلين بهاجس الموت وخطره وما إلى ذلك من مستوى الوعي بأن الوجود في المكان لا انفكاك منه، وهي هذه السينما نتاج مشوار الفلاح الشاب من غياب وهيبه، إلى امتلاكه، والعامل من التهمة المظنة إلى لحظة موت، فهي الإجابات والأشكال المختلفة لتناول الشخصية الإيجابية بصيغ مختلفة.

في الأفلام ثمة شخصيات تقدمها السينما بصفتها الإيجابية بانتمائها إلى شرائح مختلفة ومطبقات اجتماعية متعددة. فظهر نموذج المثقف الجامعي، والمثقف الروائي أستاذا للجامعة والموظف والعامل، فشكلت هذه الشخصيات المعادل المجتمعي القيمي، بموازاة ضابط الأمن ومؤسساته الأمنية، فندفعان بمحورية النص الإبداعي ليلقيها ويتصارعا كل من موقعه بعلاقة السلب والإيجاب المعكوسة، لتجد الترميز في أن الجلال يصبح ضحية في وقت ما، وتطعنه آلية الرؤية المحددة سلفا، تجاه أي نزوع نحو التفكير المنطقي.

المثقف والجامعي

ثمة اعتقاد ما، في ذهن الناس، بأن مجرد امتلاك الشخص الصفة الجامعية فإن ذلك مؤشر دال على الحصول على الثقافي/المنفتح، ذي العقلية النيرة. وبعبارة عن الدخول في تفاصيل هذه الرؤية ودخول النقاش لتجديد الفرق بين التعلم وبين الثقافة، إلا أن سينما المعتقل انطلقت من هذه الذهنية المحددة لتخلط في دور الشخصيات وتطعمها المؤثر في سياق الأحداث والأمر التلاقت أن هذا الخلط أدى إلى الاستمرار عند الكثير من الأفلام في التعاطي مع هذه الرؤية. فكانت أغلب الشخصيات (الإيجابية) لأفلامها هي من طلبة وأساتذة الجامعات وهي أنماط من

الشخصيات منوف تتكرر كثيراً، فهي (فاتون أليكا) للمخرج أشرف فهمي والمؤلف أحمد صالح فزائنا نرى الدكتور حسين مرسى (محمود عبدالعزیز) دكتور مادة القانون في جامعة القاهرة، يعيش هاجس الاعتقال والتعذيب داخل المعتقل مما يجعله يعيش كوايس من الرعب من مجرد ذكر كلمة (أمن) أمامه حيث تركه ذاكرته إلى فترة اعتقاله في شهر مارس ١٩٦٨، الدكتور حسين يعيش مرحلة اللا توازن - وفقدان الانتماء - حتى لفهم الوطن والأرض، يصبح متشككاً بصورة هذيانة من أي كلمة أو لفظة لأشهر إلى السلطة، هذا الدكتور الذي يعيش حالة الجنون، وعلى حافته، استطاع أن يفهم علاقات سوقية مع العالم السطحي للهميش، علاقات دافعيها الأساسي تعاطي الحبش والجنس، حيث يعتبر أن صيغة العيش هذه هي الأجدى للبقاء والاستمرار بعيداً عن أي شيء، فبرأيه (كمية الحبش أهن من كمية السياسة) ... من أبرز أسدفاثه، المعلم الحائوتي، الذي يبيع جنث الموتى وأعضائها لطلبة الطب، ويقوم الدكتور حسين بتخزينها في منزله التواضع ويعتقد بذلك أنه يستخف بالوث، ويعود بذاكرته للمعتقل حيث يموت في كل يوم واحد من أسدفاثه في المعتقل، فيصرخ ويصرخ حتى تجف عروق حلقه، هذا الدكتور الذي تحاول طاقته السابقة والأستاذة الجامعية لمادة القانون إخراجاً من حالة اللا توازن وإفهامه أن المرحلة انتهت، وأن القمع انتهى، وأن المرحلة الجديدة تخطر للإيمان بما له من حقوق مدنية، سره يهرع واكتفى في الشارع عندما يقدم منهما ضابط البواب، فيرفض العودة إلى حياته العادية، ويبقى متوقفاً في الحديقة التي ينتهي إليها بعد طرده من المعتقل، ويصرخ في نهاية الفيلم عندما يتم القبض عليه، نتيجة لشكل بسيط، وهو ضارب داخل السيارة العسكرية معاطاً برجال الشرطة (يس ما تضرينوش... يس ما تعذبينوش) لتقف الكاميرا متسمة على وجهه الجامد خوفاً، وقمة متسع لأفسي مء صارخاً.

على الرقم من أن السيناريو لا يقدم لنا نواضع الشخصيات، واستغراق مشاهد مثالية ونحن نبحث عن أسابع تلك الهواجس المخيفة التي تتأب الدكتور حسين مرسى، ولا نعرف ما هي القضية السياسية ولا موقفه ولا سبب اعتقاله، هذا السؤال الذي لا يقى السيناريو أي عاء لكشفه، يجعلنا رفعا عتا نعيش مع هاجس الاعتقال والتعذيب داخل المعتقل مما يجعله يعيش كوايس من الرعب من مجرد ذكرى كلمة (أمن).

في هذه الشخصية ثمة مناقشة للتحويلات النفسية ومعكبات تأثير المعتقل على النفسية الإنسانية وعلى الشخصية سواء يتوازنها أو عدده، وبالتالي السفر والعودة، وبشكل عكسي في تحولات القيم لديها من الإيجاب والسلب، من قمة التفاعل والمشاركة إلى الانغلاق والفرقة والارتداد، ومن هنا تكون هذه الشخصية ليست حاملة وعيا معرفياً، ولذلك تعيش هذا الاعتزاز، وتشكل صبروات حياتها وسياقاتها، نتيجة صدمة أضحت بها إلى المعتقل حيث لم تعمل حسابات الربح والخسارة جراء موافقتها.

بينما في سياق مغاير تظهر شخصية الدكتور حسام في (وراء الشمس) لمحمد راضي، وهي شخصية معاكسة تماماً لشخصية الدكتور حسين مرسي في (قانون أيكّا) حيث نجدها فاعلة ومؤثرة في محيطها، تعمل على اصطفااف الطلبة لتنظيم حملة مساعدة ودعم لضعافا عدوان ١٩٦٧ فيقوم الدكتور حسام بزيارتهم والطلبة وتقديم المساعدات العينية لهم وشهد أزرهم مما يفرضي إلى اعتقاله فيدافع داخل المعتقل عن قضايله حتى الموت. وبذلك تتبلور الشخصية كفاعلة قيم ومواقف مبدئية، أما على صعيد التعامل المتعددة للطلبة فتجد في (الكركند) الذي يناقش أيضا اعتقالات الطلبة الجامعيين وانهم التي لفتت لهم، بسبب بحثهم عن سؤال الهزيمة، أساليبها ومبرراتها، ومن خلال شخصيتين جامعيين تتواجهان، إسماعيل وزينب، ويؤدي دورهما سعاد حسني ونور الشريف اللذان يعطيهما حب، جارف وأمال وطموحات بمستقبل أفضل ولقد أوضح، هاتان الشخصيتان تتعرضان للاعتقال وتلتقيان في حرب تشرين، ومن وراء قضبان المشفى العسكري الذي تعمل فيه الدكتور، تتواجه الشخصيتان وبخطرات صامتة برحلة عبور ذاكوة المعتقل، وما حدث به من تعذيب وقتل والمغتصاب فتجد إسماعيل متهددا متهارا شبه إنسان يعيش الهاجس والخوف العيش في روعة وغموضه، ونجد، بالمقابل الدكتور زينب التي تجاوزت جراحها والمغتصابها ضمن جدران المعتقل وقد حاولت إسويته الإنسانية فاعلة ومنظرطة في الحياة بل وتعمل على تعليم الجراح أما شخصية حسين في (البريء) لعاطف الطيب فهي تختلف كلها، حسين الضالاح والطلاليد الجامعي الذي يقوم بمظاهرة مع الطلبة الجامعيين استنكارا لقتل الروائي رشاد ومعتقل، له دور مختلف الناحية تنمية الوعي الفطري عند المجند أحمد الضالاح الأمي، الذي أوهب من خلال عمل الدماغ الذي تمارسه المؤسسة الأمنية بأن من هم داخل المعتقل أعداء الوطن والحرية ويجب معاقبتهم وبشدة وبذلك تكون قد ركزت هذه الشخصية على تحديد أحد أساليب النظام في تشويه الوعي وصياغته بشكل يقوم على حسن النية والنزاهة السبقة في التعامل مع الأخرين، إلا أن هذا الوعي المهادن سرعان ما يجد نفسه أسيرا لتعديبات السلطة يمدى وحجم هذا الوعي، فيستطقت مقتولا.

الوطن العتيق...

شخصيات نداء حباتها لغة العبد...

لغة الكثير من الشاهد والدلالات في سونما المعتقل تؤرخ للموت العايب الذي يحدث داخل الأفق المصور إلى موت هابط من التعذيب يخلف وراءه وجوها متسائلة غير مصدقة أن موتها وخسارتها الأهل والأحباب من دون ذنب.

موت يتغلغل على ظهر هدى، يختار ضحاياهم، ويعرف أسمائهم وأعدادهم، وجوء مقتاة وشخصيات مسكونة بالآوات، وما علينا إلا أن نغمض أعيننا حتى نخرج من شعر الظلمة التي تلف مؤخرة رؤوسنا وتغرس في بطننا.

هناك الكثير من الشخصيات التي رسدتها السينما، وهي تدفع الثمن، منها شخصية الشاعر المبروكة في التصوف والقليلة بطوفان الحب للوطن، تتساب من بين أيدينا لوحة حين يتم اغتياله في فيلم (أحنا بنوع الأولويين) على الرغم من القناعة التي تسكنه بأن هناك فروقات شاسعة بين أن تغير وبين أن تدمر، هذه الشخصية المستطمد داخل المعتقل بأفكارها المهادنة الوسيطة من خلال رؤية الآخرين وممارستهم الدعوية تحت شعارات حب الوطن، في مشهد استلهمت فيه المؤثرات الصوتية بتصاعد الحزن مع تصاعد صوت يأتي من بعيد، من وراء الجدران وهو يهتف الحب العمايق للوطن، وعلى الرغم من أن هذا المشهد تقافرت في تكامله الكائنات المختلفة من التشكيل الملالم للمشاهد وحركة الكاميرا وزواياها إلى الديكور والإضاءة، إلى امتزاج المعتل بمأساوية الفعل الذي يحدث بلا ثمن. هذه العوامل المتجانسة ساعدت على إيجاد إشباع متناقص حاول رفعه شوية الفيلم، وقطع بشكل مؤقت النص السينمائي الضعيف، إلا أن تعدم الإخراج وإفلاته غير المضبوط، على رغم بعض الحذريات التي حاولت إرضاء وإعيا بالتمويل جعل الفيلم يهيم وكأنه أسوأ من الأفلام المقتولات التي بدأت تعرض نفسها في تلك المرحلة، وله شكل مسرحية حين كان أراجعا هائلا عن فيلمه (شيء من الطوفان) 1979 والذي تشابه فيه مع المرحلة المأساوية.

ويتجاوز المخرج عاطف المظب ومن خلال السيناريو المحكم رؤية الموت العابت التي صاوت الأفلام الأخرى، واعتبار أن الإنسان هو من يضع تاريخه موتا، جنونا، عيبا، وذلك من خلال تقديم شخصية النقف في فيلمه (البريء)، والذهاب إلى أبعد مدى حين يشير إلى أن النقف الحقيقي هو المحرك للأحداث، فلنقف عنده هو روح الشعب ونضارته.

فرشاد عويس الكاتب والروائي الذي يعي تماما حيويات وجوده في المعتقل، يدرك تماما أن الروايات الجنسية (التي يكتبها والتي يشرؤها لا يمكن تلاقيه هنا)، وأنه إذا كان لابد من الموت فيجب أن يكون موتا يحقق آدميته ويضربه من أفكاره وسوافقه التي أغضت به إلى المعتقل، فيحاول الهرب ويقتل من جراء ذلك مصرعه.

ومن ناحية ثانية نكتشف صورة مغايرة للمعتقل السلمي بمرضوخة لقدمه ضمن سياقات المعتقل حيث نجد الوعي الخارج عن المألوف، الوعي الحاد الصدامي، الذي يعتمد على منهجية تفكير مزدوجة عند المخرج المسرحي في فيلم (أحنا بنوع الأولويين) حيث يرى (أن مصر كلها محتاجة لعملية تغيير وبغير الدماء لا يمكن أن يكون هناك تغيير) نشاهده مدافعا ملتزما برؤية الأيديولوجية، وهي السياق ذاته يتجسد الموت عيبا، حين يلامس عامل التحويلة

حلمي الذي لا ذنب له في فيلم (التحويلية) حلمي الشاعر بالفطرة والذي يعيش الحب الكبير الوجداني لبلده من خلال أشعاره الزجرية التي تتداعى على لسانه بشكل تلقائي، وعلى الرغم من حبه لوطنه فإنه يدفع لنا لمواقفه بعدما استثار وعيه بأن التاريخ هو لعبة فذرة، يدفع حياته دفاعاً عن قناعته بالصير المشترك للمعتقلين، قناعة عشت في شرايينه وتغلقت في وجدانه، وتتعمق صورة الموت العيشي لتطال سهير الأستاذة الجامعية، في فيلم (وراء الشمس) والتي تعمل مع السلطة ومع أجهزة مخابراتها بالذات فإنها على رغم ذلك تدفع حياتها ثمناً لمواطنيها بدفاعها عن أسدقاتها والذين يعرفهم في الجامعة، بتزييف التقارير عنهم.

نموذج المرأة

تعتبر الثقافة التقليدية هي الثقافة السائدة في مصر والجماعات العربية الأخرى، من حيث النظر إلى دور المرأة المؤسسة من خلال الرؤية البطريركية بأن الذكورية تتمثل بالقوة والسيطرة والسيادة، أما الأنوثة في الضعف والخضوع والامتثال لسيطرة الرجل، وتسود هذه النظرية الويغية في المدن وليس في الريف فقط فالطوار المعاري للمرأة في الريف كأمراة وزوجة وأم، أي الدور الذي يتوقعه منها المجتمع، وما ينتظر منها القيام به يتفق اتفاقاً كبيراً إن لم يكن يتطابق مع دورها المعنوي هذا، ولهذا لا تجد المرأة الويغية في الثقافة المصرية التقليدية نفسها في أي سراج بين الضوء والظلمة، ولا تجد نفسها في أدائها لدورها أدنى مشاعر الاغتراب¹.

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

وهي رسمياً لإبعاد المرأة لم تخرج حينما المعتزل عن سلبية الرؤية للمرأة حتى وهي تلج أهم الأبواب بمظاهر الحياة الاجتماعية، فقامت بتحديد وتطويع هذا الدور بعناية ودقة، بما يعكس الرؤية الذكورية (المجتمعية) للمرأة حتى ضمن التحويلات والتناقضات والمصطب، في تلك الفترة اللينة بالاحتمالات كافة، كما نحاول حينما المعتزل الإيهام بوجودها وتحققها على الأرض، والمرأة في حينما المعتزل سواء أكانت مدرسة جامعية، طييبة، طالبة، أو موظفة، تتجسد بفكرة متعددة ألا وهي التومس الفاضلة حيث إن فقدان بكراتها سواء كان الأمر اغتصاباً، زناً، فهذا هو حتمية مقدرة مفروضة سلفاً جراء دخولها معتزل العمل السياسي وولوجها أبواب صعبة شاقة لم الاستئثار بها على المستوى التاريخي واحتكارها للرجل.

هنا الفكرة المتضمنة في الأعمال السائدة على مستوى الرمز المستند خلف الأحداث بأن ابتعادها عن هذا المجال هو أدعى للسلامة والعلمانية، فالعلاج النسائية الأخرى التي تتوازي مع العائلات بالسياسة هي نمالاج حلوة، شفافة، متوازنة، خالصة، تبحث عن الحب والاستقرار العائلي، فإنة مديولي حببة جابر والتي لا نلظها بما يدور في العالم الخارجي من صراعات، هي النموذج النقي للمرأة والعطارة، كذلك إلهام شاهين في (البريد) والتي تظهر بمشاهد

لا تتجاوز العشر دقائق، حيث تمثل دور الفلاحه، هي رمز للاستجابة المتوافقة مع طبيعة القلب، بينما نجد الدكتوراه في التفكير، هي الأمثلة للموسى الفاضلة التي فقدت بكارتها في المعتقل وتعرضت للاغتصاب إلا أنها بعد خروجها تعارض الجنس بكل عبث وصجون تعبيراً عن فقدان الذات النسوية وهي أبنه الحي الشعبي المتقيد بالأعراف والعادات والتقاليد والمحكوم مسبقاً بالرؤية الشرقية في أن الشرف يتمحور فقط في منطقة محددة من جسد المرأة (عشاء بكارتها). أيضاً نرى المدرسة الجامعية مهير في (وراء الشمس) والتي تعرضت للاغتصاب والابتزاز جراء هذا الاغتصاب إلا أنها مشروع عاهرة على مستوى عال، حيث لنقل بين أحضان رجال المخبرات ومع كل ذلك تصورها هذه السينما بالموسى الفاضلة حيث تستغل موقعها الجديد لخدمة رفاقها وتضليل رجال الأمن بإعطائهم أسماء وهمية من خلال التقارير الدورية التي ترفع إلى مسؤولي الأمن.

ومن جانب آخر تشير سينما المعتقل إلى أن المرأة التي تعمل بالسياسة حتى ولو لم تفقد بكارتها داخل المعتقل إلا أنها ستفقدتها (بعثية مقررة سلفاً) خارج المعتقل فتجد إلهام في فيلم (الهجامة) تفقد بكارتها بعد خروجها من المعتقل نتيجة انهيارها مع سوقي يديها بالمخدرات لتعارض الجنس معها.

مع إلهام نرى الامتزازات النفسية والتأقش وصولاً للفهم والذي خرجت تحمله من المعتقل، وبمشهد من أفضل المشاهد السياسية التي عرفتها السينما العربية نجد إلهام تضعك بمشهورها معقدة على السرير للفتاوى لجهز التلفزيون تحت تأثير الهيروين والجنس، بينما المذبح يتحدث: (مذبح سامين ألتحم الرئيس السادات جدار الكرامة ليشن من خلاله هجومًا من أجل السلام، السلام من موقع القوة من اقتصار أكتوبر العظيم، إنه بعد بدء من خلال عشرات السنين من الحروب والدمار لوضع ساسة إسرائيل أمام مسؤولية السلام) فتدركس إلهام وهي شبه متهاورة تتناول المخدرات وتظهر إلى نفسها في المرأة ولبحلق عليها بينما المذبح يكمل: (الآن لبيدي اللحظة التاريخية ويوقع الرؤساء الثلاثة اتفاقية السلام التي توصلوا إليها في التغطيات الأخيرة وبعد أن كانت المفاوضات قد وصلت إلى طريق مسدود لولا شجاعة الرئيس السادات).

في هذا المشهد يعرج المخرج محمد التجار بين الوثيقة الإخبارية التلفزيونية والصورة السينمائية...

ونحو في مشهد هذا إلى بناء وثيقة سينمائية تاريخية تحمل الدلالات وتخلق الإثارة النفسية والتضليل لدى المشاهد.

وحرس المخرج التجار، بعينه السينمائية، على أن يلتقط تفاصيل دقيقة لتأكيد البعد السياسي لفيلمه، وحاول تكليفه وتعميق المعنى السياسي لفيلمه على رغم الحكاية الشعبية

فيها الحدث

التي تدور فيها المظاهرات والتماطي العذرات والاقتصاص، وأجد قيادة ممثليه ليل علوي وهشام سليم وسيمون.

أما ما عدا ذلك فإن ظهور المرات هو ظهور هامشي غير فاعل في الأحداث فتتجدد منطقة في الركن تلطم خدعا عند غياب معيها. كان الموضوع اقتصادي لا أكثر، فتجد من هذه التماذج في التحويلة زوجة جابر، زوجة مديوني هي (أنا بترو الأوتوييس)، بينما وهي اتجاه آخر ترى في التحويلة كيف تلعب زوجة لقدم عمر دورا محوريا في كشف القضيح عن الية السلطة، وفي توضيح مكان عمر حيث هو في المعتقل، لأعلى درجات المسؤولين.

شخصيات الصحافة

وتتجدد هذه الشخصيات من خلال هامشيتها، ووجودها في المكان الخطأ في الوقت غير المناسب، فيكون للصدفة الحيز الأكبر من خلال تمثل وجود هذه الشخصيات في المعتقل، حيث يبدأ بانتظر وبشكل مذابر لطريف حياتها الأسبالية التي تعيشها، وفي هذا التمسق نجد شخصية مديوني هي (أنا بترو الأوتوييس) لحسن كمال، وهي شخصية طاعنة في السن، ومتقدمة في العمر، نراء في سياقات حياتها الاجتماعية متهددا منكمسا يؤثر السلامة وعدم الحديث في أي جانب بالأمن السياسية، ومن يتبع موقعه يتيسر بحول بيته إلى كلفة تتألم السلطة حيث يزرع جذران بيته بعبارة السلطة وتهدد لها، ويبدأ بقرائنه ذات الصوت العالي لبيانات الثورة، ويبدأ بصمغ الأخبار والبرامج السياسية المؤيدة للنظام، ويرفع صوت المذيع عند إذاعة برنامج الكاذب، تكشفها الحقائق لأعلى مدى ليسمع الآخرون مواكبته للسلطة، إلا أنه وجاره جابر، وإثر مشادة مع جاني الأوتوييس، يلقي بهما في المعتقل حيث تكون لحظة وجوده هو وجابر في السجن المدني مترافقة مع حضور المعتقلين السياسيين إباناً لترحيلهم إلى المعتقل فيرحل معهم. كذلك الأمر بالنسبة لشخصية حلمي في التحويلة والذي ترافق وجوده أيضا، وبحكم عمله في محطة القطارات مع لحظة اكتشاف هروب معتقل سياسي آخر فيتم الزوج به بدلا من المسجون الهارب، وكذلك شخصية إيناس (الهجامة) والتي ترافق لحظة الإفراج عنها من السجن المدني، مع اندلاع أحداث يناير 1977، مما ينطفي لاعتقالها سياسيا، ولكنها تخرج أكثر تصميما وقدرة على صياغة الأحكام الواقعية والأفعال العملية.

الحدث

تتماز سينما المعتقل بأنها توفر المكان كبناء سينمائي يحضر الحدث بأقصى حالات تفجده الدرامي الإنساني، وتجلياته تأخذ حضورا مهما وقاعلا في صياغة الأحداث القبلية، بل يمكننا الذهاب للقول إنه البطل الرئيسي للأفلام، شريرا، مكانا للالتقاء والصراع والفتنة الضمير.

فهو وإن يملك المساحة الكبرى من الحدث السردى للفيلم، إلا أنه يستفيد متابعه الشخصيات في أدق لحظاتها وقطعها اليومي في المعتقل، واللايومي من خلال الذاكرة التي تتراعى هزيلة، باهنة، تجسد بلغة مشهدية يستكفها الضيق والتأويب، وغير لوحات مشدودة للصراع والرواية، هذه اللوحات وحضورها الصارخ ترسم المكان بالفرجات المرفقة في ساديتها، والروى الإنسانية ومحاولات وأدائها، هذان التقيضان اللذان يتصارعان ويميزان معده سلفا محكومان بنتائج هذا الصراع بشكل مسبق، مما يفقد هذه السينما مجال بحثها الخصب وواد المحاولات الجادة التي تبحث عن عبثية هذه الأماكن، فتتلاشى الفكرة المسممية الهادفة في البحث عن إنسانية الإنسان والرداء إيصالها والصورة التي نطالعها على الشاشة.

فعوالم هذه السينما المتعددة المستويات تتقدم خصوصيتها حين نصل إلى المعتقل، على رغم محاولة خلق مناخات لجهد لشد الحكمة القلمية ومنحها إشعاعا متماسكا ونقاسا جديدا يصل إلى رسم جديد للشخصيات التي تعذب، أتلفا فيتحول المكان إلى مقفل للأحكام البريلة ولعهد الرومانسية والتفكير بمدى الفعلية والشاركة الاجتماعية لتحقيق المسير الكلي، فيه يبرز الفردية لأقصى مداها، وفيه تتجلى انعكاسات الفعل حيث يصبح الإنسان بأبعثا عن الخلاص القردى للظهور من بؤرة الجحيم هذه، وفيه أيضا انعكاسات الشخصية الأمرة وهي تتكلم حتى الثمالة بالعقوبات والأناك المترافقة مع القنوط، فهذه التركيز على الفعل الخارجي والحركة الخارجية حيث يتبدى عدم الفسوف المطلق مع المكان الذي يتطور فيه لحشوتهم الداخلية منه، حيث يتم التركيز على التعذيب كأداة يقوم بوظيفته المعادة لتكوين الصورة الظلمية للمعتقل، فوجهة الكاميرا تأخذ التفرج وتوجه نحو مناطق التعذيب، والتصوير من هذا المنظور يقوم إلى تأثير الواقع على صور يفترض أن يكون لها وجود في الواقع.

وهي عموم الأفلام التي تتناولها والتي بها ظهور متعدد المستويات للمعتقل النفسي فإن المساحة الزمنية الكبرى توظف لحضور المعتقل باعتباره نقطة النهاية لهذا الصراع غير التكافؤ بين قوى المجتمع.

ففي أكثر من فيلم نرى المكان وهو يعطي نتائجته النهائية على الأفق المسور بينادق الحراس وكلاب التعقب.

وتتقاسم هذه الأفلام الاشتراك في المكان وبلعنة زمنية مشتركة، تعكس لحظات معينة من لحظات المعتقلين حيث تروي هذه اللحظات القصة حتى تلك اللحظات وما بعدها، وعلى الرغم من تعدد التعقيلات في هذه السينما وانتقال الكاميرا من معتقل إلى آخر، وعلى الرغم من المحاولات المختلفة من المخرجين للاقترب من الواقع من خلال تعقيل التعقيلات، ووصف تفاصيلها، ومحاولة محاكاة المكان بأدق جزئياته لإثراء صورة سينمائية تقترب من الحقيقة وتسهم في إنجاح العمل، إلا أنه من الملاحظ أن المكان غير المتمايز يزيد

سيرة الممثل

بدرجات متفاوتة، ففي عدة أفلام للبردي المعتقلات، وكأنها معتقل واحد، سواء من حيث إمكانية التصوير، الميكورات، التفاصيل الداخلية، وكان الأفلام هذه قد تم إنجازها ضمن استديو واحد، وضمن رؤية إخراجية واحدة، الأمر نفسه للحظات الاعتقال قد تم تناولها بأشكال متفاوتة بشكل عام، ومنهية نوعا ما وفق الأسلوب الفردي لكل مخرج، وقد يكون مراد ذلك إلى أنه، وإن اختلفت تسميات المعتقلات وأماكن تواجدها، فتنتج الصدام الاجتماعي لأبد وأن تنتج معتقلات تصيغ مفرداتها وبشكل محدد، سواء للتفاصيل الداخلية للمعتقل، غرف الضباط، غرف الحرس والجلادين، المهاجع والزنازات، أمكة التعذيب نقاط الحراسة.

هذه الواضحة يقدمها المكان كمؤشر دلالي على ما يمر في داخل الشخصيات المتقلقة وهم ينتشرون معبرهم المجهول في كل لحظة، وفيه يتجاوزها المخرجون بمداولها الذي لينتقل من خلال المونتاج السريع إلى مستوى رمزي يتحو نحو إيجاد ثالث حقيقي مع الخلفية السياسية والحربية التي تعرض وجود هذا المكان.

وبمشاهد متتالية يتم تحويل المكان غير المتمايز إلى مجرد نتيجة، وإلى بيان منظم يخدم الفيلما الذي يشيده فيكون التشابك الثابت في نظرات الكاميرا، وتوجهات الشخصية التي ترسي الصيغة الأساسية لهذه السينما. واعتبار أنه يتشتر كل شأيا الواقع دون أن يجمعها فيعامل المراجع/المعتقل ككل ضرر واضحة المعالم ويكون حركاتهم المتقلبة أمام الكاميرا دليلا على عبثية المكان. باستثناء الشخصيات البهيمية التي تهب الكاميرا وراء حركاتهم، وترتبط حركاتهم وأدائهم أمام الطوف من هذا المكان <http://ArchiveData.S>

ففي فيلم (أعنا بتوع الأنوبيس) ترصد الكاميرا ضرة القمر الذي يتقلقل ويجهد كثير من خلال كوة صغيرة جدا مسورة بالحديد، فيصبح هذا الضوء الشاحب مقززا قاتلا عندما يستلقي على الجدران السوداء القائمة لتبصر بعض أسماء المعتقلين الذين مروا في هذا المكان وهم يورخون حياتهم ووجودهم بأشكال مختلفة من كتابة تاريخ اعتقالهم كما تحفظها ذاكرتهم، أو بإنشاء خطوط متوازية، بينما يقع السماء القائمة تتأثر هنا وهناك للتدليل على الاضطرابات التي تتم، وأثار الضرب لرسم ملامح الوجود للتورمة والعبور التي تحيط بها الدوائر الزرقاء. هذا المشهد المتوافق مع موسيقى الفلن بلنج حمدي والذي برز المخرج في صياغة تفاصيله وارتقى بهذه اللحظة إلى المستوى الإنساني الجارح في تعازج مثير بين الكوارث المختلفة لتشكيل صورة تتعرف أساؤالات مؤرقة.

بينما المخرج أمالي بهنسي في فيلم (البحرية) فإنه يتعامل بصورة أشد كثافة وأكثر روعة، يرصد الفهم التخلي لداخل المعتقل حيث لا نجد كاميرا غنيم بهنسي تعرض دواخل المعتقل بالشكل التقليدي، بل نراها وبمشهد مرهق تسجل ما تريد وتمضي، حيث تكشف لقطة داخلية مكانا هي العمق.

جلس مكتوباً هي الزاوية، تحيط بجسده دائرة يغطيها السواد، ووجهه متورماً، هي هذه اللقطة تستند الكاميرا إلى شبكة كاملة من الماسكة للعين، خاصة وأن بقعة الضوء الدائرية الوحيدة تنتج تأثيراً مزيجاً، فكل شيء يجري كما لو كانت الكاميرا خارج جدران الزنازة وتنتظر من يفتحها، والكان العظمى لنا هي هذه اللقطة قابلاً للتوسع، قابلاً للدخول إليه.

في هذا الفيلم يبرز عنصر التصوير والذي يركز على عنصرى الليل والضباب، فيستخدم الطفل ليشكك الإحساس بالألم فيما تنتشر بقع الضوء على مهاجع المعتقلين من الطوارج بأملوب متردد قتل يحاول عكس حالات القتل داخل المهاجع نفسها.

وعلى الرغم من رصده سيعلم المعتقل لكراهية المكان وقسوته من جهة ههنا من جهة أخرى كانت لها بعض المحاولات الجزئية لإعطاء بعض الصور على النزاعات الإنسانية التي قد تحدث داخل المعتقل، وعلى الإيحاء بأن حتى المسجونين أنفسهم ما هم حقيقة إلا أسرى هذه المؤسسة ولقولات شرسية في عقولهم.

ففي مشهد واقعي خاص بالمرح عاطف الطيب في فيلم (البريد) تتجلى حساسية المخرج وتصويره في هذا المشهد وكدراته، حيث تتجول كاميرا سميد شيمي بشفت مفتوح للإيحاء على حقيقة هذه الرؤية، حيث نرى الحراس وهم يجلسون خلف المعتقلين في الباحة الصحراوية للمعتقل، يجلسون وبالوضعية نفسها التي يجلس بها المعتقلون واضعون أسلحتهم جانبهم، يتناولون طعامهم في المبخون نفسها التي يتناول فيها المعتقلون طعامهم.

في هذا المشهد تجلّت قدرة عاطف الطيب في إدارة المصباح وتوزيع الأدوار يتناغم وتانسق يتجلى كأبرز ما يكون في مخرج يمتلك أسلوبه المعيرة.

وعملت الصحراء بحضورها الطاعني على إنجاز المؤثرات الخاصة في إعطاء صورة مركبة عن وحشية هذا المكان وكراهيته فهي تساهم عن عمد في زيادة الأعباء على المعتقلين وإثقال كواهلهم في التعب وفقرات العرق الكثيرة وسيط الشمس النارية، فكثافة الرمال ونعومتها والاصفرار الذي يغطي المساحات الشاسعة يهيئان الروح إلى جرداء قاحلة مما ينعكس على الوجوه التي تستعري الكاميرا رصدها وهي شاحبة ضامرة، تثقل ملابسها القواعد للأحلام والروح، وزيادة في قتل الأحلام نجد ممارسات القامحين على المعتقل وهم يحاولون إظهار الامتيازات وظروف الراحة التي يحوزون عليها لانتمائهم إلى مؤسسة السلطة من جهة، ومن جهة أخرى إيجاد أعمال شاقة تحت الشمس، ففي (البريد) يظهر الضابط نائب مسؤول المعتقل حسن حسني وأثناء لقده للسجناء الذين يتصببون عرقاً تحت الشمس اللاهية، بشكل ممزوج يتجول مخاطباً السجناء وخلق جدي يحمل مروحة كهربائية تمتد بشرط ثلث الأمتار، والصحراء هنا تأخذ دورها في انعازها لأحد طرفي الصراع فتبتعد من يائها اليكز لتكبل من جانب المعتقلين في رحلتهم القاسية المثقلة بالأعباء، ففي (أحنا بنوع الأوثريين)

يدخل الصول إلى الضابط الذي ينادر بسؤاله عن المعتقلين فيقول له إنهم واقفون في الشمس منذ الصباح، فينظر إلى ساعته ويقول: (خمس ساعات مش بظال)، ويخرج إلى المعتقلين الذين جفت حلوقهم وبيست من العطش الشديد وهم ينزفون عرقاً، وبينما يدخل المعتقلون للتحقيق معهم، نجد أن الضابط نفسه يستكثر على نفسه أن يفكر حتى يزلجة العرق. فتراء في كل مشهد يضع أنواع العطورات على جسده، على الرغم من كل وسائل الراحة والرعاية والتكيف التي يحوز عليها، كذلك يقوم التظيب عزمي في (التحوية) باستعراض المعتقلين المقروصين تحت أشعة الشمس القاحلة، حاملاً عصاه، ويلوح بها بضيحية منقطعة النظير كاستلوب لتخظيم العنويات والحصول على الاعتراضات كما يريد، وبالإضافة إلى دور الصحراء وأشعتها لتخظيم العنويات، فإننا نرى في (وراء الشمس) عملاً إضافياً يستخدمة الجعبري حيث يستعرض أحد الكلاب وهو يفترس أحد المعتقلين، ضاحكاً، للحصول على اعتراضاتهم ويوجود الصحراء، ولتوضيح حقيقة التناول الدرامي في تناول أشكال التجمع، فإن سينما المعتقل لجأت إلى تمطيات واحدة هي أسلوبية تعاملها مع هذه الصحراء، فتجد مشاهد متماثلة متطابقة نقلت حرفياً من فيلم لآخر حتى دون مبررات دوافعية تقدم الميناريو والقصة، سوى إعطاء تركيزات مكثفة لمعيشية التجمع السائد. فكما نرى سعيد عبد القتي ضابط (أحنا بتوع الأوتوييس) معتقلاً حصانه، حاملاً سوطه، يسير بجفلاً بين صفوف المعتقلين في الباحة الخارجية مستمتعا حتى التملأ بهذه الرؤية، فإننا نرى محصور هذا العزير في البرية مشغلاً فوق حصانه جاثلاً بين المعتقلين وهو يعمل السوط مطاطياً أحد الحراس عن التقفد، ومشهد آخر نراه يطلب من نائبه تكليف المعتقلين بحفر بئر داخل المعتقل، عملية الحفر هذه تستغرق ساعات عديدة، وجهداً وعرقاً غزيراً، وعندما يبلغ بأن المعتقلين قد قاموا بأداء المهمة المطلوبة بهم، يطلب من المعتقلين ربحها، هذا المشهد التكرار أعيد ظهوره في فيلم البرية وبالحرافية نفسها التي قدم بها في فيلم (أحنا بتوع الأوتوييس)، وعلى الرغم من أن حضور البيشة الصحراوية كان طامحاً إلا أننا نجد ظهوراً للمدينة، الزيف، الجامعة.. هذه الأمكنة التي توضح القابض الاجتماعية لشرائعها المختلفة المملكة في المعتقلين، فهي الأفلام نجد حضوراً لافتاً للجامعة حيث النسبة الأكثر من معتقليها من الدكتور الجامعي إلى الأستاذ إلى الطالب، من الذكر إلى الأنثى، الجامعة حيث هي المؤشر العملي لطبيعة الفهم الحقيقي لنبوية هذه السلطة كما نكرنا، ولكن في حركة الشخصوس الجامعية نجد أن الجامعة هي مكان محايد نوعاً ما ومع ذلك فهي تدعم علاقات شطوسها المتمدة على المقولات السبقة.

وباستثناء فيلم (وراء الشمس)، فإننا نجد أن حركة الجامعيين هي حركة عقوبية غير بناءة وغير منسقة وهادئة، منسلطة عن إطارها الاجتماعي وقواها الاجتماعية، فحين يكون الاعتقال فإنه لا يؤثر سوى على الفرد وعائلته فقط، حيث نجد في (وراء الشمس) حركة

بعض الطلبة تتجه نحو أسر الشهداء ويذهبون لزيارتهم ويعملون على تحسين أحوالهم، ويقدّمون لهم المساعدات العينية والمالية، هذا الأمر الذي يزعج السلطات الأمنية التي يصل بها الحد إلى تهديد رئيس الجامعة بأنه مفضوب عليه، حتى يعارض جهوده وضغوطه لإسكات الطلبة (براء الشمس) يفتقون ويدافعون عن الثورة ومن موقع النقد البناء الهادف إلى تجاوز الأخطاء والاستفادة منها، تترى عريف الحفل الذي تقبّله الجامعة يلف متحمساً للمخبر الدوسوس بعدما يتعرض للثورة، فبالأحرار: (أنت مش من حقل، تتكلم عن الثورة، أنت خاين ومضطرب، أنت مش ملنا إحدنا أبناء الثورة الحقيقيين، خايفين عليها من التعرّفين أمثالكم).

وعلى الرغم من هذه الرؤية الواعية المتقدمة إلا أننا حقيقة نرى أن سياقات الفيلم السابق الذكر تباعد عن هذه الرؤية وتأخذ إطاراً تفظيلاً شكلياً شعورية أحداثها والأهداف للترتية عليها، لإيجاد صيغة فيلمية تصب في سياقات أهداف سينما المعتقل.

أما العريف فله دور رئيسي في الإشارة لفطرية الإنسان ومدى تعلقه الحقيقي بالأرض، يعيش معها وبها، يشتم عبقها فتدغدغ مواطنيه وأتحة التراب المصمخ بالشتاء الأول، تلك الرائحة الحريفة، الواخزة، التي تغطي للأرض معنى آخر مختلفاً عن المعاني التي تسوق بشعارات، فتعكس مسيرة أبطال الأفلام، ينطلقون من العريف، الثابت الحقيقية لعنى الانتماء فتكون الرحلة نحو المدينة بصبغها وقصبيتها، هي رحلة يفتقد الأمان بالانتماء، إلى البيئة الفطرية، لتعكس المشاهدات مدى الترويض والتخضع الذي لحق بالإنسان، إنسان المدينة.

وهي ظروف رحلة كهذه، تكون محاولة استعادة النصف الآخر الذي فقدته هي المدينة، بملافتها المتشابكة وبناها المختلفة، وأتباتها للتناقضة... حيث ترى بطل فيلم البريء أحمد الصلاح الأمي، ساهما مع المدي محشورا في عربة التزبل متأملاً جوانب الطريق القترية وهو يفارق قريته نحو رحلة مجهولة، لا يعرف ما تحمله له من مفاجآت، يحتضن صديقه الوحيد في رحلته هذه، الناي الذي كان يعرف عليه تحت شجرة في وقت الاستراحة، هذا الناي الذي يضطر إلى التخلي عن العزف بواسطة فيسقط من يده، بإشارة لسقوط الأحلام البريئة عند بداية الفيلم، نتيجة الأمر العسكري، إلا أنه وبعد اقتضاج آلية السلطة في نظره سرعان ما يعود ليتقمطه ويحنينه قصوى، كذلك جابر في (أحنا بتوع الأوتوبيس) الصلاحي الميت، المهندس الجيولوجي، والذي ينجر في المدينة في علاقات فيعيل الميت بكل أوجهه، وكره فعل لفرزه في مجال غير اختصاصه الذي قضى سنوات يتعلمه، جابر ويعقلته الصلاحية الكائنة والبعيدة عن مؤثرات التغيير يقوم بدفع حياته مدافعاً عن جاره وصديقه المعجوز مديولي، كذلك المحولجي حلمي، الرفي التبت وصاحب الأخلاق الريفية الكريمة، يدفع حياته لأجل حماية القدم عمر، وهو يشعر أن موقفه جاد، وملتزم في الدفاع عنه.

المعتقل ونحوه وأن النقيض

مما لا شك فيه أن المعتقل يضع الإنسان وجها لوجه أمام مرآته الداخلية، كاشفاً لثقافته، طموحاته، تماسكه شخصيته وهمازاته، فتشاهد نماذج تعيش انهياراتها الداخلية وهي تبحث عن بصبص أمل للخروج من هذا النفق المظلم. هنا تظهر القيم وتسلج الأسالة ويصبح كل شيء ممكناً، فبالنقطة الأهم في أيديولوجية وجود المعتقلات هي توجيه الضغط نحو الضغوط لتتأهب الفرد وهي دواخله انكسارات وانفجارات تؤدي به إما إلى التشكيك في مواقفه وجذريتها مما يجعله يعيش الضيق أو الاغتراب، وإما أن تؤدي إلى الجنون أو التحول إلى تشويه لكل ما سبق في تاريخه المعيش. هذا القهر الذي يتجلى بالذات التعذيب الهادف للوصول إلى النتائج التي ذكرتها، هو صيغة رديئة متلاحقة، حلقية وصورة للوصول إلى حالة تعيش الانقواء، والتخيل والتكرار لكل ما مضى، فإسماعيل في (الكركند) يعيش الانقواء، والتفوق اللامحدود يسير وبهتة رثة تتباه حالات هذيان للقائمة التي غرست أمامه بأنه السبب الأساسي في الغتصاب هيبته، وأنه عندما اغتصبت أمام عينيه ولم يستطع أن يدافع عنها، كبرجل فيعصمها، هنا نرى المتكاسات المعتقل في بقية الشخصيات السوية وتحولات هذه الشخصية من الرؤية الإيجابية والحلم بالتحسين أو أضع الفضل وإنساني أكثر، إلى سلبية لا تملك سوى فقدان الأمل بالاستقبال. هنا أوصاف الشرف والحياء عليه، حيث نجد أن المعتقل يشكل إحدى أهم بؤر اشتراك هذه الأنانية، إذ تتم هنا تحولات الغتصاب للمعتقدات أو زوجات أو أخوات المعتقلين، وإما بتعزيزية الجسد كمنفعة لتلعب الغتصاب، والذي يجعل الشخصية تهاجم موافقة على كل ما يطلب منها، ففي أفلام المعتقل أكثر من حادثة الغتصاب أو نمر، نجد ذلك في (وراء الشمس)، وفي (الهجامة)، أما في دراما العلاقات الاجتماعية فقلما نجد أن هناك أرحية ضمنية للتلاقي على اتخاذ المواقف الجماعية لمواجهة المصور الذي يشترك به الجميع، وبذلك نرى التحول العكسي من المواجهة الجماعية إلى الانغلاق الفردي التيحت عن المصور الفردي. فعين تقوم الكلاب بافتراس أحد المعتقلين في (وراء الشمس) فإن أحداً من المعتقلين لا يحاول أن يدار للدفاع عنه، بينما في الاحتمالات أن الشهية قد تفتح ويكون دور - أي واحد منهم - هو التالي، وسمة أخرى بارزة هي التفكير للفعل السياسي الذي أودى بالفرد إلى المعتقل بعيداً عن الدفاع عن معتقداته، أحلامه، طموحاته، ففي فيلم (البريء) حين يخاطب قائد المسكر أحد المعتقلين وحسب التهمة الموجهة إليه (أنت شيوعي) فيجيبه بالنفي شارحاً له أسباب اعتقاله قائلاً: (كنت في مظاهرة نساء وأنا ما بهمني سوى المؤشرات والصدور ويطلب منه تسليمه ليوليس الأديب).

وفي (وراء الشمس) نجد نموذجاً آخر يهزم نحو التعصبي وأصفا نفسه بأنه يمارس الدعاية ويطلب منه تسليمه ليوليس الأديب أيضاً، بينما في الفيلم ذاته نرى شقيق سوير والذي

قتل أبوه وأودع في المعتقل كي لا ييوج بالحقيقة، نجده شخصية مباشرة متناقضة تعارض الذات والرضوخ، تغرق المعتقلين بنقل وشوشاتهم إلى الجمعي، كذلك مظهر التي بدلا من أن تعمل على تبيان مقتل أبيها ومن يلف وراءه نجد أنها قد اتفقت بعلاقات خطيرة غير مشروعة يحكمها الجنس والمشروبات الكحولية تحت لافتة خدمة القيم التي أمنت بها تجاه وطنها، بينما في الواقع نجدها تعيش الارتداد عن القيم الاجتماعية الأخلاقية والتي حددت أطرها الأعراف والعادات والأخلاق المثيرة، فتعتمد علاقاتها مع الجميع ووجودها جسدا مستباحا يعرف منه السلطويون ما هو إلا التحصيل الفعلي لتحويل هذه القيم، وفي (قانون أيك) نجد الارتداد المطلق والشكر لكل التاريخ الفكري - العائلي بل وحتى الشخص من جراء المعتقل، هذا النموذج نمكسه شخصية الدكتور حسين مرسي، الذي يعيش الانقسام والتشكك الهمياني برعب منقطع التطهر من مجرد ذكر كلمة بوليس، مما يجعله يعيش بلوع من الرضا حين يزل إلى العالم السفلي - عالم الجريمة والمخدرات - عالم الدمار والتجارة بأعضاء الولي، في إحصاءات غير مبررة ومشاهد طويلة قدمت بركاكة، وبأسلوب يفتق قاعدة العمل الميماني على الرغم من محاولة محمود عبد العزيز رفع الفيلم من خلال الأداء المرح غير المقتل.

المعتقل رحلة معكوسة

على الرغم من أن الفكرة الأساسية ليستهما المعتقل فكيف في اتجاه الرحلة الطننية من الضارح للداخل المسور بالأسلاك الشائكة والبنادق، إلا أننا نلمس رحلة معكوسة في بعض الأفلام من الداخل للبارج، في حين تكون الأولى قد أفضت للمعتقل جراء موقف سياسي أو خطأ ملتبس فإننا نجد للمعتقل قد أصبح مكانا للتعليم والفهم السياسي والاجتماعي، والذي كان مستقيا عن الزمن العادية، حيث المؤلف السائد، فتتشكل في رحلة المعتقل رحلة رديفة تعمل في طياتها مراحل اكتساب الوعي والتكوين ورؤية الحقيقة كما هي وليست كما كانت مشكلة في تصورات الآخرين.

وفي الاستنتاجات هذه عملت سينما المعتقل على هذا الجانب جادة كاشفة تطور الوعي لبعض شطووسها وتطوراتها من حالة اللاوعي والاندماج أسئلة القلق أو البحث عن معنى الالتزام إلى تحولات ملتزمة بالعالم الشامل الذي هو الوطن ككل بعيدا عن الإطار السياسي الضيق. ترى رحلة التحويل عند أحمد في (البريء)، فالتعليم يتحدث عن الفلاح أحمد الأمي والبسيط لدرجة السذاجة الذي لا يعرف من العالم سوى أرضه، ويذهب لتأدية خدمة العلم وبعد إجراءات التجنيد يبرز إلى مركز الخدمة والحراسة، ويذهب إلى المعتقل الصحراوي، وضمن نطاق فهم الضيق يقول عندما يرى المعتقلين إنه إذا كان هؤلاء هم أعداء البلد فيجب التخلص من هذه الحفنة وعودة الجندين لزروعهم وأعمالهم.

سيرة العقيد

وضمن إطار هذا الوعي الهزيل فبأننا نراه يقوم بقتل الروائي رشاد عويس ويتم ترقيعها إلى عريف كمكافأة له ويأخذ إجازة عشرة أيام لينذهب إلى قريته. وفي مشهد اللقاء مع أمه يطلع بدلة العسكرية ويطلق على ملائمة الداخلية ليعرث الأرض بعدما أقيمت له القبرته بالأرض التي يسوء حالها. وفي هذا المشهد يتجسد النقاء الطعري المرتبط بالحب الحقيقي للأرض لأن ليس لهم مصلحة حقيقية في هذا القمع. المجند أحمد بدأت استنارة الوعي لديه عندما يوجد ابن قريته وصديقه حسين بين المجموعة الجديدة للطلبة الجامعيين المعتقلين. فينظر إليه نظرات مطاعة ويقف صارخاً في رفاقه الحراس: (إنزل اهلك... حسين أفتدي لا يمكن أن يكون من أعداء الوطن أبداً أبداً) وعندما ينظر إليه قائد المعتقل يقول له: (دي حسين يا باشا، لا يمكن أن يكون من أعداء الوطن) فيطلب منه القائد مواصلة الضرب. فيرد أحمد: (أضرب... آ... إلا حسين). فيكون سوط قائد المعتقل بانتظاره. جراء هذا الموقف يلتصم أحمد مع صديقه حسين وهما يتلفيان الضرب في المعسكر ويتم الزج به مع حسين في زنزانة واحدة عقاباً له. وفي الزنزانة يقول حسين له: (ضحكوا طيرك اللي هنا مثل أعداء الوطن عارف يعني إيه وطن؟) يبكي أحمد بعروقة متسائلاً: (إيه جابكو هنا يا حسين؟) فيكون الجواب: (نظننا اننا اهتمنا حاجة). مرة أخرى يرفض أحمد تأديب حسين حتى وهو في الزنزانة مع أنه أبلغ بأنه قد تعرض لمعاملة عسكرية لعدم تنفيذ الأوامر العسكرية (يعمل به إلى مذوبة الإعدام). ثم فيما بعد يتواصلان الأساعي التي تلتى عليهما داخل الزنزانة وبعد فترة حين جراء الدفعة لعبان يطلق سراحه بعد إعادته لرتبة المجند. هذه المشاهدات العذائية والروحية الموهبة التي عاشها أحمد منذ انطلاقته من القوية إلى لحظة مقتل صديقه. جعلته يلف متفكراً بحقيقة المقولات والظروحات النظرية حول مفاهيم عامة. كالوطن وحقيقة تجسيدات هذا المفهوم من قبل القوى التي تستفيد منه. مما يجعله يعرض مزارعه بحثية قصوى. وهو الذي زماه في بداية المعتقل وينظر إلى القضاء صارخاً بوحشية بعدما عاد الوعي الطعري إليه.

في هذه الصرخة التي فرضتها الرقابة بدلاً من إطلاق الرصاص. تتجلى قوة المعاناة التي تشعر بها في تلك اللحظة. صرخة تجعل الأرواح ترتجف. وهي تحمل نبوءة مستقبلية عما سوف يحدث من تعمر قوى الأمن فيما بعد.

صرخة أخرى بها المخرج تلك الآلية المصممة لغسل العقول وجعل الإنسان البسيط مندفعاً دون وعي في هذه التركيبة القوية عن فكرته.

في (البريد) وعندما يستعيد عاطف الطيب مرحلة الناصرية لا يبحث عن تفسيرات معسبة لتحليل يتأخم الفكرة المسبقة. وتجاوز حاجس التوفيق بين رأيين متناقضين هما الرغبة في الصدق في التعبير بكلام جديد. شخصي من جهة. ورغبة المحافظة على الحنين لتلك العهد الناصري والتي كنا نشاهدها خلال أفلامه الأخرى.

وجسد ذلك في بحثه عن انتفاء الإنساني الحقيقي مع خبرة تقنية مدبشة تجلت في التوظيف السريع والخطوة اللاعثة بأسلوب يحاول أن يجاري الحقائق للريرة التي يشكلها السيناريو.

أما في فيلم (الهجامة) فإننا نلتصق رحلة إنسان من فقدان الوعي إلى استلاكه من موقعها الهامشي إلى دورها الفاعل والمؤثر، فنرى في رحلة إنسان رحلة هي المرحلة السياسية للواقع المصري. وتتألف من شراعه، هذه الرحلة التي بدأتها سجنه تحمل ثلاث سنوات حكمها بسبب السرقة التي اقترفتها، إنسان في السجن تتعرض للشلل الرباعي، ولكن عندما يصادف اعتقالها نتيجة انتفاضة يناير، وتودع في المعتقل السياسي تبتدئ رحلة أخرى صالحة (أنا هجامة، حرامية) وهي المعتقل لقابل فصاح مختلف من المعتقلات، جامعات، طبيبات، صحافيات، موظفات، منظمات، وهي المعتقل تبدأ في اكتشاف أن جميع المعتقلات يجمعهن حب كبير لفسر مما يدفعها للقول وببراعة: (هو أنا حب إنجلترا وأنا كمان بحب مصر)، في المعتقل لتكشف أن الدنيا التي كانت تعلم بها هي الدنيا نفسها التي تعمل لأجلها الفتيات المعتقلات، (دنيا ما فيهاش دل ولا قهر، ولا فقر) ومن خلال التمايش اليومي وانتفاضات والحوارات تخرج إنسان من السجن ملتزمة وهي تحمل رسائل للمعتقلات ويتمسك على الرغم من المعرفة بأن حمل الخطابات سيعرضها إن ضيقت للعقاب وسيعيدها إلى المعتقل مرة أخرى وعندما تخرج لتلقي بسيد الكومي وفي حوارية تقول له: (أنا بحسب على الأيام التي كنت أعلم فيها حلم فقط، حلم بنوم بالضيقة الكبيرة والبيد الكبيرة وشهد على البطة الكبيرة التي أنت بتحكي عليها، في المعتقل شفت ناس مايشعروهم وقابلتهم وفهمتهم وعلموني) فيسألها (هم مين؟) فتقول له: (مثن حتصدق إن أولهم أخني، بنات زي الورد، بنات لا يخلصوا بالزواج، بنات يخلصوا بالدنيا الثانية بدنيا حقيقية دنيا جنة فيها محبة).

ولعل من حبيبها أن يدخل المعتقل ليتعلم ويحلم بدنيا ثانية، وحتى بعد مثل حبيب أختها من قبل قوات الأمن. ونظرات التساؤل والاستفهام بل والإدانة لها بعقله لم تفقد الإيمان بما تعلمته، ولم ترد أن تعود عن الطريق الذي ابتدأت فيه فتذهب إلى الأستاذ أبو العينين تشرح له وضعها فيقول لها: (الحقني نفسك وساعدي الذي حولك، اعلمي مشروع وشغل ولي البنات الصغيرات التي ممكن يتسبعوا، اقتحي معمل ولي البنات التي ممكن ينحرفوا ويصبحوا حرامية ويقنحوا بيوت دعارة) فتقوم بتحويل الوعي والتوير الذي استمدته من المعتقل والمعتقلات إلى فعل حين تقوم بفتح مشغل خياطة تساعد فيه البنات المهنيات للسقوط، وبذلك تحميهن... وهي تصاعد الأحداث الدرامية وبعد مقتل أختها سحر تقوم برد فعل لمحاولة الثورة الفردية عندما تقوم بحرق الخزن الذي يملكه سيد الكومي حبيبها السابق، ويقوم فيه بتهيئة المخدرات للتوزيع.

وكذلك التقدم عمر في (التحويل) الذي يبدأ ومن موقعه في اكتشاف هشاشة المؤسسة وقمعها فتكون رحلته إلى المعتقل عاملاً تحريرياً فيؤسس الوعي مستقل واضح الأهداف وهو

يواجه آلية الضم السائدة، فيوظف خبرته الأمنية وثقافته وبيئته الاجتماعية لتحسين ظروف المعتقلين وتحقيق إنجاز يقدم الجميع عندما يتعرض على الإضراب على الطعام متآزراً مع المعتقلين والذي يشكلون ضغطاً حقيقياً على قادة المعتقل ورؤسائهم. للقدم عمر يطالب بمقابلة رئيس الجمهورية أو مندوب عنه فيشيع العرب مما يقضي إلى قرار اعتقاله.

بينما في (أحنا بنوع الأوتوبيس) فنشاهد عبدالمعطي الصول الخادم الأمين كذلاً جسدية للضم. عبدالمعطي الذي لا يعطي أي مجال لتساؤلات العقل عن حقيقة المشاهدات العيانة التي يراها في نماذج المعتقلين، وعمله الجاد والدؤوب في تعذيب وضرب المعتقلين حسب التهمة الموجهة إليهم في تعذيب اليك وإرباطهم مع الأعداء والجهات الأجنبية. عبدالمعطي الذي يعيش حلم الانتظار الكبير للحظة التي يستعيد الوطن بها كرامته فيتم القضاء على إسرائيل، واسترجاع الشرف الكبير الذي فقد، تتم لحظة التوفير الحقيقية لديه وهو يتف مذنباً يتسائل بعد بيانات الهزيمة: (إيه التي حصل، إحنا ما انتصرناش ليه؟ ليه؟ ما السجن طيان أهو بالناس الوحشة التي خابطين منها؟ ما انتصرناش ليه؟) فيقوم بالنظر ويشكل مغاير لكل الطروحات الفكرية التي لقن بها وتم حشر عقله البسيط بها ليصبح أداة مجردة للقتل والضم، وفي النهاية يأخذ موقفاً منطلوا بناء للشخصية المركزية حين يقوم بقتل مأمور السجن ويقتل بدوره من قبل الجسد الآخرين.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

هزيمة حرة...

المجرات تتصنع، الزلازل يحتاج السكينة والهدوء، فقد حدث ما لم يكن يتوقعه أحد، اختلطت الألوان، والرماد، ذر هي هيون أطفالاً بريها، ولقد حدث كل شيء بسرعة، كانت الهزيمة أكبر مما للعقل أن يتصوره وأقسى مما للوجدان أن يتحملة. تناقضت الرؤى والمواقف حتى لجعل الثورة نفسه (جيل يوليوز)، هذا الجيل الذي بدأ يعرف معنى الكرامة الإنسانية ومعنى وجود الفاعل على أرض وطنه، مساهم في بناء وتطوير مجتمعه، فبرز التعطيل وإلقاء التبعات والتهم جزافاً جراء الهزيمة.

لقد حدث ما لم يكن يتصوره أحد من هؤلاء الشباب، فالتكسمة انتشرت شظاياها في قصائد هذا الجيل، وسورت الأحلام للقصي إلى نفق مظلم طويل ينتهي بالحالين إلى كابوس الانكسار فتحدث القطيعة مع التصور التاريخي للمستقبلي، ويفرق الجميع في بحر اللامبالاة.

كانت السكينة تقوى في الأجساد وتهلل من الأوردة فتتمزق النفوس وتصبح السمة الهيدانية هي سمة المجتمع برمته. وبعد الهزيمة بدأت عملية مراجعة شاملة وفاسية، فالتغيرات النفسية قفزت إلى الواجهة وأصبح لها الدور المهم والحاسم في تقييم المواقف والأشخاص، واتسابت كتلة من التساؤلات، التي زهزت الاطمئنان الزائف، ونزعت القداسة

الوهمية من فوق رؤوس البعض، وقبل مخشي أقل من عام بعد الهزيمة تسجرت المظاهرات الطلابية العظيمة لأول مرة منذ سنوات طويلة، مطالبة بالتغيير والقتال واندفعت مسيرات الشباب في شوارع الإسكندرية والمنصورة^{١٢٠} لتدور النقاشات الحادة ملامسة مبرر وجود المجتمع برمته طارحة أسئلة الهوية والمصير والمآل.

وفي ظل حالة التشتت هذه تفرق السينما المصرية في حالة من لا ميالة عجالية، فيصبح نتائجها لا يخرج من دائرة الهزيمة وهي التي قدمت في مرحلة الأفلام التجارية في الستينيات أفلاماً تنهل من الذاكرة التاريخية الوطنية، وتقارب الواقع الاجتماعي في الريف أو المدينة بشكل تقدي، إلا أننا نجد وبموازاة الهزيمة العسكرية أن هذه السينما قد ارتدت بشكل معاكس عن موضوعاتها وضمائنها التي أثارها هي الستينيات، باستبدالها شكلها السينمائي الذي اعتدته من بداياتها من خلال البطل المطلق، وتعاملت بشكل مغاير، حيث يلاحظ اختفاء الفرد البطل المطلق واستبداله بالبطولة الجماعية لأفلامها^{١٢١}، بل والذهاب أبعد من ذلك حيث تصبح أسماء الفتيات هي أسماء الأفلام، وباستعراض سريع للأفلام التي أنتجتها السينما المصرية ما بين عامي ١٩٦٧-١٩٦٩ نجد عينات الأفلام، كـ (الرجل ده هيجتني) للمخرج عيسى كرامة عام ١٩٦٧، فيلم (٣ قصص) للمخرج إبراهيم الصبح، فيلم (٦ بنات وعريس) للمخرج السيد زيادة عام ١٩٦٨، فيلم (إيهك من مراتي) للمخرج رضا ميسر عام ١٩٦٨، فيلم (حارة وشقية) للمخرج عيسى كرامة ١٩٦٨، فيلم (خارجة وأخوة) للمخرج نيلزي مصطفى عام ١٩٦٨، فيلم (حواء على الطريق) للمخرج حسين حلمي للهليون عام ١٩٦٨، فيلم (أنا الدكتور) للمخرج عباس كامل عام ١٩٦٨، فيلم (مراتي مجنونة) ١٩٦٨ إخراج حلمي حلمي، فيلم (أسرار البنات) للمخرج محمود ذو الفقار عام ١٩٦٩ فيلم (٢ نساء) للمخرج محمود ذو الفقار عام ١٩٦٩، فيلم (٢ وجوه للعب) للمخرج محمد بكير عام ١٩٦٩، فيلم (أنا ومراتي والجن) للمخرج عبد المتعم شكري عام ١٩٦٩.

مثل هذه الأفلام أصبحت تبعات للأفلام، فبدأت تحفز حذوها، وارتدت السينما عن المجتمع بكامله وهي تحاول الابتعاد عن مقاربة سؤال الهزيمة الأساسي: أسبابه ومعطياته، وقلقته المخفية والمستترة، فكانت حتى بالشكائيات التقليدية تحاول أن تتصلل عما سبق وكرسته هي تلهية المشاهد ويكفي أن تشير للعديد من عناوين ومضامين هذه الأفلام التي أنجزت لتؤشر بنفسها إلى استهلاكيتها ومدى التهكم والبعث الذي كان يطال كل شيء ضمن بين ٢٩ فيلمًا تم إنتاجها عام ١٩٦٨ لا يوجد سوى أربعة أفلام جادة فقط هي (شذيل أم هاشم) تكامل عطية، (الوسطحي) الحسين كمال، (القضية ٦٨) لصالح أبو سيف (المتعربون) لتوفيق صالح^{١٢٢} وأحداث الفيلم تدور في مصحة نفسية في إشارة إلى أن الوطن برمته قد أصبح مشفى مجانين، ومن الملاحظ أن غالبية الفنانين والمخرجين قد سقطوا في برائن هذه المرحلة

ولم ينج منها سوى فئة من المخرجين الذي كرسوا جهودهم لإشاعة الأمل ونقاش أسباب الهزيمة بشكل نقدي وموضوعي.

وكرر على السينما السائدة، السينما اللاتمنية المحبطة، ثم في تموز/ يوليو ١٩٦٩ الإعلان عن ميلاد جماعة السينما الجديدة بإصدار بيانها الأول والذي جاء فيه: (إن الذي نريده سينما مصرية، أي سينما تتعمق في حركة المجتمع المصري وتحلل علاقاته الجديدة، وتكشف عن معنى حياة الفرد وسط هذه العلاقات، أن تكون لدينا سينما محلية الموضوع، عالية التفكير، واضحة الضموم بفضول تعمق السينمائيين لواقعنا فسوف نستعيد جمهورها كما تحقق انتشارا عاليا).

كما وتركز الهجوم على نظام التجريم باعتباره السبب الرئيسي في تخلف نظام الإنتاج السينمائي المصري، مع إهمال مسؤولية التوزيع^(١٤).

وهي جانب آخر متوازي مع جماعة السينما الجديدة برز مخرجون بشيرون الأسئلة الظلمة وتبديد أعمالهم السينمائية بوصلة فضع لاتجاهات المجتمع السلبية على مستوياته كافة، إضافة إلى تركيزهم رؤية سينمائية وهتة مغايرة عن سينما السذاجة فتناقش ما آلت إليه الأوضاع، وتهازل بالسينما التي تنتج أفلاما كـ (البحث عن ضليحة) إخراج نياز مصطفى ١٩٧١ و(رحلة لثينة وغرام في الطريق الزراعي)، وعبد الله نعم بشكني، ١٩٧١، فالمخرج صلاح أبو سيف يباشر في عام ١٩٦٨ بقتله فيلمه (القضية ٦٨) والجميع لا يزال تحت تأثير الصدمة والذهول. هي (القضية ٦٨) يسلط صلاح أبو سيف الضوء على أن القضاة السيلة لا بد لها هي النهاية من أن تعطي نتائج سيئة، ويشير في الآن ذاته إلى منح العيب والاستهتار واستغلال النفوذ من خلال العناصر الانتهازية التي استثمرت المجتمع لخدمة أغراضها الشخصية. هي الفيلم يضم الحبريان عبده ونيلة لعضوية لجنة الاتحاد الاشتراكي العربي التي يرأسها منجم صاحب المنزل الذي يجمعون فيه، وعبد الشاب المكافح المالي، أملا وأعدا بالمستقبل يؤمن بالقانون إيمانا أعمى. اللجنة تضم أنماطا مختلفة من الأعضاء الذين يستشري فيهم الفساد وهم المسؤولون عن مصالح أهل الحي، ونتيجة ضيق أوقافهم واحتكاكهم لمصالحهم الخاصة، فإنهم يتصدون للإصلاح. يحدث الصراع بين الشباب الواعي وبين هذه العناصر الفاسدة، ومع أنه يظهر بالمنزل شرع نتيجة بناء دور أطرق لقر اللجنة، ومع وضوح الشرع واتساعه فإن المقاتل يحاول أن يضلل الجميع بأنه ليس هناك خطر للانهيار، بينما نجد صاحب المنزل يتحالف مع المقاتل وعلى الرغم من تحذيرات نيلة وعبد، فإن البناء ينهار مقلتا فشل اللجنة. وبعد أقل من عام يطلق حسين كمال في شيء من الخوف صرخته المعتبرة والتي تحمل التاويلات المختلفة (زواج هزارة من عاتريس باطل... زواج هزارة من عاتريس باطل)، هي فيلم (شيء من الضوف) عام ١٩٦٩ ذهب النقاد والمعلقين إلى اعتبار هذه الصرخة هي

دعوى بعدم شرعية القيادة التي تحكم مصر والدعوة إلى رحيلها عن مصر، واعتباره فيلماً يحمل أفكاراً معارضة للسلطة الدكتاتورية، وموضوع الفيلم يتحدث عن عتريس القاسي الذي يزرع في قلب حفيده عتريس الحقد والانتقام، ويعدداً يلقي عتريس الجد مصرعه برصاصه ذلرة ضد بطشه، يصمم حفيده على الانتقام له، يمتلك القرية وسيطر على أهلها، يرفض الإتاوات ويخضع الجميع لمشيئته ونزواته، إلا أنه يفشل في استلاكه هؤلاء وحيلها، هؤلاء التي تلقت أمام جبروته وتصدي له، وعلى الرغم من مواظبة والدها على الزواج منه خوفاً من بطشه إلا أنها ترفض، فيصبح زواجها باطلاً، في رفض هؤلاء وصمودها تتشكل أرضية التواجهة وتكون البداية لثورة الأهالي بقيادة الشيخ إبراهيم الذي ينتقم منه عتريس بقتل ابنه الوحيد، في لحظات الافتراق القصوى والغضب النهائية يعاصر الأهالي قنصر عتريس ويقيمون بحرقه وهو داخل قصره.

وفي عام ١٩٧٠ يقدم المخرج يوسف شاهين فيلمه (الأرض) عن قصة عبد الرحمن الشرفاوي مطلقاً دعوة لا محدودة للمسبك بالأرض ورفض الأمر الواقع، وعلى الرغم من ارتكاز يوسف شاهين على التقديم التاريخي إلا أنه يناقش مصر بطرقها الراهلة^(١٤)، مصر عام ١٩٢٢ يحدد محمود بيك أحد **الإقطاعيين للفلاحين** عشرة أيام فقط لري أراضيهم، ومع رضوخهم يخلفونها إلى خمسة أيام، يثور عليه الأهالي وعلى رأسهم محمود أبو سويلم، فيزداد محمود بيك عناداً وينزع ملكية بعض الفلاحين لأنهم لا يطيعون، يمدل قصوره بالطريق العام، فتسول الحكومة للتواطئة مع الباشا قوات من الهجانة لإخضاع وتأديب الفلاحين، يصاب أبو سويلم في أثناء تصديه لهم، يجرحه الأمر على الأرض أمام أهل القرية ليكون عبرة لهم ويبرأه على الاستسلام، ولكنه يظل متمسكاً بأرضه.

ويعود حينئذ كمال في عام ١٩٧١ ليطلق صيحته مرة أخرى (الفلاحة ماتت ولزام نسلم أنفسنا... الفلاحة ماتت) في فيلمه (الذرة فوق التبل) عن قصة الأديب نجيب محفوظ، هذا الفيلم الذي تدور أحداثه في عام ١٩٦٦ من خلال شخصيات تواجد في المكان الذي يتأرجح على التبل، الشاهد التاريخي، حيث تعيش خواصا النفسي وعلاقاتها المضطربة، وانعدام إيمانها، شخصيات مفرقة من أدميتها واتصافاتها تعارض الجنون والعيب والهرج من حقيقة واقعا يتدخون الخدوات والتهكم على المبادئ والقيم، هذه المجموعة يتولى زمام القيادة فيها المثقفون الذين يلتقون أنفسهم الذراع والبررات لاستكانتهم وهروبهم من واقعهم إلى عالم متخيل، فأنيس ركي، فاقد الأمل، الذي يحمل أسئلته الفلقة عن جدوى الشهادات العيانية لبعض المظاهر السلبية مما يلقي به إلى حالة اللامبالاة والتعلق بالحشيش ليصبح نصف مجنون ونصف ميت، يلتقي بربح القاصي النجم السينمائي الشهور والقارع في الآي ذاته من أي مضمون... فيقوم بأخذة إلى عوامته الخاصة حيث يعرفه على مجموعة من أصدقائه ومنهم الناقد الفني الذي يشتم الأسم

الجنسية للأعمال الفنية بناء على التفضعة المادية، وسلبية الزوجة التي تبحث عن ذرائع وميبرات للحياة الزوجية، مصطفى ذو المظهر البراق لثاغيا والباطن الأجوف المتداعي، خالد الراض للفتاة، والالتزام بشكل كافي، لولي أكنوية المدينة المعاصرة، وسناء الجبل الضائع للتفاضل المشروح، هذه المجموعة التي تجتمع كل ليلة لتعاصر ألوان الفن، يصدها طلب النيس بتعليم نفسها للعائلة لما تقتل الفلاحة التي صدمتها سيارتهم أثناء غياب الوصي هي فسحة نهائية.

أنيس يقترب من أسئلة الواقع عندما يرى مدى الدمار الذي أحاق بمدينة السويس، فيكون الحادثة أساسا لتفكيك شعبيهم، وأنيس بجوب شوارع القاهرة صارخا (الفلاحة ماتت ولازم نسلم النصفنا، يا ناس هوقوا... التحشيش التي إحنا فيه ما تشريهوش... لازم نفوق... لازم نفوق)، معلنا وفاة تجربة الثورة، داعيا إلى محاسبة الثورة، ناعيا إياها في ترميز واضح، والفيلم يعتبر في سياق انتقاء الناصرية من وجهة نظر معادية للثورة.

ويعود يوسف شاهين لمجموعه من الأعمال الهادفة لمواجهة طوفان الانتكاس في عام ١٩٧١ ينهي فيلمه (الاختيار) وفيلم (الناس والتيل) ١٩٧٢ و(المصفون) ١٩٧٤.

في فيلم (المصفون) يسافر ضابط الشرطة رؤوف إلى الصعيد للقبض على المجرم الخارج عن القانون أبو خنسر، وهناك يتعرض إلى الصحافي يوسف الذي ينشر تحقيقاته عن الفساد المستشري في مصنع للقطاع العام يشهد شفيق أنواع المؤامرات والفساد، يتعاون يوسف مع رجال الشرطة ومع بعض الأصدقاء، لدراسة الجهة التي تسرق المعدات وفي الفترة نفسها تحدث الهزيمة، فتخرج بهبة إلى الشوارع وبصوت مدوي يخرج من الوجدان والضعف الوطني واقضة الهزيمة (منحارب... منحارب) لتتحول صرخة بهبة ولوعتها إلى طوفان من الجماهير الحاشدة التي تهتف منحارب، بينما المصوم في الجانب الآخر يطوفون سيارة للقطاع العام من مسروقات المصنع ليبيعها، في نهاية تحذيرية نحو نازم الأوضاع الداخلية التي تحتاج للمعالجة.

في فيلم (المصفون) يعبر يوسف شاهين بوضوح لا ليس فيه عن رغبة الشعب في الحرب والخروج من آثار الهزيمة فصور مظاهرات ١٠/٩ يوليو وجسدها على الشاشة، وهو حدث يتم لأول مرة في السينما المصرية. كما تجد في الوقت ذاته أن الفيلم يتحدث عن الحرية والديمقراطية حيث الكاميرا تبدو كما لو كانت مختلفة والتصديقات التي تعاصرها من كل جانب، وتلمعها من أن ترى ما وراء هذه الشعارات والتصديقات الدعاية.

كما قدمت جماعة السينما الجديدة فيلم (أغنية على المر) لعلي عبدالخالق، و(الظلال في الجانب الآخر) إخراج غالب شعيت.

فيلم (أغنية على المر) مأخوذ عن مسرحية كتبها علي سالم بعد هزيمة حزيران، ويهدو إلى ضرورة الصمود والمقاومة، ولكنه لا يتطرق إلى أسباب الهزيمة ولا يحلل العلاقات السياسية المعقدة.

والفيلم الثاني (الظلال في الجانب الآخر) ١٩٧٥ للمخرج غالب شعبث يتناول الواقع المصري قبل ١٩٦٧ مباشرة من خلال أزمة مجموعة الشباب البرجوازيين. وقد منعت السلطة الساداتية ثم سمحت بفرصه بعد عامين^(١٢)، الفيلم يحكي قصة مجموعة من الشباب يسكنون عوامة. كل منهم يروي الأحداث من وجهة نظره ويقودنا الفيلم من خلال وجهات النظر هذه إلى الواقع الذي قاد إلى الهزيمة. والفيلم يعكس موقف الشباب من هذا الجيل والذي لطعته النكسة في ١٩٦٧ والذي يتوقف ليراجع أوراظه. وقد هاجمه كتاب السلطة لأنه يدعو إلى استمرار الحرب الشعبية والطويلة الأمد ويثني الفكر المقاوم غير المهادن. ويدعو إلى تصفية الحسابات مع العدو بشكل جذري.

ويقدم صلاح أبو سيف عام ٧٢ فيلم (حمام اللاطيني) وفيه تبدو القاهرة مزدهرة يشرها، وشوارعها المكشوفة، ضجيج وحركة مهمة تسيطر على كل شيء... تتركز ملامح الصورة لتستعرض صورة شاب في مقتبل العمر يسير مسرعا في شوارع القاهرة ليدخل بعد ذلك مبنى حكوميا، فيقابل الموظفين ويسأل عن المدير الذي لا يجده يسير سرفا أحمد الفلاح البسيط الذي ينتظر التوظيف ويحمل معه أماتي وإخاتم والدته ووالده في العيش في القاهرة. يقيم في الحمام ليرخص البيت فيه. وهناك في الحديقة يقابل نعيمة اللومس الهاربة من أهلها والتي تعيش على بيع جسيمها لتقضي بتبسيبها علاقة شوية وحسد في هذا المكان الموحش. ويتعرف أحمد إلى رؤوف بهج البرجوازي الوسام القليل والذي يحمل نزعات شاذة وميول تصبغ عنها تماثيل وجهه. يعجب بأحمد ويحكي له عن مقبلة وشذوذ الذي سبب ضياعه وتخلي أهله عنه. ويظهر متوازيين تسير حبكة الفيلم. الحمام والذي تحفل مشاهدته بإهديات عن شذوذ كل من برتاده، وعلاقة أحمد مع نعيمة وتوطدها، ونعيمة لا تقدم نفسها ضحية لإطار العلاقات الاجتماعية المعقدة مما أفضى بها لأن تصبح عاهرة، ولكنها تقدم ذلك في خيارها فتقول: (هربت من أهلي في البلد، وجيت مصر، كنت فاكدة لني حمراف أكل وأكيس كويس، لقيت كل حاجة بشعها، تدفع تأخذ... وساعات كثير تدفع ما تخدمش... اشتقت خدمة وحسالة وكومبارس في السينما... اشتقت حاجات كثير قوي، لقيتها كلها لودي نفس السكة).

وفي الحمام يدخل الشيخ المبروك الذي يصرخ (اصبحو... اصبحي يا مصر) في أحد الحوارات بين أحمد ورؤوف الذي يحلم بالهجرة، فيسأل رؤوف: (أحد عارف الحرب حتخلص أمشي؟).. يقول أحمد: (وتخلص إزاي وإنا بنقول الكلام ده يا رؤوف بيده إنا تولدنا هنا، يعني كلنا جزء من مشكلة البلد دي، لو كانت خمرانة بيض كلنا مسئولين عن خسارتها وفي النهاية تسببها لينا...).

ومع تعامل الأحداث يقيم أحمد علاقة مع نعيمة زوجة العلم أمين صاحب الحمام... يدخل الشيخ إلى الكوخ الذي يبيع الشاي في الحديقة حيث يلتقي أحمد بنعيمة بعد غياب فيقول

الشيخ: (السهيانة ولاد الكلب يمشطونوا، مش عاوزين يمشحوا)، يعلق بعض الجالسين الدماء بكسر شوكتهم فينفر الشيخ قائلا: (مش بالصريح... الرسول والصحابه حاربوا بالسيف، اهالي أبو زعبل ردا نابليون بالفلج، مش بالثوبان) ويرد هسريا: (اصحى يا مصر، اصحى يا مصر)، أهل نعمة يتوصلون لكانها ويقتلونها لمحبوا عارهم، أحمد يشار ويكي بحرقه والوعة على نعمة... بقادر القاهرة بعد الكارثة والخسارة التي حاصت بها وبه وصوت الشيخ يشبه: (هي القولة صلت فبك ايه يا أحمد، غلطتك انت اللي سلمتها رقيتك ولكن كل محنة لها قطرة لازم نعيدها... لازم... وما يعيدهاش غير الأقوياء، الأقوياء الذين يصنعون التاريخ، ما فيش وقت للتدبوع والتواج، اصحى، اصحى... اصحى يا مصر وشدي الهمة وعدي يا مصر، التاريخ ما يستأش حد...).

في فيلم (أبناء الصمت) للمخرج محمد راضي نحن أمام مجموعة من الشباب يجمعهم الخندق في أثناء حرب الاستنزاف، بعضهم عايش الهزيمة ولا يزال يشعر بمرارة الهزيمة والكرامة الجريحة.

كما أننا نجد في فيلم (ذاثر الضجر) المخرج شكري شافقة مستقيمة لواقع الهزيمة، وعن مقاومة المثقفين لصناع الهزيمة... حيث يتولى حسين وكيل النيابة التحقيق في موت الصحافية نادية اشرف وعلى الرغم من أن التقرير الجنائي يثبت أنها ماتت بسبب هجوم في القلب إلا أنه يبدأ في جمع تحريات موسعة عن نادية التي كانت ضمن جماعة سياسية، وأنها اعتقلت بسبب مقالات الحداثة والجريئة التي تناولت فيها تحليل وكشف الأخطاء السطحية، وفي الإيفال في البحث عن موت نادية يجد حسين اختلاف الرأي فيها، ما بين مدافع ومهاجم، وفي النهاية يطلق الألقاب أمام حسين ويصاب بالإحباط عندما تاتيه الأوامر من أحد المسؤولين بوقف التحقيق لأنه تجاوز الخطوط المسموح له بها. والجدير بالذكر أن هذا الفيلم تعرض للرقابة والمخبط والحذف.

وبعد ذلك بسنوات عديدة تعود السينما التجارية المصرية لتتناول هزيمة خزيان في فيلم (ملف سامية شعراوي) للمخرج نادر جلال. حيث تعود الهزيمة حسب رأي صناع الفيلم إلى مسألتين، يحتل فيهما نورث الجيش المصري في اليمن أحد أساتيد الفيلم والعلاقات غير الصحفية بين ضباط القيادة العليا للجيش المصري، شأنها، حيث يقوم كل منهم بإنشاء مزارعه وإعطائه رجالاته الامتيازات والنقود اللامحدود، في الفيلم نجد زوجة الشهيد الرائد حسين أبو العيدين تبحث عن تحصيل معاش زوجها لتتعرف إلى العقيد اشرف الدسوقي الذي يبدى استعدادا لحل مشكلة الزوجة الثانية والزواج بالعقد العرفي، تتوطد العلاقة بين العقيد اشرف وسامية ليتزوجا، فيهدية عبدالحكيم عامر قائد الأعلى شقة ويرفقه لثنية عميد وبعد خروج القائد من الاحتفال الذي اقيم بمناسبة الزواج يستعرض اللافتات المرفوعة في الشوارع (في

المنطقة كسر ريفية) (اللقاء في تل أبيب يا ناصر الحبيب) (مطارب يا ناصر يا حبيب الملايين) (حزبي إسرائيل في البحر) فيرق في القعد الخلفي السجارت منتشبا حد الثمالة. ويستعرض الفيلم بعض الصور الوثائقية لحرب حزيران، والبيانات الضخمة عن الانتصارات الوهمية بينما تتساب أغنية عيّدالحليم حافظ (أبنتك بقلبك يا بطل هات الانتصار) ليشكل إدانة لا محدودة.

كما يستعيد الفيلم أرشيف اللحظة التاريخية التي يقدم فيها الرئيس جمال عبد الناصر استقالته وإعلانه أنه يتحمل شلح الهزيمة. (أقول لكم بصديق، وعلى الرغم من أي عوامل، قد أكون بيت عليها أي عوامل في الأزمة، فإني على استعداد لتحمل المسؤولية كاملة، ولقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدوني عليه، لقد قررت أن أتجلى لعمام ونهائيا عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي، وأن أعود لمصروف الجماهير الأردني وأجبي معها كأي مواطن آخر).

وتكتسب سامية شعراوي باستعارة شهر مقبرة نور بهية في مصفوف شامخ تنزل إلى الشوارع غاضبة، رافضة الاستقالة، لكن ليس لقائتها بالكارثة بل للاستمرار في المحافظة على الامتيازات التي توفقتها من خلال ارتباطها بزوجها العميد.

الهزيمة تلقي عائلها على القائد العسكري الذي يصبح كبش الفداء ليقدم على مذبح الحفاظ على الآخرين فيتصل بالعميد أشرف ويطلبه فائمة أسماء ليرتب للاقتلاب على الحكم لأنه وضع في الإطاحة الجبرية. كما يطلبه حقيقة ليلة الانتود، وفي اليوم التالي يجد العميد نفسه معتقلاً قبل الاتصال بالآخرين الطامعون في المتاعب، وفي الحال.

كما تقوم أجهزة الأمن بمداومة فيلا القائد بالمدافع والقذائف الصاروخية فتقتل جميع من في داخل الفيلا وتظهر صورة القائد في الصحف في اليوم التالي معقبة بأنه مات منتحرا. والنصف الثاني من الفيلم تستغرقه المحاولات المؤامراتية من قبل ضابط الأمن الذي يعرف بأمر الأموال للحصول عليها من سامية شعراوي، لتخذه وتنتصر في النهاية على الطريقة الأمريكية.

وفي جانب آخر تجدر الإشارة إلى أنه في نوفمبر عام ١٩٧١ توقف القطاع العام السينمائي المصري عن الإنتاج وتمت تصفيته بعد استلام المارات السلطة. هذا القطاع الذي بدأ إنتاجه عام ١٩٦٣ وأعطى أفلاماً شكلت علامات مضيئة في تاريخ السينما المصرية والعربية، بل وحتى العالمية. وتحولت بالنالي المؤسسة العامة للسينما إلى هيئة عامة تقدم الخدمات وتضمن الشركات الخاصة لدى البنوك، وبعض آخر تمت محاصرة موقع ارتكازي مهم لأصحاب سينما الفلق والواقعية، وجماعة السينما الجديدة وجميع المخرجين الذين خرجوا عن المؤسسة السائدة، فأصبحت استقلتهم الجادة تزورهم كما تزور الآخرين.

سبيل المستقبل

ويبدو للوهلة الأولى أن هذه الأفلام قد طرحت الهزيمة وموضوعاتها بشكل جذري، ونجحت في تكتيكها إزاء طرح الأسئلة وتناول هذا الموضوع المقلق بأساليب متعددة تقضي إلى جوهر الموضوع نفسه، ولكن واقع الأمر يشير إلى أن هذه الأفلام على الرغم من حيازتها لتقديرات النقاد وإثارة مواضيع نقاش القبع والسماح بعرضها، إلا أنها كانت أفلاماً جزئية لم تستطع الإبحار في بحر الأفلام الأخرى التي تواجهها ولم تشف غليل المشاهد هي الإجابة عن أسئلة التحارفة، فكانت نجاحاتها محدودة التأثير ربما لتروجس المشاهد من ملامسة الأفلام التي تحتوي مضامين ومداولات سياسية، وبقيت هذه الأفلام تؤثر في الآن ذاته إلى بروز مواضيع مستجدة للسينما السياسية لتتناولها بمصطلحاتها الاجتماعي والسلطوي الذي أفضى إلى ما آلت إليه الأمور، وبرز نفس الهروب إلى الأمام وبالاتجاه إلى الدين، الكفيل بحل كل الوقائع المستجدة.

الحالة المستمرة

منذ تسلمها السلطة السياسية عمدت حركة الضباط الأحرار إلى رفض ازدواجية الولاء، بالتسمية للضباط في مختلف قطاعات الجيش المصري، حيث أصدرت قراراً بمنع الانتماءات السياسية لأي ضابط ينتمي للضباط الأحرار، ثم جهرت بتصميم هذا القرار فيما بعد ليحاطل المجتمع برمته، حيث كانت تطعن بتشكك وإزهاق لإجتهاد الدور الذي لعبته وتلقبه الأحزاب الكلاسيكية ذات التأسيس التاريخي الحديث في سياسات خلافتها مع تلك فاروق، إلى أن استقرت رؤيتها بأن هذه الأحزاب هي الأحزاب الفاعلة فينبغي معالمتها تبعث عن المكاسب الذاتية، وبالتالي فهي منسلطة عن بيتها الاجتماعية وتحمل العدا والرياس بالثورة سواء جهراً أو في الخفاء، فعمدت إلى تسويق التنازل الداخلي لهذه الأحزاب بعد أن استطاعت تثبيت وضعها القانوني عبر سلسلة من الإجراءات التي تبعتها، بدءاً من إعلان الدستور للفترة الانتقالية الذي جعل السيادة العليا في الدولة هي يد قائد الثورة بدلاً من يد الوصي على العرش الأمير محمد عبدالنعم مروراً بقانون تنظيم الأحزاب السياسية رقم ١٢٩ عام ١٩٥٢ والذي ينص في أهم بنوده على أن تبلغ الجماعات والأحزاب السياسية وزير الداخلية بمزاوئها النشاط السياسي^(١)، وليس انتهاء بفرض أن تقوم الأحزاب القديمة بتطهير صفوفها، هذا الأمر الذي يعني بالحقيقة أن تقوم الانتقادات الممنوعة نتيجة عمليات التطهير والشطب والطرد لكل حزب على حدة وضمن سياق الوهم المتعشش بأنه سيتملم السلطة السياسية لوحيد بعد عودة الضباط إلى تكتلاتهم، هذا الأمر أدى إلى إنشاء جيل منفصلة وتكتلات داخل الحزب الواحد، تكتلات شبيهة بهيئة غير محصنة، وأصبحت بالتالي الأحزاب تأكل نفسها بنفسها، ممهدة الطريق لإسقاط مفاتيح القضاء عليها من قبل السلطة الناشئة التي هدفت إلى تمرير هذه الأحزاب أمام الجماهير، وإظهار مفاصلها ومدى استعدادها للتنازل عن شعاراتها وبرامجها

مقابل الوصول إلى الحكم، بينما هدفت الناصرية من خلال صراعتها مع الأحزاب إلى رفض وصاية هذه الأحزاب على الثورة ومحاولة احتوائها، ويخص بهذا المجال الإخوان المسلمون وحزب الوفد، حيث سممت حركة الإخوان المسلمين وعند بداية الثورة إلى إصدار بيانها الترحيبي بهذه الثورة والذي اعتبرت فيه نفسها الوصية الشرعية على هذه الثورة... (لقد أصبح لزاماً أن تعتمد يد التطهير إلى هؤلاء الحكم فتبادر إلى تحييتهم عن الحياة العامة، وحرمانهم من مزاولة العمل السياسي حتى يقدموا للمحاكمة عن كل ما يوجه للملك السابق من اتهامات وما يعاب عليه من تصرفات) وبعد أن طالب الإخوان المسلمون بالتطهير الشامل طالبوا بإلغاء الأحكام العرفية وسائر القوانين الرجعية الثقافية للحريات، وتحريم ما حرم الله وإلغاء مظاهر الحياة التي تخالف ذلك¹³⁷.

بينما حزب الوفد الذي يمثل الأغلبية فقد عاد زعيمه مصطفى النحاس من أوروبا بعد إعلان قيام الثورة ومغادرة الملك فاروق لمصر، وتوجه هو ووفاء سراج الدين سكرتير عام حزب الوفد فوراً إلى مبنى القيادة العامة حيث كان يقيم أعضاء مجلس قيادة الثورة وما إن استقبله أحد رجالها حتى بادره بالقول: (إن مصر أصبحت جاهزة، وقد أدبتم ومسالتمكم وعليها أن تكمل المشوار)¹³⁸ من خلال هذه المواقف التي تحمل في طياتها الترقب القوي لتتصعد استشعرت الحركة الجديدة بمكان الخطر عليها من الأوكيان الحزبية التقليدية الفاعلة والمؤثرة والمؤلفة من الإخوان المسلمين وحزب الوفد والسياسيين بالاحتياط، فقامت بتصنيفها العلنية من خلال قرار حل الأحزاب في ١٦ يناير عام ١٩٥٢ هذا القرار الذي استثنى حركة الإخوان المسلمين التي حظرت من العمل السياسي بعد عام وبنقرار خاص صدر في ١٤ يناير عام ١٩٥٤ وفيه حظرت نشاط الإخوان المسلمين.

في ضوء هذا الالتباس وما عكسته الناصرية من الاضطراب والازدواجية في الرؤية والإرهاق في الأحلام التي تتسرب من بين خطوط الكف كتسرب ذرات الرمال، أصبحت مصدراً مهماً للتأويلات والتفسيرات المختلفة ومرجعاً أساسياً لتناقض الرؤى والمواقف بخطواتها التي تتجسد على الأرض وتحمل أكثر من معنى، فمن حركة تقوم بمساندة الفلاحين وتعمل على تأسيس الإصلاح الزراعي إلى حركة تبذ الديمقراطية وتعمل جاهدة لتصفية الأحزاب مشرعة الأبواب أمام التساؤلات عن حقيقتها مما أدى بالتالي إلى فتح الأبواب أمام التساؤلات الإشكالية من خلال التخييل السينمائي، لحقيقة تصفية الأحزاب وعلاقة السلطة مع الجماهير التي كانت تمثلها في السابق الأحزاب التقليدية.

هذه الإشكاليات لم تدع إشكالية محسوبة بعد وفاء سيد الناصر في نظر قسماً من السينمائيين فأخذوا يتناولون هذه المرحلة بالتشريع والتفريط في رموز تأسس على حقيقة لغيبها، بل ومعاقبتها لأرضياتها بعزبها الأم، الحزب التاريخي المتجذر.

فكانت سينما المعتقل بدلالاتها محاولة لتعويض هذا التغييب السياسي، بل والإنقاذ واستنقاذ السلطة الناصرية بالحكم لوحدها من خلال أنوالها للهيمنة على البلد. وبهذا الإطار كان لابد من التركيز على المؤسسة الأمنية. للبل من كل جوانب المرحلة الناصرية من خلال اكتشاف الرؤى على الخطوطية هذه الأجهزة ودورها في الضرب بيد من حديد على الأحزاب والأفراد تحت مبررات جاهزة سلفا وأهمها (نظرية المؤامرة) التي تستخدعها في كل فترة وهي كل لحظة تشمر لها قد تلقد بعض امتيازاتها.

هذه النظرية ركزت وتركز عليها سينما المعتقل ويشدق بحيث تعكس مجمل الأفلام هذه النظرية سواء من حيث التطاير التي ترفع إلى الهيئات الأعلى، أو في سياقات تثيرها لعمليات الاعتقال التي تتم، إلا أن هذه السينما في خاتمة المطاف تعيد إنتاج الدلالات من منظور ناقد وطبيعتها لا من منظور ناقدها، فعلى الرغم من تمطية صورة الضابط الأمني التي صاغها وعملت على تشكيل منظومتها، وعلى الرغم من تصوير اللهاث المتسارع لهذه النمطية لتثير استمرار وجودها فاعلة مؤثرة لتحكم في السياقات والأحداث، وعلى الرغم من هدوانيتها وشرورها في تسويق التصور الوهمي، لكننا نجد بفضل التخييل أن هذه المحورية ستبدو قابلة للتفكيك بفضل إمكانية إعادة ضبط هذه المؤسسات بل وحتى قمعها حين تصل الأمور إلى أعلى الهيئات المسؤولة ولا سيما الرئيس نفسه، فبموجب الضابط الأمني في السجن أو بعض من مهمته ويسرح من العمل، وأما من بقي ولم يفلح ذلك فإن التصحيح (استلام

المصادر للسلطة) كقيل بعماسية <http://Archivebeta.Sakhrif.com>

وهي إطار هذا المقزى لتترب من سيرورة الاختزال التي صورتها سينما المعتقل من حيث إن حركة الفعل السياسي الإنفاني التهميشي تنبثق من التصور المنهجي للتأمر على السلطة وتقويض دعائمها. نشاهد ذلك باجترار متقل لشاهد تتوزع هنا وهناك، في هذا الفيلم أو ذلك، كملقن مقل بعيدا عن رؤية الجانب التاريخي ضمن علاقاته المتعددة علاقة الجزء بالكل، حيث لا نستطيع رؤية الجزء إلا خارجا عن الكل، جزئا فرديا ويعارض ممارسة فردية، هنا يمكننا القول إن التاريخ مأكتر لأنه يحول الدراما إلى تراجميديا عندما لا يقرأ الواقع بمنهج شمولي. فما معنى أن تصول وتجول المؤسسة الأمنية وتعت بالبلد فسادا وخرابا والسلطة السياسية لا تستشعر ذلك ولا تدرك ما يدور حولها؟ وما معنى تبرئة هذه السلطة ورؤوس هرمها من هذه الممارسات بينما هناك جهد واضح في مجمل الأفلام لإدانة المؤسسة الأمنية؟ في فيلم (أنا بنوع الأولويس) للمخرج حسين كمال وهي أثناء حوار داخل الزنزانة يقول الضاهر محمود: (هيه دي سياسة الناس التي بأيديهم السلطة التهار دة كل فترة يهيموا بالحكم أنه في مؤامرة ضده وعسد نظامه وإنهم هم التي اكتشفوها وهم كمان التي ينجوه منها).

فيدخل الشيوخ قاتلاً: (طبعاً المؤامرات يلزمها كشوف بأسماء المتآمرين حتى يشوفها الحاكم ويصدقها وبعد كده يسلمهم السلطة شوية شوية). بينما وينفس الفيلم ومن خلال الاتصالات الهاتفية بين الأجهزة: تحاول المشاهد التلاحقة توضيح أية الاعتقالات حين يقول أحد المسؤولين: (أنا مش عايز حد ينام في بيته النهار ده، لوهم من كل مكان أنا عايز تطلوا المسجون مليانة...). ويكمل (لو ما متهربش البلد منهم خلال ساعات حتكون المسؤول الأول قدامي وأنت عارفي كويس) يضع السماعة وفيما بعد يجري اتصال آخر مع مسؤول أعلى منه قاتلاً يتواضع واستصغار: (أنا حبيت أطمن سيادلكم أنه كله تمام... أكيد يا أقدم سلامة الوطن أمانة في ريقنا وزي ما اكتشفنا المؤامرة في هدوء حتعافظ على الأمن برضه بحدوء).

كذلك الأمر نرى مثل هذه الأحداث في فيلم (الهجمة) وفي المشاهد النهائية حين تفرغ إناس من حرق المخزن وبعد حضور قوى الأمن يقول لها الضابط: (دنيا أصغر من خرم الإبرة نحن أمن دولة، شرفت يا توسة... القضية كبيرة قوي المرة دي) ثم يتحدث مع رئيسه بالاملكي (تمام يا فدم تم ضبط المخربين، اثنين من اللي كانوا في قضية الحرامية تم ضبط متعجرات ومنزلهم للاستجواب).

أما في فيلم (وراء الشمس) وفي اجتماع قادة الأمن المركزي يتوزع هاشم رئيس جهاز الأمن بما حصل في ندوة الطلبة وهروب الشباب الذي نفهم على الثورة ليستنتج أن هناك مؤامرة تدبرها قوى اجنبية تعمل على تخريب البلد فتمت قراءة التقارير التي تعدد أسماء زعماء الطلبة ويقيمهم بأنهم وراء المظاهرات التي تملأ العاصمة قياماً باستقلالهم، وبعد تقريره ليرفعه إلى الرئاسة معهداً بأن هناك مؤامرة تحاك في الظلام وقد أحبطها جهازه، هذه المؤامرة المدعومة من قبل جهات اجنبية حوسرت وتناثرت في الفراغ بينما رجالها والقائمون عليها زج بهم في الزنانات.

مما سبق وبوضوح عياد الناصر نرى في السياق الذي تناولناه تشكّل ظاهرة سينما المعتقل كظاهرة لافتة للنظر حملت معها تساؤلاتها وتاويلاتها المختلفة لهذه المرحلة بمرحلة عربي، يعني الإدانة بل والافتصاح وصولاً لإلغاء المرحلة السياسية من تاريخ مصر الحديث فعممت الضباب حولها ونشرت الرايات السوداء، ووصفتها بالكاذبة والدعوية لتلقي كل المواقف والإنجازات.

وكما عمدت الناصرية إلى إلغاء الأحزاب وعازمت بعض الممارسات القسرية لتثبيت موقعها في السلطة السياسية عمدت سينما المعتقل إلى إلغاء المرحلة الناصرية بنقلها بالمرحلة القذرية في تاريخ الشعب المصري، إلا أننا في النهاية نرى أن هذه السينما (سينما المعتقل) حملت على إعادة صياغة التاريخ بشكل جديد بعيداً عن الموضوعية وعن المحتوى الطبيعي الحقيقي الذي يقدم إنسانية الإنسان، حريته، كرامته...

بين الأدب والمعتقل

أدب المعتقلات السياسية بمرثلة الاعترافية وببوحه الداخلي. وما يحمل في مكوناته من وجه إنساني صارخ وجازح، ينطلق من رواية تجربة السجن السياسي. هذه التجربة التي أخذت مداهما هي التروى والحديث، بتفاصيل مستفيضة نابعة من المعاشة الموضوعية والتجارب الذاتية. سارت وتسير بطريقين متوازيين يعكسها لفتراوان لأرخيلين سياسيتين في الوطن العربي، فترة النضال لتتصر من الاستعمار الخارجي، وفترة الاستقلال والحكم الوطني، وما تطلعهما من صراع مختلف الأشكال والأبعاد حكم من الفترتين، كل على حدة، حيث اختلفت الرؤى وتباينت المواقف تجاه الحكم الروائي على كل من الفترتين.

هذا النوع الأدبي من حيث طبيعته وموضوعه الخاص بدا يؤثر إلى موضوع الحرية وما يتبعها من قضايا ومواقف، تتناوب الفرد والسلطة والأشكال والبنس السياسية القائمة في الساحة العربية وبما تجعل من دلالات تثير مواضيع كالديمقراطية وحرية الرأي والرأي الآخر، وما يتفرع عنهما من تضاد وتنافس من خلال بنية السلطة نفسها وآلياتها المتشعبة في النظر إلى الإنسان، في جوهره ودوره الاجتماعي الفاعل، بين قسمة أو نقيده، أو إلغاءه، أو عزله. فعمد أدب المعتقلات إلى الإشارة للفهر والاستلاب والتغيير الذي يطرا على سيكولوجية الإنسان، المظهر، الخلف والمخبر.

هذا المحور والذي يستمر الجدل بشأنه ونحن في بدايات القرن الحادي والعشرين يعكس سؤال الهوية والذات، سؤال الماضي والمستقبل، وهذه العلاقة القهرية السائدة التي تسوق التسلط كظاهرة وأساس معرفي في التعامل مع الآخر، إلا أن ذلك يحيلنا مرة أخرى إلى أدب المعتقل والذي نتج عنه في سينما المعتقل التي تحاول أن تسوق لنا كونها سينما للحرية والوطنية. وإن هذه الأفلام قد صنعت جراء المعاناة والقلق والألم من خلال روايات أشخاص عايشوا ورصدوا ما يدور خلف الجدران بصدق وعفوية... وبهذا السند يحق لنا أن نتساءل هل حاولت سينما المعتقل بأفلامها عكس حكاية شعب لم تستطع آلة القمع أن تؤثر على مفاهيمه وأحلامه تجاه الحرية، مما أفضى وبفعل إرادة المعتقلين إلى تحويل المعتقل إلى معتقل السلطة التي هربت إلى الأمام وحولت البلد بكامله إلى معتقل؟

وهل حاولت سينما المعتقل ترجمة الأعمال الروائية التي تتناول المعتقل سينمائيا وبشكل يضيف على هذه الأعمال الأدبية ويثريها؟ هذا التساؤل يحيلنا بالضرورة إلى علاقة السينما بالأدب وبالفن الروائي، وعلاقة أفلام سينما المعتقل بأدب المعتقل.

هذه العلاقة التي تتفرع عنها مفاهيم إشكالية تتناول بشكل جوهرى قضية تحويل العمل الأدبي إلى عمل سينمائي، ومدى الاختراق بل والتنافس بين تحويل الرواية إلى سيناريو فليمي وبالتالي شطووس بصرية لتصورات وتحاول عكس إيهامات الرواية، وبين العمل الأدبي الذي

بالأدب الحواس، يمتثلنهما ويطلق ملكات العنان للتخيل، سواء للشخصي أو للأحداث في الرواية، مما يقضي إلى مدارك متغيرة تنحو ناحية القارئ بعلاقة خاصة يشيدها كاتب ومبدع العمل وهو يتصور علاقات خاصة وجمعية جدا مع كل قارئ على حدة، هذه العلاقة الخاصة تتبدى مهمة، ساقطة، وهمية من خلال إشاعة هذا الفن الخاص جدا، حين نعمل السينما بتأثيراتها المختلفة وتقنياتها إلى جذب القارئ/ المتفرج وبشكل جماعي للتعامل معها بذاتها، بعيدا عن فضائيات الرواية.

وحين نتناول سينما المعتقل هذه الجوارب الخاصة وتعميمها فإن ذلك يعني تعميم هذه الخاصية لتصبح واقعا ينتشر بفكره إلى كل الوطن العربي- مستفيدة من التقليد السينمائي التاريخي في استمداد السينما مواضيعها من الأدب، ولعل الإشارة إلى أن السينما المصرية التي سارعت في بداياتها إلى تصوير فيلم (زينب) عام 1928 عن رواية بالتميزان نفسه للكاتب حسين هيكل وهي لا تزال محكمة للأسلوب الفني في بداياتها كسينما صامتة، فهي إشارة مهمة إلى طبيعة اهتمام السينما بالأدب وأهميته على الرغم من أنه كان في بواكيره الجنتينة، وهي إطار مواز التقت السينما المصرية إلى الأفق والتمصير في تلك الفترة، واحتضنت مبدعها وأدبها ونهلت من شآجراتهم في أفلام كثيرة وعديدة، وعلى مدى تاريخها فإن السينما أخذت من الأعمال الأدبية كأصناف نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ويوسف السباعي وإحسان عبد القدوس، ولؤي أبظة.

وعلى الرغم من ظهور الأعمال الروائية على الشاشة الكبيرة إلا أن ذلك قد ترافق مع العديد من الإشكاليات، هي طبيعة فهم وأمانة نقل هذه الأعمال إلى الشاشة، حيث في أحليين كثيرة تحصل مبدعو الأعمال الأدبية من أعمالهم المصورة على الشاشة حيث اعتبروها لا تمت لمعلم بمئة... فالأديبان إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي يقولان: إن النص الأدبي شيء وروايته على الشاشة شيء آخر.

وأما نجيب محفوظ، فيقول: أنا أكتب رواية، وعندما تتحول إلى فيلم فهذا شكل فني آخر، إن قرأتني يحاسبونني على عملي الأدبي لا عن العمل السينمائي القليل عن⁽¹⁾.

وعلى الرغم من استمداد السينما لمواضيعها من الأدب، إلا أنه أصبح لها كتاباتها الخاصة كونها صناعة فنية بذاتها، فاشادت نوعا من الكتابة ينفصل عن المسرح والرواية والأشكال الكتابية الأخرى، مستفيدة من إتجازات السينما وتقنياتها، فظهر السيناريو الفلمي المكتوب طبعيا للسينما وأفلامها المختلفة التي تتوزع ما بين الملودراما، المأسرات، الكوميديا، الحركة والإثارة، الرومانسية وفصص الحب السينمائية.

وفي المقارنة بين الكتابة الأدبية والكتابة السينمائية تكمن الإجابة عن سؤال أي طريق يتبع في رؤية علاقة الأدب بالسينما حيث يجب اعتبار (الأدب منجزا ثقافيا له جذور تراثية واسعة

على مستوى الثقافة القومية يستمد منها مرجعيته وليس من السيمتيا نفسها⁽¹⁾. فيؤكد الناقد صلاح دهني أن (السيمتيا اعتمدت لضمان استمراريتهما إلى الاستجداد بالأدب لتشكيل مقوماتها من حيث القصة والحبكة بالمعنى الحديث للكلمة، ولكنها مع ذلك بقيت تعتمد الحكاية أو الحكوة، القصة ذات البناء الدرامي للتكامل)⁽²⁾.

وبالمودة إلى أدب المستقلات، وما وصل إلينا من التجارب الأدبية التي تتناول المعتقل السياسي وهي كثيرة سواء على صعيد الوطن العربي، أو على الصعيد المصري، نشير إلى أن الروائيين العرب قد تناولوا سجن الاستعمار وأشكال القمع التي تتبدى فيه، كمقدمة تهديدية لسجن الاستقلال السياسي، حيث تعتمد السلطة الوطنية وقد استحوذت على السلطة السياسية بعد مرحلة التحرر إلى المزج بمعارضيتها والمقاومين مع حركاتها وطروحاتها هي المعتقلات المختلفة التسميات، والتي تشير بأن جميعها قد صيغت ووضعت بنمط واحد، قد نجده في كل البلدان العربية بصورة متشابهة ومتقاربة وكأنها معتقل واحد. وفي ذلك دلالة.

ونذكر من الأعمال الروائية التي تحدثت عن المعتقل السياسي أيام الاستعمار، رواية وراء القضبان لأحمد حسن، والجزءين الأولين من ثلاثية العيون ذات الجفن المبدئية للدكتور شريف حنات، ورواية القطار لصلاح حافظ، ورواية العسكري الأسود للدكتور يوسف إدريس، ورواية التلاذ للظاهر قطار، وعندما ينهال العهد الجديد من مصر.

أجواء هذه الروايات وحكمتها تدور في زمن روائي كان يتطلع فيه المستعمر الأجنبي على

سجن الوطن العربي ويستكشف خبراته إقطاعية. <http://Archivebeta.net>

وتناولت السيمتيا المصرية رواية في بيتنا رجل الأدب- إحسان عبد القدوس حيث عكست المعتقل الاستعماري، ولكن الكاميرا لم تركز على خصوصية ما يدور داخل المعتقل، على الرغم من بعض اللقطات التي رسمتها لحالات التعذيب، هذا الأمر الذي يعني أن المواجهة مع المستعمر هي مواجهة جنونية داخل المعتقل وخارجه، ولا تحل إشكالية الصراع إلا بزوال المستعمر الأجنبي عن البلد. على الرغم من أن أنوثة القامعة هي من أبناء البلد ورجالته المنتهزين.

أما على صعيد روايات سجن الاستقلال فإننا نلتصق إلى عدد من الروايات التي تناولت المعتقل السياسي من قبل السلطات العربية والتي عملت على استكمال ما بدأ الاستعمار من ممارسات شاذة وقمعية تدور داخل أجواء المعتقل، وملاحظة استمرار ظاهرة التسلط والقمع والإرهاب الذي يمارس ضد الفرد وضد الجماعة بتقائيد محلية يتفق عنها الذهن المحلي الخالص ربما يكون أشد قسوة وإيلاماً من معتقل المستعمرة وما روايات «الحقد الأسود» للدكتور شاكر خصباك، ورواية السجن لنيل سليمان، والقلمة الخامسة لفاضل العزاوي، ورواية الوشم لعبد الرحمن مجيد الربيعي، ورواية المستنقعات الضوئية لإسماعيل فهد إسماعيل، ورواية الكرتك لنجيب محفوظ، ورواء الشمس لحسين مصطفى، ورواية شرق المتوسط

لعبد الرحمن منيف، ورواية البوصفة للدكتور وقعت السعيد، والجزء الثالث من ثلاثية العين ذات الجفن المدنية بعنوان الهزيمة للدكتور شريف حتاتة^١، إلا دلالة على واقع بدأ يطرح أسئلته. ومن الملاحظ أن أغلب هذه الروايات قد صدرت في السبعينيات وهي الفترة ذاتها التي بدأت أفلام سينما المنقلب تتوالى فيها. ولكن الثلاث لتطرح أن بعض أفلام سينما المنقلب لم تعتمد اعتمادا كليا على هذه الأعمال الأدبية وإنما اعتمدت على السيناريو القلمى.

وحين نعود إلى إشكالية العمل الأدبي وتحويله إلى فيلم سينمائي ونتمتع من حقيقة العمل والهدف الذي يرميه ممولوه في السينما فإننا نشاول فيلم الكرنك والمأخوذ عن رواية نجيب محفوظ، حيث لا نستطيع إلا أن نتوقف ونشهر إلى إشكالية المصادقية نحو العمل الأدبي والفكرة المراد تضمينها هي الفيلم لأبعد مدى... فنلاحظ الانسحاق الجذري في الأهداف والواقف بين كل من الفيلم والرواية، ففي حين يطرح نجيب محفوظ في رواية الكرنك العلاقة بين الشعب والثورة في الفترة الممهدة لهزيمة حزيران، وأثار الهزيمة على ثلاثة أجيال: الشيوخ، الشباب المثقف، الجيل الجديد، فيترك لقرنطة صاحبة مقهى الكرنك احتضانهم وملاحقة شؤونهم حتى تبدو في ذلك رمزا لحصر الواقعة حشاياها وسط الوطن العربي كما يقع مقهى الكرنك في منتصف القاهرة. إن نجيب محفوظ يثير قضية الثورة المصرية والانحرافات التي سادت خلالها معا جعلها تنحو نحو نهضة الأجزاء الهزيمة. فتدور أحداث الرواية ضمن مقولات فكرية محددة في ثلاثياتها (بين الثورتين) وعلى هذا الجيل المأخوذ المضاعف والذي لا يتبين معالم هويته لا يمكن له أن يكون البلاد إلى تحقيق الإنجازات على المستوى الاجتماعي والاقتصادي. إضافة إلى أن (شعبا أيضا) في المنقلبات لا يمكن له أن يحارب ويتنصر.

مع أن الرواية تنحو منحى للصالح الوطنية والنهايات السعيدة، فخلال صفوان ضابطه الأمن الذي يعاسب إثر هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ وتجعله الرواية يمتدح ثلاث سنوات جراء ممارساته. يجلس في مقهى الكرنك بعد أن يخرج، ويضيف لرواية المقهى الوضع المساند ويشاركهم في أحاديثهم وألعابهم! على الرغم من مسئولياته عن موت حلمي تحت التعذيب وإهانة إسماعيل وتعذيبه والاعتداء على عفاف زينب.

في رواية الكرنك يحاول نجيب محفوظ أن يحلل العلاقات التي أطشت إلى الهزيمة ناقدا الأخطاء والممارسات المستترة بالثورة من موقع النقد البناء من داخل مؤسسة الثورة نفسها، فتخلق الرواية فضائها الزمني عام السبعين.

أما فيلم (الكرنك) فإنه يبدأ ويسبق مضاد تماما في أثناء حرب تشرين ١٩٧٣، مشبرا إلى ديمقراطية العهد الجديد والانفتاح على القيم، مقابل انغلاق العهد القديم على الرعب والقمع، فخلال صفوان المحقق يتم الزج به من قبل حركة المبادات في السجن، وإسماعيل وزينب

سيرة الممثل

يصيحيان أمثلة الشباب الفاضل فيلتقيها في أثناء الحرب بثقة وتسميم بعد تجاوز جراحهما جراء ما حدث لهما أيام عبدالناصر، وهما مصممان على العمل الاجتماعي الفعال مع الارتداد لرحلة الرعب والهوان من خلال ذكراة المعتقل التي يرويها كل من زينب (إسماعيل)

أما رواية وراء الشمس لحسن محسوب، فإنها تروى الباحث سمير روجي القيصم في كتابه (السجن السياسي في الرواية العربية)، واحدة من سلسلة أعمال عكف أصحابها على إدارة فترة حكم جمال عبدالناصر بعد زوالها واستلام أتور السادات الحكم في مصر وانتقاله على ما يسمى آنذاك بمراكز القوى، ويشير إلى أن الكتاب قد أنهى صفحته الأخيرة بعد ذكر أيام ١٩٧١ بأنه على موعد الإفراج عن المعتقلين ويانه (بدأ تصحيح السياسات وتقسيم الانحرافات)^(١).

ورواية وراء الشمس تتحدث عن المعتقل السياسي بأحواله الاجتماعية، حيث ترصد شخصية الجعفري المعلق الذي لا يتورع عن فعل شيء إرضاء لرؤسائه، فهو لا يعارض التعذيب فحسب، بل يعتد دوره إلى المجتمع بكامله ليعيث فيه خرابا ودمارا، وهو يطبع رؤسائه ويؤمن لهم أمكنة الذهب والفضة، كما يدفع النساء للدمارة للسيطر عليهن وعلى أسرهن، مع استخداهن في التجسس على المواطنين والمسؤولين في الآن ذاته، ويتناقض عن سلوك زوجته (فيضي) الجانح مع رؤسائه كي يستحوّل في الرخا منه، ويسجل آلاف الأشرطة التي تدوين هؤلاء الرؤساء، بهذه التي تدور الرواية من السجن للمجتمع وفي المجتمع للسجن.

وفي سياق موازي نجد شخصية (سهير) الرافضة وهي ابنة لرجل حارب الإنجليز ولكنه، وعندما رأى انحرافات الثورة نصح المسؤولين بضرورة تجاوز هذه الانحرافات فلم تنطلق منه، بلما إنه (مصور) لم يعاصر الإنجليز ولكنه ورث عنه شجاعة الرأي مما جعله يقع في أيدي السلطة، فيعترف ويورع في السجن، وهناك يعلم بترك زوجته له، فتتساقط قيمه، ويعارض المواظ من أجل أشياء مادية تافهة، كما يفند عميلا للجعفري بين السجناء...

تعرف سهير في وليد وعصام ويوسف الذين أخذوا يترددون إلى عوامتها بحثا عن التسيان وهم يمثلون الجيل الضائع اللامبالي... وفي تصاعد وتيرة الرواية يلاحظ المسؤولون تروء العظية على عوامة سهير فيعززون للجعفري بإلقاء القبض عليهم على أنهم متآمرون على سلامة الوطن، وعلى هذا النحو يرصد مؤلف الرواية دخول الشتيان إلى السجن ورحلتهم فيه... وتطرح الرواية أن الشباب متشاكبون، غير واضحين عن الحالة التي تسود الوطن، ولكنهم أبرياء من تهمة التآمر.

وفي الفيلم تتغير بعض الأدوار فعلى الرغم من عكس صورة الجعفري الروائية بل والإضافة عليها سينمائها إلا أن الفيلم يقدم لنا سهير في دور الدكتورة الجامعية، ووالدها «حسن سلامة»، هو المسؤول عن مصلحة السجن، وقد قتل جراء تساؤله عن الهزيمة وضرورة

مخاضية مسببها، أما سهرير للتخفة فإنها تجبر على العمل مع الجمعيوي كمرشدة جراء تعرضها للاغتصاب من قبل الجمعيوي نفسه الذي قام بقتل أبيها. ولولفته لحادثة الاغتصاب من خلال عملية التصوير السينمائي.

بينما الشباب الذين يعتقدون بأنهم أصبحوا مجالا للتفرد والأسئلة ومن موقع الحفاظ على الثورة، ولكن فساد الأجهزة يعزو ذلك إلى وجود مؤامرة تدبرها جهات أجنبية ويقوم بتنفيذها الطلبة، وهي المعتقل يتم رصد حالات التعذيب والقتل والاستهتار بالقيم الإنسانية. وهي تأسق واضح بين العمل الروائي والفيلم السينمائي وبإشارات لا تحتل التناول أو الانتباه فإن الهدف من (وراء الشمس) إدانة النظام الناصري، فكما يشير القولف لأهمية عهد السادات، فإن المخرج يشير إلى الفتاحيات عهد السادات وبشكل مسبق لإدانة جمال عبد الناصر.

كما أن قصة إنقاذ جرحى الثورة من المجموعة القصصية (الزيمية اسمها فاطمة) لإحسان عبدالقدوس، فإنها تتحول على يد المخرج علي رضا في فيلم (أه يا ليل يا زمن) إلى بكائية غريبة، حيث لم يبق من القصة سوى عشورها التي تحاول أن تؤثر إلى حجم الخسائر التي لحقت ببعض الشرائع الاجتماعية في عملية الطحن الاجتماعي التي قادتها السلطة.

وفي الفيلم نجد الخطابية السياسية المباشرة، واستمرار العطف بشعارات متعددة لوظف لخدمة الفنانة وردة الحنية وابست للملكة والتي تحاول أن تتقمص شخصية فنانة الينلامي والتي تغمر والدها وممتلكاته جراء قرار الخرج الجارسة، هذا الخلق قصتها ولا نلقنها بدانها.

فإن نقر إلى باريس بعد خيبرتها كل شيء، فتجوب شوارع باريس وحيدة فيما يفترض أنه ضيق إنساني، يبحث عن تعاطف قسري مع المشاهد حيث تهدى برزنتها الكاملة التي تحرس على أن تجسد صورة نجاحها المفروسة في عقول مستمعها، وتحاول ويحاولات مستمينة إقناع المشاهد بأنها وعلى الرغم من كونها لم تدخل المعتقل بضمومه المادي، إلا أنها دخلت المعتقل الأخير الأقسى والأشد إلزاما، للمعتقل الداخلي، النفسي والروحي، والذي يترك أثرا وحطاما أكثر من الأسواط مما يدفعها للتفريط بكل شيء، بسداجة، وعلى طريقة أفلام المقاولات وتوليقاتها، من جنس وكحول... وعلاقات غير سوية، من خلال استعراضنا لعلاقة الأدب بالسينما... نستخلص أنه:

١) حين نتطرق الرواية في معماريتها وبناء فضائها الروائي وبأحداث متوازنة، فإنها تتطرق من معرفتها للواقع، وتضمن مفردات هذا الواقع في نسجها الروائي بكل شروطه التاريخية والاجتماعية، وتلجو معنى تكثيف الضوء على العلاقات التي ترصدتها بكل شعبياتها، إحقاقاتها، ناقضاتها، فتؤثر إلى طبيعة آليات المجتمع وحركته في فترة زمنية محددة طالت أم قصرت، مما يقضي بها إلى تقديم صورة بانورامية للمجتمع الذي ترصدته بقضائاته المتعددة الزمنية التي تتناولها.

كما أنها تعمل على رسم التفاصيل الصغيرة للموضوع لوحة متكاملة متجانسة تشكل عكسا لوثيقها للمرحلة التي تتناولها.

ومن الملاحظ أن الرواية تقدم معرفة لفترتها، وتطلق من معرفتها والتي تقدمها بكل السبلات والإيجاليات، هذا الموضوع الذي يقود إلى تضمين وجهة نظر المبدع وموقفه تجاه ما يدور في المجتمع، إضافة إلى تقديم وجهات النظر المختلفة من أفكار ومواقف حتى وإن كانت متعارضة مع رؤية المبدع، إلا أنها ضرورة لتقديم صورة شاملة للمجتمع. إضافة إلى أن الرواية والقصة هي منتج فكري، بينما السينما هي منتج جماعي، والعمل الإبداعي إن توفر نقله بشكل أمين لنسبه الأصلي. فإن ذلك يجب أن تقابله عناصر متخصصة لتنفيذ العمل، وأي نقص في أي جانب من جوانب الإنتاج فإن لذلك نتائج تبتدى على نتيجة العمل بعد التقائه من النص المكتوب إلى الصورة المتحركة الناطقة.

2) انطلق بعض المخرجين من تسمية الأسماء المتفشية في صفوف العامة والذين يستمدون رؤيتهم وشقايتهم غير الضرورية عن طريق السينما وغيرها من الوسائل التي تلامس حواسهم السمعية والبصرية، بينما العمل الأدبي، وفي أشد حالاته نهاية وتوزيعا، فإن توزيعه لا يتجاوز أكثر من خمسة آلاف نسخة، هذا العدد الذي يفوقه بكثير حضور العرض الأول للفيلم.

وبناء على هذا الأمر تحاول إخراجون وسينما السينما على النص، وتجزئته وتشويهه بحيث يصبح مزيجا من التوائيل المتعارضة التي تتسم لكل أجناسها الشفوية مما يجعله يحلق على الإبرادات من جهة، ومن جهة أخرى انطلاقتهم من أن القارئ العربي لا يقرأ فيتوجه إلى جمهور له خصائصه المحدودة، فلم يخرجوا في الإشارة إلى أن عملهم هو نقل حرفي للرواية... هذا الأمر يقضي إلى أننا أمام عمليتين مختلفتين مع أنهما يحملان الاسم نفسه ويمتازان امتزاجا عضويا.

- 1- الهوية القومية في السينما العربية، عثمان مدانات، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ط 1، ص 113.
- 2- الديمقراطية وحقوق الإنسان في الوطن العربي، حسن حنفي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ط 1، ص 227.
- 3- الهوية القومية، سيق ذكره، ص 111.
- 4- الإدراج العام والشخصي، الكسندر روشكا، ترجمة لسان أبو الفخر، عالم المعرفة، عدد 111، الكويت، ص 19.
- 5- موسوعة السياسة، الجزء الثاني، عبد الوهاب الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص 780.
- 6- الديمقراطية وحقوق الإنسان، سيق ذكره، ص 227.
- 7- نظرية والسياسة في عصر أحمد عبد الله، دار ميثاق للنشر، القاهرة، 1990، ط 1، ص 150.
- 8- المصدر السابق، ص 78.
- 9- هوية السينما العربية، سمير فريد، دار الفارابي، بيروت، 1988، ص 14.
- 10- الهوية القومية في السينما العربية، كمال رمزي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص 88.
- 11- جريدة الخليج الإماراتية / ملحق استراحة الجمعة / قبل الحادي / العدد 6519 تاريخ 6 ديسمبر.
- 12- السينما والسياسة، سيد سعيد، ص 119.
- 13- هوية السينما العربية، سمير فريد، دار الفارابي، بيروت، 1988، ط 1، ص 14.
- 14- الهوية القومية، سيق ذكره، ص 111.
- 15- السينما في الوطن العربي، دار التلمذ، سيق ذكره، ص 19.
- 16- صحيفة الرأي العام الكويتية، استراحة الجمعة، ملحق لعدد 6519 تاريخ 6/12/1988.
- 17- المصدر السابق، عدد 6519 تاريخ 10/12/1988.
- 18- المصدر السابق، عدد 6519 تاريخ 12/12/1988.
- 19- قضايا السينما والثقافة في الوطن العربي، صلاح دغلي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997، ط 1، ص 37.
- 20- مجلة الحياة السينمائية، محمد كامل القلوبلي، عدد 17، خريف 97، دمشق، ص 98.
- 21- قضايا السينما والثقافة، سيق ذكره، ص 70.
- 22- المحعن في الرواية العربية، سمير روجي الفيصل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1987، ط 1، ص 119.
- 23- المصدر السابق، ص 104.

« الشرق اوسطية » ومستقبل المنطقة العربية

أ. سمير الزين*

ملحة

لو قدر الباحث في منتصف التسعينيات رسم صورة حقيقية لما هو عليه شكل العالم في منتصف التسعينيات، لالتهم بالجنون. فقد كان يحجم التغييرات التي شهدتها العالم في السنوات الاقتصادية بين العقد الثامن والتاسع كصورة لدرجة أن أكثر التوقعات تطيرا ما كان لها توقعها.

إن النقلة النوعية التي شهدتها العالم في السنوات العشر الأخيرة بحاجة إلى الكثير من التأمل والتفكير والاستعداد لاستخلاص الدروس. فهناك عالم بعد تشكيله وموقع الدول من هذا التشكيل يتعدد بمستوى أدائها السياسي والاقتصادي والاجتماعي... إلخ. فهناك نظام عالمي انهار. وهناك آخر يولد من جديد لم تشكل ملامحه النهائية بعد، والجميع في سباق لاحتلال المواقع الأفضل في لاتعة التشكيل الجديد.

تشير التغيرات إلى أن العالم الثالث - والمنطقة العربية منه - يمر إلى مزيد من التدهيش باستثنائات نادرة. ففي ظل العولة التي تضرب الأرض في كل مكان، يتم إعادة إنتاج تبعية هذا العالم بقيود جديدة.

إن كل المؤشرات تدل على أن المعادلة الدولية القادمة في جوهرها معادلة اقتصادية، وما كان يعتمد عليه العالم الثالث في المعادلة الاقتصادية السابقة كمصدر للمواد الخام، خرج من المعادلة. فالتراجع الاقتصادي الذي شهدته العالم في العقود الأخيرة عمل على إلغاء النظام

الاقتصادي الذي قام بعد الحرب العالمية الثانية، والتكنولوجيات الجديدة تنصف الاستراتيجيات القديمة للنجاح الاقتصادي «الثورة الخضراء» وعلم المواد ظلت من أهمية الموارد الطبيعية في التنمية الاقتصادية، فتوافر الموارد الطبيعية في بلد ما لم يعد يجعله غنيا، كما أن عدم توافرها لدى بلد ما لم يعد حائلا دون أن يصبح غنيا. ⁽¹⁾

إن التطورات المذهلة التي شهدتها التكنولوجيا قلبت الأشياء رأسا على عقب، فما كان ميزة في السابق تحول إلى عيب، فقد حسمت مسألة أن المواد الأولية لن يكون لها مكان في المنافسة «في القرن الحادي والعشرين ستصبح مهارات قوة العمل والتعليم هي السلاح التنافسي الأول» ⁽²⁾

ولنظامية التحدي الاقتصادي المطروح على الدول، ثم العمل في أكثر من مكان من العالم على بناء تجمعات سياسية - الاتحاد الأوروبي، الناتفا، أسبان - لمواجهة المستقبل، كإعلان عن عدم قدرة الدول حتى الكبيرة على مواجهة هذه التطورات منفردة.

في ظل ما يجري في العالم، فإن الصورة هي المنطقة ليست ودية، فهناك ضعف وتفكك عربي إذا ما استمرنا فإنهما يهددان بالتهميش الكلي للدول العربية، وإخراجها من أي منافسة بحكم عدم صلاحيتها للعالم القادم.

والصورة السلبية للدول العربية تجعل التحديات التي تواجهها أكبر من التحديات التي تواجهها مناطق أخرى، وأمامها أزمة كبيرة من المشكلات المتشابكة والمعقدة التي عليها أن تتجاوزها حتى تستطيع أن تدخل القرن الواحد والعشرين وأنها القدرة الأولية على التطور.

إن مثلث التحديات الذي نمتد أنه بحاجة إلى استجابة سريعة لإيجاد حلول له، هو مثلث تتكون رؤوسه من «تحدي سياسي، وتحدي اقتصادي، وتحدي أممي».

لقد دخل العرب التسعينيات في حالة من الضعف الظاهر، عصفت حرب الخليج الثانية على مضاعفتها، وأدخلتهم حالة الضعف هي عملية التسوية القائمة هي المنطقة على أساس معادلة التفوق الإسرائيلي مقابل الضعف العربي، والعمليّة القائمة هي حال الوصول إلى نهايتها، تجعل هذه التحديات حقيقة قائمة وأكثر ملحا، والاستجابة لها أمر يجب ألا يؤجل.

إن البحث في المستقبل في ظل أوضاع تمتد على التنازع فيه الكثير من المجازفة، وتزداد هذه المجازفة خطورة في ظل عالم يتسم بالسيولة، فلا شيء ثابت، وكل شيء عرضة للتغير. ففي الحالة الطبيعية يكون «مضيق هؤلاء الذين يحاولون التمسك بالمستقبل أمر لا يحسدون عليه عادة، فهم، إن لم يعملوا باعتمادهم مجانبين أو ذوي لفتة، يتم تجاهلهم حين يكونون على خطأ، ويقابلون بالامتناع حين تشبه صخرة تميزاتهم» ⁽³⁾، فكيف تكون الحال في الأوضاع غير الطبيعية؟

إن التسوية القائمة في المنطقة، كان لها مقدماتها، وأمنت ألبانها، وسيكون لها نهاية على الرغم من كل الصعاب التي تطرحها، لكن التحديات التي تواجهها الدول العربية لا تقتصر بعد إنجاز التسوية بل ستزداد حدة.

٧٥ : اتفاقيات العربية - الإسرائيلية

شكلت عملية التسوية التي أطلقت من مدريد عام ١٩٩١ مؤشرا على التحولات التي شهدتها المنطقة العربية والعالم في الفترة الفاصلة بين العقدين الثامن والتاسع من هذا القرن، وقد أدت هذه التحولات إلى إعادة النظر في أوضاع المنطقة، ليس كاستجابة للرد على تحديات أزماتها أصعب المنطقة، فهدفت باتجاه أن تمهد دول المنطقة النظر في آليات علاقاتها البينية. إنما كانت هذه الانطلاقة استجابة إلى متطلبات خارجية ثم فرضها على الدول العربية، كما كانت هذه الانطلاقة المؤشر القوي على حالة الضعف وعدم الفعالية العربية التي تراكمت على مدى العقدين الماضيين، والتي جعلت إمكانية استجابة المنطقة للإملاءات الخارجية، وتحديدًا الأمريكية، مطلبًا داخليًا عربيًا من أجل المساهمة في حل الصراع العربي - الإسرائيلي، وحتى في حل النزاعات العربية - العربية.

لذلك، لم تكن عملية التسوية بين الفلسطينيين - عمالة الاحتلال الصارخ في ميزان القوى بين العرب وإسرائيل، والضعف العربي، التي انبجست في تصدير النزاعات العربية - العربية، أدت إلى أن يوافق العرب مجتمعون ومنفردون، على الصيغة المزعجة التي تم إطلاقها في مدريد، التي كانت نتيجة للمقدمات التي سبقتها.

٧٦ : مقدمة التسوية

شهدت نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات مجموعة من التغيرات الدولية والإقليمية والفلسطينية، وضعت القضية الفلسطينية على سكة مختلفة عما كان سائدًا في السابق. وتضافر مجموع هذه التغيرات جعل انطلاق عملية التسوية ممكنًا، ومن دولها ما كان لهذه العملية أن ترقى النور في مدريد عام ١٩٩١. ويمكن إجمال العوامل التي هيأت التوضع في المنطقة لمل هذه العملية في ثلاثة عوامل رئيسية:

- ١- شكل انهيار الدول الاشتراكية بما فيها الاتحاد السوفيتي عاملًا حاسمًا في تهيؤ الوضع لمل هذه العملية، فبهذا الانهيار تمكك نظام الاستقطاب الثنائي الذي ساد في فترة الحرب الباردة، وتم استبعاد التهديد السوفيتي من حسابات واشنطن. وشكل هذا التهديد فيما مضى لهذا المنظم للسياسة الخارجية الأمريكية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.^(١)

فقد تراجع الخطر السوفييتي، عملت الولايات المتحدة على إيجاد ناظم لسياساتها الخارجية، يقوم على توجهات أخرى من خلال البحث عن مصادر تهديد بديلة للخطر السوفييتي. وقد أصبحت وزارة الخارجية الأمريكية المخطاط الجديدة هي تقوير مصادر عن «لجنة التخطيط الاستراتيجي»، فيها عام 1988، جاء فيه: أما وأن الحرب الباردة قد انتهت، والاتحاد السوفييتي لم يعد عدوا للغرب بالطريقة التي كان عليها في السابق، فإن مصادر التهديد البديلة ستكون خلال السنوات القادمة هي مصادر عدم الاستقرار في العالم، والأصولية الإسلامية في العالم الثالث، والأنظمة السياسية غير المستقرة، وأن على العرب وعلى حلف الأطلسي أن يكون مستعدين جيدا لمواجهة هذه المصادر الجديدة للتهديد.⁽¹⁾

أدى الانهيار السوفييتي إلى خسارة بعض الدول العربية تحليلها الذي كانت تعتمد عليه في التسليح العسكري، وفي الدعم السياسي. وخسرت الدول الأخرى أيضا الحاجة الأمريكية إلى استرضائها حتى لا تقترب من موسكو أكثر. وعدم الاستعداد العربي لثل هذا الوضع الدولي الجديد، جعله مكشوفاً أمام الوضع الجديد، حيث تميز هذا الوضع بأن إسرائيل من خلال تحالفها الاستراتيجي مع الولايات المتحدة، بدت وكأنها شريكة لها في الانتصار، وببالتالي وكان لها الحق في أن تحصل على حصة من هذا الانتصار في الشرق الأوسط.⁽²⁾

لقد أدى الاستقطاب الثنائي في زمن الحرب الباردة إلى تعطيل القضايا العربية، وقد شكلت قضايا الخلاف الإقليمي في العالم الثالث محور الصراعات بين القطبين، فالذي تطرحه الولايات المتحدة يتم مقارنته من الاتحاد السوفييتي، والذي يطرحه الاتحاد السوفييتي ترفضه الولايات المتحدة، على قاعدة نجاح أي من اقتراح أحد القطبين يعني توسع نفوذ هذا القطب، وهذا لم يكن مسموحاً به من القطب الآخر. وقد شغلت القضايا العربية حيناً واسعاً في سياسات التعطيل المتبادلة، والدور السوفييتي قام في المنطقة على قاعدة تعطيل الحل طالما أنه لا يستطوع فرض نموذج، وهذا ما كانت تواجهه السياسة الأمريكية في المنطقة، مع غياب الدور السوفييتي والاستفراد الأمريكي، أصبح من الممكن الحديث عن حلول للقضايا العربية.

تسبب غياب السوفييتي عن الساحة الدولية في اختلال التوازن الدولي، مما رتب نتائج على المنطقة العربية يمكن إجمالها بما يلي:

- انعدام هامش المناورة المستقلة أمام الدول العربية، فقد كان الاتحاد السوفييتي في عصر التوازن الثنائي يمثل أحد البدائل أمام بعض الدول العربية على الأقل لتقليص مساحة الهيمنة الغربية.

- تدهور مكانة الدول العربية في النسق الدولي وتراجع أهمية قضاياها، فقد أدى انهيار السوفييتي إلى مزيد من اعتماد الدول العربية على الولايات المتحدة.

الثقافة الأمريكية

« الهيمنة الأمريكية، فإذا كان حل النزاعات بالطرق السلمية هو أحد مبادئ النظام العالمي الجديد الذي بشرت به الولايات المتحدة بعد الانهيار السوفيتي. فإن ذلك الحل يجب أن يتم وفق المنظور الأمريكي وعدم الذي عمل على استبعاد الآخرين عن المشاركة في عملية التسوية، بما هي ذلك أوروبا.

« كما تم تحويل الأمم المتحدة إلى مؤسسة تابعة للولايات المتحدة، فأصبح من اليسير للولايات المتحدة أن تستعمر ما تشاء من القرارات من مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة.^(١٢)

في ظل هذا الوضع الدولي الجديد أصبح من الممكن البدء في المفاوضات الصعبة الإسرائيلية الإسرائيلية التي انطلقت في مدريد 1991 بتفرد أمريكي بإدارتها. فلما كان غير قابل للحصول في زمن توازن القطبين، أصبح واقعا قائما. فالمفاوضات تلك راعيا واحدا وهو التحكم بكل العملية، لأن انتهاء الحرب الباردة ومن ثم نتائج حرب الخليج لم يكرسا الولايات المتحدة باعتبارها الدولة العظمى الوحيدة فحسب، بل جعلها أيضا القوة المهيمنة في الشرق الأوسط والقيمة على توازن القوة هي تلك المنطقة^(١٣). فالمنطق الأمريكي يعتبر أن نهاية الحرب الباردة تعد نهاية حقبة شاملا^(١٤)، مما جعل التحكم الأمريكي في العالم يصادر فكرة الدول الصغيرة والمتوسطة على التحرك السياسي السيطر في الوضع الدولي الجديد. هذه القدرة تزداد كلما ازداد الطابع التعددي للبيئة الدولي. وكما ازدادت درجة الصراع بين القوى الكبرى، فحالة تعدد الأقطاب أو القطبية الثنائية تؤدي إلى زيادة فجوة الدول الصغيرة والمتوسطة على الحركة المستقلة، خاصة إذا ارتبطت بدرجة من الصراع بين الأقطاب.^(١٥)

٢- حرب الخليج الثانية شكلت مقدمة أخرى لعملية التسوية. فقد كانت هذه الحرب لكمة كبيرة للدول العربية مجتمعة، وعملت على هدم معمرات النظام العربي التي فقد فعاليتها وأصبح يتأوه مهددا. لقد خلقت أزمة الخليج انقسامًا بين الدول العربية لم تعرفه من قبل، وفقام هذا الانقسام على سابقة لم تعرفها العلاقات العربية - العربية، وهي غزو قطر عربي لقطر عربي آخر وإغواء عن الخريطة السياسية والحافة نهائيا بالنظر الغازي.

كما شكلت حرب الخليج لكمة للدول العربية وخطرا دافعا على النظام العربي، لأن تداعيات هذه الحرب وآثارها أخلت بعيزان القوى في المنطقة، وعملت على تقاطع الخلل في هذا الميزان بين الدول العربية ودول الجوار بكل العالين.^(١٦)

وقد جلبت الحرب قوات اجنبية وتحديدا أمريكية بأعداد كبيرة لم تشهدتها المنطقة من قبل. وأصبح هذا الوجود جزءا من صورة المنطقة ومؤثرا بشكل حاسم على توازنات المنطقة وعضائها لهذه التوازنات. فهي نهاية حرب الخليج كانت الولايات المتحدة السيطر بشكل كامل على الخليج وأصبح بمقدورها «أن تعيد تشكيل النظام في الشرق الأوسط بطرق سيكون لها

تأثيرها الدائم، حسب ما يقول سارثن إنديك، ويضيف: «لكن ذلك لم يحدث وهناك عدة أسباب لهذا القتل. الخوف من مستقبل الشرق الأوسط، والحافز التاريخي لإعادة القوات إلى الوطن، وعدم وجود دعوة إمبريالية لفرض سلام أمريكي. لكن السبب الأهم: كان يتمثل في أن المصلحة الطوعية، كما حددها فريدمن ومستشاروه، لم تتطلب نهجا أكثر طموحا وقد سمحت إدارة بوش لإعادة توازن القوة، وليس لإعادة هيكلتها»^(١٢١).

ويعتبر إنديك أن هذه الحرب خلقت عنصرين إيجابيين آخرين في التوازن الإقليمي يمكن أن يدعموا الاتجاهاات المواتية للولايات المتحدة. الأول هو الدور المتجدد لتركيا كعنصر في المعادلة الاستراتيجية. الثاني، أن النجاح الأمريكي في حرب الخليج، دفع أوروبا واليابان لمسلوك بناء بدرجة أكبر في دعم الجهود التي تتزعمها الولايات المتحدة للتشجيع على المفاوضات العربية الإسرائيلية، والتنمية الاقتصادية الإقليمية، وترتيبات الحد من السلاح^(١٢٢).

إن تأثيرات حرب الخليج تجاوزت حدود المنطقة إلى العالم، وعملت على تدعيم الهيمنة الأمريكية ليس على المنطقة فحسب، بل على العالم أجمع. هذا ما يوحي به إنديك، وهذه الهيمنة بالفضي السياسي مدعومة بقوة عسكرية وحيدة هائلة، ويرى الجنرال وليام أونوم «أوضحت حرب الخليج لجميع المهندسين العسكريين الأمريكيين المتسلطة في مراتب القوة العسكرية في العالم، أن أمريكا ليست في المرتبة الأولى تقنياً، وأن المراتب الاثني عشرة لم ينفذها أحد»^(١٢٣).

<http://Archivebeta.Bakhrift.com>

كانت إسرائيل المستفيد الأكبر من دول المنطقة بالنسبة لعدايات حرب الخليج، فقد تم تدعيم القوة العسكرية العراقية التي كانت إسرائيل تلعبها إحدى المخاطر التي تهددها، وتم إضعاف الوجود العربي الإجمالي مما زاد الاختلال في موازين القوى بين إسرائيل والدول العربية. وعلى الصعيد العربي ساهمت حرب الخليج في تشويش الأولويات العربية التي كانت قد استقرت في الوجدان العربي^(١٢٤)، مما جعل بعض الدول العربية تعيد النظر في تصنيف الأعداء والأصدقاء. وربما يكون التصنيف الجديد الذي أدخل دولاً عربية في دائرة الأعداء عائقاً أساسياً أمام إمكانات تطوير أي توافق عربي للتعاظم مع المتغيرات التي يشهدها العالم والمنطقة، فقد انهار الحد الأدنى من التوافق الذي كان سائداً في النظام العربي قبل أزمة الخليج. وعملت الأزمة على تعميق تسيج هذا النظام. «والحدود الأساسية لهذا التمزق هو وجود صعوبة أكبر في التوافق حول تعريف أهداف الأمن العربي والعلاقات اللازمة لإدارة الظروف الدولية لهذا الأمن»^(١٢٥). هذا التمزق وقد اختلفا بمواقف الدول العربية من الطروحات الموجهة إلى المنطقة، مما أفضى الدول العربية الحد الأدنى من التنسيق والتعاون. وبدت الدول العربية كقطع مفككة تعمل ضد بعضها بعضاً حيناً، وتضع بعضها البعض في دائرة الأعداء حيناً آخر.

الطريق أو السبيل

أدت حالة الضعف العربية إلى تعزيز الميل نحو حل الصراع العربي - الإسرائيلي بالطرق السلمية، كما أدت حرب الخليج إلى إعادة تموضع الأبعاد الاستراتيجية في المنطقة، حيث ظهرت معادلة التحالفات الثنائية والتعددية، خاصة بالنسبة للولايات المتحدة التي ابتعدت عن أطراف واقتربت من أطراف أخرى، هذا التوضع الجديد قد أدى إلى الحديث عن ولادة نظام إقليمي جديد.^(١٢)

٢- الانتفاضة الفلسطينية التي مثلت تحولاً نوعياً في الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي حيث نقلت الصراع من خارج الأراضي المحتلة - وهو الشكل الذي كان سائداً عندما كانت منظمة التحرير الفلسطينية تلبوا سيطرة هذا الصراع من خارج الأراضي المحتلة - إلى موقعه الطبيعي بوصفه صراعاً داخل حدود فلسطين التاريخية بين احتلال وشعب محتل يناضل من أجل حقه في تقرير مصيره كشعب الأرض الأخرى، هذا النقل للصراع إلى داخل الأراضي الفلسطينية مثل تحدياً جديداً وغير تقليدي لإسرائيل.

تلقت صمغلة إسرائيل في إطار الصراع العربي - الإسرائيلي والصراع الفلسطيني - الإسرائيلي على توظيف أنها العسكرية في حسم الصراع، وكانت هذه الوسيلة فعالة عندما كان الخطر يأتي من الخارج، وكان آخر استخدام لهذه الآلة قد تم توظيفه في اجتياح لبنان عام ١٩٨٢، في العملية الإسرائيلية التي أطلق عليها اسم «سلامة الجليل»، وأدت إلى خروج منظمة التحرير من لبنان.

مع حرب ١٩٨٢ تم إضمارف منظمة التحرير حيث أطففتها مركز ثقافتها خارج الأراضي المحتلة، ولذلك تراجع الاهتمام بالقضية الفلسطينية، التي أعادت الانتفاضة الفلسطينية في نهاية العام ١٩٨٧ الاهتمام بها.

بانفجار الانتفاضة الفلسطينية تم تعييد موقع القوة في إسرائيل وهو مؤسستها العسكرية، التي لا يمكن استخدامها في حالة الانفجار الشعبي وهو ما جرى في الأراضي المحتلة. وبذلك تم تحويل الجيش الإسرائيلي إلى قوات شرطة مما ولد الإحباط داخل وحدات هذا الجيش. وقد حاول إسحاق رابين عندما كان يشغل منصب وزير الدفاع القضاء على الانتفاضة من خلال القمع العنيف، فاتبع سياسة «تكسير العظام» ضد الفلسطينيين، واستمرار الانتفاضة أكد عدم جدوى هذه السياسة، مما أوصل رابين نفسه إلى فتاعة بأن لا حل عسكرياً للانتفاضة، وإن الحل هو سياسي». وهذه وقت ميكر عمل الإسرائيليون على إنتاج حل سياسي دون تقديم أي تنازلات على قاعدة أن الطوبخ بالحل السياسي يعمل على تهدئة الأوضاع في الأراضي المحتلة، وتطمض هذا التوجه الإسرائيلي عما عرفت في العام ١٩٨٩ بـ «مبادرة شامير» التي انطلقت منها ثلثاً بعد كل المبادرات السياسية بما فيها مبادرة الرئيس الأمريكي جورج بوش التي تقول بمعادلة «الأرض مقابل السلام».

لقد فضحت الانتفاضة بوضوح الواقع الاحتلالي الإسرائيلي في الأراضي المحتلة. فهناك دولة تحتل شعباً آخر يرفض بكل الوسائل هذا الاحتلال. معاً طرح التساؤلات في الرأي العام العالمي حول ديمقراطية دولة إسرائيل التي يدعيها الإسرائيليون. استطاعت الأعمال الاحتجاجية للانتفاضة من إعادة وضع القضية الفلسطينية في دائرة الضوء مرة أخرى. وقد كتب الكاتب الإسرائيلي زان كسليف عن إنجازات الانتفاضة الفلسطينية: «لقد نجحوا في إخراج المشكلة الفلسطينية في جدول الأعمال الدولي». ولقد دفعوا الإدارة الأمريكية إلى التدخل تدخلاً فعلياً فيما يجري في المنطقة، ولا سيما في المناطق. ولقد جلبوا في نهاية المطاف حكومة الليكود إلى طاولة المفاوضات رغماً عنها. ومن الممكن أيضاً أن يكونوا ساهموا في سقوط حكومة اليمين، من هذه اللواحي كافة. هناك مجال للادعاء أن الميزان، في ختام أعوام الانتفاضة الخمسة، مائل بصورة واضحة إلى مصلحة الجانب الفلسطيني، وحتى ولو كانوا لا ينظرون إلى أنفسهم بهذا المنظار، فإنه لصحيح حتى الساعة، أنهم هم المنتصرون»¹⁴².

كانت حصيلة للتغيرات السابقة وضع المنطقة القارية في وضع ومرحلة جديدين، جعلاً ما كان مستبعداً سابقاً قابلاً للتحقيق، فقد عمل كل من انهيار الاتحاد السوفيتي وحرب الخليج على ترويض الوضع العربي. وقد كانت هذه التغيرات حاسمة بنتائجها الملموسة على المنطقة، حتى أنها عملت على تآكل الآثار الإيجابية التي أقرتها الانتفاضة الفلسطينية. فصورة المنطقة بعد التغيرات اختلفت عنها قبلها، وكان العنوان الرئيس لهذا التغير في الصورة جلوس الدول العربية وإسرائيل على طاولة المفاوضات وانطلاق عملية التسوية.

ثانياً: أطراف المفاوضات

يتناظر التغيرات السابقة ولد اتجاه عام في المنطقة والعالم على رأسه الولايات المتحدة، يسعى إلى تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي من خلال المفاوضات. وأصبح تقديم مبادرات من القطب الذي خرج منتصراً من الحرب الباردة ضرورياً للعمل. لإعادة هيكلة النظام الدولي تستدعي إعادة ترتيب أوضاع المنطقة لأهميتها الاستراتيجية لصالح الولايات المتحدة. وفي إطار هذا الترتيب، كان يجب البحث عن حلول لمشكلة الصراع العربي - الإسرائيلي، فكانت مبادرة الرئيس الأمريكي جورج بوش التي تقول «بمبادلة الأرض بالسلام»، والتي اتفقت على أساسها مؤتمر مدريد وثيقة مفاوضات مباشرة بين أطراف الصراع، وتوافق مع المفاوضات المباشرة مفاوضات متعددة الأطراف.

منذ التمهيد لمؤتمر مدريد عملت الإدارة الأمريكية على أن تملك المفاوضات أيتها الذاتية عند بدئها، بحيث يصبح من الصعب خروج أي من أطرافها منها، وهذا ما كان يؤكد وزير

العملية

الخارجية الأمريكية جيمس بيكر أثناء التحضير للمفاوضات، والآن على الرغم من كل التعطيل الذي قامت به حكومة نتنياهو في المفاوضات السلمية، وكل الأزمات التي عانت منها المفاوضات النهائية مع الفلسطينيين، والأزمات على المسار السوري في زمن باراك، نجد أن لا أحد من أطراف العملية يستطيع أن يعلن خروجه منها، لذلك يبدو واضحا، أن مسيرة التفاوض مستمر، وإن توقف قبل أن تصل إلى نتائج ما، مهما بلغت عملية التعطيل، ومهما كانت أزماتها صعبة.

انطلقت الجهود الأمريكية لإقامة التسوية في المنطقة من حقيقة أن أطراف الصراع العربي - الإسرائيلي مهياة أكثر من أي وقت مضى لعقد اتفاقيات تسوية بعد التحولات شهدتها العالم. ومن جهتها اختارت الأطراف العربية دخول المفاوضات على قاعدة المبادأة الأمريكية. على اعتبار أن ما يتمخض عن عملية التفاوض سيشكل السلام العادل والشامل، ومنطلقة من أن الاعتراف الإسرائيلي والاستجابة للعقول العربية كما نصت عليها الشرعية الدولية، هو ما ينزع الضليل المتفجر للصراع ويعمم السلام الشامل على المنطقة، في وقت تطلق النظرة الإسرائيلية للسلام من موقف مختلف، فالسلام العادل والشامل من وجهة النظر الإسرائيلية، هو السلام الذي يتوصل إليه الأطراف بصرف النظر عن الاستجابة للمطالب العربية أو للشرعية الدولية، فالوضع الذي ينشئ عليه الأطراف كيمبل الوضع الصراع القائم، هو السلام العادل والشامل. فالسلام الذي طالما دعا إليه الإسرائيليون كان مرادفاً لتسوية مشكلات الوضع الراهن، وليس منافئة لجذور الصراع لإتقانه.

انطلقت التسوية من مؤتمّر مدريد في ظل وجود حكومة إسحاق شامير اليمينية في السلطة في إسرائيل - والتي صاغت سياستها على أساس تعطيل العملية دون الانسحاب منها، أي الاستمرار في المفاوضات من أجل المفاوضات، وهذا ما أكدته شامير بعد مغادرة السلطة، بقوله إنه كان يسعى لأن تستمر المفاوضات عشر سنوات دون أن تحقق نتائج، بذلك دأبت المفاوضات التالية في واشنطن في دائرة مفرغة في ظل حكومة شامير.

مع وصول حكومة إسحاق رابين العمالية إلى السلطة في إسرائيل، شهدت المفاوضات انتراجات مفاجئة، هير قنات أوسلو السرية التي تم التوصل من خلالها إلى الاتفاقيات الإسرائيلية مع منظمة التحرير التي عرفت فيما بعد باسم اتفاقات أوسلو والتي تم التوقيع عليها في واشنطن 1993، وتبعتها الاتفاقيات مع الأردن 1994.

ولدت هذه الاتفاقيات حالة من النشاط بحلول السلام، أطلقت زحما واسعا خاصة على الصعيد الاقتصادي بإطلاق «القمة الاقتصادية لدول الشرق الأوسط، وشمال إفريقيا» التي عقدت في الدار البيضاء وشهدت احتفالا واسعا بإسرائيل من قبل العرب.

إن الاتفاقيات الفلسطينية الإسرائيلية قسّمت الحل على المسار الفلسطيني إلى مرحلتين: الأولى تتعلق بقضايا المرحلة الانتقالية والتي تشمل إدارة شؤون الفلسطينيين وتشكيل قوات

شرطة وإقامة مجلس تشريعي... إلخ. والثانية مفاوضات الحل النهائي التي كان من المفترض أن تبدأ بتنفيذها بعد خمس سنوات من تطبيق المرحلة الانتقالية. والتي تشمل القضايا الأكثر تعقيدا وتصيغ الشكل النهائي للحل على المسار الفلسطيني، وتشمل قضايا سيادة والاستيطان والقدس والأجئين وشكل الكيان الفلسطيني... إلخ.

إن الانسراج الذي تحقق في زمن حكومة إسحاق رابين كان على حساب الفدرالات الفلسطينية التي قدمتها منظمة التحرير في إطار المفاوضات مع حكومة رابين. مما أسفر عن اتفاقات أقل ما يقال عنها أنها كانت مجحفة بحق الفلسطينيين. فقد جعلت إسرائيل التحكم بكل الوضع الفلسطيني من خلال ربحته بإسرائيل كهدية خفية. ومن المقارفات التاريخية في الاتفاقات الفلسطينية - الإسرائيلية هي أنها الوحيدة التي شهدتها تاريخ الاتفاقات في العالم من أنه يتم التوقيع على اتفاقات قبل الوصول إلى حلول للقضايا المطروحة على المفاوضات. أي ببساطة أن الفلسطينيين دفعوا قبل أن يبدأوا المفاوضات الجديدة.

عانت المفاوضات مع حكومة رابين من العديد من العقبات. ولكن ظهورها بمظهر حكومة سلام جعلها في موقع التسامح من قبل الوضع المؤقت والعربي أيضا. إن العديد من المشكلات التي تعاني منها المفاوضات مع حكومة نتنياهو هي مشكلات مزحلة من حكومة حزب العمل. وعلى رأسها مشكلة إعادة انتخاب الجيش الإسرائيلي في الضفة الغربية و 21 استحقاقا آخر مثل مطار غزة والمعبور بين الضفة وغزة وغيرها من الاستحقاقات. وكان رابين يتذرع بعدم التنفيذ تحت عنوان أنه «ليس هناك مواعيد مقدسة».

ولم يقتصر التفاوض بالحل على المسار الفلسطيني. بل شمل المسار السوري أيضا والذي أحرز تقدما. كان أساسه تعهد رابين في إطار المفاوضات السورية - الإسرائيلية التي جرت في الولايات المتحدة الانسحاب إلى حدود الرابع من حزيران^(١٢).

أدى الاحتلال رابين في نهاية العام ١٩٩٥ إلى أحداث انقلاب سياسي في إسرائيل بعودة الليكود إلى السلطة تحت شعارات «الأمن» وبهذا التحول أثبت المجتمع الإسرائيلي عدم الرغبة في إنجاز التسوية.

كان بنيامين نتانياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي يعتقد أن الهاجس الأمني الذي أطلقه في حملته الانتخابية هو الذي أوصله إلى السلطة في إسرائيل. لذلك عليه المحافظة على وعوده الانتخابية. والعمل على تحويل الخطاب الأيديولوجي الأمني إلى برنامج عمل سياسي للحكومة الإسرائيلية. من أجل بناء إسرائيل المنهضة أمثيا. ولم يحد نتانياهو عن هذا الخطاب السياسي حتى عندما حاول أن يكون «داعية سلام».

نتانياهو لم يتعامل مع اتفاقيات أوسلو بصفتها اتفاقات تقدم عملية السلام. إنما اعتبرها «أمرا واقعا» لم تست لها أهمية في حد ذاتها. ف«المكعب الرئيسي» من هذه الاتفاقات هو

الفرق أو شبه

السلام مع الأردن . وهي - اتفاقات أوسلو - سمحت لنا بتحسين علاقاتنا مع الدول العربية وجذب اهتمام المستثمرين الأجانب إلى إسرائيل، وهو ما يمكن التعامل تكليهو بخفة مع الاتفاقات الإسرائيلية - الفلسطينية، وهذه الاتفاقات هي التي تقود سياسة حكومة اليكود التي تطالب الطرف الفلسطيني بإعادة التفاوض على العديد من القضايا وإلزام السلطة الفلسطينية بحماية أمن إسرائيل من خلال دفع المعارضة الفلسطينية.

وإعادة التفاوض جزئية من جزئيات كثيرة تتشابهك التطويق التفائق أوسلو، ويضاف إلى ما سبق فتح حكومة اليكود ومن بعدها حكومة باراك الحملة استيطانية جديدة في الأراضي المحتلة والقدس مرة بعد الأخرى. تسعى من خلالها الحكومة الإسرائيلية إلى فرض وقائع على الأرض دون الاستجابة إلى كل الاحتجاجات على استمرار الاستيطان.

إن استمرار السعي لفرض كل الاشتراطات السابقة حزمة واحدة على المفاوضات، هو مؤشر مهم على الأداء التفاوضي الإسرائيلي بما يتعلق بقضايا الوضع النهائي، التي تقع جميعها ضمن الخطوط الحمراء لحكومة اليكود. والتي اعتمدها أيضا حكومة باراك بأسلوب آخر، مما يعني إلغاء هذه المفاوضات قبل بدئها، وترحيل القضايا العالقة من المرحلة الانتقالية وتقديمها كتشكلات في إطار الحل النهائي. محاولا إظهار السلطة الفلسطينية كمعطل لعملية السلام إلا أنه يستجيب للشروط الإسرائيلية التي تفرضها حكومته، وهي هذه الحالة فإن إسرائيل ترى نفسها غير ملزمة إلا بما تم الاتفاق عليه. وهي حالتين فإن ذلك يعني إغلاق المفاوضات على المسار الفلسطيني.

ثالثا : مستقبل التسوية

إن استخدام عبارة السلام العادل والشامل فيه الكثير من الخطورة، وهو الهدف الذي تطرحه الأطراف المشاركة في المفاوضات سواء الأطراف العربية أو الطرف الإسرائيلي، أو الدول الكبرى - وتحديدًا الولايات المتحدة - الضامنة لإتمام عملية التسوية. والخطورة تكمن في أن كل الأطراف فزرت أن مصادر الصراع التاريخية ليست موضوع تفاوض. بمعنى آخر، فزرت الأطراف أن نقطة اندلاع الصراع قد نقلت من مكانها وزمانها إلى مكان وزمان آخر. حيث تظهر المفاوضات باعتبارها تنازعا على أرض تم احتلالها في العام 1967. فاعطاف الصراع في الشرق الأوسط قد انقضت على إعادة تعريف الصراع. وإعادة صياغة أهداف الأطراف بحيث تكون منقطعة الصلة بأي مصدر من مصادر الصراع الأصلي. إن اقتناع الأطراف بأن السلام العادل والشامل يتحقق على أساس أهداف فورية من الصراع، يعني أن هذه الأطراف قد اغفلت نسبية الأمر الواقع كبديل عن إنهاء الصراع، بذلك أن ينتهي الجدل في شأن مصادر الصراع، وبالتالي لن ينتهي الجدل في شأن عدالة تصويات الأمر الواقع وتعميلاتها.⁽¹⁷⁾

إن الجدل حول مصادر الصراع، لا يعني عدم إمكانية إنجاز التسوية العربية - الإسرائيلية، ولكنه يعني تحولا في أشكال الصراع، فالتسوية نفسها تتضمن حالة صراعية، لأن «السلام الكامل الذي تتقدم فيه الخلافات والتناقضات بين الدول أمر مستحيل وهو مجرد وهم، على حد تعبير ريتشارد فوكنسون، مما يعني أن التسوية العربية الإسرائيلية ستقتل الصراع العربي - الإسرائيلي من مستوى الحرب إلى مستويات أخرى، ويتم إدارته بوصفه صراعا غير مشعل».

لهذه الاعتبارات تحاول إسرائيل تطوير الحل العربي - الإسرائيلي بمجموعة واسعة من الاشتراطات التي تضمن لإسرائيل منافع أكبر بكثير من التنازلات التي تقدمها في إطار إنجاز هذه التسوية. وحتى في الحالات التي تعتبر أكثر مرونة في إسرائيل، فشمعون بيريز يعتقد أن بالإمكان التوصل إلى اتفاق حول إطار كوفنديلي أو إطار سياسي آخر يشمل على تجريد الضفة الغربية وغزة من السلاح. لأن الاعتبار الأول يجب أن يكون متطلبات إسرائيل الأمنية، ويعتقد أيضا أن للسلام ترجماته الإقليمية التي يجب ضمان الأمن في كل انتشار مهما كان، حتى إذا لم تتعهد إسرائيل بالمعابر القبلية للتسوية النائمة مع الفلسطينيين، فخرطة بيريز تحتوي ثلاثة خطوط: خط أمني، يفرض أن جيشها يجب أن يهزأ نهر الأردن، خط سياسي يحدد تقسيمها متفقا عليه للمناطق المتنازع عليها (الأراضي المحتلة) وخط اقتصادي يتيح إقامة هيكلية اقتصادية تضم الأردن وإسرائيل والفلسطينيين، في أمر تجارة مشتركة ومناطق صناعية مشتركة، ويقضي على إسرائيل أن تظل حصة المثلث القائل إن كل ما هو جيد لتحسين الوضع الاقتصادي للمنطقة هو بالتالي جيد للسلام، ولذلك فإنه جيد لإسرائيل.⁽¹⁾

يسود واضحا من السياسة الإسرائيلية بشقيها اليميني واليساري، أن العمل على تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي يقوم أساسا على تدعيم ليس وجود إسرائيل في المنطقة فحسب، بل تدعيم نفوذها، ونقله من المجال العسكري إلى المجالات الأخرى السياسية، والاقتصادية، وتدعيم دور إسرائيل في المنطقة كلاعب مركزي لا يمكن التغلّب عنه.

إن تدعيم هذا الوضع الإسرائيلي يحتاج إلى مجموعة من الإجراءات التي تتجاوز الانطلاقات السياسية، لتحمي هذه الاتفاقات وتضفي نوعا من الاستقرار في المنطقة، وثاني الترتيبات الاقتصادية المطروحة على المنطقة في هذا الإطار لتضمن الاتفاقات السياسية ولتدعم الاستقرار، وهي ما سيترتب عليها عمليات واسعة لإعادة هيكلة التشابكات الاقتصادية في المنطقة بدمج الاقتصاد الإسرائيلي فيها، بذلك تشابك المصالح الاقتصادية لمنع عودة الصراع إلى شكله السابق. وهذا الدمج لإسرائيل في المنطقة يعمل على نصيحة البنك الدولي التي تقول: إن خلق مصالح اقتصادية متبادلة بين الأطراف الداخلية في أي تحالف يمكن أن يؤدي في مرحلة لاحقة إلى تسهيل التوصل إلى حل سياسي، ضمن ما يسعى إجراءات بناء الثقة، فتدعيم التعاون الإقليمي بشكل عنصر أساسي في التنمية، إذ يؤدي إلى تخفيف

الشرق الأوسط

التوترات المستائدة، وهو ما يتيح لدول المنطقة توجيه مواردها نحو التنمية وتطوير البنية التحتية الاقتصادية.^(٢٢) لذلك لم يتم انتظار انتهاء عملية التسوية لإقامة الروابط التي تعمل على إدماج إسرائيل في المنطقة، فإلى جانب المفاوضات المتعددة الأطراف، تم عقد القسم والمؤتمرات الاقتصادية لدول المنطقة في كل من الدار البيضاء وعمان والقاهرة والدوحة. فتحت عملية التسوية الطريق أمام إعادة هيكلة المنطقة سياسيا واقتصاديا متجاوزة الصورة التي كانت عليها في الماضي، وعلى الرغم من أن البعض يعتبر أن المرحلة الراهنة مرحلة مضطربة تختلط فيها سمات الاستمرار في عملية التسوية، وأيضا سمات محاولة التراجع عنها، وسمية تسميتها بمرحلة سلام مستقرة، واعتبارها مرحلة انتقالية إلا أن هذه المرحلة تصنف بالسمات التالية:

- إبرام مجموعة من اتفاقات سلام بين إسرائيل والدول العربية.
- إنه في إطار مرجعية مؤتمر موسكو تم تدشين المفاوضات متعددة الأطراف في مجالات الأمن الإقليمي والتنمية الاقتصادية والتعاون الإقليمي والمياه والبيئة والأجئين.
- مبادرة المنتدى الاقتصادي بدافوس لعقد مؤتمر القمة الاقتصادية لدول الشرق الأوسط شمال أفريقيا في الدار البيضاء ١٩٩١، وعُقد ١٩٩٥، ومؤتمر القاهرة للتعاون الاقتصادي ١٩٩٦.^(٢٣) ومؤتمر الدوحة الاقتصادي ١٩٩٧، وغيرها من المؤتمرات.
- إن السمات السابقة تعطي صورة عن فترة التحركين الاقتصادية على إيقاعها حية على الرغم من كل الوهن والتعطيل الذي أصابها، فالانحياز الأمريكي لإسرائيل يعمل على إبقاء العملية قائمة بصرف النظر عن التقدم فيها، مع حماية السياسات الإسرائيلية التي تعطل العملية، وما دفاع إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش عن إسرائيل بوجه أي إدانة لإسرائيل عن انتهاكات حقوق الإنسان في الأراضي المحتلة، إلا أمر يكشف عمق التحالف اليهودي بين الولايات المتحدة وإسرائيل وقوته، ذلك التحالف الذي يمثل صلة لا تفرط بها الولايات المتحدة من أجل حماية الفلسطينيين.^(٢٤) ولم يخالف الأداء الأمريكي في زمن ولاية كلينتون، بل زاد الانحياز الأمريكي لإسرائيل، وجاءت إدارة كلينتون إلى السلطة بولاية واضحة، حسب استراتيجيته «الأمن القومي» الأمريكي تقول: «احصل على تسوية للصراع الإسرائيلي الفلسطيني» أما بلود هذه التسوية فهي من الأمور العرضية، طالما كانت التسوية تتنمى بشيء من الديمومة، وطالما أنها ستعتمد فرض امتصاص الصدمات السياسية في حال وقوع أزمة كبرى تتطلب تدخل عسكريا أمريكيا في المنطقة.^(٢٥)

هذا الانحياز الأمريكي لإسرائيل يعمل باتجاه إنجاز تسوية مثقفة للعرب بصفتهم الطرف الذي عليه دفع ثمن عملية السلام، ومن هنا يعارض الضغط الأمريكي على الطرف العربي في الوقت الذي تتم فيه حماية الطرف الإسرائيلي، بذلك يتم إنجاز التسوية على قاعدة الاختلال

في ميزان القوى القائم في المنطقة، بحيث يجني الطرف الأقوى ثمار التسوية بشكل لا يمكن مقارنتها بالتكاسب التي يجنيها الطرف الأضعف.

فالاتفاقات التي يتم التوصل إليها في هذه الشروط، تحمل تناقضاتها، مما يدل على خطأ الاعتقاد بأن مجرد توقيع اتفاقات تسوية مع إسرائيل يؤدي إلى نصفية الشافض بينها وبين العرب، واستمرار إسرائيل بالتمتع باحتيازات استثنائية في النظام الدولي بفضل تحالفها الخاص مع الولايات المتحدة، بينما مصدر خطر على استقرار المنطقة.

وفي هذه الشروط المجحفة التي صيغت على أساسها عملية التسوية، تحتاج من العرب جهوداً إضافية خارج إطار المفاوضات، لأن الاشتراك في المفاوضات، لا يعني، ولا يجب أن يعني التزام النظم الداخلي من النشاط الدولي خارج السيرة التقليدية، بل على العكس، فإن تحسين شروط الناتج النهائي لهذه السيرة، مشروط بالعمل الجاد خارج قاعدة التفاوض، وبالتالي بتحسين علاقات الأطراف المتفاوضة بالأقطاب الدولية المحتملة، وبالقوى العالمية المتوقعة.⁽¹³³⁾

فالآداء التفاوضي العربي داخل العملية السلمية وخارجها، هو الذي سيحدد مواقع الدول في المنطقة، وهل ستحتفظ المنطقة العربية بمركزها المتميزة، أم أن إسرائيل ستحاول تجميع كل المعيزات الإقليمية عندما في مركز متميز وحيداً لأن كل الثورات التي تشهدها المنطقة ستشهد إعادة انتشار بين مراكز النظم التقليدية فيها، وأن المستقبل يشهد خريطة جديدة لهذه المراكز.⁽¹³⁴⁾ إن أطراف المفاوضات بما فيها الراعي الأمريكي ليسوا بعملية التسوية، وليس من الاحتمالات الواقعية، لا للعرب، ولا لإسرائيل، توفير لعبة أخرى في الشرق الأوسط، لأن ارتفاع وتيرة العنف في المنطقة سيكون البديل عن الصالة القائمة. ثم إن الراعي الأمريكي الذي قد يشكله في أولوية الشرق الأوسط، على غيره من الهموم العالمية المتكاثرة، يعلم تماماً أن فشل المعهورة سيؤثر بصورة هائلة على نفوذه وهي هيبة في العالم، لذلك فأمريكا هي الأخرى أصبحت أسيرة السيرة المعملية بقدر ما الأطراف المتفاوضة هي أسيرة العملية أيضاً.⁽¹³⁵⁾

إن تسوية شاملة وقابلة للحياة من دون أزمات تدفع إلى انفجارها، تحتاج إلى مجموعة من الشروط لم تتوفر إلى الآن في عملية التسوية القائمة، على الرغم من امتلاكها لكل مقومات الاستمرار المفروضة من خارج أطراف الصراع. ونحتاج هذه العملية إلى:

• امتناع أطراف الصراع عن القيام بأعمال عسكرية جديدة، واقتناعها بأن الحرب لن تأتي بتكاسب تستحق تكلفة الحرب النباشرة المادية أو البشرية.⁽¹³⁶⁾

• فك الارتباط بين عملية التسوية وميزان القوى في المنطقة، لأن إنتاج تسوية تعكس هذا الميزان يعني إنتاج تسوية غير متوازنة تعمل عوامل تفجيرها بسبب الاختلال في ميزان القوى، مما يفرض على أطراف العملية خاصة الجانب الإسرائيلي دفع الثمن الحقيقي لعملية التسوية التي يسعى للتمتع بشمارها.

• اعتدال التوازي الأمريكي والعمل في إطار سياسة متوازنة بين أطراف الصراع، والكف عن التحيز إلى الجانب الإسرائيلي. لأن وجود الولايات المتحدة كقطب وحيد في العالم سيكون الضامن لعملية التسوية، وإنتاج تسوية أكثر توازناً لصالح التسوية التالية للاستمرار، ولعالي من أزمات أقل خطورة من التسويات غير المتوازنة.

• تصفية الجوانب المتعددة للصراع العربي - الإسرائيلي، فالإبقاء على مشكلات متفجرة في إطار إنجاز التسوية، يحافظ على عوامل التفجير من جديد للصراع، لذلك لا يمكن تجاهل قضايا خطيرة والعمل على فرضها من طرف واحد، كقضايا القدس واللاجئين والمستوطنات. وبحكم الآليات المختلة التي أطلقتها التسوية، فإن الالتزام بالشروط السابقة لتحقيق تسوية متوازنة يبدو أمراً مستحيلاً. لذلك فإن الاحتمالات أمام مستقبل التسوية تنطلق من الآليات القائمة وهي تتفاوت حسب العوامل التي ستؤثر في اتجاهاتها.

• الاحتمال الأول: بقاء الوضع الراهن على حاله، بعدم تقدم التسوية وعدم إعلان موثها، ويعمل هذا الوضع على طعنة السياسات الإسرائيلية القائمة على تعطيل التسوية لكسب الوقت، يجعل هذه العملية تمتد إلى أطول فترة ممكنة، إذا لم تستجب للشروط الإسرائيلية، والعمل خلال هذا الزمن على تدعيم **الوقائع الإسرائيلية** في إطار التسوية، لإنجاز تسوية تعالي مزيداً من اختلال التوازن، وبذلك تدور العملية التفاوضية حول نفسها لتعيد مرة أخرى إنتاج الوضع الراهن.

• الاحتمال الثاني: التآكل البطيء لعملية التسوية، وذلك حين ينتج تطبيق السياسات من طرف واحد انقراض التسوية سرعتها وفمايتها، على الرغم من تكرار الكلام عن التمسك بعملية السلام، فتتآكل العملية ببطء وتدور في دوائر مفرغة مع بقاء الصورة العامة لعملية السلام قائمة، ويتم العمل على تعطيل التراجعات في العملية عن طريق التطمينات الكلامية الفاضلة، حتى لا يحصل رد فعل عربي يؤثر سلباً على عملية المفاوضات، ولكن مسلسل التآكل قد يأخذ شكلاً متفجعاً سريع التحرك يؤدي إلى انفجارات سياسية تؤدي بعملية السلام وتحولها إلى أشلاء مفككة تزيد من إمكانيات العنف والعنف المضاد⁽³⁾.

• الاحتمال الثالث: التخدم البطيء في التسوية في القضايا الجزئية، على الرغم من استحقاق قضايا الحل النهائي. بذلك يتم تجنب القضايا المتفجرة مثل القدس واللاجئين، والحفاظ على التسوية من خلال جرعات الحلول الجزئية، بذلك تسير العملية السلمية وفق الرغبات الإسرائيلية. بذلك يكون على العرب دفع ثمن العملية السلمية والرضا بأقل من الحد الأدنى للمطالب العربية.

إن الاحتمال الأكبر هو استمرار التسوية حتى تصل نهايتها، بصرف النظر عن طبيعة هذه النهاية، لأن الخيارات الأخرى تكاد معدومة أمام الأطراف العربية.

ثانياً: التصورات المختلفة لمستقبل المنطقة

وهي إطار التسوية هناك تصورات للمنطقة تسمى الأطراف ذات المصالح لإخراج هذه التصورات إلى حيز الواقع. ومن هنا تتقاطع التصورات والسياسات بين أصحاب المصالح المتقاطعة. وتشكل عملية

السلام مدخلا لإعادة ترتيب المنطقة. وتسمى كل الأطراف ليكون هذا الترتيب لمصلحتها.

إن مصالح الأطراف هي التي تحدد تصوراتها لمستقبل المنطقة وأوضاعها. فمصالح الولايات المتحدة في المنطقة تدفعها للعمل على إنتاج وضع مستقر يضمن لها هذه المصالح. فالمنطقة كموقع استراتيجي لمناخ النفط وضمان تدفقه. دفع الولايات المتحدة إلى إعادة النظر في الصراع العربي - الإسرائيلي بعد غياب التهديد الشيوعي. مع فتح الطريق أمام التحرك الأمريكي لتسوية هذا الصراع. ولذبت الاستراتيجية الأمريكية على محور قطبيه، أمن إسرائيل - والأعداء المزيج في الخليج.

إن تصدر الولايات المتحدة كقطب وحيد في العالم له المصالح الكبرى في المنطقة جعل الولايات المتحدة تطلق تصوراتها الأكثر قابلية للتطبيق بصرف النظر عن صلاحيتها للمنطقة. كما أن إسرائيل صاحبة مصلحة بإعادة ترتيب المنطقة وفقا للتصورات الإسرائيلية. فقد كانت تشغل موقعا استراتيجيا كما هو الحال من فضاءات مواجهة الاقتصاد الصهيوني. من هذا جاء التصور الإسرائيلي لبعيد إنتاج دور استراتيجي في المنطقة من خلال إدماجها في المنطقة بدور متفوق. يصوغ شبكة من العلاقات والمصالح تفرض نمطا من العلاقة من الصعب الفكك منها في ظل التشابكات المتوقعة إنجازها من خلال عملية التسوية. سواء عبر المفاوضات الثنائية أو عبر المفاوضات المتعددة الأطراف. أو عبر الشروعات الاقتصادية الجماعية التي طرحت على القمم الاقتصادية التي عقدت في المنطقة.

أما التصور الأوروبي فهو يسعى للاستفادة من التغيرات الحاصلة في المنطقة من خلال طرح مشروعه بالشراكة الأوروبية - المتوسطية. ودا على التجمعات الاقتصادية التي ظهرت في أنحاء العالم. ولكن هذه الصيغة تعمل على تقسيم الدول العربية إلى متوسطة وغير متوسطة.

التصور الرئيسي الخائب والذي له مصلحة حيوية في رسم صورة المنطقة على شاكلة محددة. هو التصور العربي. فعلى الرغم من التصورات الكثيرة التي تستهدف المنطقة وبشكل رئيسي الدول العربية. إلا أن الدول العربية لم تستطع خلال السنوات الماضية ومنذ بدء الثغيرات من إيجاد حد أدنى من التصورات لصورة المنطقة المستقبلية التي تحقق المصالح العربية. لذلك تجد الدول العربية تتعامل مع تصورات الآخرين المطروحة. دون أن يكون لها تصوراتها التي تهدف إلى تحليلها، والعمل على إيجاد وضع يخدم استراتيجية عربية موحدة.

التصور الأمريكي

يسيطر على الفكر الاستراتيجي الأمريكي بعد خروج الولايات المتحدة منتصرة في الحرب الباردة نزعة الأولوية للمصالح الأمريكية في كل بقاع العالم، بحيث يعتبر العالم كله مهادنا وحقا للمصالح الأمريكية. وينطلق التصور الأمريكي لاستغلال المنطقة من هذه النزعة التي تعمل على حماية المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية. وتشغل منطقة الخليج العربي كمصلحة حيوية عظيمة للولايات المتحدة لا يختلف عليها اثنان، فهي تشكل جسرا بين أوروبا وآسيا وأفريقيا. وتهمجن على أكبر احتياطي نفطي في العالم، كما تمتلك المنطقة العربية أهم نقاط المرور في العالم، فها السويس ومضيق هرمز.^(٣١) هذه الميزات تشكل خلفية السعي الأمريكي الذي استمر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية للحصول على قواعد عسكرية ومناطق قدم استراتيجية، وعلى حلفاء وأسدقاء في منطقة الشرق الأوسط. وفي السنوات الأخيرة سلمت واشنطن بأنه إذا أرادت الحفاظ على مصالحها في المنطقة، فإن على أمريكا أن تقوم بذلك بنفسها.

لقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب الباردة بقلوة عسكرية هائلة، لم استثمارها في حرب الخليج لحسم القوارق بينها وبين غيرها من دول العالم، وكانت نتائج حرب الخليج قد وضعت الولايات المتحدة باعتبارها القوة الوحيدة المهيمنة في العالم، وذلك دور استثنائي في أمن المنطقة.

فالاستراتيجية الأمريكية في المنطقة تتحدد بالثقل الإسرائيلي وحسب نيكسون «إن أكثر ما يهمنا في الشرق الأوسط هو البترول وإسرائيل، وأن هاتين الدولتين لا يسهران دائما في اتجاه واحد».^(٣٢) لذلك فإن التزام الولايات المتحدة بإسرائيل التزام استراتيجي لتدعيم موقعها في المنطقة فعلى «الولايات المتحدة أن تتخذ من الإجراءات ما هو كافي بأن يؤمن السلام لإسرائيل، على الرغم من استرداد العرب لأرضهم التي احتلها، وأن تدار إسرائيل عن الأرض لا يعني تنازلها عن الأمن والسلام».^(٣٣)

أصبحت المصالح الأمريكية في المنطقة محمية ببراء التهديدات الأخيرة، فالوجود العسكري الأمريكي في المنطقة يحافظ على هذه المصالح. ومن ذلك على طبيعة نظام ميزان القوى في منطقة الشرق الأوسط. وفشل والشلطن السابق في أن تدبره بكفاءة، بينما أن الأمر بعيد عن الاستقرار. والمصلحة القومية ستتعلق على أفضل وجه إذا استغلت الولايات المتحدة الظروف القوية على نحو فريد في الشرق الأوسط لتعيد تشكيل هيكل نظام الأمن».^(٣٤)

إن نجاح سياسة الولايات المتحدة تجاه توازن القوة قصير الأجل، سيكون عرضة لاهتزاز، ما لم يبرزه جهد أكبر يطمح إلى إعادة تشكيل النظام القائم في الشرق الأوسط، والولايات المتحدة حاليا في وضع ملائم يمكنها من استغلالها هيئتها لتحقيق هدف أسعي، فالقوى

الإقليمية تعترف حالياً بالولايات المتحدة باعتبارها القوة ذات الكفة الراجعة وتسعى للانتماس رضاها. لقد تسعت قوة أسدقائنا في المنطقة بفضل الذبحة التي ألتهلها الحرب - حرب الخليج - في حين جرى إضعاف أعدائنا.^(٣١)

إن كل الظروف في المنطقة تبدو مواتية للولايات المتحدة من أجل إعادة صياغة المنطقة وفق توجهاتها، وهي تعمل على الحفاظ على توازن القوة في المنطقة بحيث يضمن مصالحها الاستراتيجية، من خلال دعم قوة أصدقاء أمريكا في المنطقة وإضعاف أعدائها باحتوائهم، ويقوم توازن القوة من وجهة النظر الأمريكية، على قاعدة عدم السماح لأي دولة من دول المنطقة أن تهيمن على هذا التوازن، بحيث تبقى الولايات المتحدة الدولة الضامنة لهذا التوازن من خارج المنطقة.

وعلى هذه القاعدة كانت أطروحة «الاحتواء المزدوج» في الخليج، وهي تعبر عن التحول في السياسة الأمريكية في المنطقة وروايتها لأوضاعها. فالولايات المتحدة لم تعد بحاجة إلى دعم قوة إيران على حساب العراق، فقد حصلت كل من حربي الخليج الأولى والثانية على إضعاف كل من العراق وإيران وتحديد إمكاناتهما العسكرية، فلو أن بقي ذلك عدم قدرة هاتين الدولتين على العودة لتهديد أمن الخليج، فهما تعلقان الثروات الضخمة لإنجاز مثل هذه المهمة، وبالتالي سيتحتم على أمريكا أن تتولى مسؤولية ضمان أمن الخليج بثوتها العسكرية.^(٣٢)

إن الالتزام الثاني للولايات المتحدة في المنطقة هو إسرائيل التي يجب المحافظة على وجودها وأمنها.^(٣٣) وهو ما تسعى إلى إنجاز عبر التسوية القائمة في المنطقة، والولايات المتحدة نفسها بحاجة إلى تصفية الصراع في الشرق الأوسط، انسجاماً مع رؤيتها الاستراتيجية الجديدة لفترة ما بعد الحرب الباردة، ضماناً لمصالحها، فهي تدرك أن محور السيطرة العالمي في السنوات القادمة يقوم على السيطرة على منابع النفط.

والمشروع الأمريكي لتسوية الصراع العربي - الإسرائيلي على شقين، المفاوضات والمشاريع الاقتصادية تعمل على منع إنتاج الحالة الصدامية السابقة. بذلك فإن الأطراف للوصول إلى اتفاق ما يجعل ديمومته، وريط إسرائيل بدول المنطقة من خلال شبكة علاقات ومشاريع اقتصادية تعمل على منع إنتاج الحالة الصدامية السابقة. بذلك فإن الارتباط الأمريكي بحل النزاع العربي - الإسرائيلي هو ارتباط قوي لأن المشروع الأمريكي هو من الخطورة والأهمية للمصالح الأمريكية، مما يجعل من فشله فشلاً ذريعاً للمصالح الأمريكية، ونجاحه نجاحاً حيوياً للبيت الأبيض، وإن لمدة محدودة.^(٣٤)

هذه هي الخلفية التي افتتح على أساسها مؤتمر مدريد، والتي عملت ثلاثة معطيات على جعله ممكناً: نجاح أمريكي لمعتدين في تثبيت معادلة التعداد القدرة وانعدام الرغبة، التصار مذهل لأمريكا في حرب باردة سرعت مساحة الشرق أوسطية من انتهائهما لمصلحة الغرب، استعداد أمريكي واضح للتدخل العسكري المباشر في المنطقة.^(٣٥)

الخطر الأوسط

يمكن اختصار الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة بهدفين رئيسيين: الأول تأمين منابع النفط، ولتدفقه إلى الأسواق الخارجية، تأمين إسرائيل وحمايتها من أي تهديد محتمل. وسياسة الاحتواء المزدوج في الخليج تهدف إلى طعنة هدفين، إبعاد الخطر عن منابع النفط وإبعادها عن إسرائيل بوصف إيران والعراق أخطار يمكن أن تهددها، وهي تعمل للتشديد سياستها تلك بطريقة منفردة لا تقبل تدخل من أحد، وبطريقة مباشرة بعد أن كانت راضية بإستاء هذا الدور بالوكالة إلى دول أخرى.

التصور الإسرائيلي

ينطلق التصور الإسرائيلي للمنطقة من تعزيز التفوق الإسرائيلي وتوسيعه من دائرة التفوق العسكري إلى الدوائر السياسية والاقتصادية، من خلال إضعاف إسرائيل في المنطقة وإعطائها دوراً منوحيًا، ويعتمد هذا التصور في إمكانية إنجازه على الضعف العربي الذي شهد تطوراً نوعياً في التسعينات، ولتعاقل إسرائيل مع صورة المنطقة المستقبلية ومع المفاوضات السلمية من موقع التفوق، وأن العرب هزموا في معركة الصراع العربي - الإسرائيلي، لذلك طمأنهم أن يتكيفوا مع الواقع الجديد.

هذه الرؤية موجودة بين قطبي إسرائيل، سواء الاتجاه اليساري الذي يعتقه حزب العمل الذي يعمل على إخراج صورة إسرائيل كقوة راية السلام الذي يجب أن تجني جميع دول المنطقة ثماره، وحتى يحصل ذلك يجب أن يتصور حول إسرائيل، أو اتجاه اليمين الإسرائيلي ممثلاً بالليكود الذي يعمل على ترسيخ التفوق الإسرائيلي بصفاء ووقاحة، على قاعدة أن التلصص يجني مكاسب النصر، وعلى المهزوم أن يدفع القاتورة، فمن وجهة نظر الليكود، على العرب أن يدفعوا ثمن السلام، وهذا مايطعصره شعار الليكود، السلام مقابل السلام.

يتمثل شمعون بيريز الاتجاه الأول، فهو يرى أن مشاكل المنطقة لا يمكن أن تحل بشكل فردي، لأن السوق المشتركة هي مفتاح السلام والأمن في المنطقة، وبالتالي يجب السعي عبر خطوات تدريجية لإقامة جماعة تشبه كثيراً الجماعة الأوروبية⁽¹⁾ بهدف بيريز من خلال طرح مشروع «الشرق الأوسط الجديد» إلى تحقيق الوظيفة الاستراتيجية ذاتها، أي نقل مركز ثقل الصراع إلى ساحة تتمتع إسرائيل فيها بتفوق نوعي، وهي الساحة الاقتصادية، حيث تتمتع بتفوق تكنولوجي وبنيري⁽²⁾ تحتل⁽³⁾ قساعات الاقتصاد الإسرائيلي مقارنة بسمات معظم الاقتصاديات العربية، تجعله الأقدم على استثمار الفرص التي يوفرها الانفتاح الاقتصادي الشرق أوسطي⁽⁴⁾، فحسب هذا التصور الإسرائيلي ستقود التنمية المشتركة إلى نمو ثوري في ساحة الشرق الأوسط، وإلى نمو في التجارة المتبادلة بين دول المنطقة، وإلى توسيع التجارة مع بقية العالم،⁽⁵⁾

والسلام في الشرق الأوسط حسب شعور بيريز ليس عملية جراحية، فهو «يقول كل شيء هندسة معمارية ضخمة، هندسة تاريخية لبناء شرق أوسطي جديد متحرر من صراعات الماضي ويستعد لأخذ مكانه في العصر الجديد، العصر الذي لا يطبق للتخلفين ولا يفر للجهلة»⁽¹⁴⁾، وهو يعتقد أن أمام المنطقة فرصة نادرة لخلق «عصر ذهبي» جديد في الشرق الأوسط، تحتاج إليه كل المنطقة، وكل يدل آخر سيكون بمثابة صقلاب لجميع السكان⁽¹⁵⁾، وإتجاز المعيار الذي يدعو له اقترح بيريز انضمام تركيا وإسرائيل إلى جامعة الدول العربية وتحويلها إلى «منظمة الشرق الأوسط الإقليمية»⁽¹⁶⁾.

إن خطوة المشروع الشرق أوسطي لا تقتصر على الجانب الاقتصادي، بل تتجاوزها إلى إتجاز هيمنة إسرائيلية في الجوانب السياسية والأمنية، إضافة لهيمنتها العسكرية، كما أن المشروع يسعى لأن تصبح إسرائيل نقطة الانعطاف المركزية اقتصاديا وماليا في المنطقة، لأن التوقع الإسرائيلي من المشروع هو أن تصبح إسرائيل مركز الثقل في جميع الأنشطة الاقتصادية ونقطة الالتقاء أو العبور لمعظم مشروعات البنية التحتية⁽¹⁷⁾.

يمثل بناء ما نحن نتناوله الاتجاه التالي الذي يسعى إلى استثمار القوة العسكرية الإسرائيلية إلى حددها الأخص بإسلاء الشروط الإسرائيلية على المنطقة، ودفعها للتكيف مع هذه الشروط، فحسب نكياهو ويوم في العالم نؤمن من السلام، سلام بين الدول الديمقراطية، و سلام مع دول ديكتاتورية، النوع الأول من المسائل بين الدول الديمقراطية، هو السلام معظمه الماكوف بين الدول الغربية، حدود مفتوحة، تجارة حرة، سياحة... إلخ، أما الأنظمة الديكتاتورية، فليس لديها القوى الداخلية التي تمنعها من الخروج إلى الحرب، لكن يمكن كبح ميولها العدوانية من خلال وسائل مراقبة خارجية، وأن أشد الديكتاتوريات وأعنفها، يمكن أن يرتدع عن خوض الحرب إذا عرفت بوضوح أنه سيهزم فيها وأن الهزيمة ستجعله يخسر قوته، وهي الفكرة الأوروبية المتعلقة بغير ميزان القوى، والتي حققت في عهد الرئيس الأمريكي رونالد ريغان باسم «سلام من خلال القوة»، وعندما تواجه خصما ديكتاتوريا، يجب الاحتفاظ بقوة كافية لردعه عن الخروج للحرب، وطالما بقيت تملك هذه القوة ستحصل، على الأقل، على «سلام الردع»⁽¹⁸⁾.

والسلام في الشرق الأوسط يجب أن يكون على صورة «سلام الردع»، وأن احتمال تحفيزه يرتبط بصورة مباشرة بقدرة إسرائيل على الردع، فتلكما بدت إسرائيل أقوى، فتلكما أبدى العرب مواظقتهم على إبرام سلام معها، وتلكما أبدت ضعفا وتوردا، تلكما زادت احتمالات الحرب ضدها، ففي الشرق الأوسط يعتبر الأمن (قوة الردع المعتمدة على قوة الحسم) هو المعيار الحيوي للسلام ولا يدل له: إذ إن السلام الذي لا يمكن الدفاع عنه، لن يصمد وقتا طويلا⁽¹⁹⁾.

الشرق الأوسط

وبناء على هذه النظرة الاستعمارية، فإن الانسحاب من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧، يبدو عملية انتحارية حسب نتنياهو، لأن الانسحاب من الضفة الغربية أو الجولان يمرض الوجود الإسرائيلي للخطر، «هناك أخذنا بعين الاعتبار الأهمية الاستراتيجية لمناطق الضفة الغربية وهضبة الجولان، فلا بد أن نستنتج أن الشعار (الأرض مقابل السلام) غير صحيح في أساسه ... إن سيطرة إسرائيل على هذه المناطق ليس (عائقاً أمام السلام) إنما هي عائق أمام العرب»^(١٤٦).

إن اليكود يرفض فكرة «الأرض مقابل السلام» لأنه يعتقد أن هذا الوباء أدى إلى تراجع مكانة إسرائيل الاستراتيجية والسياسية، لذلك يرى نتنياهو يستعيد مفاهيم الحرب الباردة، ليدفع المنطقة إلى حافة الحرب، معتمداً بعدم اشتغالها على الضغط العربي، الذي سيفهم للتكيف مع الشروط الإسرائيلية، والاستبدال مبدأ «الأرض مقابل السلام» بمبدأ «السلام مقابل السلام».. ويعني هذا أن على الأطراف العربية أن تقبل السلام من دون الأرض، لأن الأرض ضرورة حتمية لأمن إسرائيل^(١٤٧).

لذلك فإن اليكود يرى أن «الشرق الأوسطية» تشكل خطراً على إسرائيل، فهذا المشروع حسب رؤية اليكود يحول إسرائيل إلى دولة شرق أوسطية، في الوقت الذي يسمى فيه اليكود إلى إبقاء «الصور الحديدية» حول إسرائيل والعمل على تطوير أوضاعها الاقتصادية لتحويلها إلى جزء من العالم الأول، على اعتبار أن إسرائيل المزدهرة والقوية هي القادرة على فرض النظام الإقليمي الثلاثي لها في المنطقة، لذلك يرى نتنياهو أن «الأسوار الحديدية» التي يسعى حزب العمل على تعطيلها تحتاجها إسرائيل حسب مشروع اليكود، فهو يقول «حتى إشعار آخر نحن نعيش في الشرق الأوسط في عصر الأسوار الحديدية وما تقطعه الأسوار الحديدية هو أنها تشترى لنا الوقت»^(١٤٨) ويعتقد نتنياهو أن هذا الوقت الذي ستعطيه الأسوار الحديدية إلى إسرائيل سيوصلها إلى وضع سينمو فيه الاقتصاد الإسرائيلي ثلاثة أضعاف خلال عقد ونصف العقد، عندما ستصبح من أغنى دول العالم، لا بصورة نسبية، بل بصورة مطلقة، وعندما يحدث ذلك، ستغير معالم وجودنا كلها في الشرق الأوسط، وهي الأسرة الدولية، وستتحول إلى شريك حقيقي، إلى شريك متكافئ، إلى عنصر دولي من القوتين الأولى»^(١٤٩) على هذه الخلفية يسفر نتنياهو من الفكرة الشرق الأوسطية، ويصلها بأنها «مسيلة»، فهو يعتقد أن عدم الاستقرار في المنطقة يجعل المرافعة على الشرق أوسطية مجرد أحلام، لأن أوضاع المنطقة غير مستقرة ولا يوجد ما يضمن استمرار التعايش، وبالتالي المرافعة على أوضاع مستقرة للمشروع الشرق أوسطي، ومن هنا تراجع الاهتمام الإسرائيلي بالانضمام الاقتصادي بعد وصول نتنياهو إلى السلطة، دون إهمال هذه المؤتمرات ومحاولة الاستفادة منها في إطار مشروع اليكود نفسه، وكان ذلك واضحاً في مؤتمر الدوحة، حيث تم تبادل حكومة نتنياهو أي جهد لتذليل العقبات من أجل إنجاح المؤتمر.

مع وصول اليهود باراك إلى رئاسة الوزراء في إسرائيل أخذ يبحث عن صياغة مشروع جديد لإسرائيل يتعلق بترتيبات المنطقة، خاصة بعد أن ظهر واضحا تسرع المشروعين المتباينين، فلا إسرائيل ولا الدول العربية جاهزة للاندماج سريع حسب وصفة بيريز. ولم يعد العالم اليوم يحتمل الانحلال حسب وصفة نتنياهو. بذلك لم يلاق أي من المشروعين الترحيب في الشارع الإسرائيلي. وقد وصل باراك إلى السلطة في ظل فشل المشروعين من التحول إلى واقع قائم في المنطقة. ولأن باراك لم يظهر كصاحب مشروع محدد، فقد بقيت مواقفه غامضة من كل القضايا. ولكن مع وجوده في كرسي رئاسة الوزراء، كان عليه أن يجد الصيغة المناسبة له لتشكل تعاطي إسرائيل مع القضايا المطروحة، وبدأت نظركه لاستقبال إسرائيل والمنطقة تتضح مع الممارسة السياسية لحكومته، ومع إعلانه مواقف صريحة، وقد حاول إيجاد صيغة لواقعية تجمع مميزات كلا المشروعين. فهو يقدم نفسه كتلميذ ووريث لإسحاق رابين، مركزا على القوة العسكرية الإسرائيلية التي ستدورح الحائط، حتى في حالة السلام. ويعتبر أن التفوق الإسرائيلي بشكل فرصة مواتية لإقامة السلام من مواقع متفاوتة. ويقول في مقابلة مع صحيفة جيزورلاند بوست 26 سبتمبر 1999: «نحن القوى الكبرى في المنطقة، نحن الدولة الأقوى في نطاق 1500 كلم حول القدس..، التي سأل كل عقبة من أجل التوصل إلى اتفاق سلام من شأنه أن يبرز قوة إسرائيل، لذلك فهو يطلب حزمة مطالب عسكرية من الولايات المتحدة مقابل ما يسمونه في إسرائيل «مخاوفنا العظام» وعلى رأس هذه المطالب معاهدة دفاع مشترك مع الولايات المتحدة، مع قائمة بمعدات عسكرية تبلغ قيمتها 17 مليار دولار تحصل بموجبها إسرائيل على أنظمة صواريخ «كرز» وبعض الطائرات المتطورة. وبناء محطة أرضية لاستقبال صواريخ من القطار التجسس الأمريكية مباشرة في إسرائيل... إلخ. مما يجعل التفوق العسكري الإسرائيلي حاسما على مدى العقود القادمة، وهو ما يرضي عبدة الأمن الإسرائيلية».

ولأن الردع وحده لا يكفي لتعريف مواقف إسرائيل في المنطقة، فهو يبحث عن صيغة للاتفاق على المنطقة لا تكرر التناقل للبالغ به الذي قدمه بيريز. فبعد الاجتماع التفاوضي الأول الذي عقد مع سوريا في نهاية عام 1999، تحدث باراك عن الاتفاق الإقليمي الذي ستريعه إسرائيل من السلام مع سوريا، والذي سيحلب «نموا لا سابق له في الشرق الأوسط». ولأنه لا يفضل النموذج الأوروبي الاندماجي على طريقة بيريز للتعاون بين دول المنطقة، فقد اقترح أمام مؤتمر منظمة الأمن والتعاون التي عقدت اجتماعها في استنبول في نهاية العام 1999، نموذجاً يقترب من منظمة «سبان»، كما صادق باراك في الوقت ذاته على نظرية الأمن الإقليمي التي قدمها ديفيد هيري رئيس مجلس الأمن القومي، والتي تم فيها محاكاة النموذج الذي تعتمد دول جنوب شرق آسيا. وقد كتب الصحفي الإسرائيلي ألوف بن في صحيفة

الثقافة الأوروبية

هاترمنس في ١٢/١٢/١٩٩٩ معلقاً على رؤية بيريز قائلا: «من السهل معرفة سبب عدم حماسة إسرائيل للتمودج الأوروبي، فمجرد ذكر مسألة تغيير النظام وحقوق الإنسان تجعل الدول العربية تنقلب من مكانها، كما أن حق تجاوز السيادة والتدخل في الشؤون الداخلية يخلق خوفاً لدى إسرائيل، التي تغطي مثلاً من اليوم الذي تقوم فيه منطقة إقليمية أو دولية، بالتعبير عن رغبة في وضع الأقليات العربية في إسرائيل تحت حمايتها، وعلى كل حال فإن الدول المجاورة تشارك إسرائيل توجيهها... وبناء على هذا التفهيم يوجد بين أن توجهات باراك نحو التمودج الآسيوي أكثر قابلية للحياة من التمودج الأوروبي».

إن إسرائيل التي تسعى إلى استثمار كل معززات القوة من أجل بناء صورة المنطقة، تبني التصورات المتعددة الخلق أوضاع تعزز هذه المعززات، وتدعم دور إسرائيل الإقليمي، سواء كان ذلك عبر تمودج «شرق أوسط، بيريز، أو «سلام الروح» نيتياهو، أو تمودج «أسيان» كما يشغل باراك، أو أي تصورات أخرى. فإن من الواضح أن الاختلال العسكري الذي ساد خلال العقود الماضية بين إسرائيل والدول العربية، سيستمر في أداء مضاعفه بعد السلام، ولكن هذه المرة لن يكون على المستوى العسكري فحسب، بل على كل المستويات العسكرية والديمقراطية السياسي والأداء الاقتصادي والجاهزية التقنية.

ARCHIVE

التصور الأوروبي

عملت التقورات الدولية على تهميش الدور الأوروبي بعد تفرق الولايات المتحدة الأمريكية بالعالم كافة، وفي المنطقة العربية بصورة خاصة. فقد استبدت الولايات المتحدة أوروبا من عملية التسوية، ولم تتمكن من القيام بأي دور فاعل على صعيد المفاوضات. وفي مواجهة هذا الاستبعاد السياسي، كانت الدعوة الأوروبية لعقد مؤتمر برشلونة للشراكة والمعاون الأوروبي - المتوسطي، والذي أتى كمحاولة أوروبية لمواجهة الهيمنة الأمريكية من مدخل غير سياسي، وكره على تهميش الدور الأوروبي في الإطار الدولي، وكمنفذ لطموحات أوروبا في المنطقة.

إن أوروبا كعلاق اقتصادي تبحث عن توسيع أماكن نفوذها، وترى في حوض المتوسط المجال الطبيعي لتوسيع هذا النفوذ، فكان هدف الشراكة كما نص عليه إعلان برشلونة «إنشاء منطقة للتبادل الحر بين الاتحاد الأوروبي والدول المتلفة على البحر المتوسط بحلول عام ٢٠١٠».

سعى الأوروبيون أن تكون هذه الشراكة منفصلة عن التسوية في المنطقة، دون النجاح في ذلك، خاصة وأن فكرة الشراكة تستند إلى التعاون الاقتصادي كمحور للعلاقات التي يجب تعزيزها في منطقة المتوسط، ولكنها لن تقف عند ذلك، لأن هذه العلاقات حسب مشروع الشراكة يجب تبنيها وصولاً إلى أقدمة هذه العلاقات في إطار سياسي وأمني، كما أن عملية السلام كانت مهيمنة على مسيرة الشراكة، التي تهدف إلى إيجاد دور أوروبي في المنطقة وعدم ترك الساحة للولايات

التحدة، فلأوروبا تعتبر أن الجنوب المتوسطي يفرض عليها تحديات إضافية، فإذا كان هناك تحديات يواجهها الغرب، أو تواجهها دول شمالي المتوسط لتتغل في هاجس أوروبا الأمني، ولتدفعها إلى تحصين نفسها من هذه المخاطر التي تتصورها أو تتوقعها، فإن هناك تحديات من نوع آخر تواجهها دول جنوب المتوسط تضاعف من حجم التحديات التي تواجهها دول الشمال، فضلاً عما يشوب عليها من تغيرات حاسمة. ويمكن إيجازها في ثلاثة تحديات رئيسية هي: النمو الديمغرافي، للمشكلات الاجتماعية والسياسية، والاختلاف الثقافي^(٢٤١).

وللتصدي لهذه التحديات اقترحت الدول الأوروبية ثلاثة محاور لاستعمال النهوض بالمنطقة وتحقيق فضاء اقتصادي أوروبي - متوسطي:

- تقديم الدعم إلى المنطقة لتجاذب النمط الاقتصادي، ويتطلب ذلك إنشاء منطقة للتبادل الحر تكون جاهزة في سنة ٢٠١٠، والنهوض بالقطاع الخاص، وتشجيع الاستثمار الخاص الأوروبي، وتحديث البنيات التحتية الاقتصادية والاجتماعية.

- تقديم الدعم لتحقيق التوازن الاقتصادي والاجتماعي، في مجالات البيئة والصيد البري والتعليم والصحة وحقوق الإنسان والديمقراطية،...^(٢٤٢)
- تقديم المساعدة من أجل الاندماج الإقليمي^(٢٤٣).

إن المشروع المتوسطي في العريضة الأوروبية يفرض تحديات على دول الجنوب المتوسطي والتي تشكل من الدول العربية أساساً، يعمل في حيز مجتمعة من الإجراءات والمشاريع الكبيرة، والتي لها كلفة عالية بالنسبة لهذه الدول، فالاستقرار السياسي مطلب رئيسي لضمان استقطاب الاستثمار الخارجي، وتشجيع المبادرة الحرة الدولية يتطلب مراجعة النظم الجبائية والمالية والتفدية، وتحسين الجهاز القضائي لحماية هذه المعاملات.

والمطلب الأهم لهذه الشراكة هو إعادة هيكلة القطاعات الاقتصادية للتلاقم مع الشراكة، وهذه الهيكلة أو ما بات يعرف، بالخصخصة، ذات نتائج اجتماعية مكلفة لبلدان الجنوب، فهي غير قادرة على تحمل عبء إعادة الهيكلة الصناعية بأغنى المائي، وعدم قدرة منتجاتها الصناعية على منافسة الصناعة الأوروبية، كما أنها غير قادرة على تحمل الاختلالات الاجتماعية التي تولدها إعادة الهيكلة.

إن الشراكة الأوروبية - المتوسطية بأبعادها الاقتصادية والسياسية هي محاولة لدمج هذه الدول في منظومة اقتصادية واحدة تعيد إنتاج طبيعة منطقة البحر المتوسط على قاعدة النموذج الأوروبي، وتبني هذه الشراكة هي البديل الوحيد أمام الاتحاد الأوروبي إذا أراد منافسة تجمعات نافذة في أمريكا وتكتلات جنوب شرقي آسيا واليابان، لكن أسوأ ما في المشروع الأوروبي أنه يعمل على تقسيم الدول العربية إلى دول متوسطية ودول غير متوسطية وعدم التعامل معها بصفتها كتلة واحدة، وإعادة النظر بهذا التقسيم واجب الدول العربية.

التصور العربي

هناك العديد من أطراف المنطقة والقوى الخارجية التي لها مصالح حيوية في المنطقة تتعلق بصورتها للصورة المستقبلية للمنطقة، وشكل العلاقات القادمة معها، بصرف النظر عن إمكانية تحقيل هذه التصورات. فهناك التصور الأمريكي والتصورات الأوروبية والتصور الإسرائيلي والتصور التركي وغيرها من التصورات التي تحاول رسم صورة مستقبل المنطقة، والتلافت في ظل وجود هذه التصورات المتعددة، غياب التصور العربي، على الرغم من أن التصورات المطروحة تستهدف الدول العربية أولاً وأخيراً.

إن الحدود التي يفكر فيها العرب في ظل الأوضاع الجديدة هي ما يستلزمه المفاوضات العربية - الإسرائيلية، وأنه يجب إجماع عملية التسوية في المنطقة التي تعمل على إلغاء الصراع العربي - الإسرائيلي، وهذا ما فراء من خلال التحركات السياسية العربية، والتي كان شكلها الجماعي الأخير مؤتمر القمة الطارئة التي عقدت في القاهرة في العام 1996، والتي جاءت على خلفية وصول حكومة اليمين بزعمارة نتنياهو إلى السلطة في إسرائيل، والتي أكدت في بيانها الختامي أن القضية الفلسطينية هي جوهر الصراع العربي - الإسرائيلي، وأن السلام العادل في الشرق الأوسط يتطلب انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي الفلسطينية المحتلة، وأكد البيان على التمسك بقرارات الشرعية الدولية التي تنهي بعدم الاعتراف أو الدبول بأية أوضاع تجمع عن النشاط الاستيطاني في الأراضي المحتلة وقد تمسكت القمة العربية بالسلام كخيار استراتيجي، وأبطة بين تقدم العلاقات السياسية والاقتصادية بتقدم عملية السلام، داعية الحكومة الإسرائيلية إلى الالتزام بتنفيذ الاتفاقات الموقعة مع السلطة الفلسطينية.

لقد كان انعقاد مؤتمر القمة مؤشراً إيجابياً بعد الانقطاع في عقدها الذي استمر منذ القمة التي انقسم فيها العرب حول حرب الخليج، والتي عقدت في القاهرة عام 1996، وإذا كانت القمة العربية قد حددت رؤيتها لتجاذق التسوية بالقرارات مرجعية مدريد وقرارات الشرعية الدولية، إلا أن ذلك لا يعبر عن إرادة العرب للمعطيات التي تحتاجها المنطقة من أجل تعزيز المصالح العربية، والعمل على تحويل هذه المصالح إلى إطار مؤسسي يدافع عنها، فليس من المبالغة القول بأن العرب لا يملكون تصوراً عن مستقبل منطقتهم.

إن غياب التصور العربي جعل الدول العربية تتعامل مع تصورات الآخرين بإيجابية عالية، حتى لو كانت هذه التصورات تعمل ضد مصالح الدول العربية.

من هنا كانت النظرة العربية إلى مفاوضات التسوية مع إسرائيل تختلف عن نظرة الآخرين لهذه العملية. ففي الوقت الذي يرى الآخرون أن اتفاقات التسوية يتم توظيفها في إطار رؤية استراتيجية للمنطقة تسير باتجاهات محددة، فإن الدول العربية تتعامل مع التسوية المطروحة على أنها هدف بذاتها. ففي الوقت الذي تعمل الولايات المتحدة وإسرائيل على صياغة أوضاع

المنطقة فيما بعد عملية السلام، فإن الدول العربية تقتضد لأي رؤية تجيب عن أسئلة المستقبل والسؤال الرئيسي هو: ماذا بعد عملية السلام؟

من هنا يتم الاندفاع صوب مشاريع الآخرين، دون تحقيق شروط الحد الأدنى الوفاقية. وهكذا تطلق المسيرة السلمية إلى التطبيع والتعاون الاقتصادي والسياسي، بل والأمني، مع إسرائيل من دون تحقيق تسوية سياسية مرضية للدول التي تحتل إسرائيل أرضها.⁽¹²⁾ إن انتشار الخلافات العربية - العربية بصورة غير مسبقة - حتى أنه في بعض النزاعات صار بعض الدول العربية هي مكانة «العدو» الأول بالنسبة إلى دول عربية أخرى مشتركة معها في نزاعات ثنائية - هو وضع لم يعرفه النظام الإقليمي العربي من قبل، إذ إنه على الرغم من كثرة النزاعات العربية لم يصل أحدها إلى الدرجة التي يصبح فيها طرف عربي يحتل مكانة العدو، وهي المكانة التي احتكرها إسرائيل، حتى بدأت بعدد اتفاقات تسوية ثنائية.⁽¹³⁾ إن هذا الوضع الذي ولد بعد حرب الخليج الثانية منع صياغة أي رؤية عربية لمستقبل المنطقة في ظل التغيرات العاصفة التي يشهدها العالم وللطفلة، واستمرار الحالة العربية الراهنة يعني توفّر الشروط الأمثل للآخرين لاستكمال مشاريعهم دون أي مساهمة عربية في حماية مستقبل المنطقة من مخاطر هذه المشاريع، أو حتى اتخاذ إجراءات وقائية تخفف من تأثيرات هذه المشاريع. إن هذه الصورة أقررت طرفها وحيداً للتحكم بالمنطقة وفرض شروطاً عليها، وإزالة اكتشاف والتفكيك العربي، تجمعان النظام العربي أكثر تجاوباً وهو أساساً أكثر اكتشافاً، المطالب بالصلاح الأفريقي.⁽¹⁴⁾

إن المشاريع المطروحة على المنطقة مستهدفة بشكل واضح لتسهيل التهيئة القومية بين الدول العربية، فبمقتضى التعاطي معها بصفتها بلداناً شرق أوسطية حينا، ووسطية حينا، وإذا كان ليس من مهمة الآخرين إثبات عروبة الدول العربية، فإن على الدول العربية إعادة النظر في صلاتها الثنائية والجماعية، لتصل إلى الحد الأدنى الذي يسمح لها بمواجهة التحديات المطروحة عليها، ولترسم صورة منطقيتها بصورة متوافقة مع مصالحها بدلا من أن يتحكم الآخرون بهذا المستقبل، الذي لا تشرع للمعطيات القائمة حاليا بأنه سيكون مشرقا.

ثالثا: تحديات ما بعد السلام

تسهر عملية التسوية باتجاه إعادة ترتيب أوضاع المنطقة، وإخراج الصراع العربي - الإسرائيلي من دائرة الحرب - بصرف النظر عن متانة الحل الذي يتم الوصول إليه بالنسبة للأطراف العربية - على

الرغم من كل العقبات والتعطيل القدين تتعرض لهما، فكل الأطراف تعلن تمسكها بالمعاهدة، على الرغم من السلوك الذي تقوم به الحكومة الإسرائيلية لفرض شكل الحل على الأطراف العربية والمطالبة بالسلام مع الاحتفاظ بأجزاء واسعة من الأراضي المحتلة.

الفترة الرابعة

والعملية الأمريكية لإسرائيل لا تستطيع أن تغطي كل السياسات الإسرائيلية، دون إخراج هذه الحماية بشكل معين يعني ماء الوجه، وليرورها على قاعدة استمرار التصعيد لكسر جمود عملية السلام، فالإدارة الأمريكية ذاتها ارتبطت بتعهد حل مشكلة الصراع العربي - الإسرائيلي ولها مصلحة حيوية في هذا الحل، وهي عملية حاسمة تحتاجها الإدارة الأمريكية، وهذا لا يعني أن تكلف الإدارة الأمريكية عن الانحياز لإسرائيل في المفاوضات الجارية، ولكن ما تدركه الإدارة الأمريكية هو أن فشل العملية في المنطقة يعني فشلاً ذريعاً للسياسة الأمريكية، وتشير كل المعطيات بأن هذا الفشل غير مسموح به.

إننا نقترح أن الأزمات التي تعاني منها التسوية، هي أزمات مؤقتة، ستعمل كل الأطراف على تجاوزها خاصة الولايات المتحدة، وإن كانت الضغوط التي ستعرض لها الأطراف العربية أكبر بكثير من الضغوط التي ستعرض لها الجانب الإسرائيلي بسبب طبيعة الروابط الاستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

إن تجاوز الأزمات المشاوشية، وصولاً إلى حلول تتوافق عليها أطراف الصراع - تكمن بصورف النظر عن مثالية أو عدالة الاتفاقات التي يشكل إنجازها - بطرح تحديثات عديدة على الدول العربية، فعلى مدى التاريخ السابق للصراع العربي - الإسرائيلي، شكلت القضية الفلسطينية ووجود إسرائيل في المنطقة المحوري لدول العربية مجتمعة، وفي كثير من الحالات تم توظيف الصراع العربي - الإسرائيلي لتبرير الكثير من الممارسات السياسية والاقتصادية والأمنية وحتى الاجتماعية، تحت شعار الخطر الداهم الذي يشكله وجود إسرائيل على دول المنطقة، وحالة الاستفزاز الدائم الذي تفرضه على المنطقة، إن هذه التحديثات التي ترتبط الآن بعملية التسوية، لم تكن وليدها، فقد عملت التسوية على كشفها، لا على إنشائها، فهي تحديثات مطروحة بحكم ما أسفرت عنه مسيرة التردّي العربي خلال العقود الثلاثة الأخيرة من أوضاع تدعو إلى القلق على مستقبل المنطقة، وجاءت التسوية لتظهر الضعف العربي بأجلى صورة.

إن الاعتراف العربي بالوجود الإسرائيلي في المنطقة والتعامل مع هذا الوجود - وتوقيع اتفاقات معها، يسقط التحدي المحوري الذي عاشت عليه الدول العربية في السابق، ويكشف عن مجموعة من التحديات، كان يمكن التغلغل عليها أو تأجيلها في ظل احتدام الصراع العربي - الإسرائيلي، حتى لو لم يحل هذا الصراع إلى درجة الحرب، إن اكتشاف هذه التحديات وتجاوزها إلى درجة متطورة، هي نتاج سنوات طويلة من الإهمال العربي للتحديات الجدية المطروحة عليها والواضحة للعيان، مما يجب أن يدفع الدول العربية إلى التصدي لها ومعالجة متطلباتها، لأن شكل التعامل مع هذه التحديات هو الذي سيحدد مستقبل المنطقة، ففي الوقت الذي يسعى الآخرون لرسم صورة معينة للمنطقة، على أصعاب المنطقة وسكانها

أن يعملوا على أن تخدم صورة المنطقة المستقبلية مصالحهم وتعطيهم الدور الذي يستحقونه، ويحدد وزنهم ودورهم في العالم خلال العقود الأولى من القرن القادم.

إن مثلث التحديات الذي تواجهه المنطقة يقوم على ثلاثة تحديات رئيسية: التحدي السياسي، التحدي الاقتصادي، والتحدي الأمني¹⁴. وكيفية تعامل العربي مع هذه التحديات هي التي تحدد مكانته وترسم مستقبل المنطقة.

التحدي السياسي

شهد التشكيل الإقليمي للمنطقة وضعاً مستقراً لوائك المبعثريات إلى منتصف الثمانينيات، واعتمد هذا الاستقرار إلى حد كبير على الرخاء التسمي الذي تحقق في أغلب البلدان العربية على امتداد تلك الفترة. كان ذلك بسبب الفترات في أعمار النفط بعد حرب 1973، الذي ترافق مع توافق بين الدول العربية على تحديد الخطر الرئيسي بعد هزيمة عام 1967.

مع منتصف الثمانينات بدا واضحا أن عوامل الاستقرار في طريقها إلى الزوال، مع اختفاء الرخاء في العديد من الدول، ودخولها في أزمت اجتماعية - اقتصادية. أخذت في العديد من البلدان شكل الانتفاضات فيما سمي بالانتفاضات الخبز، ومع الاختلاف في أوضاع البلدان العربية تراجع التوافق السابق. وأخذت الهوية تتسع بين الدول الغنية والدول الفقيرة. فأنفرد عقد التوافق العربي لمحافظة على شكله في أحسن الأحوال، ووصل حده الانقسام بخرج مصر من الصف العربي وتوقيعها اتفاقات كامب ديفيد، مما أدى إلى توجيه ضربة قاسية إلى النظام العربي بخرج قلبه من دائرة الصراع، وأدخلته في مرحلة التفتت التي أفرزت مجموعة من التجمعات الجهوية الإقليمية العربية.

في ظل هذا الوضع أصبح على الدولة القطرية أن تواجه التحديات الخارجية والداخلية منفردة، مما عمل على إنتاج استقطابات عربية - عربية، وتقريع منظمات العمل العربي المشترك من محتواها، دون أن يكسر هذا التفريق الأطر الشكلية التي حافظت عليها الدول العربية.

يبدو هذا الكلام نافلا بعد سايقة حرب الخليج الثانية، التي كسرت العديد من الثوابت التي سادت العلاقات العربية - العربية قبلها، فقد حكم هذه الخلافات سلف، وإن وعمل في بعض الحالات إلى النزاع المسلح. لكنه لم يصل إلى درجة احتلال دولة عربية لدولة أخرى وإغاثها عن الخريطة السياسية، إن هذه المسألة جعلت بعض الدول العربية تعيد ترتيب أولوياتها

14 إن هذه التحديات ليست التحديات الوحيدة التي تواجهها الدول العربية، فهي ترتبط بمثلث تحديات آخر لا يقل أهمية من السابق، شرابط وتشغيله مثلثات التحديات لتشال بإثرة التحديات أمام هذه الدول. والتلك الآخر هو مثلث التحديات الاجتماعية، والثقافية، والتكنولوجية. متعالج في دراسة مثلث التحديات الأول. وهذا لا يعني أن مثلث التحديات الأخرى أقل أهمية، إنما كل حيارنا أن نتعالج المسألة الأولى لأهميتها الأكبر بموضوع دراسة، وهو لا يتصل من التلك الأخر الذي سنعرض له ولكن بشكل ثانوي.

بشأن العدو المحتل، وأصبح الشقيق القريب يشكل خطرا دائما لا يستطيعه العدو البعيد، بذلك أنتجت حرب الخليج شرخا عميقا في العلاقات العربية - العربية، يحتاج إلى الكثير من الجهد والعمل لإعادة بناء الثقة.

إن الوضع العربي الذي أعرضته حرب الخليج منع ظهور تصور عربي لدور ومكانة الدول العربية في مستقبل المنطقة، في الوقت الذي تتزاحم فيه العديد من التصورات الشرق اوسطية⁽¹⁾ والمتوسطية، من أجل إعادة بناء المنطقة، بصورة تتجاوز العوامل المشتركة بين الدول العربية. ففي الوقت الذي يصنع الآخرين صورة المنطقة يستكشف أصحابها عن المساهمة في صنع مستقبلها.

فالنظام العربي في ظل المشاريع المقترحة على المنطقة أمام تحد يتعلق بوجوده، على الرغم من تميزه عن الأنظمة الإقليمية الأخرى في كونه يشمل نظامين في الوقت ذاته، أحدهما نظام دولاني، وثانيهما نظام مجتمعي عربي. وينبثق الثاني من وجود هوية أصلية هي العربية. وإن النظام الشرق الأوسط الذي يتم العمل عليه يتأسس على هوية من النوع الوطني أو القومي. ويفترض ألا يلغي النظام الشرق اوسطي الهوية العربية كونه لا يقدم بديلا عنها في شكل انتقاء ثقافي حضاري بالمعنى الواسع. وسيكون النظام الشرق اوسطي متعدد الهويات فهو يضم إلى جانب العرب إسرائيل ونيوزيلاندا وإيران، والتي تشملها فيها برنامجا رسميين: أولاهما، امتلاك كل من هذه القوى هوية فريدة تشكل مصدرا للثقة، وإسرائيل خارجة لتشكل خطرا على الآخرين، وثانيهما، وجود عقل استراتيجي لهذه القوى يعمل على تحقيق مصالحها. وأمام هذه الحالة فإن النظام العربي في علاقته المستقبلية مع النظام الشرق اوسطي أمام نموذجين: الأول، أن التنازل في حال استمرار الوضع الراهن الذي يعني عمليا التعرض للتجزؤ مستقبلًا بين القوى الإقليمية غير العربية، والشراسة كقطب قاعل ذي هوية مميزة في نظام يجمع هويات متعددة، وهو يتطلب القدرة على تفعيل الهوية العربية، ويتطلب مواجهة العديد من التحديات التي تواجه هذه الدول⁽²⁾.

إن التطورات التي يشهدها العالم في التسعينيات تعمل على تغيير معاني المصطلحات التقليدية التي كانت سائدة وتجعل الكثير منها بلا فائدة. فلم يعد هناك منظومة اشتراكية توضع مقابل الغرب. ومع انهيار الاشتراكية، أصبحت الرأسمالية مصطلحا شاملا يفتقر العالم على نحو محط، كما أن التقسيم الثاني إلى شمال وجنوب أصبح أقل حدة من السابق. وصارت مشكلات أفريقيا تختلف حالها اختلافًا بينا عن مشكلات جنوب شرقي آسيا أو مشكلات أمريكا اللاتينية⁽³⁾. وغدت الفوارق داخل بلدان الجنوب واضحة للعيان. فلم يعد مصطلح العالم الثالث كمجموعة من الدول تعاني مشكلات ذات طبيعة واحدة يفي بفرض معرفة واقع هذه البلدان. فهناك فوارق في غاية الأهمية تفصل بين هذه البلدان، كما أن

قدرتها على التصدي لصناعة مستقبلها متفائلة، فما أثبتته تجربة «النمو» في آسيا، هو أن التدخل ليس قدراً، ويمكن التصدي لشكائات دول العالم الثالث وتجاوزها بالتوافق مع النظام العالمي وليس بالضرورة بمواجهته.

في المنطقة العربية أخذت التطورات اتجاها معاكساً لتجربة «النمو» الآسيوية، وكانت استجابة النظام الإقليمي لأخترق النظام الدولي للمنطقة سلبية، حيث نجح النظام الدولي في إزاحة أولويات النظام العربي وتطويع توازنه دواياً. فقد لازم المارق جامعة الدول العربية منذ نشأتها في عام ١٩٤٥، باعتبار أن نشأتها كانت على أساس من العلاقات الدولية - العربية، والحفاظ على مستواها في هذه الحدود، دون محاولة تطويرها إلى مستوى أعلى من العلاقات الدولية التي سادت بين البلدان العربية، فلم تنقل من حالة العلاقات الدولية إلى حالة العلاقات الوجودية، والتي تملك الدول العربية الكثير من مضمونها. وقد أدى الاختراق الدولي، تبعاً لذلك، إلى نقل الصراعات إلى مستويات أعلى بين الدول العربية، توافق ذلك مع ازدياد الخطر الخارجي الناجم عن مفهوم الجبال الأمني وغيباب التوجه القومي وقصور الدور البيئي والسلوكي للجامعة العربية.^(٣٦) مما جعلها إطاراً شكلياً للتفاعلات العربية - العربية، ومؤسسة فاصلة عن الارتقاء بالعلاقات العربية - العربية إلى مستويات أعلى.

مقابل هذا الفشل في تطوير النظام الإقليمي العربي إلى مستويات أعلى تخدم مصالح الدول العربية وتحمي مستقبلها، طرح أقرب مفهوم شرق أوسطية الذي استخدم على نطاق واسع منذ الحرب العالمية الثانية، لتحقيق أغراض سياسية تهدف إلى إدراج الدول العربية في مفهوم سياسي أوسع من الرابطة العربية وعلى حسابها، وقد وفرت التطورات العالمية والإقليمية بيئة ملائمة ومشجعة لانتشار هذا المفهوم على نطاق واسع في السنوات الأخيرة، بل والعمل على ترجمته من فكرة إلى واقع ينتج نظاماً إقليمياً، ومن بين هذه التطورات:

- التفجيرات الجذرية التي حدثت في العلاقات الدولية في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة، والوصول إلى سياسة التوافق والتعاون، واتجاه العالم إلى التفاضلات الجيواقتصادية وأولوياتها على التفاضلات الجيوسياسية والجيواستراتيجية.

- انفراد الولايات المتحدة بالثوق السياسي والعسكري مع انتهاء الحرب الباردة.

- التوافق الدولي الذي حدث في حرب الخليج الثانية.

- بروز البعد الجيو اقتصادي في عملية المفاوضات العربية - الإسرائيلية.^(٣٧)

وفرت هذه التطورات المناخ المناسب للعمل على تكوين النظام الشرق أوسطي، والذي يعتمد على ثلاثة محاور رئيسية: أولها: يتعلق بالشاريع الإقليمية الكبرى التي تسعى إلى دمج الدول العربية بدول مجاورة وعلى رأسها إسرائيل، وثانيها: خاص بالعلاقات المتعددة الأطراف، وثالثها: بعض العلاقات الثنائية بين إسرائيل وبين كل دولة من دول المنطقة على حدة.^(٣٨) وبالتالي، فإن الحديث

الشرق أوسطية

عن نجاح الشرق أوسطية يتعلق بما يحدث على هذه المستويات، والتجاذب هذا المشروع بفكر بعض أطرافه في استبعاد مصر من هذا النظام، على قاعدة أن القل مصر البشري والسياسي يعمل على منح الجانب العربي أغلبية في النظام، بينما استبعادها يعني أن دول الجوار يمكن إذا ما تحالفت جميعها أو تحالفت اثنان منها أن تشكل هيمنة إقليمية من ناحية أخرى قد يغشى بعض أطراف نظام الشرق الأوسط من أن الوجود المصري سوف يظل دائما مركز جذب للأطراف العربية في النظام الشرق الأوسطي، وبذلك قد يحدث استقطاب بين العرب وغير العرب داخل النظام وهو ما يمكن أن يؤدي إلى زعزعة الأمن وخلق عدم الاستقرار⁽¹⁷⁾.

إن الشرق أوسطية المطروحة على المنطقة ليست سوى محاولة إسرائيلية مدعومة أمريكيا لإعادة إنتاج مقومات الأمن الإسرائيلي طبقا لطروفي عصر جديد ومعادلات دولية جديدة، على أساس استخدام الحواضر الاقتصادية بدلا من الردع العسكري، وفرض التسوق الإسرائيلي لتكنولوجيا واقتصاديا تحت لافتة السلام، دون أن يلتزم إسرائيل التزاما كاملا بشروط السلام، وهي ظل هذا التحدي فإن من حق، بل من واجب الأطراف العربية أن تحاول استقلال الوضع لصالحها⁽¹⁸⁾ وهذا ما يحتاج إلى الفعل وفق شرطين أساسيين مترابطين لكي تكون المكاسب المتوقعة من المشروع الشرق أوسطي كافية للأطراف العربية:

- الأول، أن يكون دور إسرائيل وموقعها في هيكلية النظام الشرق أوسطي، معادلا وموازيا لدور أي من الأطراف العربية، بمعنى أن تكون المواقع والذوا في ترتيب أفضي، لا هي ترتيب عمودي، فالترتيب العمودي يعني، لتكون إسرائيل من الهيمنة على شبكة العلاقات الاقتصادية، وبالتالي من الهيمنة السياسية إلى جانب التفوق العسكري.

- الاشتراط الثاني لتحقيق مكاسب وطنية لجميع الفرقاء من الانطلاق من المشروع الشرق أوسطي هو ألا تكون مكاسب إسرائيل على حساب العرب، ومن التضحية بحيث يعمل ذلك على تهميش الدور والواقع العربي، وبالتالي على إيصال إسرائيل إلى هيمنة اقتصادية تتولد منها هيمنة سياسية إلى جانب التفوق العسكري⁽¹⁹⁾.

إن إيجاد التصور العربي القابل هو الضرورة الملحة تتبع المشروع الشرق أوسطي أن يبنى على حساب المصلحة العربية وهي مواجبتها، وهذا ما يحتاج إلى إعادة الاعتبار للنظام العربي وتطويرة لإحداث توافق عربي لدخول المشروع الشرق أوسطي كمجموعة تعي مصالحها وتعمل على رسم مستقبل المنطقة وفق هذه المصالح، وهذا ما يحتاج أيضا إلى أن يدرك العرب خطورة المشاركة في مشاريع مستقبلية دون اتفاق عربي مسبق، وأن يتناسى العرب خصوماتهم ويستعيدوا قوتهم بالتفكير، وتوافق إرادة عربية جامعة⁽²⁰⁾ فعلى الرغم من تفوق العرب سكانا وأرضا ضمن الشرق الأوسط، فإن للمشروع الجديد يعمش وجودهم ويتلف تداول اسمهم كمجموعة كبرى، على الرغم من أن هذه المجموعة ذات تكوين اثني/عربي متجانس⁽²¹⁾.

في ظل استمرار حالة التشتت والانقسام العربي فإن صورة مستقبل المنطقة تبدو قاتمة إذ لم يستطع العرب الاستجابة للتحدي المطروح عليهم والارتقاء فوق خلافاتهم، وهذا ما يحتاج إلى تغيير جذري، لأن العرب لن يعلوا من عدم القدرة على مواجهة دول الجوار في ظل استمرار الأوضاع الراهنة فحسب، بل ستعمو الصراعات الانتحارية داخل القطر الواحد مما يزيد من الضعف العربي وهو ما يحتاج إلى إعادة النظر في هيكل النظام الإقليمي العربي الذي أصابه الشلل، إعادة بنائه على أسس جديدة لتستجيب للتحديات المطروحة على المنطقة.

التحدي الاقتصادي

هناك إجماع على أن مستقبل الدول في العقود القادمة يتعلق بشكل أساسي بأدائها الاقتصادي، وأن الصراع المستقبلي سيحكمه الاقتصاد. هذا التحول في الأولويات غير من اهتمام الدول، فمدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية يعلن بأن ٤٠ في المائة من مهامنا الجديدة تتناول الاقتصاد الدولي،

والتدويل التنسار للاقتصاد جعل المهام الاقتصادية من الضخامة بحيث تسمى الدول للتحول الاقتصادي لمواجهة. وتظهر التكامل الاقتصادي بين الدول المختلفة تعبير عن ظاهرة التدويل المعطى للحياة الاقتصادية، وضرورة أن تتخطى الحدود القومية من أجل تنمية القوى الإنتاجية. والدول الرأسمالية تتكامل وتتكامل لتؤمّن القاعدة الاقتصادية المناسبة وضمان الإطار الدولي المناسب لتنمية قواها الإنتاجية.^(١٠) ففي ظل الثورة العلمية - التكنولوجية لم يعد الوعاء القطري كافياً لتوسيع الإنتاج، ولم تعد السوق القطرية كافية لاحتواء حركة السلع والخدمات ورأس المال والعمل، وهكذا يجري بصورة تلقائية، وأحياناً وأمية، تدويل مطرد للحياة الاقتصادية في كل بلد على حدة، يتخطى الإنتاج السوق القطرية والقومية، ويكتسب رأس المال طابعاً دولياً، وتضم المشاريع والمصارف المتخطية للقوميات لتصبح هي القوة المحركة الجبارة للتركيز الصناعي والعالي في الأسواق التي أصبحت عالمية.^(١١)

وفي هذا السياق يتعرض الوطن العربي، بأقطاره وشعبه إلى ضغوط مكثفة ومتنامية لإتمام عملية إعادة دمج اقتصاداتها في إطار الاقتصاد الرأسمالي العالمي، ولإسقاط جميع الحواجز التي تحول دون تحقيق هذا الهدف. بصرف النظر عن التكلفة السياسية والاجتماعية لهذه العملية، من وجهة نظر السياسات المحلية، ومعنى ذلك أن الأقطار العربية انخرطت، على الرغم من إرادتها في خضم عملية تحول كبرى من هيكلها الاقتصادية والاجتماعية مدفوعة في ذلك بضرورات الموائمة مع مقتضيات النظام الدولي الجديد، بصرف النظر عن الاعطالات الخاصة بالمصالح الوطنية لتلك الأقطار.^(١٢)

وهي كل التطورات التي شهدتها الاقتصاد العالمي وتأثيرات الثورة العلمية - التكنولوجية، فإن التبادل غير المتكافئ هو الصيغة السائدة بين دول الجنوب والدول الصناعية المتقدمة من حيث أسعار الصادرات، فصادرات الجنوب تتجه عبر التغيرات إلى الهبوط، في حين أن منتجات الدول الصناعية تميل بشكل واضح نحو الارتفاع. وأن أسعار بعض المواد الأولية انخفضت في أوائل التسعينيات إلى أقل من الأسعار التي سادت أيام الكساد العظيم (١٩٢٩ - ١٩٣٤)^(٣٧) فتنخفضت المواد البديلة خفضت الطلب على المواد الخام، وأصبح حجم المواد المطلوبة لإنتاج وحدة من المنتجات الصناعية لا يتجاوز الآن ٢٠ في المائة مما كان مطلوباً عام ١٩٠٠، هاليابان مثلاً قد استهلك في العام ١٩٩٤ ٦٠ في المائة فقط من المواد الخام التي استهلكها عام ١٩٧٣ لإنتاج الكمية نفسها من المنتجات الصناعية.^(٣٨)

إن الأرقام العربية لا تبحث على التفاؤل، فقد بلغ إجمالي عدد السكان في الوطن العربي ٢٥٢.٨ مليون نسمة أي ما يعادل تقريباً عدد سكان الولايات المتحدة ويبلغ عدد العمالة العربية ٣٦ مليون عامل، ويبلغ الناتج الإجمالي ٥٣٨.٧ مليار دولار ومتوسط دخل الفرد ٢.٤٠٩١ دولار، ونسبة التجارة البنية إلى إجمالي التجارة الخارجية ٩.٢ في المائة، وقبضة دين الدول العربية يبلغ ١٥٥.٧ مليار دولار (١٩٩٤) وقبضة خضعة الدين العام ١٢.٦ مليار دولار (١٩٩٤) ونسبة الدين إلى الناتج ٢٩.٦ في المائة (١٩٩٤)، وسجلات النمو الطبيعي للسكان ٢.٦ في المائة وهي أعلى المعدلات في العالم، ويقتل كل واحد من السلع الغذائية عام ١٩٩٤ حوالي ١٥.٨ مليار دولار بزيادة قدرها ٩.٦ في المائة من حيث الكميات، وأقل من ١ في المائة من حيث القيمة بالمقارنة مع عام ١٩٩٣.^(٣٩)

إن الأرقام العامة تعطي أكثر ما تظهر، فقد شهد العقد الماضي تطورات اقتصادية واجتماعية، تجعل من متوسط دخل الفرد لا يعطي فكرة واضحة عن أوضاع الدول العربية وتعاظم سوء توزيع الدخل الذي حصل فيها، فعلى الرغم من نمو متوسط الدخل الفردي، إلا أنه يوجد في العالم العربي ٣٣ مليون عربي يعيشون تحت خط الفقر ويعاني أكثر من عشرة ملايين من نقص التغذية حسب أرقام تقرير التنمية البشرية لعام ١٩٩٦، فهناك فجوة في الدخل بين الدول، كما هناك فجوة في الدخل داخل الدول تشير إلى استقطاب اجتماعي حاد.

وعلى الرغم من أن التقديرات الاقتصادية العربية تشير إلى أن الناتج الإجمالي لمجموع الدول العربية قد ارتفع من ٤٩٩.٢ مليار دولار عام ١٩٩٤ إلى ٥٣٨.٧ مليار دولار في عام ١٩٩٥، أي بمعدل نمو قدره ٥.٦ في المائة، وهو ما يزيد بدرجة ملحوظة عن معدل النمو عن العام السابق والبالغ ١.٥ في المائة، إلا أن هذه الزيادة تعزى بشكل رئيسي إلى زيادة أسعار النفط في الأسواق العالمية وإلى التناقص الجيدة التي تم تحقيقها في عدد من الدول العربية في إطار سياسات وبرامج الإصلاح الاقتصادي. حسب التقرير الاقتصادي العربي الموحد. وهذا

ما يخفي نسبة النمو الحقيقي لهذه البلدان، ويخفي الفوارق بين الأقطار فعلى الرغم من أن أقطار الوطن العربي حققت في مجموعها فائضا خلال الحقبة النفطية. فإن عددا مهما من الأقطار العربية قد حقق عجزا متزايدا في الفترة نفسها^(٢١).

وتعتبر المنطقة العربية من أكثر مناطق العالم اعتمادا على الاستيراد في تأمين غذائها، وتختلف التقديرات حول فائزوة الغذاء العربي، من حد أدنى مقداره ٦١ مليار دولار، إلى ٢٠ مليار دولار كحد أقصى. ويتوقع الأمين العام للاتحاد العربي للصناعات الغذائية ارتفاع العجز الغذائي العربي بحلول عام ٢٠٠٠ (إلى ما بين ١٢٠ و ٢٠٠ مليار دولار بأسعار ١٩٨٥). وضعت الدول العربية بحسب إحصائيات الاتحاد العربي للصناعات الغذائية ثمنا لغذائها خلال ١٥ عاما (١٩٨٠ - ١٩٩٤) ما يزيد على ٢٨٠ مليار دولار، مما يعني أن المواطن العربي لا يزال يعتمد على العالم الخارجي في تأمين أكثر من نصف قوته. الأمر الذي يجعل في طياته مؤشرا يهدد القرار السياسي والاقتصادي العربي. (٧٧) وخلال الفترة ١٩٦٩ - ١٩٧١ بلغت نسبة الاكتفاء في تأمين الغذاء ٢٠ في المائة. وبدلا من أن يتم ترميمها انخفضت نسبة الاكتفاء الذاتي إلى نسبة ٥٢ في المائة خلال الفترة (١٩٨٠ - ١٩٩٠). (٧٨) وهذا ما يزيد بشكل مطرد الحاجة الغذائية وربطها مع الخارج.

كما تعاني الدول العربية من ارتفاع نسبة البطالة. وعلى الرغم من عدم وجود إحصاءات على مستوى الوطن العربي يدل على نسبة البطالة، إلا أن تزايد هجرة العاملين إلى خارج الوطن العربي ومؤشرات أخرى تشير إلى استجهاها. ويؤيد رأي المصنفين الجدد إلى سوق العمل في الوطن العربي بحوالي ٣ ملايين عامل خليوية لا تتلاقى سوق العمل على استجهاهم. وتتزايد البطالة الواسعة مع انخفاض في الدخل السنوي في العديد من الدول العربية. حيث بلغت نسبة التراجع السنوي في الدخل ٥.٧ في المائة في سوريا، و ٢.٩ في المائة في الأردن، و ٢.٢ في المائة في مصر، و ٢ في المائة في المغرب، مما أدى إلى انضمام شرائح واسعة من الطبقة الوسطى إلى طائفة الفقراء.

إن الزيادة السكانية تشكل عبئا على الاقتصاد، فالتنمو الاقتصادي للدول العربية لا يزيد كثيرا عن الزيادة السكانية. فتسبب الزيادة السكانية في البلدان العربية من أعلى النسب في العالم، والتي تعمل على اتساع الهمم السكانية لأصعاب الأعمار الصغيرة، بحيث يكثر من هم في سن أقل من ١٥ عاما، والذي يتعين على المجتمع أن يخلق علي إطلاعهم وسكنهم وصحتهم. فمعدل الإحالة كبير للغاية في الدول العربية، إذ يعيش ٧٢ في المائة من السكان من عمل ٢٧ في المائة، وذلك إذا وجد كل منهم فرصة عمل منتج^(٢٢) وإن هذا الوضع في الزيادة السكانية يعكس نفسه في الكثير من الدول العربية في حالة تصميم القدر. فعدد الذي يرحلون تحت خط الفقر يبلغ ٧٢ مليون نسمة وهم مرشحون للزيادة السريعة، وهذا الرقم يفوق عدد سكان الدول العربية في عام ١٩٥٠، والذين يقدر عددهم بحوالي ٢٠ مليون نسمة.

الشرق أوسطية

إن الاختلال الاقتصادي هو سبب أساسي لعدم الاستقرار الداخلي والإقليمي، فزيادة الفقر يؤدي إلى مزيد من القلاقل الداخلية والإقليمية وهو ما يؤدي إلى زيادة الاستثمار في المجال العسكري.⁽¹²⁷⁾ إن العلاقة الاجتماعية الواسعة هي الناتج الطبيعي للتطورات التي شهدتها الدول العربية في العشر سنوات الأخيرة، فالفقراء والمطلوبون عن العمل يعيشون في مناطق مكتظة بالسكان، في ظل أوضاع تنسم بالحاجة والجوع واليأس.⁽¹²⁸⁾ كما أن قطاعات عريضة معرضة للانضمام إلى هذه الفئات ولأن الفقر يترجم إلى افتقار الفرد للخدمات، فإن الأمن الاقتصادي يعتبر قضية جوهرية.⁽¹²⁹⁾

بالإضافة إلى التحديات التي تفرضها الأوضاع الداخلية للدول العربية، هناك تحديات تفرضها المنظومة الرأسمالية العالمية وأهمها:

- برامج التصحيح الهيكلية،
- المشروع الشرق أوسطي،
- المشروع المتوسطي .

وتتشترك هذه المشروعات الثلاثة في محاولتها فرض نظام اقتصادي على الوطن العربي، يتصف بالزيد من الخصخصة، ودرجة عالية من حرية الأسواق الداخلية، وحرية التجارة وحركة رؤوس الأموال الخارجية.⁽¹³⁰⁾ وتشكل عملية السلام الخارجية، لأن الصالحة هي الشرق الأوسط حسب البعض بحاجة إلى تنمية إقليمية هو خصخصة قطاع الطاقة، وذلك أن النمو الاقتصادي هو الشرط الضروري للتطور الاجتماعي والاستقرار، وعلى دوائر الأعمال في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تشجيع الحكومات على المنحى شوطاً أبعد في طريق السلام، ويمكن لدوائر الأعمال أن تعهد لذلك من طريق خلق نظام للاعتماد المتبادل، ويمكن تلخيص هذا الاتجاه بشعارين: الإقليمية وفتح الأسواق.⁽¹³¹⁾ فالفكرة الشرق أوسطية الأساسية تعتمد على أن التعاون الاقتصادي وفتح الأسواق بين دول المنطقة بما فيها إسرائيل سوف يخلقان مساحة مشتركة لتخدم السلام، وتعمل على عدم تجدد الصراع. إضافة إلى مساهمتها في حل التناقضات بين الأطراف، وهي عملية تدار من خارج المنطقة عبر المنتدى الاقتصادي في دافوس ومجلس العلاقات الخارجية الأمريكية في نيويورك، وبمعنى آخر، أنها تدبر من رغبة خارجية أكثر من كونها ضرورة داخلية للأطراف المعنية.⁽¹³²⁾ وهذه الأطراف تسعى إلى فك العلاقة بين بناء السوق الإقليمية وعملية السلام، لأن السوق الإقليمية المشتركة يجب أن تعكس توجهات جديدة في المنطقة بحيث يسود النمط الحضاري الغربي، الذي أصبحت «السوق» بعبثضاء أكثر أهمية من الدول المنفردة، وأصبح الجو انتقائسي أهم من وضع الحواجز على الطريق، ولهذا يجب ألا تؤثر العلاقات الاقتصادية أو ترتبط بعملية السلام، إذ هي الإمكان الشروع في تعاون اقتصادي لامتناهين الخارجية السياسية، وفي الإمكان أن تسوق العلاقات الاقتصادية العلاقات الدبلوماسية.⁽¹³³⁾

إن كلا من الشرقيين الأوسط والشرقيين، هو محاولة لتحويل الاهتمام العربي عن التعاون والتكامل بين الدول العربية - مع أنه اهتمام محدود وغير مستقر - صوب الاهتمام بالتعاون والتكامل بين بلدان الشرق الأوسط بالتنمية للمشروع الأول، أو التعاون والتكامل في دائرة حوض البحر المتوسط بالتنمية للمشروع الثاني، وكلا المشروعين انطلق من أهمية الاقتصاد، واتخذ معياراً لاستفتاء دول بذاتها وتعبئة دول أخرى ومحاكماتها - وهي تبني على عجز الدول العربية عن تشكيل سوق اقتصادية عربية توظف خبراتهم لحسابهم الخاص، لذلك فإن استمرار النظام الاقتصادي العربي على أدائه الحالي سوف يضع الوطن العربي في خدمة الآخرين مستجيباً للشروط التي يملوها عليه.

التحدي الأمني

منذ أربعة عقود أخذت النظرة إلى مفهوم الأمن تختلف، فلم يعد الأمن يعني القدرة العسكرية حصص، وأخذ مصطلح الأمن يخرق الحالات غير العسكرية ليعم كل القضايا التي تشكل تهديداً في حال ارتباطها بالخارج، فظهرت القيودات الأمن الاقتصادي والأمن الغذائي والأمن التكنولوجي... إلخ - فضمن أمن المجتمعات أصبح يتجاوز المعنى العسكري، ومنذ كتب روبرت ماكنمار وزير الدفاع الأمريكي السابق أن الأمن يتجاوز القدرة العسكرية، توسع بشكل معقد الفهم لينتقل من هذا المفهوم، وهو يخلق على الدول القائمة أكثر من غيرها، فلي هذه الدول التي تواجه تحديات أمنية فإن الأمن القاسم ينتج من التنمية، والأمن ليس هو المعدات العسكرية، وإن كان يتضمنها، والأمن ليس القوة العسكرية، وإن كان يتضمنها، والأمن ليس النشاط العسكري، وإن كان يتضمنه، «والأمن ليس النشاط العسكري التقليدي، وإن كان يشمل، إن الأمن هو التنمية، من دون تنمية لا يمكن أن يوجد أمن، والدول التنموية التي لا تنمو في الواقع لا يمكن، ببساطة، أن تظل أمة»⁽¹⁴⁾ فالاعتماد على ميزان القوى العسكري، لا يمكن أن يشكل الدعامات الرئيسية الوحيدة للأمن العربي، لأن مفهوم الأمن العربي الشمولي هو القائم على صيانة ذلك الأمن، بخلاف أن التهديدات والمخاطر التي تواجه الأمة، تطوي في بنيتها عناصر أزمة مستمرة، وإذا ما تواظرت عوامل الردع العربي، فسيكون الحل الأمثل للردع عن الأمة ومصلحتها، ذلك أن الردع ليس سلاحاً عسكرياً حصص، وإنما له أوجهه المختلفة: فالردع هيبة تفرض ذاتها، أو قدرة اقتصادية أو سياسية أو معنوية تؤثر في الخصم إن وجهت عليه، أو قوة قادرة على إيقاع الأذى بمصالح الخصم دون قتال - أو سلاح⁽¹⁵⁾ - ومن هنا فإن معادلة الأمن أخذت لتجاوز القوة العسكرية لتشمل مقدرة المجتمع الشاملة، وأصبحت أسس الأمن تقام على ثلاث دعائم رئيسية: القوة المسلحة، والتنمية بمختلف وجوهها ومجالاتها، والإنسان بحقوقه وحرياته⁽¹⁶⁾.

الثقافة والأمن

لذلك فإن الأمن يجب أن يفهم ضمن منظور واسع يتخطى الناحية العسكرية، ليشمل كل مقدرات المجتمع التي يشكل ارتباطها بالخارج تهديدا لهذا المجتمع. وقد أخذت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية في دراستها عن الأمن العربي هذا المفهوم الشامل للأمن، والتي لا تزال منذ عام ١٩٩٢ معروضة أمام مجلس الجامعة لإقرارها. فقد نصت على أن «الأمن القومي العربي هو قدرة الأمة العربية في الدفاع عن أمتها وحقوقها وسيادة استقلالها وسيادتها على أراضيها، وتنمية القدرات والإمكانات العربية في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، مستندة إلى القدرة العسكرية والدبلوماسية، أخذه في الاعتبار الاحتياجات الأمنية الوطنية لكل دولة والإمكانات المتاحة والتغيرات الداخلية والإقليمية والدولية، والتي تؤثر على الأمن القومي العربي».^(٢٠)

لقد عملت التغيرات الدولية وحرب الخليج الثانية، على جعل الانكشاف الأمني للنظام العربي كاملا بعد أن هانى من الانكشاف الأمني الجزئي. فقد تعرض النظام لحالات من الهزائم العسكرية لبعض أعضائه على نحو ما جرى في هزيمة عام ١٩٦٧ ببلدان كمصر وسوريا والأردن. وعرف النظام العربي حالات ضعف قدرة الدولة على السيطرة على كامل ترابها الوطني - حالة جنوب لبنان بعد عام ١٩٧٨، وعلى الرغم من الخطورة التي شكلتها حالات الانكشاف الأمني العربي، فهي لم تكن إلا انكشافا جزئيا وقابلا للاحتواء، ولم تكن انكشافا أمنيا للنظام ككل. إن منهجية الانكشاف الأمني العربي الراهن لا تتعلق بحجم ومدى الهزيمة العراقية فحسب، لكنها تتعلق بمدى تأثيرها المنظور على قيمة النظام العربي وأهدافه وقدرته على لمة أشلائه، وإعادة تجميع عناصره مرة أخرى.^(٢١)

لقد تضافرت مجموعة المتغيرات الدولية والإقليمية على التأثير في الجانبين السياسي والعسكري في الأمن العربي وتجلت في:

- انكشاف الأمن القومي العربي أمام المخاطر والتهديدات المحيطة في الوطن العربي مع تصدع بنية النظام العربي.

- إصابة الأمن العربي بمفهومه وجوهره، حين احتلت دولة عربية دولة عربية أخرى.
- سقوط قواعد الأمن العربي الرئيسية وهي: أن السلاح العربي لا يشهر في وجه دولة عربية، وأن الاستعمارة بقوات أجنبية لمقاتلة قوة عربية أمر لا يمكن حدوثه، وأن الأمن العربي ينبع من المنطقة العربية .. وأن العرب يتحملون وحدهم مسؤولية أمنهم وسلامة وطنهم دون الاعتماد على قوى أجنبية.^(٢٢)

لقد أثرت التغيرات الدولية الإقليمية على أمن الوطن العربي، ففي الوقت الذي تبرع فيه الولايات المتحدة بصفتها القوة المركزية السياسية والعسكرية في العالم، تتراجع قدرة الدولة القمطرة على المحافظة على أمنها، لأن التفاعلات الدولية والإقليمية تؤثر تأثيرا مباشرا في أمنها،

مما يعني تراجع مفهوم السيادة الوطنية وتدخل المجتمع الدولي في شؤون الدول الداخلية، إضافة إلى أولوية الاعتبارات الاقتصادية في العلاقات الدولية، والتي تجعل الدول الصغيرة غير قادرة على حماية أمنها لوحدها، مما يعني أن مجموع الضغوط الدولية والإقليمية تعمل على ازدياد الانكشاف الأمني العربي في حال بقاء الوضع العربي على حاله، والاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من هذه الأوضاع لمعالجة الانكشاف الأمني، بوثيقة بعدى ما يتوافر للنظام العربي من خلال أطرافه وأعضائه من قدرة على استعادة المبادرة والفعل، وتوظيف ما هو متاح بصورة جماعية ومنهجية لمعالجة أوجه الخلل في التوازن الشامل بين النظام العربي ومصادر التهديد المختلفة. وإن المعالجة المطلوبة لجميع أوجه الخلل الأمنى العربي تحتاج إلى فعل جماعي أولا وأخيرا، وهو ما يحتاج إلى الحد الأدنى بين الدول العربية لتحديد العدو الرئيسي والصديق الرئيسي⁽³⁷⁾.

فالمنطقة العربية تمر بمرحلة انتقالية سواء في التسوية العربية - الإسرائيلية أو الاستقرار غير النظم في الخليج أو تصاعد أدوار جديدة في المنطقة لم تتضح أبعادها بعد، مثل التحالف التركي - الإسرائيلي، فالتوجه التركي إلى الشرق الأوسط يقوم على ركيزتين، الركيزة الأولى سيطرتها على المياه والتي ستزداد أهميتها في السنوات القادمة، فالتشريعات المائية تدخل قوتها لتركيا على المنطقة، والركيزة الثانية هي قربها جغرافيا من إسرائيل على اعتبار ذلك السبيل الأفضل لتحقيق المصالح التركية، فتركيا أصبحت منذ يوم عملية التسوية عاملا رئيسيا في مشاكل الأمن والتهديدات والتحديات الشرق أوسطية، إن التعاون التركي مع إسرائيل لتشكل محور يهدف إلى أن يشكل الطرفان الركبتين غير العربيتين في إعادة هندسة الشرق الأوسط، إضافة لتوجهات الشراكة الأوروبية - العربية، الأمر الذي يجعل محددات تهديدات الأمن القومي العربي في حالة من السيولة، حيث هناك أكثر من احتمال، ويتعلق استقرار التهديدات بنجاح أو فشل هذه الجهود أو بعضها، ولكن في جميع الحالات وأيا كانت الأشكال التي ستتلافى النجاح، فإن الأمن العربي يحتاج إلى صيغة عمل جماعية للتصدي لهذه التهديدات.

ويمكن انطلاق العلاقات العربية - العربية لتجاوز الاضطلال الذي ولد بعد حرب الخليج من مبادئ حلزمة للدول العربية حتى يتسنى لها مواجهة التهديدات الخارجية بشكل جماعي، وهذه المبادئ هي:

- أن للدول العربية كافة صغيرة وكبيرة الحق في وجود أمن، لا يقل عن حق الدول جميعها فيه، بحيث يلتزم الجميع بحماية هذا الحق.
- أن تكون الأهداف الأساسية للأمن العربي موجهة ضد التهديدات الخارجية، ومنع النزاعات العربية - العربية من التفاقم، وإزالة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تولد التهديدات المتبادلة، والعمل على استباق الأزمات ومعالجتها قبل أن تصاعد إلى نزاعات مسلحة.
- إن القوة العسكرية ليست أداة سياسية مشروعة في حل النزاعات العربية - العربية.

التعاون العربي

منذ أكثر من خمسين عاما يسعى جيل عربي لإيجاد صيغة عربية مشتركة، فكانت جامعة الدول العربية، وكان الأمل أن تطور هذه الصيغة وتنتج علاقات عربية - عربية أكثر ترابطا وصولا إلى الوحدة التي تملك الدول العربية الكثير من مقوماتها. وكانت النتيجة بعد أكثر من خمسين عاما المزيد من البعثرة والتفكك العربيين، والهجوم في ظل المتغيرات التي تشهدها المنطقة ويشهدها العالم، هناك حاجة أكبر وضرورات ملحة لإحياء صيغة العمل العربي المشترك، لعملية المستقبل العربي من الأخطار التي تهدده، وتخلق ثغرة الانكشاف الأمني الذي يعانيه الوطن العربي.

والتعاون الأمني هو ضرورة ملحة بسبب الأخطار التي تهدد الوطن العربي في محيطه ومن قلبه. لذلك يجب العمل على إنجاز «المجموعة الأمنية»^(١٤) التي تتطلب فيها المصالح المشتركة على الخلافات. الأمر الذي يجعل التجوء إلى القوة أمرا مكلفا وإذا مردود سلبي. وفي نهاية الأمر أمرا لا يمكن تصوره. ومثل هذه المجموعة تعتمد على إجراءات وأنماط وآليات التحكم في النزاعات. ومن الأفضل أن يتم ذلك على المستوى الإقليمي العربي، من خلال مؤسسة تعزز التعاون والتكامل العربي. ومن هنا **الحاجة إلى إنهاء دور الجامعة العربية وإعادة النظر في أدائها حتى تستطيع أن تقوم بالمهام الثلاثية على عاتقها** في ظل ما يجري في العالم والمنطقة. إن تحقيق الاستقرار يحتاج إلى إقامة توازن دقيق على المستوى الوطني والإقليمي والدولي. وهو ما يتطلب توفر القدرة لدى الدول العربية على توفير الإطار الكارز والمناصب للحفاظ على توازن مستقر، وإقامة الترتيبات التعاونية من أجل ضمان هذا الاستقرار والتحول دون خروج أي من أطراف النظام عليه. لأن الحلول الوطنية لم تعد ناجعة لا على الصعيد الأمني فحسب، بل وحتى على الصعيدين الاقتصادي والسياسي.

إن اللحظة الزاهنة التي تمر بها المنطقة هي لحظة حاسمة بكل المقاييس، فهي إما أن تكون نقطة انطلاق نحو بناء، أو بالأحرى إعادة بناء. نظام إقليمي عربي فاعل ومؤثر في السياسات الإقليمية والدولية، أو ذوبان النظام العربي إلى عدة نظم فرعية ملحقة بنظام دولية وإقليمية أخرى، سواء في الشرق أو في الغرب. وبعبارة أخرى إما أن يكون هناك نظام عربي بصيغة ما - يجب البحث فيها بصراحة وعمق - أو يكون (لا نظام عربي) على الإطلاق.^(١٥)

إن على الدول العربية أن تترك مصالحها، وإدارتها لهذه المصالح يدفعها إلى العمل المشترك، فلكي يتم التعاون العربي - العربي، لا بد للدول العربية من أن تملك شعورا بمصالح مشتركة على أقل تقدير، ولا بد أن يتعامل بعضها مع بعض. طالما أن هناك مخاطر تهددها من جميع الجهات.

أخيراً : المطلوب حياداً للرد على التحديان

إن صورة مستقبل المنطقة العربية محكومة بمستوى التصدي الذي تختاره الدول العربية للتحديات المطروحة عليها . فكلما كانت الاستجابة العربية لهذه التحديات أعلى ، كان التفاؤل بصورة مستقبل

أفضل ممكناً . وكلما كانت الاستجابة متجاهلة للتحديات ، فإن الوضع العربي سيكون عرضة لتفككه أكبر وتكون الصورة أكثر سوداوية .

إن مثلث التحديات المطروح على المنطقة العربية ، يحتاج إلى جهود جماعية كبيرة . كما يحتاج إلى رؤية واضحة للمصالح العربية والعمل عليها . والوضع العربي الراهن لا يبعث على التفاؤل بشأن التصدي لهذه التحديات .

وإذا كان من الصحيح أن التغيرات التي يشهدها العالم من اتجاهات العولمة الساحقة تؤثر على مستوى التصدي للتحديات المطروحة ، فإن هذه العولمة كاتجاه نحو سيادة نظام محدد من العالم كله مع مزاياه نهج اقتصادي وسياسي وأثر اجتماعي ، ومواقع راجعة لتغريب وثقولات المتحدا على رأسه ، لا تقلل الباب أمام الشعوب على تحقيق مصالحها إذا أرادت ذلك . وينطبق ذلك على العرب الذين يمثلون كل المقومات اللازمة لتحقيق هذه المصالح ، الطاقات البشرية والمادية ، والموقع الاستراتيجي الخاص . مما يقتضي من مواجهة التحديات الجديدة والتزاع الثلاثة اللاحقة بهم.^(١٩)

<http://ArchiveBeta.Bakhrat.com>

ولأن المنطقة العربية لا تعيش في فراغ ، فهي تحتاج إلى مد ، فإذا لم يملأها نظام إقليمي عربي فاعل ، سيطرها الآخرون بنظام إقليمي يخدم مصالحهم ويكون على حساب العرب . وتجربة مؤتمرات القمة العربية في عقدتها الأول ١٩٦٤-١٩٧٤ ، استطاعت أن توفر العد الأدنى من الاتفاق على الأهداف القومية ، خصوصا في ما يتعلق بمصادر تهديد الأمن القومي العربي وكيفية تحفيقه ، مما شكل بداية وأعدة . ولكن هذه المؤسسة القومية ما لبثت أن اهتزت فعاليتها في العقد التالي ١٩٧٦-١٩٨٦ . وكانت لتلاشي في العقد اللاحق . وهكذا لم تعد توجد مؤسسة عربية قومية واحدة تستطيع على الأقل أن ترسم الأهداف القومية العليا للامة العربية ، إما بسبب عدم انتظام الاجتماعات ، وإما بسبب عدم الالتزام بما تعمل إليه من توصيات.^(٢٠) ومن هنا لا بد من العودة إلى إحياء مؤسسة القمة العربية لأنها الوحيدة القادرة على تحديد الأهداف العربية ، والمبادرة على إعطاء صورة مختلفة للعرب ، كما أنها تحتاج إلى نظام سريع وواضح وسريع ، لأن تسارع الأحداث يحتاج إلى استجابات سريعة .

إن ضرورات التحذير في مثل الوضع العربي الراهن لا تكفي ، لذلك يجب صياغة سياسات فعلية للتعامل مع اختراق المنظومة الرأسمالية ومع التهديدات الإقليمية . فهذه الظروف تجعل

الشرق الأوسط

بالتجاهل بحيث لا تترك أي خيار ثالث، إما التهميش الضعيف للدول العربية، ودفع ثمن كبير لعدم التصدي للتحديات، وإما العمل الجماعي العربي الذي يتصدي لهذه التحديات وينقل إلى حد كبير من حجم الخطاطر التي تشكلها على البلدان العربية.

كما أن الدول القطرية لا تستطيع التصدي لهذه التحديات منفردة مهما كان حجمها ومهما كانت قدرتها، فالمستقبل للكيانات الكبيرة، ولا مكان فيه للكيانات الصغيرة لأسباب سياسية واقتصادية وأمنية باتت معروفة. حتى على مستوى الكوارث والأزمات الاجتماعية تحتاج الدول العربية إلى العمل الجماعي، فالكوارث لا تعجز الحدود الوطنية، وفي بعض الظروف تحرك ملايين المهاجرين عبر الحدود، وعندما يشتد الجوع، أو تشتد الأزمات، فمن الطبيعي في العالم المعاصر ألا ينادي أحد بنفسه بعيداً عن ذلك، سواء على المستوى المحلي أو الإقليمي أو العالمي. وهنا يكون حظ الكيانات الأصغر في وسط ذلك مهدداً حتى باختفائها.^(١٤)

إن الأوضاع الداخلية للدول العربية تضاعف من التهديدات الخارجية للدولة القطرية. فالمعتمد من الدول العربية يعاني من تصدع الجبهة الداخلية لتعثر الدولة في إدارة مجتمعاتها واقتصادها، وهي أوضاع تجعل بعض التكوينات الاجتماعية مهددة بشكل مباشر أو غير مباشر بخدمة أطراف خارجية. كما يعمل شلل النظام العربي ومجزء عن الاستجابة الجماعية في الدفاع عن أعضائه في حال تعرض أي منها لخطر خارجي على زيادة عدم الاستقرار للدولة القطرية. وترتبط هذه العوامل بغياب مشروع عربي حول مستقبل النظام الإقليمي، وغياب أي تصور جدي لتوجهات تنمية مطروحة على المدى الطويل.^(١٥)

إن لظواهر أوضاع داخلية من هذا النوع، مع أوضاع إقليمية لا تعمل لصالح الدول العربية وعزلة شرسية، يجعل حجم التحديات الداخلية في كل بلد عربي في حالة ازدياد، وستكون مصادر هذه التحديات متعددة. بعضها ردود فعل داخلية لمعجز الدولة القطرية عن معالجة التحديات الخارجية، مثل تلك السيادة الوطنية وازدياد الهيمنة الأجنبية، والتهديدات أو الهزائم الخارجية، أو الضغوط الاقتصادية من النظام العالمي.^(١٦) إن هذه الأوضاع تشير بوضوح بالفارقة مع التجارب الأخرى في العالم، إلى أن المستقبل هو لعالم الكيانات القوية، وربما تستطيع التجمعات الإقليمية للمعاسكة، والتي تسبق فيما بينها بقدر متطلبات أمنها الإقليمي، أن تصوغ مستقبلاً لها على خريطة العالم.^(١٧)

فمن الواضح أن التحديات التي تواجهها الدول العربية تتجاوز ما يستلزمه منه المفاوضات العربية - الإسرائيلية، فهناك الكثير من القضايا الإقليمية التي ستبقى دون حل حتى بعد إنجاز التسوية الشاملة، كما أن التسوية تحتاج إلى وقت لاستقرارها وإنجاز الثقة بين أطرافها بعد الصراع الطويل الذي شهدته المنطقة. لذلك من المهم المحافظة على حد أدنى من العلاقات العربية العربية خلال المفاوضات للوصول إلى حلول تحقق حداً أدنى من المطالب

العربية، وتشميل وتطوير هذه العلاقات للاستجابة للتحديات المطروحة المتجاوزة للتنسية، وبما يتناسب مع التطورات التي تشهدها المنطقة، لأن قضايا كبرى تتعلق بمستقبل العلاقات العربية العربية تشكل بعيدا عن العلاقات العربية - الإسرائيلية، فإن من الضروري معالجة العلاقات العربية - العربية في إطار أوسع من تطور مسار العلاقات الناتجة عن التفافات السلام التي تقود إليها عملية التسوية الراهنة.⁽¹⁾

إن الواقع العربي الراهن محصلة تطور العلاقات العربية العربية باتجاهات سلبية، كما أنه لا يدعو إلى التفاؤل بالمستقبل، فالاحتمالات تشير إلى استمرار العلاقات السلبية في المستقبل، على الرغم من ذلك هناك الكثير من الهدوء التي تشير إلى احتمالات تطور أخرى إذا وجدت الإرادة الجماعية، فالمستقبل ليس أمرا مفروضا أو محتوما، إنما هو بدائل متنوعة تتداخل في صياغتها قوى متعددة يمكن تحليلها والتعامل معها.⁽²⁾ إن معالجة الاختلالات التي يعاني منها النظام العربي هو المدخل لترميم الصورة العربية والانطلاق إلى الأمام، وعلى رأس هذه الاختلالات الاختلال الوظيفي والاختلال التنفيذي، ويتمثل الاختلال الوظيفي في الاستجابة العربية للمنشروط الخارجية على حسنة النظام العربي، مما يتطلب الوفاء بوظائفه والسمة من الأدوار المتناقضة، ويعكس ذلك على قدرة النظام العربي على الأداء الموحد لوظائفه، ويترتب على هذا الاختلال ظهور النظام العربي بمستوى بالمر، ويدفع باتجاه التحلل من الالتزامات التعاقدية في إطاره من إلهاء الدول الأعضاء.⁽³⁾ أما الاختلال التنفيذي يتمثل في التوجه الكبيرة والمنظمة بين القوي التي تلتقيها الدول العربية على ذاتها وبين تنفيذها بالفعل، فالانقسامات التي حدثت بين الأطراف العربية، كانت ولا تزال كافية لهيوض النظام العربي بالوفاء بجانب كبير من وظائفه والتصدي للتحديات الماثمة التي تواجه العالم العربي.⁽⁴⁾ فالوطن العربي لا يشكو نقصا أو شحها في المنظمات القومية أو الاتفاقيات أو الأدوات الموصلة بشكل عام لتكون آتية ووسائل العمل الجماعي.⁽⁵⁾ وإنما نحتاج هذه المنظمات القومية أو الاتفاقيات أو الأدوات المؤهلة لأداء وظائفها على الطريقة المثلى، وهذا الإحياء يحتاج إلى إرادة جماعية عربية، تترك مصالحها وتحدها، وتعمل على إطلاق هذه الأدوات لتنفيذ السياسات العربية الجماعية، التي تعمل على حماية المستقبل العربي من المخاطر المرجحة.

إن التحديات الاقتصادية التي تواجه الدول العربية تدفع لا محالة إلى العمل العربي المشترك، فلا يوجد قطر عربي واحد يعطى بها يكفي من تكامل موارده الطبيعية والبشرية، كما أن العمل المشترك يعطي مقبرة أكبر على التنافس، فالإنتاج الحديث هو إنتاج كبير قد زاد إلى حد أن الأسواق القومية أصبحت أضيق من أن تسمح بعزل من زيادة الإنتاج أو تحلق أرباحا أقصى.⁽⁶⁾ والعمل العربي المشترك يحلق مزايا ومنافع اقتصادية، من خلال الاستفادة

التنمية العربية

من التوسع حجم السوق ووفرة الإنتاج وزيادة قوة المنافسة الاقتصادية العربية، وبالتالي تحقيق معدلات نمو اقتصادية عالية للاقتصادات العربية وحمايته من التحديات والأخطار السياسية والاقتصادية الخارجية وضمان مستقبله.⁽¹⁾ فلا خيار للدول العربية إلا أن تضيف إلى الاعتماد على النفس في كل قطر من الأقطار العربية، الاعتماد الجماعي على النفس لجموع هذه الدول، ضمن المنحى لتجاذب تنمية قطرية في ظل الظروف الاقتصادية التي يشهدها العالم، وفي ظل التكتلات الاقتصادية المتزايدة.

إن التنمية العربية بحاجة إلى علاقات تكاملية بين القطري والقومي، بحيث يجب الاحتفاظ بالأهداف القطرية للتنمية والسعي لتحقيقها، مع عدم إغفال الأهداف القومية بل الالتفات إليها، بحيث يتحقق تفاعل وتشابك في ما بين مجموعتي الأهداف وتستفيد كل من التنمية القطرية والتنمية القومية من التغذية العكسية بينهما، وبالنظر إلى تجارب تكتلات اقتصادية إقليمية كبيرة في العالم، يمكن التأكيد على أن التظففة العربية تستطيع أن تسرع تميئها، كأقطار ومناطق، بفضل التعاون والتكامل في مجالات التجارة والسياحة والاستثمار والعمل ضمن منظور قومي بعيد المدى للمصالح القطرية والقومية، فلا يمكن التغاضي عن هذه العطيات على الرغم مما يشهده العالم من تطورات بارزة في مجال قيام تجمعات اقتصادية كبيرة، لا يجمع بينها ما يجمع بين الأقطار العربية من روابط ومصالح⁽²⁾، كما ينبغي لهذه التنمية أن تستفيد المجتمع بأكمله أي شرائح الدخل المتوسط والعالي إلى جانب شرائح الدخل المنخفض، وينبغي بالتالي أن تتطور بفضلها القدرة الوطنية الإنتاجية لتتمكن من تلبية مجموع المطالب لهذه الشرائح.⁽³⁾ إن التنمية ليست معركة كبيرة واحدة تطاض خلال زمن قصير، إنها سلسلة من المعارك المتتالفة عبر فترة زمنية طويلة نسبياً يخوضها المجتمع بأسره.⁽⁴⁾ إن هدف التنمية المستقلة ليس مجرد زيادة معدلات النمو، ولا زيادة نصيب الدول العربية من الإنتاج الصناعي العالمي فحسب، بل سيكون الهدف الرئيسي زيادة توجيه النشاط الاقتصادي والصناعي تدريجياً ليحقق اقتصاداً وصناعة عربية مستقلة ومتكاملة، تحقق التشابك الاقتصادي بين الدول العربية وتستطيع أن تسد حاجات السوق العربية.

إن إقامة صناعة واقتصاد منطويين تحتاج إلى مجموعة من الشروط التي تجعلها قابلة للنجاح خاصة أنه في القرن الحادي والعشرين ستكون هناك منتجات عالية التقنية وأخرى منخفضة التقنية، ولكن غالبية المنتجات والخدمات سيتم إنتاجها بعمليات عالية التقنية.⁽⁵⁾ مما يجعل للتوظيف في الإطار العلمي أولوية لا يمكن تأجيلها، فيجتمع المستقبل هو مستقبل مجتمع المعلومات والتكافة البشرية العالية، والوضع العربي في الإطار يحتاج إلى الكثير من العمل، فإحصائيات المنظمات الدولية تدرج كل الدول العربية دون استثناء ضمن الدول الجائعة لمعلوماتها.⁽⁶⁾ فهناك شروط لابد من توفرها حتى تستطيع الدول العربية التصدي للتحديات

الاقتصادية المطروحة عليها. ففي دراسة للبنك الدولي عما يسمى «معجزة الاقتصادية في شرقي آسيا» صنفت أسباب النجاح وهي بالتقريب: تكوين رأس مال بشري- معدلات ادخار عالية. ومعدلات استثمار مرتفعة، وعدالة التوزيع⁽¹¹⁷⁾. وهناك متطلبات للنمو التكنولوجي، لأي قطر نام يسمى إلى إحراز مستوى عال من التكنولوجيا.

- وجود قوة اجتماعية، طبقية أو نخبة قادرة على تحديد أهداف تكنولوجية واقعية، وتنظيم الموارد البشرية والمادية للقطر من أجل تحقيق هذه الأهداف.

- الوصول إلى جمهرة فعالة من العلماء، ومن قوة العمل الفنية الماهرة من أجل هذا المستوى المطلوب في التكنولوجيا والمحافظة عليه.

- امتلاك أو سهولة الوصول إلى موارد كافية على هيئة مواد خام أو رأس مال، حتى يضمن ألا يحول دون تقدمه التكنولوجي غياب المواد الخام أو رأس المال.

- وجود سوق للمنتجات التكنولوجية المتقدمة⁽¹¹⁸⁾.

إن متطلبات التطوير التكنولوجي لا تقتصر على المتطلبات الاقتصادية فحسب، بل لها ارتباط متين مع التحدي الأمني المطروح على الدول العربية، ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتنمُّج العربي. خاصة في ظل النقاد المتسلح للأسلحة الحديثة. فهذا التطور يوفر الاعتماد العربي على الذات في إنتاج الأسلحة وبوسائل الإنذار المبكر التي أصبحت ضرورة حاسمة من ضرورات حماية الأمن الوطني. كما يعمل على هذه الارتباط بشكل تدريجي بالدول المصدرة للأسلحة للدول العربية. ومن هنا تبرز أهمية التكنولوجيا في تطوير الأمن العربي، من خلال اعتمادها على نفسها في التطوير والتدريب، ولا شك أن التنسيق والتعاون العربي في هذا المجال قادران على إنجاز الكثير في مجالات التسليح والدفاع العربي المشترك. كما أنهما قادران على إنجاز الكثير في الاقتصاد والصناعة وتسويق للنتائج العربية.

إن تصورات محددة حول التعاون والتكامل العربي المشترك اللذين يخدمان المصلحة العربية المشتركة، ضرورة عربية ملحة في اللحظة العربية الراهنة، على ألا يفهم تبني منظور عربي جماعي أنه تجاهل للوحيدات السيادة الوطنية القائمة في الوطن العربي، بتعديدها وخصوصيتها، وهي مصدر إثم له، مما يجعلها جذيرة بالحفاظ والريادة⁽¹¹⁹⁾، بدون أن يتم إدخالها بعلاقات تناقضية مع العمل المشترك. فالملاقات التكاملية بين الدولة القطرية والعمل الجماعي، هي آلية عمل واقعية لإنتاج الانسجام وتطوير العلاقات العربية - العربية إلى مستوى أعلى.

لقد تراجع العامل الأيديولوجي في تصنيف الدول العربية بعد الثورات التي شهدتها اتعالم وشبهاتها المنطقة، وهو ما يفترض حدوث مرونة عالية عند الدول العربية في إنشاء علاقاتها البيئية بما يخدم مصالحها، وهو ما يحتاج إلى عمل سريع وفعال، فإذا كان يحسب للدول

الطريق أوسطية

العربية أنها أول مجموعة نوابية بعد الحرب العالمية الثانية تقرر التعاون الاقتصادي فيما بينها، بدءاً من ميثاق الجامعة العربية (١٩٤٥)، مروراً بمعاهدة الدفاع للشترك والتعاون الاقتصادي (١٩٥٠)، واتفاقية الوحدة الاقتصادية (١٩٥٢)، وميثاق العمل الاقتصادي القومي العربي (١٩٥٠)، وصولاً إلى قرار القمة العربية بإقامة منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى (١٩٩٦)، فقد أصبح يحسب عليها بعد خمسين عاماً من تتابع إصدار الوثائق أنها أصبحت غير مهتمة بتقويض ما وقعت عليه.^(١٢٦) إن الوضع العربي الراهن يحتاج إلى عود على بدء لتفعيل كل الاتفاقات السابقة ومواءمتها مع الظروف الجديدة، فلا خيار أمام الدول العربية مستقبلاً، إما أن يندثروا في أنظمة إقليمية شرق أوسطية وملاوسطية، وإما أن يتم إحياء العمل العربي المشترك لبناء نظام إقليمي عربي قوي، يشارك في المشاريع الأخرى من موقع معرفة مصالحه وقدرته الدفاع عنها، لذلك على العرب، أن يمولوا مشروعاتهم القادرة على التصدي للتحديات المطروحة على الدول العربية، بدلاً من أن يمولوا مشاريع وطموحات الآخرين.

خاتمة

إن مستقبل المنطقة العربية مرهون بأداء دولها في العمل الجماعي التكافلي المشترك، وعلى الرغم من كل المؤشرات السلبية في الواقع العربي الراهن، إلا أن المستقبل ليس مفروضاً على المجتمعات العربية، وإنما يمكن تلمس أن يسطروا تاريخهم، وإن يكون لهم دور في تقدير مصيرهم وبناء مجتمعاتهم، فإن الإرادة العربية الفاعلة القادرة على التغيير والإنجاز يجب أن تكون جزءاً أساسياً من الواقع العربي القادم، إرادة تحدد أهدافها وتعمل على إنجاز هذه الأهداف، من خلال رؤية استراتيجية متكاملة تربط بين الواقع والمستقبل الذي ننتظره، ودراسة المستقبل ليست هروباً من مواجهة الواقع، بل هي تنبيه إلى المشكلات التي تتخطى هموم الحاضر الفورية، والتي تفرض علينا عدم الاكتفاء بمواجهة ما هو آتي، وما جاز، بل نضع في حساباتنا تحديات المستقبل وإمكانياته ومخاطره، فإن لم نخطط لمستقبلنا فسوف يخططه لنا الآخرون.^(١٢٧) والخطط الاستراتيجية للمستقبل يفترض أن يتشكل من عناصر متعددة سياسية واقتصادية وثقافية وتكنولوجية... إلخ طالما أننا نسعى لبناء المستقبل على المدى البعيد، والبشر هم المصدر الرئيسي للاستراتيجية بوصفها العمل على ربط الواقع بالطموح، وهي تحتاج كل الخبرة التاريخية للشعوب واستثمارها في إنتاج صورة المستقبل على أفضل وجه.

إن المستقبل لا يقدم نفسه على طبق من فضة، وإن كل ما نخطط أن نحافظ على نفسه حتى نصل إليه، إن المستقبل يستطیع أحياناً أن يفاجئنا بأحداث وتطورات لم يدخلها المخططون في الحسابات، وهذا ما يحتاج إلى مرونة عالية في المخطط التي توضع للمستقبل،

والأهم من ذلك أن كل يدل من البدائل المستقبلية الممكنة تتطوي على ثمن وكلفة.^(١٢٢) وأي مستقبل يطارده العرب يجب أن يكونوا مستعدين لدفع ثمنه.

وعلى العرب أن يدركوا أن الصالح المشتركة يمكن هي النهاية أن تعود إلى مزيد من التعاون فيما بينهم، والتطفيف من الصراع العربي - العربي. وهذا ما يحتاج إلى انتظار في المشكلات العربية بكتير من العقلانية. هذه العقلانية التي لا يمكن التوصل إليها إلا بتفكيك هذه المشكلات، وتجزئة العمل المشترك إلى أهداف مرحلية صغيرة، بحيث يمكن تحقيق إنجازات متوالية منها تبعاً للحاجات الفعلية والإمكانات المتاحة.^(١٢٣) وأن تجزئة العمل المشترك لا يعني البطء بإتخاذ المهمات الطروحة، لأن الجميع في هذا الوقت يخضع لضغط الزمن، بحيث أصبحت عملية صنع القرار في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، والتي تحتاج إلى جميع المعلومات وتحليلها، واتخاذ القرار، يتسارع إيقاعها.

وترتب على ذلك ظاهرة بالغة الأهمية، قصور العمر الزمني للأفكار والمفاهيم والإجراءات وحتى المنظمات، بحيث أصبح النجاح مرهوناً بالقدرة على الإبداع والتجديد.^(١٢٤) وفي ظل هذا التسارع، لم تعد تجدي سياسات امتصاص الضغوط واحتواء الأزمات، وتأجيل المشكلات تحت دعوى تلبية طوارئ المدى القصير على مطالب المدى الطويل، فقد أصبح في حكم اليقين أن الحلول الجزئية والتسوية لمنازل اليوم ستتولد عنها أخرى جديدة تصاف إلى مشاكل القدر، ولا بد من التوجه إلى حلول تحديث المستقبل لإشراك ممزوجة بالآثار الثقيل الذي خلفه ماضيها، ولأن الأمور تتحرك بسرعة مخيفة، فهي لا تتيح لنا بممارسة عاداتنا القديمة في تصدير مشاكلنا للأجيال القادمة.^(١٢٥)

وبحكم الواقع العربي الراهن الذي لا يدعو للتفائل، فإن أسلوباً صورياً للمستقبل هي تلك التي تلحظ عن الموقف السلبي من محاولة صنع المستقبل، موقف التخلي عن حرية الإرادة الإنسانية، وترك الأحداث لتصنع مستقبل الناس.^(١٢٦) فالمستقبل برمته لإنتاج الأسوأ. ولأن هذا الأسوأ ممكن دائماً وهي كل الظروف، فإن على العرب أن يكونوا على أهبة الاستعداد، ولأن التاريخ لا ينتظر أحداً، ولا يرحم أحداً، وسنجد أنفسنا بعد حين خارج التاريخ، هذا إذا لم ندخل بعد في الخروج.

- 1- لستر تايو، الصراع على القوة - مستقبل المنطقة الاقتصادية بين أمريكا واليابان - ترجمة أحمد فؤاد، بلع - سلسلة عالم المعرفة - عدد ٢٠١ - الكويت ١٩٩٥ - ص ١٢.
- 2- المرجع السابق - ص ١٢.
- 3- رشيد الحارثي - شكل المباحثات العربية المتبادلة في العقد القادم - في كتاب جماعي بعنوان «العقد العربي القادم: التطلعات والتحديات» - مركز دراسات الوحدة العربية ومركز الدراسات العربية المعاصرة جامعة جوتنبرج - ١٩٨٦، ص ٧٢.
- 4- مارتن تشيك، ما وراء ثوران النفط، طيار أمريكا في الشرق الأوسط - مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق - بيروت ١٩٩٢ - ص ١٢.
- 5- محمد السيد سليم - العرب فيما بعد العصر البعثي: المخاطر والفرص - في كتاب جماعي بعنوان «التيار الاتحاد البعثي وتأثيراته على الوطن العربي» - تحرير طه عبد العظيم - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام - القاهرة - ١٩٩٢ - ص ٩٢.
- 6- محمد المسالك - علامة استفهام حول مستقبل جامعة الدول العربية - جريدة الشرق الأوسط ١٩/٩/١٩٩٧.
- 7- محمد السيد سليم - المرجع السابق - ص ٢١١ - ٢١٢.
- 8- مارتن لندريك - المرجع السابق - ص ١٢.
- 9- روبرت إي. هنتز - البلد من الصغر السياسة الخارجية الأمريكية في التسميات - مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق - بيروت ١٩٩٢ - ص ١٢.
- 10- محمد السيد سليم - تطورات السياسة الخارجية - في العدد ١٩٩٤ - ص ٢٥٧ - ٢٥٨.
- 11- أحمد يوسف أحمد - الوضع العربي الراهن وسبل التغيير - مجلة المستقبل العربي - العدد ١٥٩ - بيروت ١٩٩٢ - ص ١٢.
- 12- مارتن لندريك - مرجع سابق - ص ١١ - ١٥.
- 13- المرجع السابق - ص ١٢.
- 14- ريتشارد نيكسون - ما وراء الستار - ترجمة مالك صاي - الأملية النشر والتوزيع - عمان - ١٩٩٥ - ص ١٥٧.
- 15- حسن أبو طالب - نحو نظام أمن عربي فعال - في كتاب جماعي بعنوان «الحق التملكون العربي في التسميات» - تحرير السيد بسيم - منتدى الفكر العربي - عمان - ١٩٩٥ - ص ٦٧.
- 16- محمد السيد محمد - الاختلافات الثقافية في النظام العربي - قراءة من منظور تيار الوحدة المجتمعات السياسية العربية - في كتاب جماعي بعنوان «الحق التملكون العربي في التسميات» - مرجع سابق - ص ١٧ - ٢٢.
- 17- جان لويس ديفور - العلاقات العربية - العربية في ظل المتغيرات الإقليمية - في كتاب جماعي بعنوان «تسميات العالم العربي في ظل المتغيرات الدولية» - مركز الدراسات العربي - الأوروبي - باريس - ١٩٩٤ - ص ١٢٢.
- 18- ران كسلوف - مع العداء يأتي النصر - صحيفة هآرتس الإسرائيلية ١٩/١٢/١٩٩٢.
- 19- زائد الطم - حديث - حقائق المتغيرات السورية - الإسرائيلية - مجلة الدراسات الفلسطينية - العدد ٢٩ - شتاء ١٩٩٧ - ص ٩٨.
- 20- جيل مطر - مستقبل التدوية السلفية للصراع العربي الإسرائيلي: نظرية عامة - مجلة المستقبل العربي - العدد ٢٠١ - ١٩٩٦ - ص ٤٦.

- ٢١- شمعون بيريز - على مفترق القرن ٩١ - جريدة هارلدين الإسرائيلية ١٧/٦/١٩٩٧ - نشرت ترجمتها في جريدة المنير اللبنانية ١٧/٦/١٩٩٧.
- ٢٢- World Bank, *glossing the Future* (Washington, D.C., 1995).
- ٢٣- علي الدين هلال - التحولات العربية في مرحلة السلام - الحلقة الأولى - جريدة الاتحاد الإسرائيلية ١٨/١/١٩٩٨.
- ٢٤- لشريق روبنبرغ - إدارة يوش والقلمطينيون - إعادة تقييم - في كتاب جماعي بعنوان «فلسطين والمسيحية الأمريكية» من ويكسون إلى كثلون - تحرير ميخائيل سليمان - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٩٦ - ص ٢٧٧.
- ٢٥- جر ستوناد - إدارة كليلتون والقضية الفلسطينية - في المرجع السابق ص ٢٠٨.
- ٢٦- لسان سلامة - العرب - إسرائيل - أمريكا - والمفاوضات - مجلة المستقبل العربي - العدد ١٧٢ - ص ١٢.
- ٢٧- جميل مطر - مستقبل القضية الفلسطينية الصراع العربي - الإسرائيلي: نظرة عامة - مرجع سابق - ص ٦٨.
- ٢٨- لسان سلامة - المرجع السابق - ص ١٢.
- ٢٩- جميل مطر - المرجع السابق - ص ٥٩.
- ٣٠- تحسين بشور - عصر قضية السلام - ميخائيل المستقبل العرب - جريدة النجاة اللبنانية ١٩/٩/١٩٩٦.
- ٣١- ويتشارد نيكسون - ما وراء السلام - مرجع سابق - ص ١٢٩.
- ٣٢- ويتشارد نيكسون - القضية الفلسطينية - الوحدة بعد صدي في عهد - دار الهلال - القاهرة ١٩٩٢ - ص ١٢٩.
- ٣٣- المرجع السابق - ص ١٢٩.
- ٣٤- مارتن ديفيد - ما وراء الزواجر القوية كيان أمريكا في الشرق الأوسط - مرجع سابق - ص ٩.
- ٣٥- المرجع السابق - ص ٩٩.
- ٣٦- ويتشارد نيكسون - ما وراء السلام - مرجع سابق - ص ١٢٥.
- ٣٧- المرجع السابق - ص ١٢٩.
- ٣٨- خالد الحسن - حول ما يسمى المفاوضات السلام في الشرق الأوسط - جريدة العلم العربية ٢٨/٨/١٩٩٢.
- ٣٩- لسان سلامة - العرب - إسرائيل - أمريكا - والمفاوضات - مرجع سابق - ص ٨.
- ٤٠- شمعون بيريز - الشرق الأوسط الجديد - دار الجليل - عكا ١٩٩١ - ص ٨٨.
- ٤١- جميل هلال - استراتيجية إسرائيل الاقتصادية للشرق الأوسط - مؤسسة الدراسات الفلسطينية - بيروت ١٩٩٥ - ص ٩٢.
- ٤٢- المصدر السابق - ص ٢.
- ٤٣- Yossi Beilin, *A Vision of the Middle East: The state of Israel* Tokyo, December 13, 1993.
- ٤٤- شمعون بيريز - عصر جديد لا يطبق للمخلفين ولا يفكر للعباءة - في كتاب جماعي بعنوان «ماذا بعد صانعة الخلق» رؤية عالمية لمستقبل الشرق الأوسط - مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة ١٩٩٢ - ص ١٠١.
- ٤٥- المرجع السابق - ص ١١١.
- ٤٦- علي الدين هلال - الجامعة العربية والسلام العربي الإسرائيلي - مجلة عالم الفكر - المجلد الخامس والعشرون - العدد الرابع - أبريل / يونيو ١٩٩٧ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - ص ٢٧.
- ٤٧- يوسف صباغ - منظور الشرق الأوسط وثلاثه بالمسبة للعرب - مجلة المستقبل العربي - العدد ١٩٢ - ص ١٤٥.

- ٢٨- بنيامين نتنياهو - مكان تحت الشمس - ترجمة: محمد عودة التويجري - دار المطبوعات للنشر - نيسان ١٩٩٤ - ص ٢٢٢ وما بعدها.
- ٢٩- المرجع السابق - ص ٢٨٩.
- ٣٠- المرجع السابق - ص ٣٢٨.
- ٣١- هيلم كوكلاي - الحروب المتواصلة من ريفان إلى نتنياهو - جريدة الحيلة الشهرية ١٩٩٧/٢/١٩.
- ٣٢- بنيامين نتنياهو - مقابلة أجراها أري شافيف - ملحق صحيفة هآرتس ١٩٩٦/١١/٢٢ - ترجمتها مجلة الدراسات الفلسطينية - العدد ٢٩ شباط ١٩٩٧ - ص ٩٤.
- ٣٣- المرجع نفسه - ص ١٠٢.
- ٣٤- محمد الكلاي - مستقبل الحوار الثقافي بين الشمال والجنوب في جوش البحر المتوسط - في كتاب جماعي بعنوان - أي مستقبل لجوش البحر الأبيض المتوسط والاتحاد الأوروبي، الكاتبة: الملكة المغربية - لشبونة ١٩٩٥ - ص ١٢.
- ٣٥- حبيب الكلاي - الاتحاد الأوروبي والتربيع والعروش المتوسطي: معالم ومستقبل - في المجمع السابق - ص ١٤٢.
- ٣٦- يوسف صايغ - منظور الشرق الأوسط ودلائله العربية - مرجع سابق - ص ١٤.
- ٣٧- جميل مطر - مستقبل التسوية السلمية - مرجع سابق - ص ٦١.
- ٣٨- تاسيف يوسف علي - التحولات في النظام العالمي والمناخ العسكري الجديد والتكامل على النظام الإقليمي العربي - مجلة المستقبل العربي - العدد ١٤ - ١٩٩٥ - ص ١٤.
- ٣٩- إن الحدث من المشرق الشرقي الأوسط - لعماد مورو - مجلة في الشرق الأوسط الإقليمي في المنطقة الذي يربح طيلة الحياة المتكاملة بين التطور العربي لأكثر من المراحل القومية والقمعية - الإقليمي - الذي صممه الدول الغربية ولكن فشلها - وكل المطروح في الشواهد أن هو الصرخ الغريب - واجه
- ٤٠- تاسيف يوسف علي - التحولات في النظام العالمي والمناخ العسكري الجديد والتكامل على النظام الإقليمي في المنطقة - مرجع سابق - ص ٨٢.
- ٤١- جبران في عالم واحد - نص تقرير: مجلة - إدارة شؤون المجتمع العالمي - سلسلة عالم المعرفة - العدد ٢٠١ - الكويت ١٩٩٥ - ص ٩٠.
- ٤٢- معلم الفخر - في مستقبل النظام العربي - دراسة الدول العربية - بين الهوية والاختراق - مجلة المستقبل العربي - العدد ١٢٧ - ١٩٩٢ - ص ٢٠.
- ٤٣- زكريا محمد عبد الله - التعاون العربي في ضوء التعاون الشرق أوسطي - مجلة السياسة الدولية - العدد ١٣٧ - ١٩٩٥ - ص ٩٩.
- ٤٤- عبد الفتاح الجبالي - المؤتمرات الاقتصادية الشرق أوسطية: الأعدادات - النتائج - التوقعات - مجلة الدراسات الفلسطينية - العدد ٣٠ - ١٩٩٥ - ص ٢٧.
- ٤٥- جميل مطر - مستقبل النظام الإقليمي العربي - مجلة المستقبل العربي - العدد ١٥٥ - ١٩٩٢ - ص ٦١.
- ٤٦- سلامة أحمد سلامة - الشرق أوسطية هل هي الخيار الوحيد؟ - كتاب جماعي مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة ١٩٩٥ - ص ٩١.
- ٤٧- يوسف صايغ - منظور الشرق الأوسط ودلائله بالنسبة للعرب - مرجع سابق - ص ١٤ - ١١.
- ٤٨- جميل مطر - مستقبل النظام العربي - مرجع سابق - ص ١٤.

- ٦٩- يوسف صديق - المرجع السابق - ص ٦.
- ٧٠- فؤاد مرمي - الرأسمالية تجدد نفسها - سلسلة عالم المعرفة - الكويت - العدد ١٤٢ - ١٩٩٠ - ص ٧-١٠.
- ٧١- المرجع السابق - ص ٨ - ٩.
- ٧٢- حال الأمة العربية: الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأمة العربية خلال العام ١٩٩٦ - تقرير جنائي - مجلة المستقبل العربي - العدد ٦٦٩ - ١٩٩٧ - ص ٥٩.
- ٧٣- اسماعيل صبري عبد الله - وحدة الأمة العربية: الصير والمسير - مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٩٨ - ص ١٠.
- ٧٤- فؤاد مرمي - الرأسمالية تجدد نفسها - مرجع سابق - ص ٥٧.
- ٧٥- الأرقام مأخوذة من التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ١٩٩٦.
- ٧٦- خير الدين حبيب وآخرون - مستقبل الأمة العربية: التحديات والخيارات - التقرير الثاني لشروع استشراف مستقبل الوطن العربي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٩٨ - ص ١٧٢.
- ٧٧- حال الأمة العربية - مرجع سابق - ص ٨٦.
- ٧٨- المرجع السابق - ص ١١٧.
- ٧٩- اسماعيل صبري عبد الله - وحدة الأمة العربية: الصير والمسير - مرجع سابق - ص ٦٩.
- إن الزيادة الكبيرة في عدد السكان هي شرط يضمن بقاء غالبية دول العالم الثالث الحالية لفترة بعد مائة عام. فمن المستحيل أن ينجح أي بلد ثالث في تحقيق نمو سكاني سريع. وإذا كانت هناك أعداد ضخمة من هؤلاء الجيود فإن الاقتصادات الموجودة سوف لن يكون لها القدرة الاستيعابية لتقبلهم. استهلاكهم بشدة بقوة استثمار الأموال التي تترك مولا - العدد.
- وتوضح هذه المشكلة الزيادة ما عودا من الاقتصاد الأمريكي - إن كل أمريكي جديد يحتاج إلى استثمارات مقداره ٢٥ ألف دولار لكي يكون باستطاعته دخول الاقتصاد الأمريكي بوصفه مواطنا - ماضيا - مستهلكا. غالبا لديه الكفاءات.
- وبمشكلة أخرى بسيطة يتبين أنه إذا كانت الولايات المتحدة تريد معدل نمو سكان مقداره ١ في 200١، سيكون عليها أن تخصص هؤلاء الأمريكيين الجدد أكثر من ١٠ في 200١ من ناتجها القومي الإجمالي. كما سيكون على الأمريكيين الموجودين إجراء تعديلات على مستوى معيشتهم.
- والتحالف من بلد لأخر الاستثمارات المطلوبة الضرورية لتوفير مستوى المعيشة العالي لمواطني العدد - ولكن الشرائع في الناتج القومي الإجمالي التي ينبغي أن تكرر لهذا الجهد لا تختلف. وفي العالم الثالث لا توجد الأموال اللازمة لدعم جهد من هذا القبيل. يصرف الناتج عن الاستعداد والرفقة. ذلك أن التعليمات مقداره ١٠ في المائة من الاستثمارات الجاري يترك 9٥ من المواطنين الجدد والقدامى على شفا الجاهل. إذ إنه لا يترك أية موارد يمكن تخصيصها لتأمين مستقبلهم الجماعي.
- راجع استر تاور - الصراع على القمة - مرجع سابق - ص ٦١٩ - ٦٥٠.
- ٨٠- ديفيد ميلكروي - أوروبا والغرب: ثقافة أم لغائية ترجمة: عبد النبي حسن - تقارير استراتيجية ١ - دار الفكر الحديثة - بيروت - ١٩٩١ - ص ٥٥.
- ٨١- تومار هوفشيان - صراع الهويات في العالم - المركز العربي للدراسات الاستراتيجية - ترجمات استراتيجية - عدد ١ - يناير ١٩٩٦ - ص ١٩.
- ٨٢- جيران في عالم واحد - مرجع سابق - ص ٥٩.

- 83- حال الأمة العربية - مرجع سابق - ص 108.
- 84- كلاوس شواب وجيمس روزي - المؤتمر الاقتصادي "مطمئنة" صنع السلام - جريدة الحياة الثقافية 1996/1/18.
- 85- عبد الفتاح الجبالي - الملقحات الاقتصادية الشرق أوسطية - مرجع سابق - ص 14.
- 86- المرجع السابق - ص 17.
- 87- روبرت ماسكهارا - جوهر الأمن - ترجمة يونس شاهين - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة 1990 - ص 174.
- 88- هيلم كيلاتي - التعاون العسكري العربي - العربي في ظل شعبي القدرات العسكرية تحول الحوار - في كتاب جماعي بعنوان "التحديات العالم العربي في ظل التغيرات الدولية" - مركز الدراسات العربية - الأوروپي - باريس 1991 - ص 94.
- 89- هيلم كيلاتي - مفهوم الأمن القومي العربي - دراسة في جانبه السياسي والعسكري - في كتاب جماعي "الأمن العربي: التحديات الراهنة والتطلعات المستقبلية" - مركز الدراسات العربية - الأوروپي باريس 1991 - ص 73.
- 90- نقلا عن هيلم كيلاتي - المرجع السابق - ص 97, 98.
- 91- حسن أبو طالب - نمو نظام أمن عربي فعال - في كتاب جماعي - لقاء التعاون العربي في التسعينات - تحرير السيد حسن - منتدى الفكر العربي - دمشق 1999 - ص 91.
- 92- هيلم كيلاتي - مفهوم الأمن القومي العربي - مرجع سابق - ص 73.
- 93- حسن أبو طالب - مرجع سابق - ص 97, 98.
- 94- شعراش شويخ - الأمن في الخليج: التعاون أم التنافس - مجلة الدراسات المستقبلية - العدد 37 - 1991 - ص 37.
- 95- حسن أبو طالب - مرجع سابق - ص 97.
- 96- حال الأمة العربية: تقرير جماعي - مرجع سابق - ص 69.
- 97- علي الدين هلال وآخرون - العرب والعالم - مشروع الاستشراف مستقبل الوطن العربي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت 1988 - ص 40.
- 98- غير الدين حسب وآخرون - مستقبل الأمة العربية: التحديات - والمبادرات - مرجع سابق - ص 147 - 148.
- 99- المرجع السابق - ص 148.
- 100- المرجع السابق - ص 149.
- 101- علي الدين هلال - التحولات العربية في مرحلة السلام - الحلقة الثالثة - جريدة الامانة الإماراتية - 1996/1/19.
- 102- علي الدين هلال وآخرون - العرب والعالم - مرجع سابق - ص 74.
- 103- محمد السيد سعيد الاختلالات الجيائية في النظام العربي - مرجع سابق - ص 38.
- 104- المرجع السابق - ص 47.
- 105- يوسف صايغ - التنمية المصرية: من الشيعة إلى الانتماء على النفس في الوطن العربي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت 1997 - ص 249.
- 106- طراد مرسى - الرأسمالية تجد نفسها - مرجع سابق - ص 114.
- 107- خلدون نقوب ومبارك المنوفي وآخرون - ثورة التسعينات: العالم العربي وحديات نهاية القرن - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة 1991 - ص 249.

- 100 يوسف صليبي - منظور الشرق الأوسط ودلائله بالنسبة للعرب - مرجع سابق - ص 19.
- 101 يوسف صليبي - القضية العنصرية - مرجع سابق ص - 17.
- 102 اسماعيل صبري عبد الله - وحدة الأمة العربية - مرجع سابق - ص 41.
- 103 أنستاز كزج - الصراع على القمة - مرجع سابق - ص 29.
- 104 نبيل علي - العرب ويصير المعلومات - سلسلة عالم المعرفة - العدد 581 - الكويت 1996 - ص 58.
- 105 اسماعيل صبري عبد الله - وحدة الأمة العربية - مرجع سابق - ص 8.
- 106 مايكل سميتون - الأخلاق المستقبلية لتصور التكنولوجيا في المجتمعات العربية، التحليل لإستراتيجية التقدم نحو استقلالية تكنولوجياية في الوطن العربي في المشهد القادم - في كتاب جماعي بالمعهد العربي للقادي المستقبلات الجديدة - مرجع سابق - ص 160.
- 107 يوسف صليبي - القضية العنصرية - مرجع سابق - ص 160.
- 108 حال الأمة العربية - تقرير جماعي - مرجع سابق - ص 81.
- 109 علي الدين هلال وآخرون - العرب والعالم - مرجع سابق - ص 28.
- 110 المرجع السابق - ص 26.
- 111 عبد القادر سعيد - العرب ومستقبل النظام العالمي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت 1987 - ص 247.
- 112 السيد بسن - قراءة في خريطة المستقبل العربي - جريدة الاتحاد الإماراتية 28/6/1992.
- 113 نبيل علي - العرب ويصير المعلومات - مرجع سابق - ص 42.
- 114 إبراهيم سعد الدين وآخرون - تصور المستقبل العربي - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت 1990 - ص 12.

السياسة العالمية للبيئة

عرف وتعليق د. باسم البهسني*

المؤلفة: لورين البيوت**

يستعرض الكتاب الوضع البيئي العالمي بمقدمة يتطرق فيها إلى السؤال الذي طرأ طرحة محلطو السياسة والتشطون بينها والأكاديميون. بعدما عقد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية في البرازيل (ريو دي جانيرو) في العام ١٩٩٢، ألا وهو، هل نقتلنا الأرض؟ والأجوبة عن هذا السؤال تتراوح ما بين نعم، لا، والربما. إلا أن الوقت ميكر لإصدار الحكم.

كما يركز الكتاب على السؤال الأساسي: ألا وهو كيف نقتل الأرض؟ وعلى رنود الفعل التباينة للجواب عن هذا السؤال.

يفتص الباب الأول والثاني والثالث من الكتاب بتدويل برنامج البيئة. فالباب الأول يركز على حدثين مهمين في عملية التدويل، أولهما مؤتمر الأمم المتحدة لبيئة الإنسان (مؤتمر ستوكهولم ١٩٧٢)، وثانيهما مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية (مؤتمر ريو ١٩٩٢)، وكذلك على أهم معالم العشرين سنة الملتدة بينهما. الباب الثاني والثالث يتخصصان البرنامج الواسع لمذاكل البيئة وعلى مرحلتين. فالباب الثاني يتخصص ما يسمى ببرنامج ستوكهولم، ويتضمن المحافظة على البيئة عبر حدود الدولة وكذلك قضايا الثلوث التي طفت على ساحة النقاش البيئي، وكذلك الخلاف والتحديات الخاصة بذلك خلال السبعينيات والثمانينيات. أما الباب الثالث فيركز على برنامج ريو والذي يحوي على ما يسمى ببرنامج الأرض. ويتضمن تغير المناخ، وتقص الأوزون، والتصحر،

* قسم الجيولوجيا - كلية العلوم - جامعة الكويت.

** أستاذة في العلوم السياسية في الجامعة الوطنية بأستراليا.

وزوال الغابات، وهقدان التنوع البيولوجي، فبينما هذه الأبواب تعتبر وصفية للمفهوم البيئية وسياسة البحوث البيئية، إلا أنها تسلط الضوء على الشكل السياسية، وتبين الشاغل، وكذلك الجدل والواضيع التي ستكون مجموعها مصدر التركيز بالنسبة لبقية الكتاب.

الأبواب الرابع والخامس والسادس من الكتاب تركز على نواحي ووسائل وطرق المحاورات التي تدور حول إدارة البيئة بمعناها العام، وإدارة البيئة لا تعني فقط الأجهزة الرسمية والمؤسسات المدنية، بل هي الواقع تتعدى ذلك لكي تحتوي على المؤسسات الاجتماعية والقوانين والعادات التي تشكل الهيكل العام لأخذ القرار وللتعاون البيئي. فبينما يتفق الجميع على أن هناك مشكلة في إدارة البيئة، إلا أن هناك سؤاليين حول ضرورة وجود إدارة أفضل، الأول، لماذا هناك مشكلة في الإدارة؟ والثاني، ما هي موصفات الإدارة الأفضل؟ الباب الرابع من الكتاب يدرس المؤسسات البيئية القائمة حاليا كنظام هيئة الأمم المتحدة، بالنظر لكفائتها أو بالنسبة للتعاون الدولي البني على الدول ذات السيادة.

ويختص الباب الخامس بدراسة دور المنظمات غير الحكومية في إدارة البيئة. أما الباب السادس فيختص بالتعظيم البيئي، خاصة بالنسبة لتأثير تدور البيئة على المرأة وعلى المواطنين الملازمين لأرضهم، والذين قليلا ما يسمع وأهم، هذا إذا سمع أهم رأي في المقام الأول.

الباب السابع والثامن يركزان على القضايا البيئية، وعلى العلاقة بين المشاكل الإدارية والوسائل الخاصة بالاستثمار المحلي، بما فيه التجارة، والبيئة، والتطور، ودمار البيئة المعقد وكذلك المشاكل المرتبطة به. لقد تمكنت العلاقة كثيرا، وزادت العلاقات بسبب منافسة المصالح بين الدول الغنية والفقيرة، وكذلك بين الأغنياء والفقراء. ويهتم الباب السابع بتأزم العلاقات بين الدول المتطورة والدول النامية، حيث أصبحت هذه سمة مركزية من خصائص السياسة العالمية للبيئة، إن الاهتمام بعدم المساواة في المسببات و النتائج يجعل منها مواضيع مهمة في المناقشات السياسية عندما يتم بحث العقود والواجبات والتكاليف والعوائد، وتفسر معنى التنمية المستدامة، وأفضل الاستراتيجيات لإتجاز كل ذلك. وحيث إن قليلا من هذه الاستراتيجيات تم تطبيقها فإنه تم استعراض هذه الاستراتيجيات بالتفصيل في الباب الثامن. وتعد هذه الاستراتيجيات عبر نقل القدرات المختلفة للاستفادة الأفضل من وسائل التجارة، وكذلك محاولة حل مشكل ديون الدول النامية وإيجاد الوسائل المالية على المستوى الدولي، لذا فإنه من غير المستغرب أو لافت للنظر أن تكون هذه الاستراتيجيات وطريقة تطبيقها مصدر جدل.

أما الباب التاسع فيعالج مصطلحا ظهر بعد قمة ريو، وهو كثير الاستعمال، قليلا ما يفهم معناه، وهو المصطلح الذي يسائر التنمية المستدامة ألا وهو الأمن البيئي. ويناقش هذا الباب بشكل خاص كيف يمكن فهم هذا المصطلح، وهل هو إضافة إلى جدول الأمن القديم؟ أم هل هو ناتج من تفكير في معاني الحكم المتداولة والممارسات المعمول بها نتيجة لمفهوم البرنامج القديم؟

المياه العالمية اليوم

أما اليباب العاشر فيمعالج أفضليات وسائل التطوير. فبين الرأي الكلاسيكي الذي يشند التطوير عن طريق التحليل، وبين الرأي الآخر الأشد تقدرا كوسيلة للتطوير. يدور هناك جدل كثير.

لقد اتضح علما مع نهاية القرن العشرين أن النشاط الأدعي بفقر البيئة بشكل سلبي. وبشكل لا يعقل ما جرى في المصور الأخرى. فالجهود الكبيرة والمبالغ فيها لاستغلال الموارد الطبيعية، وصرف الطاقة على أنماط غير عقلنة ولمست ضرورة للبيئة، والتصنيع، والإسهاب في النمو الاقتصادي، كل ذلك مرتبط بدمار البيئة في حدود الدولة، وبغير حدود الدول المختلفة.

لقد ازداد الإنتاج الصناعي العالمي أربع مرات منذ 1٩٥٠. وزاد إنتاج الطاقة بشكل تصاعدي ويعتدل أربع مرات ونصف مابين ١٩٥٠ - ١٩٨٥، على الرغم من أن النمو انخفض في السبعينيات. وزاد الإنتاج العالمي للنفط ست مرات، والسماد عشر مرات في الفترة ما بين ١٩٥٠ و ١٩٩٢. ولضمان استعمال المياه في الفترة ما بين ١٩٥٠ و ١٩٨٠، وكان نصيب الفرد من المياه في الدول النامية يعادل ثلث الكمية المستهلكة في ١٩٧٠. وقد زاد تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون بشكل تصاعدي منذ بداية الثورة الصناعية. ويصل الآن إلى ٣٦٠ جزءا في المليون. وقد لا يعني هذا الرقم بمفرده شيئا، إلا أن العلماء متفقون على أن ذلك التركيز المتزايد سيساهم في التسخين في نظام المناخ مما يؤدي إلى زيادة نسبة حرارة الكرة الأرضية بشكل أسرع مما كان عليه في أي وقت خلال عشرة آلاف السنة الماضية، كما سيؤدي إلى ارتفاع مستوى سطح البحر بنسبة ما بين ٢ إلى ٦ أمتار بالنسبة للزيادة خلال ألف سنة الماضية. وكثير من هذه الأنشطة غير مستدامة، حيث إنها تؤدي إلى نضوب الموارد، وتدمير البيئة، كما تؤدي إلى تدني معيشة الإنسان، خصوصا في الدول النامية.

لقد اتسع التأثير السلبي لذلك النشاط الاقتصادي، فقد ازداد ثودي الثرية، لدرجة أن ثلث مساحة الكرة الأرضية مهددة بالتصحّر. وازداد شح المياه، حتى إن ٨٠ دولة تعاني منه، من جعلها ٢٦ دولة محطّة رسميا على أنها دول خائرة المياه. كما أصبح تلوث الهواء والتمرات المائية والمناطق الصناعية سمة أساسية للنظام البيئي لدول الصناعية والدول المتطورة على حد سواء.

وشابات العالم سواء الاستوائية منها أو المعتدلة في انحصار. وتختفي من الوجود ثلثا ٥٠ نوعا من مخلوقات الكرة الأرضية في كل يوم. ويزيد ثودي البيئة من مستوى الفقر بالنسبة للفقر في أجزاء العالم التي تعتمد حياتهم ووسائل معيشتهم على الأرض، والأنهار وممرات المياه، والمنظومة البيئية الساحلية. يتفشّ التصحر وتؤدي التربة أساس مزارع الزراعة بالنسبة لشعوب الدول النامية، كما أن تلوث الأنهار والجداول المائية يؤثر على ري المزارع في الدول المتقدمة والنامية على حد سواء. ويهدد من قدرة الشعوب على الحصول على الماء الصالح للشرب، ويقتل الأسماك التي يلتصق عليها الناس، يتفشّ التصحر على مصادر الغذاء،

والدواء، وعلى الحياة بالنسبة لملايين البشر الذين يسكنون الغابات، ويدمر تراثهم ومقالتهم الدينية، كما يدمر أساسيات الحياة في المناطق المحيطة بهذه الغابات، وبسبب شح الأخشاب والوقود، والمياه فإن عبء المعيشة يزداد على النساء في الدول النامية، أما رعي الفخضلات والتفشيات السامة للثروة فإنها تؤدي إلى الموت (كما في بوبان)، والمرض (كما في مينيماتا) وفشل الحبيب).

ولا يمكن الفصل بين هذه المشاكل لعدم المساواة في الحكم بين السبب والنتيجة، فبينما تشكل الدول الصناعية ربع سكان العالم، إلا أنها تستهلك ٧٠ بالمائة من الطاقة، و٨٥ في المائة من الأخشاب، و٧٥ في المائة من المعادن، و ٦٠ في المائة من الغذاء في العالم، إلا أن أول من يشعر بالتأثير البيئي المحلي نتيجة لتردي البيئة العالمية، وبشكل غير متناسب هم شعوب الدول التي كان لها أدنى مساهمة في الأسباب، فعدم المساواة بين الفقراء والأغنياء، هي التجارة ونقل الأموال، والشح في المساعدات الدولية لدعم الاحتياجات الإنسانية، مع تضاعف ديون الدول النامية، كلها مرتبطة بالدمار البيئي بشكل معقد نتيجة لارتباط السبب بالنتيجة، وقد أصبح دمار البيئة موضوعاً عالمياً، حيثما، وسياسياً واقتصادياً، وهناك جدل حول مقولة إن المشاكل البيئية العالمية تحتاج إلى حلول عالمية، ويختفي وراء هذه القول العداوة عدد من المشاكل السياسية والاقتصادية، ليس بأقل منها مشكلة هي كيفية فهم معنى كلمة العالمية كمبدأ لإدارة المشكلة، فالفرق بين المشاكل البيئية المحلية وما يفهم على أنه مشاكل عالمية قد أصبح مجرد مسألة اختلاف في المصطلحات والبرجماتية.

وكما ذكر رود ورمالز: «على المستوى المحلي مشكلة كانت تصبح تؤثر بشكل أولي على المزارعين الذين يعدون الأرض الزراعية عن طريق قطع الأشجار أو حرقها، وكذلك تؤثر على الصيادين الذين يعتمدون على إنشاء مزارع ثابتة الموقع، إلا أن المشكلة مضاعفة بالآلاف المرات من خلال إنشاء المزارع الصغيرة وبكثرة قطع الأشجار تجارياً، فإن ذلك سيؤدي إلى تسارع في ارتفاع حرارة الجو على مستوى الكرة الأرضية».

فالقول بأنه لا توجد حلول بسيطة يعتبر تبسيطاً آخر للمشكلة، فالتعاون بين الدول أصبح شرطاً ضرورياً (وليس كافياً بعد ذاته) للسيطرة على، أو لمنع أسباب الدمار البيئي، وإيجاد طريق للتغلب على تأثير نشاط الإنسان، أو على الأقل لإصلاح الضرر على البيئة العالمية والمحلية.

فبينما توجد هناك آلاف مؤلفة من الكلمات على الورق ناتجة عن المؤتمرات والبروتوكولات والأقوال التي تظهر النوايا، وبرامج الإدارة، وخطط العمل، والبيانات، فإن تدهور البيئة هي تواصل، وعليه فإنه توجد مشكلة في سعة قدرات العمل، وفشل في الإدارة، وبشكل واضح عدم وجود الرغبة في اتخاذ القرار السياسي، وللتغلب على هذه المشاكل فإن الأسكة ذات الدرجة الأولى بالنسبة للكثير تتعلق بنوعية الأهداف والضمانات التي يجب أن تحتويها الاتفاقيات

السياسة العالمية للبيئة

البيئية، وكيف يمكن تحويل الإشارات العلمية إلى خطط عمل، وكيف يتم ضمان تنفيذ هذه الخططة وكيف يمكن متابعة التطبيقات والتأكد منها؟ وكيف يمكن تقدير الحقوق، وكيف يتم الحاسبة؟ وهل من الواجب التركيز على النتائج أو المسببات (أو كلاهما)؟ وما إذا كان يجب منع السلوك أو الأنشطة التي تؤدي إلى الدمار البيئي، أو العمل على انضباطها؟ وأي نوع من المؤسسات يجب إنشاء لتطبيق هذه الاتفاقيات، وإدارة برامج البيئة العالمية؟ وبالنسبة للبعض فإن هناك أسئلة أخرى من الدرجة الثانية، وأول هذه الأسئلة هي التي تركز الانتباه على البيئة التحتية لإدارة مشاكل البيئة. فمن المهم دراسة وفهم كل نظام للعمل البيئي، فالدمار البيئي ليس منعطفًا خطيًا في إدارة سلسلة برامج السياسة والاقتصاد الدولي، بل هو ناتج عن السياسة والاقتصاد المعاصرين، وعلى الأقل يجب ألا ننسجه غير ذلك.

وهذا ينقلنا إلى مجموعة أخرى من الأسئلة، فعلى سبيل المثال، ما هو المستقبل لإدارة فعالة للبيئة في نظام غير مركزي في دول مستقلة؟ فهل النظام الاقتصادي العالمي الحر يتركزه على حرية التجارة والتطوير مع النمو المدعوم بالصادرات يعطي الأساس القوي لوضع القواعد والاستراتيجيات للتغلب على الدمار البيئي؟ أم أن النظام الاقتصادي العالمي الحر هو جزء من المشكلة في المقام الأول؟ وهل لنا أن نحصل على الأمن البيئي في عالم مدمج بالسلاح؟ وهذه هي الأسئلة، والأجوبة عنها تشكل مجزئ هذا الكتاب. فالغرض ليس إقناع القارئ بطريقة معينة بالتفكير، بل هو استعراض وفهم الطرق التي يتحرك من خلالها الأكاديميون والمعلقون والشعوب في أمور البيئة، فهم السياسة العالمية للبيئة وأوجه الوسائل الكفيلة لإتقان الأرض.

الباب الأول: من ستوكهولم إلى ريو

حدثان يفصل بينهما عشرون سنة جدا عولة سياسة البيئة، الأول مؤتمر ستوكهولم في سنة ١٩٧٢، وهو ما يسمى بمؤتمر بيئة الإنسان، كبادرة فعالة للتعاون الدولي، وكمناسبة بدأ عندها الحوار حول

البيئة، وكان اعتراضا من كل الدول الصناعية وغيرها بأهمية تضاهي الجهود الدولية لمواجهة المشاكل البيئية التي تتخطى حدود الدول، وبعد عقد من اجتماع ستوكهولم اجتمع ممثلون حكوميون، وممثلون لهيئات دولية، ومنظمات غير حكومية في ريو دي جانيرو في البرازيل في مؤتمر هيئة الأمم المتحدة للبيئة والتنمية، والذي يسمى أيضا مؤتمر قمة ريو، ومؤتمر قمة الأرض، لقد كان المؤتمر مناسبة تبيان أن هموم البيئة بدأت تأخذ مركز الصدارة بالسياسة للسياسة العالمية.

لقد كانت المشاكل البيئية تبحث في المحافل العلمية من حيث تأثيرها في داخل حدود الدولة المحلية وليس عبر الحدود الدولية، وكانت هذه المشاكل تصنف بناء على أسسها العلمية

والفنية ومن بين الاتجاهات إلى تأثيرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وكانت أغلب المبادرات تدار من قبل المختصين، ومن دون مشاركة المواطنين. وكان أغلبها ينسجم بحدود الفعل وليس للمبادرة. ومنذ ١٩٦٠ ومع توالي السنين وبعدها حمل التطور العلمي والاهتمام الشعبي بالدمار البيئي على تطوير قانون البيئة العالمي، وكذلك إدخال الديمقراطية ولو ببطء أيضا في اتخاذ القرار البيئي العالمي. وخلال العقود من الزمن ما بين مؤتمر ستوكهولم ومؤتمر ريو تم التقدّم العلمي، وكذلك تمّ معها الاهتمام الشعبي بالدمار البيئي، مع شعور بكارثة على مستوى كوكب الأرض، وظهور مطالبات للقانون الدولي لإيقاف ومن ثم تغيير اتجاه تأثير نشاط الإنسان على البيئة، مما نتج عنه توقيع معاهدات تعاون دولية لزيادة عدد مع مرور السنين.

السنوات التي سبقت مؤتمر ستوكهولم

يستعرض هذا الجزء الفترة التي سبقت مؤتمر ستوكهولم، وما حدث خلالها من تطورات لها علاقة مباشرة بمستقبل البيئة. وقد شخص لينش كوفندول اهتمامات العالم بالبيئة في المرحلة التي سبقت ١٩٧٢ والمعاهدات المتعلقة بذلك في محاور هي: البراري والحفاظ على الحياة الفطرية، وتلوث البحار، والمواضيع التي تتعلق بانتشار الأسلحة الذرية، وتعتبر هذه المحاور أساسا لبرنامج البيئة الأرضية، حيث توجه المبادرة الواضحة لقانون الدولة على ما يحدث داخل حدودها، وينعكسها إلى الاهتمام بما يحدث في أعالي البحار وبعدها عن سلطة قانون الدولة، إلى التلوث النووي، الذي يمكن أن يؤثر على الكرة الأرضية بأكملها. هاتحتميات الطبيعية لها جذور راسخة في التاريخ. ففي سنة ١٨٧٢ اقترحت الحكومة السويسرية لجنة لحماية الطيور المهاجرة. وفي سنة ١٩٠٠ وقعت القوى الاستعمارية الأوروبية اتفاقية لحماية الحيوانات والطيور والأسماك في أفريقيا. وتمت المصادقة على اتفاقية شمال المحيط الهادي لحماية حيوانات الفقمة ذات الفرو في ١٩١٦، وكذلك على اتفاقية لحماية الطبيعة وحماية الحياة الفطرية في النصف الغربي من الكرة الأرضية ١٩٤٠. ومن أقدم الاتفاقيات الدولية والتي لا تزال تطبق اتفاقية سيد الحيثان التي وقعت في ١٩٤٦. وهذه لم تكن لحماية الحيتان بقدر ما كانت لتنظيم نشاط اقتصادي وحماية مصدره، وحماية الحياة الفطرية أدت إلى أنظمة بيئية مستقلة، كمعاهدة حماية الأراضي الرطبة. كما أن هناك اتفاقيات لمنع أو مكافحة التلوث البحري بالنفط في ١٩٥٤. أما قانون أعالي البحار في ١٩٥٨، وهو السابق لقانون البحار في ١٩٨٢ فهو أيضا لا يخلو من قواعد لمنع تلوث البحار. أما المحور الثالث والذي يختص بالحد من التجارب الذرية، أو بحمي منها، أو بعد من استعمال الأسلحة الذرية، فإن الكتاب لم يتطرق إليها، إلا أنه بالإمكان الرجوع إلى معاهدة القارة الجنوبية في ١٩٥٩ والتي حرمت إجراء التجارب على جميع الأسلحة، أو رمي التفجارات النووية في القارة الجنوبية.

البيئة العالمية البينة

وبذلك تم تشكيل أول منطقة في العالم خالية من الأسلحة الذرية، وبينما الكثير من هذه الأنشطة المتعلقة بالبيئة يدار من قبل الحكومات والدول، إلا أن المنظمات غير الحكومية أخذت تهتم بأمور البيئة، والمحميات الطبيعية. وأخذت تتدخل على مستوى الدولة، أو من بين الدول المختلفة كمنظمات عالمية. وأخذ عدد أعضاء هذه المنظمات ينمو سنة بعد سنة. وأخذت تنفرد إلى منظمات متخصصة ونشطة، وقد افرغ في المستشفيات أصدقاء الأرض مما يسمى بنادي سيبرا، ومن ثم في 1969 تأسس السلام الأخضر، ولاشك أن التطور الفكري أحد المسرح للمؤتمر ستوكهولم في 1972، فكثير من الأفكار المؤثرة أخذت تتساقط عن مدى تقييم مفاهيم التصنيع، والتحديث والتطوير لقاء علاقة ذلك كله ببيئة مدمرة. وقد كثرت الكتابات وألفت الكتب التي بدأت تحرك المشاعر وتيقظها للاطلاع على ما يؤول له الوضع البيئي في العالم. ثم دعم ذلك الجهد الفكري بالعديد من الحوادث التي ربطت بين التلوث وتأثيره على صحة الإنسان. كحوادث التلوث بالزئبق والمبيدات الحشرية، وبدأ للعالم سفر هذه الأرض والدمار الذي يحل بها، وكلفت الصور التي التقطت من القمر ومن سفينة الفضاء أبولو غير شاهد على الخطر المحدق بالإنسان على كوكب الأرض، حيث أنها و كان البشرية تتركب سفينة فضاء هي الأرض والنكل عليها مسافر في الفضاء.

ويستغرق الكتاب إلى ذكر السكان وتأثيرهم على البيئة، فالعلم غير المفق في عدد السكان المصنوع بعدم المساواة في الاستهلاك يؤدي إلى خلل هائل عالمي، أمثلاً إلى الخلل البيئي الذي يحدثه مواطن أمريكي واحد يعيش في الولايات المتحدة يساوي ذلك الذي يحدثه سويدي واحد، أو ثلاثة إيطاليين، أو 17 من البرازيل، أو 25 من الهند، أو 280 من شاد أو من هيتي. لقد أدى قراكم الوعي البيئي، والاهتمام بالحد من الدمار البيئي ونضوب الموارد الطبيعية وتزايد السكان في العالم إلى الضغط لقيام بعمل جماعي. وعليه فإنه في 1969 اقترح يوناتس (المسكرير العام للأمم المتحدة) بأنه لدى أعضاء هيئة الأمم المتحدة عشر منوات لوضع خلافاتهم جانباً، والتبدء بعمل جماعي دولي للحد من سباق التسلح، ولتحسين بيئة الإنسان وللمحد من الانتجار السكاني في العالم. هذه كانت الخلفية للمؤتمر الأمم المتحدة لبيئة الإنسان.

مؤتمر الأمم المتحدة لبيئة الإنسان

يستعرض الكتاب في هذا الجزء من الباب الأول الأمور الإدارية وأعمال اللجان التحضيرية التي سبقت عقد المؤتمر من خلال قراراتي هيئة الأمم المتحدة رقم 2298 و 2681 لضمان الهمة والنشاط في العمل البيئي، ولكي تحفز الحكومات والمنظمات العالمية لإيجاد الوسائل العلمية لخدمة بيئة الإنسان. وكانت السنتان اللتان سبقتا عقد المؤتمر مضمعتين بالنشاط الدولي، حيث استلمت اللجنة التحضيرية أكثر من مائة تقرير وطني يعكس الحالة البيئية للدول التي تقدمت

بها، وانضمت دول الكتلة الشيوعية بسبب عدم السماح لألمانيا الشرقية بالشاركة، وإصرار هذه الدول على أن مشاكل التلوث البيئي هي مشاكل نظم الدول الاستعمارية. أما الدول النامية فكانت متخوفة من أن الاهتمام بمشاكل البيئة ومحميات الطبيعة سيطغى على مشاكل الفقر والتخلف.

وهناك تازم في العلاقات بسبب مسؤوليات تدهور البيئة والمستوى القفول لدعم التنمية والتغيير ونقل التكنولوجيا ومشاكل زيادة السكان. وأكد تقرير للعلماء والمتخصصين من الدول النامية ممارستهم لأي استراتيجية لإبطاء عمليات التصنيع أو فرض أي قيود على المساعدات أو الاستثمار أو التجارة بحجة البيئة.

انعقد مؤتمر ستوكهولم في 5 إلى 16 يونيو 1972، بحضور 1200 مندوب من 115 دولة. وكان هناك بالمقابل وجود للمنظمات غير الحكومية ومنتدى شعبي. ونتج عن هذا المؤتمر ثلاث نتائج هي: بيان، وخطة عمل، وتنظيم للعمل لجابهة مخاطر البيئة من خلال نظام هيئة الأمم المتحدة. وبيان مؤتمر ستوكهولم يحتوي على 26 بنداً، جميعها غير ملزمة. وكانت هذه البنود عبارة عن حل وسط يشمل اهتمامات ومصالح الدول النامية والدول المتطورة من جهة أخرى. ويوزن البيان بين أهمية تعهد الدول لحماية الموارد والحد من التلوث، وبين أهمية التنمية الاقتصادية. ويؤكد البيان في البند رقم 9 و 10 على أهمية المساعدات المالية، والتكنولوجية، والمساعدات الأخرى للتغلب على التلوث، الذي يترتب عنه على أنه السبب لأغلبية مشاكل البيئة في الدول النامية. وكان أكثر البنود اقتباساً هو رقم 21، والذي يؤكد أهمية الدول على مصادرها الأولية، وكذلك على مسؤولياتها البيئية فيما وراء حدودها، إلا أنه لا يعطي دلالة على كيفية الربط بين هاتين الناحيتين المتنافستين، لقد قال باشر (1992) عن البيان بأنه مجموعة من الأمنيات غير المتنافسة مع بعضها البعض، ومحصلاتها النهائية أنها غير متجانسة ذهنياً. كما تبنى المؤتمر خطة عمل أقل شهرة (خطة عمل 109) تختص بالمستوطنات البشرية، وإدارة الموارد، والتلوث، والتنمية، والأبعاد الاجتماعية لتأثير تدهور البيئة على محيط الإنسان. أما النتيجة الثالثة لمؤتمر ستوكهولم فلها طابع مؤسسي، ساعد الجمعية العمومية على تأسيس برنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP)، فبينما أكد تكوين البرنامج على أن جهاز الأمم المتحدة سوف يكون المركز الرئيسي لدبلوماسية البيئة العالمية، وللمصياغة للقانون الدولي لحماية البيئة، إلا أن عوامل سياسية أعاققت البرنامج من أداء مهام حماية البيئة المرتبطة. فالدول المتقدمة كانت حذرة من أي مؤسسة نحتاج إلى تمويل كثير، كما أن الدول النامية كانت حذرة في قبول مؤسسة تكون قراراتها معيقة لتقدم هذه الدول، أما وكالات الأمم المتحدة فكانت ترمي بكل شهرة سلطاتها المتعلقة بالبيئة، وكان تأسيس البرنامج (UNEP) للشعوان وللتفعيل كعامل مساعد، وليس كوكالة رسمية بها طابع تنفيذي، وله مجلس إدارة مكون من

البيئة العالمية اليوم

عدد كبير من الأعضاء (84) وعقده في نيويورك، أما ميزانيته التشغيلية فهي صغيرة نسبياً. وعليه فإنه على الرغم من أن مؤتمر ستوكهولم تعرض إلى المشاكل الأساسية كالتفتت والتخلف، إلا أنه كان خالياً من الضمان العملي لإيقاف تدهور البيئة أو إصلاح التدهور. وكان إنجاز العمل الأكبر هو جمع الحكومات لمناقشة أمور البيئة، وساعد على وضع الأساس لتطوير البنية القانون دولي للبيئة هي المستقبل. لأن فتجاعه كان سياسياً وليس بيئياً.

من ستوكهولم إلى ريو والمؤتمرات التي تلتها

يستعرض الكتاب النشاط البيئي العالمي خلال السنوات التي أعقبت مؤتمر ستوكهولم وسبقه مؤتمر ريو، حيث تم إبراز المزيد من التقدم العلمي حول تدهور البيئة وأسبابه، واتسع نشاط المنظمات غير الحكومية، وكذلك تم إدراك الحقيقة بأن حلول مشاكل البيئة ليست كلها متعلقة بالعلوم، بل يجب أن يكون هناك اهتمام بالأسباب المتشابكة وتناجها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وعقدت الكثير من المؤتمرات والاتفاقيات الدولية، وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يتم إيقاف تدهور البيئي أو تحويل مساره إلى العكس، وكل ما تم إنجازه عملياً هو مساهمات بسيطة وصغيرة القدر. هناك هناك الكثير من النشاط والقلق من الإنجاز. وتم إعمال النتائج العلمية إلى صياغة القرار السياسي وصياغة الناس من خلال العديد من النشرات والمؤتمرات المتخصصة. ومن خلال هذه التوعية تم الاهتمام بقانون حماية طبقة الأوزون، وعقد مؤتمر المناخ، ووضعت استراتيجية المحيطات، ووضع البرنامج الدولي للمحيطات الجيولوجي والمحيط البيولوجي، وثلاث برنامج العامل الإنساني في تدهور الأرض. كما تمت إثارة الرأي العام العالمي بسبب العديد من الكوارث البيئية حول العالم، كتسرب المواد الكيميائية السامة، وحوادث ناقلات النفط، وحدث انفجار شيرنوبل الذي أظهر أن التلوث لا يراعي الحدود الدولية، مما أعاد التفكير في مسؤولية الدولة ومحاسبتها والتزاماتها.

ونتيجة للتقارير العلمية والاهتمام الشعبي، فقد تبنت الحكومات عدداً من الاتفاقيات التي صممت لإصلاح الوضع البيئي، ولتحد من الدمار البيئي عبر الحدود الدولية. فتمتد مؤتمر ستوكهولم في 1970 هناك العديد من الاتفاقيات التي تلتها مثل بروتوكول المحيطات (اتفاقية رمي النفايات، واتفاقية منع التلوث من السفن)، واتفاقية حماية الأحياء المهددة بالانقراض، واتفاقية الأمطار الحمضية (حماية الهواء من التلوث عبر الحدود الدولية)، واتفاقية نقل الفضائل الخطرة وطرق التخلص منها، وأول اتفاقية لمنع تدهور الغلاف الجوي للأرض، واتفاقية حماية طبقة الأوزون. وفي 1988 أصبحت شؤون البيئة في مقدمة البرنامج الدولي، مما نتج عنه اتفاقية نورنتو لتطبيق اتفاقية حماية الغلاف الجوي للأرض (تطبيقات هي سلامة الكرة الأرضية).

وكان قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة الذي أعلن من خلاله أن تدهور البيئة هو أكبر مشكلة تواجه البيئة حالياً. وكان قرار الأمم المتحدة في ١٩٨٩ هو الذي مهد الطريق لعقد قمة الأرض في ريو ١٩٩٢، وهو قرار رقم ٤١/٢٢٨. وعبر هذا القرار عن القلق لاستمرار تدهور البيئة، وتؤدي وضع النظم التي تمد الأرض بالحياة، كما أقر بعالمية المشاكل البيئية، وشخص مشاكل الاستهلاك والتصنيع اللذين لا يقومان على أساس استمرارية المصادر الأولية، خصوصاً في الدول المتقدمة وحدها على أنها السبب للكثير من المشاكل. وأكد البيان على أهمية التعاون الدولي، والبحث العلمي وأهمية شيوخ التكنولوجيا، ولوجوب المساعدات المالية للدول النامية. وقد عرف القرار عدداً من الهموم البيئية وهي: حماية الغلاف الجوي، والمياه العذبة، والمحيطات، والثروات الأرضية، والاهتمام بالتنوع البيولوجي، والتكنولوجيا البيولوجية، وإدارة النفايات (بما فيها السامة) وكذلك المشاكل التي تتعلق بالمستوطنات البشرية والفقر وصحة الإنسان. وعقد الأمل بأن مؤتمر قمة الأرض سيضع الخطط والوسائل لإيقاف ومن ثم تحويل مسار التدهور البيئي من خلال الجهود الوطنية والعالمية لدعم التنمية المستدامة التي لا تتناقض وحماية البيئة.

مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية

يتناول الكتاب بعد ذلك عمل اللجنة المعنية بالخطط والبرامج الحكومية، التي عملت تحت مظلة هيئة الأمم المتحدة بشكل مكثف ودؤوب على وضع التوجيه والبرامج المختلفة التي تم إنجازها، لكي تعرض على مؤتمر قمة الأرض أو مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية أو مؤتمر ريو كما كان يسمى.

عقد المؤتمر في ريو دي جانيرو في البرازيل خلال الفترة من ٢ - ... يونيو ١٩٩٢. وقد حضره ١٧٨ وفداً حكومياً رسمياً وكذلك ١٤٠٠ منظمة معترف بها غير حكومية. وكان هناك حضور إعلامي قوي يقدر بـ ٨٠٠٠ مراسل. وفي الوقت نفسه كان هناك المؤتمر الشعبي الموازي للمؤتمر الرسمي، حيث قدر المشاركون فيه بـ ٢٠٠٠٠ فرد. وعقدت اجتماعاته في منتزه فلاننكو، وسمي بالمنتدى العالمي.

وقد كان عمل المؤتمر على مدارين، الأول منها ينظر في تقارير كل دولة، والثاني كان لعمل اللجنة الرئيسية. وكانت تدور المناقشات المهمة والكثيفة في اللجنة الرئيسية واللجان الفرعية عنها. وقد حضر المؤتمر ما يزيد عن ١٠٠ رئيس دولة. ونتج عن المؤتمر اتفاقيات مؤتمر ريو وإعلان ريو، وأجندة (برنامج) القرن الواحد والعشرين. وكذلك بيان مبدأ المحافظة على الغابات، وتمت الموافقة عليها أثناء انعقاد المؤتمر. أما تنظيم الأمم المتحدة لتغيير المناخ وقانون المحافظة على التنوع البيولوجي، فتربكا للأعضاء للتوقيع عليهما متى ما رغبوا. وقدم تقرير المؤتمر إلى الجمعية

العمومية للأمم المتحدة حيث ليئتة في نهاية ١٩٩٢. كما وافقت الجمعية على إعلان ريو، وعلى برنامج القرن الواحد والعشرين، والبيان الخاص بالقضايا وكوث برنامج عمل مستمر لتتبع قرارات، وتوصيات مؤتمر ريو، وقررت عقد اجتماع لا يتعدى ١٩٩٧ لمراجعة برنامج القرن ٢١.

إعلان ريو حول البيئة والتنمية

يحتوي إعلان ريو على ٢٧ مبدأ (بدا) لإرشاد الحكومات في مساهمتها للتنمية المستدامة. وقد تمت الموافقة عليه كما قدمته اللجنة التحضيرية. وكان الإعلان في الأصل بشكل دستورا للأرض. إلا أن الدول النامية كانت قلقة من أن المحافظة على البيئة سيكون لها الأولوية على التنمية، مما أدى إلى تجميع الأهداف الأولية. وكان هدف الإعلان هو إنشاء مشاركة متساوية من خلال تأسيس مستوى جديد للتعاون بين الدول من جهة، وبين الأجزاء الأساسية في المجتمعات والبشر من جهة أخرى. ويضع البندا الأول الإنسان في مركز الاهتمام في التنمية المستدامة، بدلا من التركيز في البداية بعناية النظام البيئي الحيوي في العالم، ويؤكد البندا الثاني البند رقم ٢١ من بيان ستوكهولم الذي يوضح أن للدول الحق على شوائها، ويؤكد على التزاماتها غير المحدود الدولية. **والمنصت هموم الدول النامية** من خلال عدة مبادئ، فحق التنمية شمل البند رقم ٢، والبند رقم ٥ أكد على ضرورة التخلص من الفقر، كما أكد البند رقم ٦ على أن احتياجات الدول النامية يجب أن تكون لها الأولوية، والبند رقم ٧ يؤكد على مسؤوليات الدول النامية والمتقدمة مع فارق الظروف، والبند رقم ٨ يطالب بالتفكير من الإنتاج ووضع حد له والاستهلاك غير المستدام، وكذلك التشجيع للتخطيط لمنط السبلات السكانية ويعتبر هذا تحول من الجدل حول النمو السكاني. ويحتوي إعلان ريو على شمولية أكثر من إعلان ستوكهولم. فلأفراد حق الحصول على المعلومات، ويجب تشجيع الاهتمام الشعبي والمشاركة الشعبية (بند رقم ١٠)، واعتبرت النسوة والشباب والمجمعات المحلية كموامل مهمة للسعي وراء التنمية المستدامة، وينادي البند رقم ٢٢ بحماية بيئة الشعوب التي هي تحت الاضطهاد والسيطرة والاحتلال. وكان هذا موضع جدل من قبل إسرائيل التي اتهمته بأنه تدخل في شؤون الشرق الأوسط، وتم قبول هذا البند شريطة ألا يستعمل في برنامج القرن ٢١. وينادي بند ١٢ بالتعاون الاقتصادي المتفتح. ويؤكد الإعلان على أنه لا يجب استخدام القنص في المعلومات العلمية كترعة لعدم استعمال الوسائل الاقتصادية، أو لعدم إرقام الجهة الملوقة على دفع التكاليف كاملة لإعادة تأهيل البيئة (بند رقم ١٦)، ويشد الإعلان الاندفاع في البند رقم ٢٥ إلى الحرب كشط هدام للتنمية المستدامة. ويؤكد على أن السلام والتنمية والمحافظة على البيئة يعتمد أحدهم على الآخر، ولا يمكن فصلهم عن بعض. وأخيرا فإنه على الدول أن تحل خلافاتها سلميا (بند ٢٦)، وعلى الدول والشعوب أن تتعاون بحسن نية

وروح حسنة لتحقيق الليبرالي التي وردت في الإعلان (بند 27). ومن ثم يناقش الكتاب أهمية بيان ريو بالنسبة لما كان مأمولاً من المؤتمر، وهل هو دستور جديد للمحافظة على استمرارية التحية على الكرة الأرضية أم هو تجميع لأفكار و شعارات معروفة وتبويبها. ويشكل عام فإن التنظيم لم يكن إيجابياً.

برنامج القرن 21

وكما كان إعلان ريو فإن برنامج القرن 21 غير ملزم. فالبرنامج يضع خطة تفصيلية لتحقيق إعلان ريو و الوصول إلى التنمية المستدامة.

يحتوي البرنامج على 10 أجزاء، مجموع كلها في مقدمة واحدة وفي أربعة أجزاء مجموعة في 800 صفحة، وكل جزء يحتوي على التنظيم نفسه من التعريف بالتوضيح، وشرح موسع له، وشرح للبرنامج المقترح مع التكلفة الكلية له.

يختص الجزء الأول بالأبعاد الاجتماعية والاقتصادية، ويحتوي على أجزاء تستعرض وسائل القضاء على الفقر، وتغيير وسائل الاستهلاك، وإدارة التغيرات السكانية، وصحة الإنسان، والمستوطنات الإنسانية.

أما الجزء الثاني فهو الجزء الخاص بمشاكل البيئة، طُبعت العنوان العريض (المحافظة على مصادر البيئة وإدارتها) يحتوي هذا الجزء على أجزاء تختص بالملوثات الجوية، والمصادر الأرضية، والتنصح، وزوال الغابات، والجفاف، والزراعة المستدامة، والتنمية القروية، والتنوع البيولوجي، والتكنولوجيا الحيوية، والمحيطات ومصادر المياه العذبة، ونواح عديدة من إدارة التنافس، ويختص الجزء الثالث بما يسمى بالفئات الرئيسية وهي النساء، والأطفال، والشباب ومجموعات السكان الأصليين، والمؤسسات غير الحكومية، والحكومات المحلية، وشباب الأعمال، والأعمال، والصناعة، والعلوم، والتكنولوجيا، والفلاحون. وهي الجزء الأخير ثم استعراض طرق ووسائل تطبيق البرنامج. وهذا الجزء يشمل المصادر المالية وميكانيكية النقل والتكنولوجيا، وإدارة المؤسسات، والأدوات القانونية، والمواضيع الأقل جدلاً، وهي العلوم والتعليم والبناء التوسعي. لقد تم إكمال برنامج القرن 21 إلى المؤتمر من دون الاتفاق على خمسة عشر في المائة منه. وكل الأجزاء التي لم يتم الاتفاق حولها، تم التعامل معها كل واحدة على حدة عن طريق لجان وهي: حماية الملوثات الجوية، وأعالي البحار، ومصادر الثروة السمكية، والسلامة في التكنولوجيا الحيوية، ونقل التكنولوجيا، وتنظيم المؤسسات، والمجاعة والاستهلاك، ومصادر التمويل النقدي. وانتهى الوقت المحدد للجنة المركزية دون حل الخلافات حول محتوى ثلاثة أجزاء هي: الغابات، والتمويل، والملوثات الجوية، وتمت الموافقة عليها فقط بعد عدة مباحثات على مستوى الوزراء.

السياسة العالمية البيئة

ولم إدخال الكثير من حلول الوسط الذكية على المقدمة بناء على مشاورات مكثفة بين الوفود. فمثلاً تم الاحتفاظ بذكر الاقتصاد في مرحلة التحويل بناء على طلب الدول النامية وأزيل كل ما دون ذلك. وتمت إزالة كل ما يتصل بالشعوب المحقة التي اعترض عليها الإسرائيليون. لكنهما تعتبر تدخل في شؤون الشرق الأوسط السياسية مقابل إبقائها في الإعلان. كما تم التعهد على بند رقم ٩ الخاص بالغلطف الجوي في نهاية الجلسات الرسمية للجنة التحضيرية. بناء على إصرار الوفد اليمني (الذي كان يمثل الدول العربية) والذي كان يرى تركيزاً مبالغاً فيه على كفاءة نوع مصدر الطاقة عامة وتركيز النقطة على الوفود الأحطوري، ودارت اختلافات حول الطاقة المتجددة (عارضه وفد المملكة العربية السعودية). وكذلك حول ذكر الطاقة الأمانة والتمهالة، والذي فهمه البعض على أن المقصود به هي الطاقة الذرية. يختص البند رقم ٢٢ بمصادر التحويل و ميكانيكيته، وقيل من الدول هي التي أوفت بمعيدها وبلغت ٧٠ في المائة من الناتج العام للدولة للمساعدة في التنمية، كما أن الولايات المتحدة لم توافق على هذا فقط. وهناك سمريات تتعلق ببعض الأمور تم التعامل بها بشكل دبلوماسي أو رجحت إلى الجانب الأخرى لمعالجتها، ومنها مشكلة الأسماك المهاجرة والمتجولة (التي تشغل بين المياه الإقليمية والعالي البحار). ولم يكن هناك اتفاق مجدد حول نقل التكنولوجيا. حيث يذكر الجزء رقم ٢١ أنه يجب تشجيع ونقل التكنولوجيا. أما الحد من تأثير المؤسسات العسكرية على البيئة فقد أصبح أمراً صعباً، فالولايات المتحدة لوعدت أن المصالح الوطنية الأمنية تقتضي أن على كل دولة أن تراعي حماية البيئة بناء على قوانينها الوطنية الأمنية بالنسبة للمخلفات من النشاطات الخطرة.

وبالنسبة للبعض فإن برنامج القرن ٢١ قدم الكثير للتنمية المستدامة، إلا أن الأراء تختلف بالنسبة للبعض الآخر. لم تحل كثير من المشاكل في ريو، وكانت هذه المشاكل من قبل ٢٠ سنة على جدول أعمال ستوكهولم. حيث لم تحل هناك أيضاً، بينما يتسع برنامج البيئة في السنوات التي بين المؤتمرين، ويظهر أن الإدارة السياسية لم تساهل في سرعتها تلك المشاكل.

الباب الثاني: برنامج المشاكل البيئية التي تتخطى الحدود الدولية المحميات والنظم

الحماية عبر الحدود ومشاكل التلوث كانت الأساس في عجلة برنامج البيئة، مما أدى إلى حماية الأنواع الحية. وحماية المصادر الحيوية وإدارة التلوث. وتأخذ حماية الحياة القطرية أبعاداً تتخطى الحدود الدولية حينما تعبر هذه المخلفات أو تنتقل عبر الحدود الدولية، وتكون هذه الحالات دولية بالفعل لدرجة ضرورة مشاركة الدول في المشاكل الناتجة عن ذلك وإدارة حماية الحياة البرية.

وحماية الموارد الحية كموارد الأحياء المائية هي قضية تأخذ طابعاً غير الحدود، حيث إن لا الأسماك ولا الموارد الحية الناضبة تقتزم بقوانين حدود الدولة، وعليه فهناك حاجة إلى تعاون دولي لإدارة هذه الموارد لأجل استدامتها، وكذلك يصبح التلوث مشكلة غير الحدود الدولية عندما تنتشر الملوثات من دولة إلى أخرى من خلال الهواء أو تيارات المحيطات أو من خلال نقلها المتعمد من دولة إلى أخرى، أو غير حدود السيطرة القانونية.

ويستلزم الكتاب بتوسيع وشمول في ذكر كل ما يتعلق بموضوع الحماية ونقل الملوثات عبر الحدود الدولية، ويبين الاهتمام الدولي بالتعاون للحفاظ على البيئة عن طريق حماية الأحياء والحد من التلوث المنقول عبر الحدود، وفيما يلي البنود التي شملها هذا الجزء:

١- حماية الحياة القطرية والحفاظ على المصادر الحيوية

أخذ هذا البند الكثير من الاهتمام الدولي، فالحماية تركز على القيمة الذاتية للمخلوق وكذلك على الحق في الحياة بالنسبة للمخلوقات غير الأدمية، ويؤخذ قضاء الإنسان على بعض أنواع المخلوقات خاصة الأرضية والبحرية منها، وكذلك على بعض أنواع الطيور على أنه حرمان من الحياة وغساراة للبشرية. وهذا يستلزم التفكير بحماية المصادر التي تطالب بحماية الأحياء لأجل استمرارية الحصول على بعض أنواع الغذاء للإنسان، ويتضمن تحت العنوان أعلاه كل من:

ARCHIVE

ب - قانون الإتجار بالمخلوقات المهددة بالانقراض <http://www.archive.org>

ج - حماية المصادر في المحيطات.

٢ - التلوث عبر الحدود الدولية، الانتشار والنقل

يأخذ الاهتمام بهذا الموضوع طابع القلق بالنسبة للملوثات التي تعبر الحدود الدولية عن طريق الهواء، أو عن طريق التيارات البحرية، أو عن طريق نقلها المتعمد تجارياً، أو عن طريق الترميم غير المعلن، ويؤخذ هذا الاهتمام بما يلي:

أ - التلوث بعيد المدى عبر الحدود الدولية.

ب - قانون منع تلوث الهواء بعيد المدى عبر الحدود الدولية.

ج - تلوث المحيطات (حماية الملكية العامة).

٣ - إدارة النفايات الخطرة

انضمت علاقة تلوث البيئة بصحة الإنسان نتيجة لتأثير المواد الخطرة بسبب عدد من الحوادث التي نتجت عن مواد كيميائية رقت في السبعينيات والثمانينيات، منها حادث السفينة السعدي خيلان سي (بندر خيلان) والتي قضت أكثر من ستمائة شخص عن مكان لرمي حمولتها من مواد سامة على شكل رمال مواد محروقة (وكائنات الحيوانية معقولة على أنها رمال سماد)، ولقد

السياسة العالمية للبيئة

طردت السفينة من جزر البهاما لم من هيتي بعدما رحبت بعض حملاتها . وأخيرا تم التخلص السفينة في ستافوروك عندما وجدت خالية من حمولتها . وبعد فحص المواد التي رمتها في هيتي تبين أنها تحتوي على تركيز عال من الكاديوموم والزنك والزرنيخ والفلزات والداي أكسيد وكلها مواد سامة وخطرة . ولذا من هذا الحدث مع زيادة في نقل المواد الخطرة عبر الحدود الدولية . عندما أصدرت الدول الصناعية قوانين صارمة لإدارة النفايات الخطرة في بلادها . فتعول التخلص من هذه المواد إلى الدول التي ليس لها قوانين مشددة . أو التي لا تمنع في دفن النفايات في أراضيها مقابل مبالغ مالية . وادى الاهتمام بالنقل عبر الحدود الدولية إلى إصدار قانون السيطرة على حركة النفايات الخطرة عبر الحدود الدولية . وطرق التخلص منها .

الباب الثالث : ظهور البيئة الدولي

يتضمن كل من تدهور طبقة الأوزون وتغير المناخ وإزالة الغابات وفقدان التنوع البيولوجي والتصحر تحت البرنامج الدولي للبيئة . ويتقسم هذا الباب إلى ثلاثة أجزاء . يختص الأول منها بتدهور طبقة

الأوزون وتغير المناخ . وهذان يشكلان مشكلتين تسميان الملكية المشاعة الكونية . ويقصد بها الطبقات الجوية . ويكون وقع المشاكل البيئية محسوسا في دول أخرى على مستوى الكرة الأرضية (عالميا) حتى إذا لم تكن هذه الدول تليها في خلق هذه المشاكل . ولربما تقتصر أكثر بكثير من الدول المسببة . أما الجزآن الأخريان فهما تدهور الغابات وحسارة التنوع البيولوجي . فهما طابع التأثير العالمي أيضا . وكلاهما يبينان نازم العلاقات من خلال إبعاد الملكية الوطنية للمصادر . كملكية مشاعة للإنسانية وكروابط بين المشاكل المحلية وبين النظام الاقتصادي الدولي . والأخير في هذا الباب هو حول التصحر . وعلى الرغم من أن أسباب التصحر مرتبطة بإزالة الغابات . وأساسا ذات علاقة بتغير المناخ . إلا أن نتائجها لمثير محلية . ويخص في الغالب الدول النامية التي تشتكي من الإهمال الدولي وليس له علاقة بالملكية المشاعة الدولية .

١ - الملكية المشاعة الكونية لطبقات الجو : طبقة الأوزون

يشكل تدهور طبقة الأوزون أول مشكلة بيئية عالمية لها أبعاد كونية تتحدى المجتمعات العلمية والدبلوماسية . وتعتبر المفاوضات حول تدهور طبقة الأوزون أكثر الأمثلة نجاحا للتعاون البيئي الدولي إلى الآن . وكأحسن مثال لتطوير القانون الدولي للبيئة . فالأوزون الذي يتكون من ثلاث ذرات من الأكسجين تم اكتشافه في ١٨٤٠ . ففي طبقة الجو العليا الستراتوسفير (١٥ إلى ٥٠ كلم فوق سطح الأرض) يقوم الأوزون بعمل غريزة للأشعة فوق البنفسجية (U V B) الضارة . إلا أن الأوزون معرض للدمار في الستراتوسفير بواسطة التفاعلات الكيميائية مع

غازات البرومين والكلور، والمصائد التي يصنعها الإنسان لهذه الغازات هي مركبات الكلوروفلوروكربون (CFCs)، التي تستعمل كمواد دافعة لنشر رذاذ المواد المسائلة في الهواء، وهي غازات التبريد وكمثبات لتطهير القطع الإلكترونية والكهربائية، وهي صناعة المواد البلاستيكية ذات الفقاعات الهوائية الصلبة والقرنة منها، كما تلجج من مذيبات عضوية مختلفة ومادة الهليون التي تستخدم في استخوانات إطفاء الحرائق، كما يمكن تدمير الأوزون عن طريق إنتاج الكلور من البراكين الثائرة أو عن طريق حرق كتل المواد العضوية، وتكمن خطورة مواد الـ (CFCs) في طول بقائها في الجو، فعموماً يصل إلى 120 سنة قبل أن تبدأ في التكسر، لذا فإن الزيادة في تركيزها في طبقة الستراتوسفير أدى إلى دمار الأوزون وزيادة تركيز الأشعة فوق البنفسجية الضارة (UVB)، وعليه فإن برنامج الأمم المتحدة للبيئة أعد لعقد مؤتمر لحماية طبقة الأوزون ووضع قانون لذلك.

قانون حماية طبقة الأوزون (قانون مونتريال)

تمت الموافقة على هذا القانون من قبل 20 دولة بجانب دول المجموعة الأوروبية، وهذا القانون يشكل قواعد إدارية، ومكون من 21 بنداً، ولا يحتوي على أهداف ثابتة أو إجرائية، بل يحتوي على التزامات عامة توجع أهمية التعاون والبحث العلمي، وكان هناك خلاف حول بعض الالتزامات الدولية، وبما أن مستويات دمار الأوزون، أو التأثيرات دمار الأوزون على الصحة غير معروف تماماً في ذلك الوقت، فإن القانون ينادي بخلاف من زعموا العمل التي يتضمنها عادة القانون الدولي للبيئة، ويستلزم الكتاب في شرح التراحل التي مرت بها الأبحاث العلمية، والتي أكدت دمار الأوزون ومن ثم تأثير ذلك على صحة الإنسان والأحياء على وجه التكرار الأرضية، ومنه تلجج قانون المواد التي تدمر الأوزون (قانون مونتريال).

التأثير المطغمة العالمية لطيفان الجو : تغير المناخ

يسعى قانون مونتريال القانون المستحيل، وهو لا يعتبر شيئاً بالنسبة لمشاكل تغير المناخ، فعدم المعرفة العلمية التامة، والمصالح الاقتصادية مع التكاليف المالية، والتزامات السياسية، والجدل الأساسي الخاص بالمساواة بين الدول النامية والدول المتقدمة، كلها تكاليف بشكل تم وصفه بأنه أعقد مشكلة تواجه الحكومات.

ظاهرة البيوت الزجاجية هي ظاهرة طبيعية، حيث تقوم الغازات التي توجد في الجو بشكل طبيعي، وهي ثاني أكسيد الكربون - وفاز الميثان، وفاز أكسيد النيتروجين، وأوزون التروبوسفير، وبخار الماء، وكذلك CFCs ومثيلاتها من المركبات الأخرى التي لا توجد في الجو بشكل طبيعي بامتصاص الأشعة تحت الحمراء الحرارية، ومن دون ذلك فإن درجة حرارة

البيوت الزجاجية الحديثة

الكرة الأرضية ستكون ٢٢ درجة مئوية أقل من درجاتها الحالية. و تظهر المشكلة عندما يكون الاحتباس الحراري ناتجا عن تزايد تركيز هذه الغازات في الجو (ماعدا بخار الماء الذي لايسبب النشاط الأضي في تركيزه). وتختلف مصادر هذه الغازات. فانبعاث غاز ثاني أكسيد الكربون ينتج عن احتراق الوقود الأحفوري ومن حرق الغابات. وينتج غاز الميثان الفعال كأحد غازات البيوت الزجاجية من الزراعة في حقول الأرز ومن فضلات الماشية، وكغاز مشروب عند إنتاج ونقل الوقود الأحفوري، وينتج غاز أكسيد النيتروجين عن حرق المواد البيولوجية، واستعمال الأسمدة وحرق الوقود الأحفوري، وإزالة النباتات من التربة وإزالة الغابات.

ويستمرسل الكتاب في ذكر الدراسات والقياسات الخاصة بالغازات المذكورة أعلاه وينتقل إلى الاجتماعات العلمية والمؤتمرات الخاصة بخاصية الاحتباس الحراري وتأثير ذلك على تغير المناخ، والتطور في البدائل للطاقة الناتجة من الوقود الأحفوري، كالمطاقة الذرية، وينتقل إلى النزاعات السياسية والاقتصادية المتعلقة باستعمال أنواع الوقود بالنسبة للدول النامية والدول المتقدمة، ومسؤولية الدول الصناعية والدول النامية في بث غازات البيت الزجاجي والمسببة للاحتباس الحراري، وينتج عن ذلك قانون الأمم المتحدة الخاص بتفجير المناخ في مؤتمر ريو.

المخبرات العالمية أو المصادر المملوكة : التنوع البيولوجي

لقد تم عرض القانون الثاني للتوقيع عليه في مؤتمر ريو، ألا وهو قانون التنوع البيولوجي. ولم يكن الخلاف يدور حول أفضل الطرق للمحافظة على المخلوقات وعلى النظم البيئية، بل كان يدور حول حقوق الملكية الوطنية وحقوق الملكية الفكرية للمعلومات الجينية والتكنولوجيا الحيوية. ويتركز التنوع البيولوجي في الدول الاستوائية من العالم الثالث. فتمتلك أكثر من نصف أنواع المخلوقات في ٦ في المائة من اليابسة التي تغطيها الغابات الاستوائية، ومن ١٢ دولة تحتوي على التركيز العالي للتنوع البيولوجي يوجد ١١ منها في الدول النامية وهي البرازيل، الصين، كولومبيا، إكوادور، الهند، أندونيسيا، مدغشقر، ماليزيا، المكسيك، بنين، وزائير. استراليا هي الدولة الوحيدة المتقدمة من بين هذه الدول. تظهر الإحصائيات التنوع البيولوجي في هذه الدول، التي تبين أنه يوجد في نهر واحد من البرازيل أنواع عديدة من الأسماك يفوق عددها عدد أنواع جميع الأسماك في الولايات المتحدة. كما يوجد في محمية صغيرة في كوستاريكا عدد من أنواع النباتات يفوق عدد أنواع تلك التي توجد في المملكة موحدة.

الخلاصة في التنوع البيولوجي ناتجة من عدة أسباب منها: دمار المنطقة التي تتواجد فيها، كتجفيف الأراضي الرطبة، والتلوث والدمار الذي يصيب الشواطئ المرجانية من خلال الرواسب

ومن خلال التأثير المباشر وغير المباشر لتغيير المناخ، كل ذلك يؤدي إلى فقدان التنوع البيولوجي. يؤدي التآكل في عالم التضخيم إلى فقدان تعدد الجينات في المحاصيل المزروعة، أما إدخال النباتات الغريبة إلى أراض جديدة فهو يهدد وجود النباتات والحيوانات، ويهدد الجدول الحالي حول التنوع البيولوجي بما يخص استغلال هذه الأنواع، خصوصاً بالنسبة للنباتات الطبية، حيث تقدر قيمة المواد الطبية المستخرجة من النباتات أو منتجات الحشرات بـ 17 بليون (مليار) دولار أمريكي في السنة. وتذكر منظمة الصحة العالمية أن أكثر من 21000 نوع من النباتات تستخدم في العلاج الطبي التقليدي، حيث يُستخدم العديد من النباتات محلياً في العلاج، والتنوع البيولوجي، والتنوع ضمن النوع الواحد من النباتات مهم جداً بالنسبة للزراعة. فبينما قد تصاب بعض الأنواع النباتية بالأمراض نجد أن البعض الآخر له القدرة على مقاومتها. فلو توحدت الأنواع لكان الفشل بها سهلاً عند انتشار الأوبئة النباتية. ويوجد في التنوع البيولوجي معنى آخر، حيث لا يجب فقط احترام تنوع بني البشر، بل يجب احترام تنوع المخلوقات والحفاظ عليها أيضاً.

ويستطرد الكاتب في ذكر مراحل الاهتمام العالمي بالتنوع البيولوجي بداية من مؤتمر ستوكهولم ومنها مؤتمر قمة الأرض في ريو، حيث عرض قانون التنوع البيولوجي.

قانون اتفاقية التنوع البيولوجي

ينص القانون بالمعول، حيث يوجد فيه 17 بنداً، وملحقان، ويصف هذا القانون أهدافه على أنها حماية التنوع البيولوجي، والاستعمال المستدام لمكوناته، والمشاركة والمساواة في الاستفادة منه ومن مكونات المصادر الجينية الوراثية. وتظهر الأسباب لذلك بأن للتنوع البيولوجي قيمة ذاتية، وتكنولوجية، ووراثية، واقتصادية، وعلمية، وتعليمية، وثقافية، وترفيهية، وجمالية عاطفية. كما أن التنوع البيولوجي يقوي الروابط بين الدول ويساهم في نشر السلام في العالم، ويؤكد القانون على حقوق الدولة في مصادرها الطبيعية، وأن حماية التنوع البيولوجي مصدر لاهتمام البشرية، وتم التوقيع على القانون (الاتفاقية) من قبل 150 دولة، وأصبح قانوناً في 29 ديسمبر 1992. وبلا شك عدة اجتماعات ومؤتمرات لوضع الاتفاقية اللازمة لتطبيق هذه الاتفاقية.

الغابات العالمية أو ملكية المصادر الحيوية: المصادر الغابات

لقد تم تعريف إزالة الغابات بأنه تغيير في استغلال أرض الغابات لأي أغراض أخرى غير الغابات، ولا توجد هناك معلومات دقيقة عن الخسارة في مساحة الغابات، حيث لا توجد إحصائية تبين ما كان موجوداً أولاً، إلا أن التقديرات تتراوح ما بين 11 إلى 20 مليون هكتار

المساحة العالمية للغابات

سنويا، أي ما بين ١٠.٨ إلى ٢ في المائة من مساحة الغابات الاستوائية. وقد انخفضت ١٠ في المائة من لغابات الأمطار خلال الـ ٢٠ سنة الماضية.

ويستعرض الكتاب كمية المساحات المزالة من الغابات سنويا حول العالم، وتتعدد أسباب زوال الغابات و تختلف من منطقة إلى أخرى، أولها تحويل أراضي الغابات إلى أراضي زراعية للمحاصيل وللرعي، وثانيها قطع الأشجار للحصول على الأخشاب، وثالثها قطع الأشجار لاستغلالها كوقود. وللغابات أهمية خاصة من الناحية الأيكولوجية والاقتصادية والثقافية، وهي مهمة على المستوى المحلي والعالمي. فتدمير الغابات يؤثر على المناخ ويؤدي إلى زيادة غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو، كما أن حرق الغابات يؤدي إلى انبعاث غاز أكسيد النيتروجين، وكذلك زيادة تركيز غاز الميثان في الجو. وفقدان الغابات يؤدي إلى فقدان في التنوع البيولوجي، وللغابات أهمية اقتصادية من خلال تجارة الأخشاب والمواد الطبية من النباتات، كما أن زوال الغابات يؤدي إلى انقراض المستوطنات البشرية التي تقطن فيها.

ويستعرض الكتاب الجهود الدولية لمنع زوال الغابات والمحاولات المبدولة لإعادة التشجير، وخصوصا تلك الجهود التي يبذلها البنك الدولي، والعدم وجود اتفاق حول قانون لحماية الغابات فقد اتفق في مؤتمر ريو على أن يكون هناك إعلان مبادئ حول المحافظة على الغابات وهو : إعلان غير ملزم بالتسمية للمسؤولين على مبادئ يقر عليها دولها لإدارة وحماية التنمية المستدامة لجميع أنواع الغابات. وكان الإعلان مبنيا على إقرار المجموعة التي تقر بأن للغابات قيمة إيكولوجية واقتصادية، يجب أن يحافظ على استدامتها لخدمة الأراضى الاجتماعية والاقتصادية والايكولوجية والثقافية والمدينة للأجيال الحاضرة والقادمة، وبأخذ الإعلان مصالح الدول وسكانها الغابات والنواحي الاقتصادية والمجتمعات المحلية والنساء بعين الاعتبار، ولايزال الجدل قائما حول الغابات وتدميرها والمحافظة عليها.

المصالح العامة والمشاركة في الأحياء العالمية : التصحر

يدور الخلاف حول التصحر، أسبابه وتأثيره عبر الحدود الدولية، إلا أن هناك دوافع تجعل من الضروري الاهتمام بالتصحر على مستوى الكرة الأرضية، ليس لأنها مسألة المشاركة في الأحياء والمصالح المشتركة في البيئة العالمية، فالتصحر هو خسارة الأراضي الزراعية خاصة في بيئة الأراضي الجافة، والعزل الحكيم يدل على أن التصحر في اتساع، وهو يهدد ما بين ٢٥ إلى ٢٥ بالمائة من سطح الكرة الأرضية، وما بين مئتين إلى ربع سكان العالم. وأنه يؤثر مباشرة على ٢٥٠ مليون نسمة وبشكل مباشر على مليار نسمة أغلبهم يعانون من الفقر حاليا. تعود أسباب التصحر إلى أنشطة الإنسان وإلى تغير المناخ، فالتغير في استغلال الأرض والمبالغة في الزراعة، و الزراعة غير المستدامة إيكولوجيا، والاستعمال المكثف للأسمدة والمواد

التصحر يؤدي إلى تآكل التربة ومن ثم إلى التصحر، كما أن التوسع الجائر يؤدي أيضا إلى التصحر. أما تغير المناخ كنتيجة لتدخل الإنسان في مكونات الغلاف الجوي، أو لوجود دورات طبيعية في الأنواء الجوية والظواهر المناخية، فكذلك تساهم بشكل مباشر في ازدياد التصحر. أما المؤثرات الأيكولوجية التي تساعد في تعريف التصحر هي الانخفاض في خصوبة التربة، وتكوينها، و فقدان التنوع البيولوجي، ودمار في الأراضي المروية لزراعة المحاصيل، و فقدان الأراضي القابلة للزراعة. أما التأثير الاجتماعي والاقتصادي للتصحر فهو خسارة الأمن الغذائي، و فقدان الحد الأدنى للمعيشة، مع تفاقم مشاكل الفقر، وسوء التغذية، والمجاعة، والهجرة الأسطورية للشعوب، و يتناول الكتاب الجهود العالمية لمكافحة التصحر، وكيف أن التصحر يتواجد في دول معينة من العالم غالبيتها جافة وصحرانوية في الأصل، وكيف أن إصلاح الأراضي مكلف جدا، وكيف نادت قمة ريو العالم إلى مكافحة الجفاف، والتصحر بكل الوسائل. ونج عن الجهود العلمية قانون الأمم المتحدة لمكافحة التصحر في الدول التي تعاني من الجفاف و / أو التصحر، خاصة في أفريقيا.

الباب الرابع : الدول والمؤسسات العالمية

يما أن المشاكل البيئية أصبحت ذات طابع يتعدى الحدود الدولية، بل ولعبتها لكي تصبح عالمية، فإنها تحتاج إلى اتفاقيات دولية لضمان الحصول على المعلومات العلمية المفقودة، وتوضيح

معايير البيئة، ولتطبيق هذه المعايير. والاتفاقيات البيئية يجب أن تأخذ في الاعتبار مصالح الكثير من المستفيدين منها، وهذه تحوي المؤسسات البيئية غير الحكومية، والحركات الشعبية، والسكان الأصليون، والصناعة، والمؤسسات المالية، والمؤسسات العلمية، والمنظمات الحكومية الدولية، وأخيرا الدول والحكومات. كل هذه يجب أن تساهم في الإدارة البيئية، وتعمل معا لما فيه مصلحة البيئة العالمية. وفي ذلك يدخل الكثير من الجدل حول عدم كفاءة الدولة، و قانون البيئة العالمي، وضرورة إصلاح المؤسسات التي تهتم بشؤون البيئة، ودور الأمم المتحدة ومؤسساتها في خدمة البيئة العالمية، خصوصا الدور الذي يقوم به برنامج الأمم المتحدة للبيئة، والأمم المتحدة الذي سر به مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية، واللجنة الخاصة بالتنمية المستدامة. مما نتج عن كل ذلك نصين في التعاون الدولي، والتأكيد على الملكية، وتطوّل ذلك إلى الانتقال من بعد الإصلاح إلى الوضع العرج المنقسم بالتفقد. كل ذلك ينظر له الكتاب بإسهاب، أخذا دور كل الفئات الحكومية والشعبية والمؤسسات الدولية والمؤسسات والجمعيات غير الحكومية في الاعتبار.

البيئات الخاضعة : الناشطون غير الحكوميون :

العلوم ، والاقتصاد ، والمجتمع المدني العالمي

من نتائج السياسة العالمية للبيئة نمو أعداد وأنشطة وتنشاطات مجموعات من الجماعات الناشطة غير الحكومية. وهذه تتضمن المؤسسات العلمية، والصناعية، والتجارية، والمنظمات البيئية، ومنظمات الدفاع عن الحيوانات، والحركات الشعبية. والمواطنون الملازمين لأرضهم، وكلها حاولت بشتى الطرق أن تؤثر على القرار السياسي البيئي، أو حاولت أن تكون ناشطة على الصرح البيئي. وعلى الرغم من أن الكتاب يتطرق إلى دور المؤسسات العلمية، إلا أنه يتوسع في ذكر نمو المجتمعات المدنية العالمية من خلال المؤسسات غير الحكومية كقوى مؤثرة في سياسة البيئة العالمية.

العلوم وإدارة البيئة

تزداد أهمية العلوم والمؤسسات العلمية في توجيه الإدارة البيئية. فدور العلماء مهم في حشد الرأي العام العالمي، وتغيير ديزين الحكومات في مواجهة المشاكل البيئية، وهو مهم أيضا في إظهار الحقائق التي على أساسها توضع القوانين البيئية، ومن ثم إجراء الأبحاث العلمية لواصلت معرفة الحقيقة والتغيرات البيئية وإثراء معرفة المشرعين والحقيقة البيئية التي يبنى عليها التشريع البيئي. ولا يسلم العلماء من النقد لتفطرسهم، وشعورهم بأنهم هم الذين لهم الحق في توجيه إدارة البيئة.

التجارة والصناعة وإدارة البيئة

فبينما أصبحت الشركات العملاقة لاعباً رئيسياً في السياسة البيئية، إلا أن كثيرون الاهتمام العالمي يتركز على دور الشركات متعددة الجنسيات كمسبب للدمار البيئي، وكشركة في المباحثات البيئية. وهذه الشركات تساهم في دمار البيئة من خلال دورهم في اتخاذ القرار لاستغلال المصادر. ومن خلال التلوث ودمار الأرض، ومن خلال معارضتها لتقنية المعايير البيئية، ومن خلال تحكمها في الثروات المائية، ومن ثم سيطرتها على الاقتصاد العالمي. فمثلاً دخل شركة شل للنفط في 1995 يزيد على مجموع دخول سبع دول أفريقية وجنوب أسيوية والتي تمثل حوالي 10 في المائة من سكان العالم، فمساهمة هذه الشركات العملاقة في التلوث العالمي واستهلاكه المصادر يعتبر مؤثراً. وقد أخذت هذه

الشركات في المشاركة والتدخل في اتخاذ القرار السياسي البيئي، حتى إن لها دوراً استشارياً في الأمم المتحدة. ويستمرس الكتاب في إلقاء الضوء على دور هذه الشركات في سياسة البيئة العالمية، وموقف المنظمات غير الحكومية منها.

المنظمة المدني العالمي

يعمل الناشطون البيئيون على سد جسور التعاون عبر الحدود الدولية حول العالم للاتفاق على الطرق الواجب اتباعها، لما يرون أنه عامل مشترك بينهم لخدمة أمور البيئة في العالم. ويستمرس الكتاب في ذكر دور هذه الجماعات وتحول نشاطاتها من ضاغطة إلى ضاغطة مضبوطة بأبعاد علمية، واقتصادية، وثقافية، وتتنفذ و تجادل بكل قوة وصراحة.

المؤسسات البيئية غير الحكومية : حركة إنقاذ الأرض

لهيئ المؤسسات غير الحكومية والجمعيات الدولية الظروف ذات الطابع المؤسسي للتعبير عن الرأي، وتكوين القادة التي من خلالها يتم التأثير في الحركات المدنية الحديثة ذات الأبعاد الدولية، وهي تدعي بأنها ليست فقط لها دور في إدارة البيئة بل هي تعبر عن رأي البشر العاديين ، الذين هم عادة لا يمار لهم اهتمام حين العمل على إدارة شؤون البيئة. ويستمرس الكتاب في شرح الخلفية التاريخية لهذه المؤسسات غير الحكومية ونموها ونشاطها المؤثر في العالم.

وهي مؤثرة لكونها مستقلة ومتطورة ومتحررة من القيود السياسية والدولية، ولها ضوء سياسي وعلمي وتجاري واقتصادي وإعلامي، وتستجد بعضها ببعض دولياً، وتتنافس فيما بينها، كما تشترك في مهامها البيئية وهي إعلامها، وتقوم بأعمال بيئية تشد انتباه العالم إعلامياً. ولربما كان ذلك معبراً في بعض الأحيان للدول والشركات الكبرى، ومؤثراً في اتخاذ القرار السياسي البيئي.

ويقدر عدد المؤسسات البيئية غير الحكومية بما يزيد على ١٠٠٠٠٠ مؤسسة وجمعية، وهي مؤسسات أخذت تلعب دوراً مؤثراً لا يمكن الاستغناء عنه على مستوى السياسة البيئية في العالم، ولا يمكن تصور انعقاد مؤتمر عالمي حول البيئة من دون مشاركة هذه المؤسسات والاطلاع على صحيفتها التي تسمى الصدى- وأصبحت هذه المؤسسات الضمير الحي لإثارة الكثير من المشاكل البيئية، والضغط لإيجاد الحلول لها. كل ذلك النشاط بأخذ طابع التطوع ويناشد الدعم من الشعوب والمؤسسات حتى الحكومية منها.

البيات الصامتة : أصوات هبة الغواصين :

النساء والمواطنون الأصليون

يختص هذا الباب بدراسة دور المرأة وسماع صوتها، وكذلك دور المواطنيين الأصليين في البيئة.

النساء والبيئة وسهم الطقائير

يستعرض هذا الجزء دور المرأة على أنه دور الإدارة والحفاظ على الموارد الطبيعية، وعلى أن المنظمات المائكية والحكومية قد عملت دور الرقابة وخبرتها ومعارفها، وأن صوتها غير مسموع، وأن نصيب المرأة من ثروة الوضع البيئي الكبر، وأن التفرقة ضد المرأة بسبب جنسها هو حجر عثرة في طريق التنمية المستدامة، وأن مشاركة المرأة ضرورية للتنمية المستدامة، وأن المرأة تتحمل أعباء التنموية البيئية وأعباء المعيشة.

فهي تشارك في النشاط الاقتصادي لإطعام العائلة وتحضر الماء العذب إلى منزلها، وتحمل خشب الوقود لكي تستخدمه في الطبخ، وإن لم يوجد فتذهب لجمع روث الحيوانات الجافة بدلاً منه لاستعماله كوقود، وكيف أن المرأة غالباً ما تكون محرومة من التسهيلات المالية، وتنتج من ملكية الأراضي، كما أن النساء يأتين أقل نصيباً على مزارع عشائرية بالمقارنة بزملائهم الرجال، وأنهن غالباً ما يعرضن من التعليم، وإن النساء في الدول النامية يتحملن العبء الأكبر من دمار البيئة وتأثير ذلك على الوقود المنزلي، وعلى فرص اختيار مصادر المياه والغذاء.

أيه النساء؟

يركز هذا الجزء في دور النساء في المجتمعات، فيجد أنهن لا يولين المناصب القيادية ولا الوزارية إلا في قليل من الدول، وأنهن مهملات حتى لو وصلن إلى أعلى درجات العلم، كما أنهن لا يشاركن في اتخاذ القرار ولا يشاركن في التنمية، فعليه تضيق طاقتهن وقدراتهن ههنا، وبذلك تتأخر التنمية المستدامة. إن دور النساء في الأمومة، وإنجاب الأطفال، وتربيتهم، يجعل النساء أقرب إلى الأرض من الرجال، لذا فإن إعلان ريو بتادي بالاعتراف بدور المرأة، وأنه يجب منحهن فرصة المشاركة في اتخاذ القرار الاقتصادي والسياسي، وكذلك يجب أن ينظر لهن على أنهن مبدعات وتأثيرات، ومخاطر على البيئة، ومديرات للمصادر الطبيعية، وقادرات على التغيير في جميع مستويات المجتمع، وعليه فيجب المساواة بين الجنسين وليس فقط الاهتمام بالمرأة، ويجب اعتبار ذلك وكما أساسها في التنمية المستدامة.

أصل المفارقة: الخطوط الأصلية والبيئة

يوجد المواطنون الأصليون على الخط الأممي الكثيرة الأيكولوجية. فهم يشكلون أول الضحايا، كما أنهم قد يشكلون الأمل الوحيد للمستقبل. ويستعرض الكتاب كيف أن المواطنين الأصليين بقريهم الثقافي والديني والاقتصادي من الأرض كانوا ضحايا السياسة العالمية للبيئة، وسيكونون المنقذين للأرض، وهؤلاء الفئة من البشر الذين يقدر عددهم بـ 200 مليون نسمة نادراً ما يسمع لهم صوت ولا يؤخذ لهم رأي، ولا يقدر لهم وزن في اتخاذ القرار. بل هم أناس يجب أن تؤخذ معرفتهم ومواردهم وتوزع على الآخرين. ومن ثم نادر أمورهم من الخارج. وهؤلاء تطلق عليهم عدة مسميات كائنات الأوتل، والقبائل، والعالم الرابع. وتعرف هذه الفئة من البشر بأنها مجموعات بشرية ذات حقوق فريدة في الأرض مبنية على استعمال وسكن قديم في الأرض. وتكون ثقافة هذه الفئة واقتصادها وهويتها مرتبطة بشكل وثيق بأرضها ومصادرها التراثية، ومن هذه الفئات المناوي سكان نيوزلاند وسكان المنطقة المتجمدة الشمالية، وبعض القبائل في مناطق أخرى من العالم، وبالنسبة لهذه الفئة فإن الأرض والمنظومات البيئية التابعة لها كالأنهار والجداول المائية والتشواطير الطبيعية هي ملكات للجميع بشكل تراثي، وهي هذه المجتمعات وعلى هذه الأرض توجد هذه الفئة من البشر متوحدة الهوية والأسلوب كمجتمع متماسك ثقافياً واجتماعياً، وهذه الفئة لا تدير الحكومة ولا تؤثر فيها، كما أن بعضها ينتشر على بقعة كبيرة عبر الحدود الدولية كقبائل الإنوا التي تنتشر بين الولايات المتحدة، وكندا، وفريق لاند، والمنطقة المتجمدة الشمالية، كما تنتشر قبائل الفلاتي عبر ثمان دول في أفريقيا، وتتأثر هذه الفئة من البشر بالدمار البيئي نتيجة للدمار الذي يطرأ على أراضيها التراثية ومواردها الطبيعية، كالفيلل التي تتأثر بإزالة الغابات والتي يقدر عددها بـ 50 مليون نسمة. وهناك الكثير من الخلاف في التعامل البيئية الدولية حول طريقة دعم هذه الفئة من سكان الأرض ولقوتهم، وسماح كلمتهم وإعطائهم حق الاشتراك في اتخاذ القرار، وتعليمهم وتحسين اقتصادهم، وإعادة بيئتهم إلى شكل يقارب ما كانت عليه في الأصل. مع تطوير مجتمعاتها، إن هذه الفئة من البشر لها دور مهم في رعاية البيئة والحفاظ عليها وتمييزها نظراً لخبرتها في الطبيعة، وفهمها على التعامل مع بيئتها ومواردها، وظهرت أخيراً جماعات ناشطة على المستوى البيئي العالمي تطالب بحقوقها وتلفت الانتباه إلى وضعها المزري في موطنها التراثي وتحتج على اكتساح الإنسان لبيئتها وتدمير ونهب ثرواتها، وبدأ صانعو القرار السياسي البيئي بالاستماع لهؤلاء وأخذ مطالبهم وعروضهم بعين الاعتبار.

الهدف السابع : الاقتصاد السياسي العالمي للبيئة

يعاني الاقتصاد السياسي العالمي للبيئة من عقدة الشمال والجنوب، ومن عقدة الغني والفقير. وأن البيئة يجب أن تدار وتعمل على أساس المشاركة حسب الظروف والدور الذي تلعبه كل دولة على الساحة البيئية.

دول الشمال والجنوب

يستعمل تعبير الدول المتقدمة والدول النامية في الاتفاقيات البيئية للتمييز بين الدول الغنية والدول الفقيرة. الدول المتقدمة هي الدول الأوروبية والدول الأوروبية الحليفة سابقا للاتحاد السوفييتي. وتسمى جميع الدول الأخرى التي لا يطبق عليها هذا الوصف بالدول النامية، كما يستعمل تعبير العالم الأول والعالم الثالث، والشمال والجنوب.

تمتاز الدول الشمالية الصناعية باستعمالها للمصادر الطبيعية بشكل غير ملصّف، سواء مصادرها أو مصادر الدول النامية، وهي المصدر الرئيسي لمدار التراث البيئي، إلا أنه من دون التزامات مادية لإعادة وإصلاح البيئة المدمرة في الجنوب، فإن التعهد من الدول النامية بإيقاف التدمير البيئي وإصلاحه لن يكون كافيا.

أما الدول النامية فتقول إنها من أجل إصلاح مشكل والحفاظ على التنمية يجب على الدول المتقدمة أن تأخذ المبادرة وتكون القدوة وأن الدول النامية لا تستطيع فعل ذلك إلا بدعم مادي وتكنولوجي. ويستترسل الكتاب في استعراض دور الدول الغنية فيها يمكن عمله للحفاظ على البيئة والموارد الطبيعية، وعن دورها في دعم الدول. وكيف أن الدول النامية هي أفريقيا خاصة، وهي آسيا وأمريكا اللاتينية عامة سوف تكون الخاسر الأكبر من جراء أي مزيد من تدهور البيئة ومصادرها. وكيف أنه لا مفر من التعاون الدولي والمشاركة للوصول إلى التنمية المستدامة، والحفاظ على التراث البيئي. ويستترسل الكتاب في استعراض ما دار في ستوكهولم وهي ريو بما يخص الفقر والتنمية، ودور الدول النامية في إدارة التنمية، وتربط ذلك مع السكان، وتغيير المناخ، والتصحر، وإزالة الغابات، وتلوث المياه العذبة والمحيطات، والحفاظ على التنوع البيولوجي، وتوجه المتمرسون في الاقتصاد السياسي البيئي إلى استعمال المقولة، «متساوون في المصالح ولكن بمسؤوليات مختلفة»، وذلك كمخرج للجدل القائم حول دور الدول المتقدمة والدول النامية و مساهماتها في تدمير البيئة والحفاظ عليها، والعمل على تغيير أنماط الاستهلاك في الطاقة والموارد الأولية، حيث إن سكان الدول المتقدمة يقدر بـ ٢٥ في المائة من سكان العالم، إلا أن استهلاكه من الموارد الطبيعية يصل إلى ٨٠ في المائة، وكيف أن الولايات المتحدة وحدها تستهلك ما يقدر بـ ٢٥ في المائة من الطاقة في العالم، بينما تستهلك الدول المتقدمة الأخرى ما يعادل ثلاثة أرباع الطاقة في العالم.

واستهلاك الفرد في أمريكا من الطاقة يعادل ٢٠ مرة ما يستهلكه نظيره في الهند، و ٨٠ مرة ما يستهلكه نظيره في جنوب الصحراء في أفريقيا، وتجادل الدول الأوروبية بأن توقعات الزيادة في الاستهلاك ستكون مستجيلا في الدول النامية، كما أن توقعات الزيادة في السكان ستكون فيها أيضا. ويكثر الجدل حول تغير المناخ، و مساهمة الدول في انبعاث غازات البيوت الزجاجية، فضلا تخطيط الصين النمو الاقتصادي يساوي ٦ في المئة سنويا لعشر السنوات القادمة باستعمال الوقود الأحفوري، وتكثر الغزوات التي ستبعث من ذلك بكمية الغازات التي ستوفر انماؤها الدول المتقدمة في أوروبا، وهذا موضوع جدل آخر.

التنمية المستدامة

التنمية المستدامة مبدأ أساسي في السياسة الدولية للبيئة، وهو مبدأ يتوزع الجدل حوله، وأول بنود الاختلاف هو تعريف التنمية المستدامة الذي تم الاتفاق عليه في اللجنة الدولية للبيئة والتنمية. والتنمية المستدامة تعني التنمية التي تلبي احتياجات الوقت الحاضر من دون الإخلال باحتياجات أجيال المستقبل. وتدخل في هذه التنمية دراسة الاحتياجات والموارد البنية على الأبحاث العلمية، وكذلك المحافظة على المصادر والحفاظ عليها من دون دمار إيكولوجي. وتم التركيز على التنمية للتعلم على أكثر في العالم الذي يعتبر مبنيا رئيسيا للدعارة البيئي وعالقا للتنمية المستدامة. فالعقود وعدم المساواة يمكن التغلب عليهما من خلال التنمية والكفاءة في الإنتاج. ويركز مؤتمر ريو على إدارة الموارد البيئية والتنمية. وحلقت على كافة القضايا المستدامة، ويفترض أن لا تنمية مستدامة من دون المحافظة على البيئة. وعلى الرغم من أن التنمية المستدامة كمبدأ أصبح متفقا عليه. إلا أن هناك الكثير من الاختلافات والانتقادات حول مفهومه وتطبيقه في محيط السياسة العالمية للبيئة. خصوصا بما يتعلق بإزالة الفقر وبالمعاطة التنمية، وتمويل كل منها، وبالنسبة للقائدين فإن طريقة تجربة التنمية المستدامة بشكل غير متساو ومختلف في مناطق مختلفة من العالم تظهر عيوب الفكرة. ويوسع الكتاب في استعراض الجدل والخلاف الدائر حول التنمية المستدامة. إلا أنه مهما كانت الفاهيم والاختلافات في التعريف حول المصالح المشتركة والمسؤوليات المختلفة، فإنه يجب تطبيق التنمية المستدامة.

الأيام القادمة : استراتيجيات التنمية المستدامة

ركزت الاستراتيجيات التي صممت لدعم التنمية المستدامة، ولاستعراض المسؤوليات المشاعة التي تعكس قدرات الدول على ميكانيكية نقل التكنولوجيا وتحديث الأنظمة المعمول بها، على الطرق التي تتبع في الاقتصاد السياسي العالمي، وعلى استعمال الأدوات الاقتصادية لأجل حماية البيئة. وتتضمن هذه مسائل سياسية واجتماعية لها علاقة بتوزيع التكاليف والفوائد. وإدارة المصالح المتنافسة، وليس فقط لمناقشة كيف يمكن لهذه الاستراتيجيات أن تطبق. بل هما إذا

السياسة العالمية البيئية

كانت هذه الاستراتيجيات صالحة أصلاً للتطبيق. وفي هذا الباب يستمرس الكتاب في استعراض جميع الجوانب التي تتعلق بالاستراتيجيات. وهي:

أ - دعم نقل التكنولوجيا والمواد الأولية إلى الدول النامية

يود أنه بالتعمية لهذه الدول فإن الأمر يلغى ذلك. حيث ترى هذه الدول وجوب نقل الأموال والتكنولوجيا من الدول المتقدمة. لأنها هي المسؤولة عن الدمار البيئي نتيجة نشاطاتها الاقتصادية والصناعية. وعليها أن تقوم بدفع مبالغ كافية و متجددة لإصلاح الدمار والتعويض عن استغلالها لثوار دعم الألفية.

ب - نقل التكنولوجيا

ترى الدول النامية أنها لكي تنفذ ما ورد في الاتفاقيات البيئية فإنه يجب عليها استعمال التكنولوجيا لتحقيق ذلك، ولن يتأتى لها ذلك إلا إذا تم نقل التكنولوجيا لها من الدول المتقدمة. ولا يخلو النقل التكنولوجي من المشاكل. حيث يجب نقل المعرفة العلمية أيضاً، وليس كل العلوم والتكنولوجيا الموجود في الدول المتقدمة يتناسب الدول النامية. كما يجب نقل الخبرات البشرية أيضاً. والجهد الذي يدور حول نقل التكنولوجيا يتضمن حواراً حول هل يتم النقل بسعر منخفض أم بأسعار تجارية؟ وأجواب الدول المتقدمة بأن الدول النامية لا تستطيع دفع تكاليف التكنولوجيا. ولها أن تستفيد من مبرور التقدم التكنولوجي وفوائده على البيئة فقط.

ج - هل هي حل أم إحدى آليات حل؟

يرى البعض أن نقل التكنولوجيا، وزيادة المساعدات المالية، ونقل العلوم والخبرات، ونقل المعلومات و المواد لن يساعد الدول النامية، من دون تغيير في الهيكل الإداري وطريقة العمل والأسلوب الحكومي والبنية التحتية لكل ما يتعلق بالاقتصاد والسياسة والإدارة والصناعة وتطبيق العلوم والتكنولوجيا. ويرون أنه بسبب ظروف الدول النامية فإن الاستراتيجيات تعتبر خاطئة وأن تحفل أهداف التنمية.

د - دور البنك الدولي في دعم البيئة العالمية

السؤال حول من سيدبر الأموال المنقولة إلى الدول النامية لدعمها هو موضع الجدل. حيث ترى الدول النامية أن البنك الدولي متحاز إلى الدول المتقدمة. إلا أن البنك الدولي لديه الأجهزة الإدارية والفنية المخصصة لإدارة الأموال ونقلها. وله حق التصويت. فلهذا أن الدول النامية عند توقيعها على الاتفاقيات البيئية قبلت باستغلالها من قبل المؤسسات المالية المتوفرة حالياً. وهنا يأتي دور وكالات وإدارات البنك الدولي المتخصصة لدعم السياسات البيئية. على الرغم من

اعتراض الدول النامية على طريقة عمل البنك الدولي التي توصف بأنها غير ديمقراطية، بجانب أن البنك الدولي منغلِق على نفسه، ولا تطلو تقارير البنك التخصصية من انتقادات التمويل مشاريع أدت إلى دمار البيئة ونزوح السكان المحليين. وهذه الخلفية تثير الشك في مقدرة البنك على دعم المشاريع البيئية، وإدارة أموالها بشكل بناء، والإصلاح البيئية وتطويرها.

هـ - دور الدولة النامية والبيئة

يستعرض الكتاب في هذا الجزء ديون الدول النامية، وكيف أنها ضائق أكبر في طريق التنمية، وكيف أن الكثير من هذه الدول قامت ببيع مواردها الطبيعية لاسد مستقرات ديونها، وكيف أن هذه الديون مستحقة للدول المتقدمة (دول الشمال)، وكيف أنه لا يمكن وجود تنمية مع الفقر والديون.

و - الديقون مقابل المحميات الطبيعية

هناك حوار وضغوط مستمرة حول استبدال دفع مستحقات الديون بإنشاء محميات طبيعية في الدول التي تعاني من الديون. ولا يخلو هذا الاقتراح من النقد، حيث يكون مقيدا لاستغلال الأراضي، ويحد من سيطرة الدولة على أراضيها، كما أنه سيؤدي إلى رحيل بعض السكان من مناطق المحميات.

ARCHIVE

http://Archivebeta.Bakhrif.com

ز - التجارة والبيئة

يدور الجدل حول عدم توازن البيئة والتجارة، ويستعرض الكتاب أعمال منظمة التجارة العالمية، ويدور منظمات ومؤتمرات الأمم المتحدة للتجارة والبيئة، وكيف أنه يحسن الإدارة يمكن الجمع بين التجارة والتنمية، ومن ثم المحافظة على البيئة.

ح - مبدأ عدم إلزام البيئة عليه أن يدفع تكاليف إصلاحها

يتعلق هذا الاقتراح بالصناعة، ونقل المواد، والتجارة، ودعم الدولة للصناعة والتجارة. ويرى البعض أنه على من يتسبب في تدمير البيئة أن يتحمل تكاليف إصلاحها، وأن أي منتج يتسبب في الضرر البيئي يوجب دفع تكاليف إضافية على سعره الأصلي لتغطية تكاليف إصلاح البيئة.

ط - الإصلاحات المالية البيئية على السوق

حظيت الوسائل المالية بكثير من الاهتمام لتقليل من الدمار البيئي. ويدور جدل حول استغلال الوسائل المالية التي تتناسب واحتياجات السوق العالمي، كتحديد الأسعار، والتكلفة الخاصة بتقدير تكاليف الدمار البيئي، والمتطلبات المالية لإعادة تأهيل البيئة، معتمدا في ذلك على الأسعار السائدة في السوق، ومن ثم المطالبة بالتمويض عن الخسائر البيئية.

الباب التاسع: الأمن البيئي

الأمن البيئي هو مصطلح جديد يدور حول مستويات الكثير من الجدل. ويتضمن البيئة والأمن، والعنف والحروب كمسببة للدمار البيئي، وضرورة احتساب الدمار البيئي كالتهديد بالحروب. ويوجد تخوف بأن التفجيرات في البيئة قد تؤدي إلى حروب في داخل الدولة أو بين الدول. ويتساءل البعض عن كيفية تحليل الوضع البيئي لاكتشاف أي من هذه التفجيرات التي قد تؤدي إلى العنف أو الحروب. فالمفجعة الدولية للبيئة والتنمية لاحظت أن دولاً دخلت الحروب لإثبات حقها في المواد الأولية، أو لمقاومة السيطرة الأجنبية عليها، أو للوصول إلى مصادر الطاقة، أو للأراضي، أو الحواض الأنهار، أو للممرات المائية، أو أي مصادر بيئية مهمة. ويتوقع أن تزداد النزاعات كلما شحت المصادر، المسيطرة على المصادر الطبيعية لأموال استراتيجية منظمة بأمن الدولة مهمة جداً لأمن هذه الدولة، ولنج هذه المصادر من الوصول إلى أيدي العدو. ويستعرض الكتاب العديد من الأمثلة الخاصة بسيطرة دول على مصادر الثروة الأولية في دول أخرى، أو الدخول في حروب من أجل هذه المصادر، ومنها دخول الولايات المتحدة في حرب تحرير الكوييت بينما لا تعتمد الولايات المتحدة على النفط الكوييتي إلا قليلاً، إلا أن المخزون التنفسي الكوييتي ينظر له على أنه وإزاء قوى التحالف الذي قوتها الولايات المتحدة. وتشكل موارد المياه في الشرق الأوسط مصدراً للعنف والحروب، حيث تتنافس عدة دول على مياه ثلاثة أنهار هي نهر الفرات، ونهر الأردن، ونهر النيل، كل في موقعه والنهر الذي يخصه، وتبدأ بطرق قتالي بأن الحروب القادمة في المنطقة ستكون من أجل المياه وليس السياسة.

أما شح الأراضي، خاصة الزراعية منها، فهي مصدر آخر للنزاعات خاصة بعد تدهور البيئة نتيجة للتصحر و زوال الغابات وتغير المناخ. وكانت الأراضي، خصوصاً الزراعية منها، مصدراً جغرافياً أو استراتيجياً للدول. طالما أمكن الاحتفاظ بها، إلا أنه غير واضح مدى دخول الشعوب فيما بينها داخلها أو فيما بين الدول المجاورة في حروب نتيجة لأهمية الأراضي الزراعية، إلا أن التدهور البيئي ليس دائماً السبب الوحيد للصراعات. فطالما شكل جزءاً من التشابك والضخام، لذا فإن تدهور البيئة وتأثير ذلك على استقرار دول العالم الثالث هو الذي يشكل خطراً على السلام العالمي، كما أن التنافس البيئي سيزيد إلى زيادة الخلافات بين الدول الغنية والفقيرة، أما الأمن الغذائي فيسببون حتماً نتيجة للتدهور البيئي. بما يتعلق بالتصحر، وتؤدي التربة والعصار مساحة الأراضي الزراعية. وتعاني الثروة السمكية من النقص المستمر نتيجة للصيد الجائر و الصيد التجاري المكثف الذي يستعمل سفن الصيد التي تثقل غير مساحات بعيدة من البحار، وبما أن الأسماك هي مصدر مهم للبروتين فإن

تقصها سيهدد الأمن الغذائي لكثير من الدول النامية، وسيؤدي إلى الصراعات حينها تتنافس الدول على مناطق الصيد البحري. من كل ما سبق فإن الدول النامية ستكون أكبر الدول تضرراً نتيجة لتدهور البيئة.

الاضطرابات الاجتماعية والبيئية نتيجة لتدهور البيئة

يساهم التدهور البيئي في الاضطرابات الاجتماعية والسياسية. خصوصاً إذا كان ذلك ناتجاً عن الغذاء أو شح المياه كما يحدث في الدول النامية. ويعاني الآن أكثر من مليار نسمة في العالم من شح المياه الصالحة للشرب. كما يؤدي نقص الغذاء وشح المياه إلى هجرة السكان من موطنهم الأصلي إلى مناطق أخرى أو إلى المدن، متسبباً في ضغوط اجتماعية وسياسية تؤدي إلى عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي في الدولة، وإرباساً تخطاها إلى ما هو غير الحدود الدولية. وأصبح الآن من المقبول اعتبار لاجئي تدهور البيئة لاجئين مئتين، ويستعرض الكتاب الكثير من الأمثلة لحالات هجرة جماعية في داخل الدولة الواحدة أو بين الدول نتيجة لتدهور البيئي. وكلها ضمن الدول النامية.

دور القتل العسكري للتهديدات البيئية

من المتفق عليه أن التهديدات البيئية هي ليست تهديدات عسكرية، إلا أن القوات العسكرية للدولة يجب أن تكون على أهبة الاستعداد للدفاع عن المصادر البيئية كالمياه والسيطرة على المصادر غير الحدود، أو لمنع لاجئي البيئة من الدخول عبر الحدود من الدول المجاورة، أو لقمع الشعب الداخلي الناتج عن التضرر الشعبي نتيجة لمعاناة الشعب بسبب نقص المياه، أو موارد الغذاء، أو لإجبار حكومة مشاغلة لا تحترم شؤون البيئة المحلية والعالمية على تغيير موقفها، وهذا يعكس على دور الجيوش بعد زوال الحرب الباردة، وعلى ضرورة حل الجيوش وإعطائها دوراً غير الأمن العسكري، لحماية البيئة، وهو الأمن البيئي. كما يستعرض الكتاب الدور العسكري في دمار البيئة بشكل مباشر وغير مباشر، فسياسة الأرض المحروقة تعني استغلال البيئة كسلاح شامل للدمار. فحرق الغابات بالمبيدات وحرق آبار النفط، من قبل القوات المرافقة أدى إلى تلوث الأرض والهواء والمياه، كما أدى إلى تدهور صحة المواطنين والبيئة الصحراوية وتدنّي درجة حرارة الجو، كما أن سكب النفط في مياه البحر أدى إلى تدمير البيئة البحرية والساحلية. وقد عانت البيئة الصحراوية من جراء حرب الخليج حيث دمار الثروة الهشة من جراء حركة الآليات العسكرية ومن جراء حفر الخنادق ومن جراء الحفر التي تركتها انفجارات القتال. ومن

المعاصرة العالمية للبيئة

جاءت مختلفات الحرب. أما الألقام وحقوقها، فضررها مباشر على البشر والحيوانات البرية، كما أن انفجاراتها كالتفجار الذئاني يدمر التربة ويغير تركيبها الكيماوي.

وهناك قانون (١٩٧٢) لحماية البيئة من التغيير، كنتيجة للحروب والعمليات العسكرية. وتعتمد مضار الحروب بفعالها أوقات الصراعات إلى ما بعد الحروب حيث المخلوقات المصابة والألقام واضطرابات التربة ... إلخ. وتعتبر الجيوش أكبر مستهلك للوقود. فمثلاً تستهلك طائرة واحدة من نوع F-16 وقوداً في الساعة الواحدة يعادل ما يستهلكه سائق سيارة في أمريكا في سنة.

كما أن دور الجيوش في تدعيم البيئة يأخذ أبعاداً أخرى من طريق استهلاك المواد الأولية وصرف الميزانيات الهائلة على التسليح والحروب، كل ذلك على حساب بلود الصريف الأخرى التي تعمل على إثراء البيئة وإصلاحها والمحافظة عليها، وعلى رفيع المعيشة بين المحتاجين في العالم.

الباب العاشر: المعاصرة العالمية للبيئة

يحتوي هذا الباب على مزيج مما ورد في الأبواب التسعة السابقة. فمحتوى الباب العاشر بشكل رئيسي يعرض وبالمعاصرة العالمية والاقتصاد ورفاهية البشر، ويقل الإنسان من المستقبل البيئي الذي لا يزال في ترقب بعد عدة سنوات من مؤتمر زيور. ويذكر هذا الباب أنه على الرغم من وجود آلاف المنظمات الدولية والحكومية وغير الحكومية، وتشاغلها واجتماعاتها ومؤلفاتها ومؤتمراتها وإعلامها، وعلى الرغم من وجود عشرات الآلاف من الناشطين في شؤون حماية البيئة الذين يعملون بإخلاص وبشكل مؤثر، إلا أننا لا نرى نتائج ملموسة لكل هذه الجهود. ولا تلقى الإدارة البيئية الخطط أو الأفكار أو الاقتراحات البناءة، إلا أنه توجد مشكلة في التفكير الإداري- ويوجد تردد في قبول الحفاظ العلمية حول الوضع البيئي. ويدور الجدل ويكثر النقد وتتوالى الدراسات، إلا أن البيئة تتورق والإنسان يعاني الفقر والحرمان ويدفع ثمن تردي البيئة بطرق مختلفة.

وحسب النظام العالمي الحالي لا يخلو من الدراسة والنقد، ويظهر له بأنه ضيق واضح للعالم ومشكوك في توجيهه لإنقاذ الأرض، والمطلوب من جميع الحكومات والمؤسسات والشركات ذات الخطط والمشاريع أن تعمل حساب المردود البيئي لكل المشاريع، وتخصص الميزانيات ليس فقط للبناء والتنمية المستدامة، بل لإصلاح الدمار البيئي الموجود، ورفع مستوى البشر خصوصاً في الدول والمجتمعات النامية، كما يجب تحديد وتقنين أنماط

الاستهلال، والرجوع إلى العهد الذي كان الإنسان يأخذ فيه من البيئة حاجته فقلط ومن دون إسراف.

الكتاب شامل متكامل ويحتوي على أبعاد فكرية عميقة، ينطرق إلى البيئة ومشاكلها بفكر متحرر نافذ بناءً، ولا يهمل رأي فئة ويحيز رأي أخرى في الصمراع والجدل البيئي العالمي الذي يدور حول العالم، كما يشير الكتاب الكثير من التساؤلات التي تعكس استقلالية التفكير وحريته حول ما يجب عمله وما يجري حالها، مستشهداً بكل مقولة ورأي ورد في أي موضوع له علاقة بالبيئة، ويحتوي الكتاب على قائمة بمعد كبر من المراجع المفيدة.

